الدين والثورة
في مصر
١٩٥٢ - ١٩٨١

دكتور حسن حنفي

٣

الدين والنضال الوطني

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

الدين والثورة

في مصر

١٩٥٢ - ١٩٨١

٣- الدين والنضال الوطني

دكتور حسن حنفي

الناشر
مكتبة مدبولي

الجذور التاريخية للغزو الصهيوني في التراث الاسلامي

أولا : مقدمة : دوافع البحث ·

كثيرا ما يجد الانسان نفسه وقد انتابه الرعب أمام خطـر داهم وعجز عن مواجهته الفعلية ، ولايجد أمامه الاالجهاد المعنـوى الفكرى الكلامى ، منبها على الخطر ، ومشخصا اياه ، مبينـا دوافعه ، ومحذرا الناس منـه · وكثيراما يجد الانسـان نفسه وهو يصور هـذا الخطر ليس فقط فى الحاضر بل أيضـا فى الماضى وفى المستقبل ، مكتشـفا جذوره فى الماضى ، ومتنبئا بخططه وتطلعاته فى المستقبل · فهـو قديم بقدم الزمان ، وباق ببقائه · وذلك طبيعى على المستوى النفسى الخالص ، فمن أجل التنبيـه على الخطـر لابد من تضخيمـه · ولاجل بيـان أثره على المعـاصرين لابد من البحث عن جذوره فى المـاضى · فهى مبالغة نفسـية تخضع لقـانون نفسى وان لم يكن واقعا تاريخيا صرفا على النحو الموصوف ، ومع ذلك يظل الخـلاف بين الواقع النفسى والواقـع التاريخى خـلافا فى الدرجـة وليس فى النـوع · حتى ولو كانت الوقائع التاريخية أقل أو أكثر فـان ذلك لا يقلل من شأن الوصف النفسى أو الباعث القومى ·

ومن هذا النوع الحـديث عن الجذور التاريخية للغزو الصهيونى

(*) القى هذا البحث فى تونس ١٩٨٤ فى مؤتمر الغـزو الثقـافى الصهيونى للعالم العربى · وهذه الصياغة المزودة بالمـراجع كتبت فى خريف ١٩٨٧ ·

فى التراث الاسلامى • فالغزو الصهيونى بالمعنى الحديث حركة استعمارية مرتبطة بتاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر ، طالما أن الصهيونية الحديثة احدى نتائجها • الصهيونية حركة سياسية ترتكز على مبررات دينية وتعبر عن حال أوربا فى القرن الماضى من قومية ورومانسية بعد أن رفضت كل القوميات الاوربية وجود أقليات منفصلة عنها ، وبعد أن كانت الروح السائدة هى الرومانسية والعودة الى الاصول والاحلام الطوباوية • صاغت الاقلية اليهودية الانفصالية فى الغرب ايديولوجية لها فى هذا الجو ، وزادت عليها المبررات الدينية التاريخية نظرا لامتدادها فى التاريخ ، وبنفس الدافع وهو الاتجاه نحو الشرق ونحو السواحل لاحتلال الارض المتاخمة لها • صحيح أن المبررات الدينية للصهيونية لها جذورها التاريخية فى يهودية التوراة ولكن ذلك لم يكن صهونية بالمعنى السياسى الحديث بل كانت « النزعة الخاصة » Particularism التى تغلب على التراث اليهودى ، وهى النزعة التى تقوم على العرق ، والشعب ، والميثاق ، والاختيار ، والوعد ، والارض ، والدين ، واسرائيل ... الخ • فى مقابل النزعة العامة Universalism التى تجعل الشعب اليهودى مثل باقى الشعوب ، وتركز على الايمان والعمل الصالح والطاعة والتوحيد والتى كان الاسلام آخر مراحل التعبير عنها من خلال دين ابراهيم • غلبت النزعة الاولى فى التوراة فى الزمان القديم ثم تحولت الى بمرر دينى فى الصهيونية فى العصور الحديثة • وتوارت النزعة العامة عند الانبياء • ثم غلبت فى التراث اليهودى الاسلامى ثم فى عصر التنوير الاوربى • وتوارت النزعة

الخاصة وكادت تنقرض ، ولم تظهر الا عند بعض الاحبار الذين أرادوا المحافظة على خصوصية التراث اليهودى الروحى(١) •

والغزو الثقافى الصهيونى جزء من الغزو الثقافى الغربى العام الذى تعرضت له البلاد ابان الحقبة الاستعمارية ومازالت مستمرة • فارتباط الصهيونية بالغرب ونشأتها فيه جعلتها احدى الايديولوجيات الغربية التى تعتمد على مبررات دينية لاحدى القوميات المنبوذة فيها • وهو موضوع جديد لم يتطرق اليه علماء الغرب بطبيعة الحال • فالسارق لا يقول انه كذلك • وبدأ العلماء العرب البحث والتنقيب فيه ، والتنبيه على مخاطره ، بصرف النظر عن مراحله القديمة أو الحديثة • ويصعب فى مثل هذا الموضوع التمييز بين العلم والسياسة ، بين التاريخ الموضوعى والالتزام القومى ، ولكن يكفى تقديم خطة بحث قومى من أجل تحويل هذا الموضوع الى جزء من المشروع القومى العربى العام فى التحرر والنهضة •

وهناك انماط عديدة للغزو الصهيونى للتراث الاسلامى تتوقف على طبيعة العلاقة بين التراث اليهودى وتراث الشعوب

---

(١) انظر دراساتنا :

" God Comlunity and Land " ; " Theology of Land " ; Zionism as a counter **liberation** movement " ; " An open letter on Zionism " ; in " Religious Dialogue and Revolution, PP. 174 - 197. The Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo, 1677.

القديمة والحديثة • ففى تاريخ الحضارات القديمة حدث غزو صهيونى للحضارات القديمة عن طريق النهب والسلب العلنى أو التأثر والتأثير غير المباشر • كما حدث مع الحضارة الكلدانية فى فلسطين والديانة المصرية فى مصر والحضارة الاشورية والبابلية فيما بين الرافدين • الغزو هنا لا يعنى هيمنة ثقافية من شعب غالب على ثقافات شعوب مغلوبة بل استيلاء بالقوة من شعب غالب على تراث الشعوب المغلوبة كجزء من النهب الاستعمارى وكما هو حادث الآن فى نهب الفنون الشعبية الفلسطينية وجعلها ممثلة للدولة الصهيونية المغتصبة • وهناك نمط آخر وهو ما يحدث ابان تقدم الشعوب ونشأة الحضارات تم تسرب الاسرائيليات أى الخرافات اليهودية اليها من مواطن ضعف وكنوع من ضرب الحضارات الجديدة من الخلف • هذا الغزو هو نوع من المقاومة السرية الثقافية للحضارات الجديدة الناشئة دون وعى منها • فالمؤرخون المسلمون خاصة المفسرون هم الذين وقعوا ضحية هذا التسرب فى لحظة جمع المعلومات دون التحقق من صدقها • وهناك نمط ثالث للغزو وهو الذى اشتهر فى العصور الحديثة وهو تشويه الثقافات غير اليهودية بما فى ذلك الثقافات الاوربية ، وتغلغل الغزو الصهيونى الى مراكز الابحاث اللغوية والثقافية والحضارية من أجل الاستيلاء على ثقافات الشعوب وحضاراتها وارجاعها كلها الى الحضارة اليهودية ، دينا ولغة وثقافة • حدث ذلك فى الاستشراق الاوربى ، وفى الفلسفات والمذاهب الاوربية التى روجت للخصوصيات والنعرات القومية حتى يكون اليهودية نصيب والتى روجت للمذاهب

الدوليـــة والاشتراكية والاممية حتى يسهل لليهودية السيطرة عليها كما هو الحال فى الاشتراكية الدولية والاممية فى الغرب ٠

ثانيا ـــ الغزو اليهودى للحضارات القديمة :

وقد وجدت الصهيونية الحديثة مبرراتها الدينية فى أيـــديولوجية الغزو القديمـــة التى تقـــوم على عقـــائد الارض ، والوعـــــد ، والميثـــاق ، والاختيـــار ٠ فمن أجل أن تنتصر القبـــائل العبرانيـــة على غيرهـــا من القبائل الســـامية ومن أجل الاســـتيلاء على أرضها صـــاغت الســـلاح العقـــائدى ، ونقلت بعض العادات اليهـــودية من مســـتوى المجتمع الى مســـتوى الله ٠ فتحول حلف القبـــــائل الى حلف بينهـــا وبين الله ، حلف أبـــدى يعطيهـــــا الله فيه النصر والارض والمعبـــــد والهيكـــل فى مقـــابل لاشىء ٠ حروبها حـــروب الرب ، وجيشـــها جيش الرب ، وانتصـــــارها انتصـــــار الرب ٠ ووضعت هذا العهد فى تابوت العهـــد تحمـــله فى الحروب وتـــــدافع عنـــه ٠ ونقلت طقوس العهد ، ذبح الحيوان وســـيلان الدمـــاء الى سيلان دماء من نوع آخر فى طقس الختان ، علامة على الدخـــــول فى العهد ٠

وبالاضـــافة الى صياغة العقـــائد من العـــادات السامية كسلاح ايديولوجى للعبرانيين فى حروبهم وغزوهم للقبـــائل الســـامية الاخرى ثم اســـتيلاء العبرانيين على عقائد القبائل الســـامية الاخرى وأدبهم وادخالها ضمن العقائد العبرانية وآدابها ٠ تكون التراث اليهودى من هذين المصدرين ولكن المصدر الثانى كان هو الغالب ٠ أصبحت من طبيعة التراث اليهودى القائم على النزعة الخاصة غزو الحضارات المجاورة

أو تلك التى يعيش اليهــود فيها عن طريق أخذ دياناتها وقوانينها • ويكون هــذا الغزو الثقافى لاحقا للغــزو العسكرى ، وكأن الاستيلاء على الارض يعقبه امتصــاص الروح ، وتفريغها من كل مضــمون خــاص بها • وفى هذه الحــالة يظهر أثر المغلوب فى الغالب وكأن الهزيمة العســكرية للشــعوب المغلوبة تتحــول الى نصر ثقــافى لهــا بتغلغل ثقــافتها فى الشعب المنتصر • وقد ظهر ذلك فى الغزو اليهــودى للقبــائل الســامية القديمة وأثر الحضارات الســامية القديمة فى تكوين العقــائد اليهودية وآدابها •

وتتمثل حضــارات الشرق القديم فى حضارات ما بين النهرين ســواء فى العقــائد أو الشرائع أو العادات أو الاعراف الاجتماعية وكمــا يبدو ذلك فى التشــابه المشهور بين ملحمة جلجامش وبين العهــد القديم ، بين ســفر التكوين البابلى وسفر التكوين التوراتى وعلى ما يبــدو فى ثنائيات النــور والظلمــة ، وخلق السماء والنور، وخلق النبــات والحيوان ، وخلق الانسان ثم سقوطه ، وعــالم المخلوقات ، والراحة الالهيــة ، والالواح السبعة ، والايام السبعة وعلى ما هــو فى « أنوما اليش » Enuma Elish • فى الملحمــة البابلية يشــترك الروح الالهى والمــادة الكونية فى الوجود والقدم وفى ســفر التكوين تخلق الروح الالهى المــادة الكونية وتستقــل عنها • وفى التكوين البــابلى العماء الاول مغلف بالظلمــات وفى سفر التكوين الارض أيضــا مغطاة فى أعماقهــا بها • وفى كليهمــا يخلق النــور والســماء واليابسة والانسان ثم يستريح الله فى اليوم الســابع • كما تتشــابه شخصيات الملحمة والســفر مثل كيريت ، وأغات ، وروفاعيم ، وحــداد ، وبعل وشاشار وشاليم ، ونيــكال

وكاتيرات . لقد كان لبابل والدين البابلى أثر ضخم على التراث اليهودى فى فترة تكوين التوراة . كما يوجد كثير من شريعة حمورابى فى التوراة فى مخاطبة الاله شمش للطبيعة وكلام الوهيم للانبياء(٢) .

ويمتد الغزو الثقافى اليهودى من العراق الى الشام ومن حضارة ما بين النهرين الى الحضارة الاوغاريتية Ugarite وكما وضح أخيرا فى اكتشافات « رأس شمرة » فى فينيقيا القديمة والتشابه الكامل بين ملحمة أغات وبين سفر دانيال ، وبين الشعر الاوغارينى والشعر اليهودى ، وبين الالفاظ والاشكال الادبية والعادات الاجتماعية فى الثقافتين الاوغاريتية واليهودية(٣) . ويمتد الغزو أيضا من البابلين والاشوريين الى الكنعانيين والآراميين والعرب والاثيوبيين . فبعد استيلاء يشوع على

---

(٢) Alexander Heidel : The Babylonian Genesis p. 82-140 The university of Chicago press, Chicago, 7th. ed. 1972; The same : The Gilgamesh Epic and ahe old Testament parallels; The University of Chicago Press, 8th. ed., 1971; Gerald A. Larue : Babylon and the Bible, p. 62 - 73; Baker book house, Grand Ropids, Mich. 1969.

(٣) Charles F. Pfeiffer : Ras Shamra and the Bible, pp. 36 - 39, pp. 37 - 61; Baker book house, Grand Rapids, Mich. 2d. ed. 1968; Theophile James Meek : Hebrew Origins, Harper and Row, New York, 1960; Cyrus H. Gordon : The Ancien Near East, pp. 292 - 303 Norton, New York, 1968.

أرض كنعان استولى اليهود على حضارة الكنعانيين ، دينا وعقائدا وثقافة وأدبا وفنا • ويبدو ذلك فى المقارنة بين أسماء آلهة كنعان وأسماء الاله عند اليهود (٤) • كذلك ظهرت ديانة مصر القديمة فى الدين العبرى فى التوحيد وعبادة العجل ومظاهر الاحتفالات والفنون الشعبية فى كثير من أعمال السحر مثل الطاعون وعبور البحر الاحمر والتجليات الالهية(٥) • وظهرت أيضا الثقافة العربية القديمة فى الدين اليهودى من خلال الحروف العربية والامثال العربية والديانات العربية القديمة مثل الصابئة(٦) •

وبينما تجاهل الفكر اليونانى اليهود كلية الا أنه تسرب اليهم عن طريق فيلون والتفسير الرمزى للعهد القديم • كما أنه ساهم فى صياغة الاخرويات اليهودية فى رحلات الروح

---

(٤) Jessie Penn-Lewis : The Conquest of Canaan, Barkstone 8th. ed., 1792; Manfred Weippert : The settlement of the Israelite Tribes in Palestine, Alec & Allenson, Naperville Ill., 1967; C. R. Driver : Canaanite Myths and legends, T. T. Clark, Edinburgh, 1971.

(٥) Charles F. Pfeiffer : Tell El - Amarna and the Bible, pp. 67 - 71; Baker book house, Grand Rapids, Mich., 2d., ed. 1970 Siegfried Hermann : Israel in Egypt, pp. 51 - 64, Alec R. Allenson, Naperville, Ill., 1970.

د. فؤاد حسنين على : التوراة الهيروغليفية ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة (بدون تاريخ).

(٦) James A. Mntgomery : Arabia and the Bible, pp. Canaanite Myths and legends, T. T. Clak, Edinburgh, 1971.

الى عالم الموتى ، وصور العالم الاخر ، والبعث وتناسخ الارواح ، وزواج الملائكة والجن ، والشياطين والمردة ، رؤساء الملائكة والحراس والرعاة(٧) .

وبالرغم من خروج المسيحية من جماعة الاسينيين كما تكشف ذلك مخطوطات « قمران » الا أن الفكر اليهودى استطاع غزو الفكر المسيحى الناشىء خاصة من البيئة اليهودية . فخرجت المسيحية اليهودية فى صراع مع المسيحية . ولما كانت اليهودية أقوى سلاحا من الوثنية ظهر الغزو اليهودى للدين الجديد من الداخل من منافذ عدة منها :

١ — دخول بولس الدين الجديد ، وهو الحبر اليهودى ، عالم عصره الذى استعمل كل ثقافته وعلمه لطمس معالم الدين الجديد ، يدفعه فى ذلك احساسه بالنقص بالنسبة للحواريين الذين رأو السيد المسيح ، ودفعا عن نفسه احساسه بالذنب بالنسبة لتعذيبه المسيحيين ، وعدائه لليهودية من أجل اقناع الناس بايمانه الصادق بالدين الجديد . فتمت مقارنة عيسى بموسى ، والكنيسة بالمحكمة اليهودية . ولم يكن هناك شيء فى الدين الجديد الا وله ما يشابهه فى الدين القديم .

---

(٧) T. Francis Glasson : Greek inflence in Jewish Eschatology, London, S. P. C. K., 1961; Cyrus H. Gordon : The Greek and Hebrew Civilizations, Norton, New York, 1962; Victor Tcherikover : Hellinistic Civilization and the Jews, Magness Press, P. 244 — 380 Philadelphia ,1966.

٢ — الاشـــارات المستمرة فى كتـــاب العهد الجديد الى العهـــد القـــديم ، ورؤية كل الاحـــداث الحاضرة وكأنهـــا تحقيق لنبـــؤات العهـــد القـــديم من أجل اقناع البيئـــة اليهودية بالسيد المسيح • وبالتـــالى تم تهويد الحاضر من خـــلال الماضى ، وتنميط الحوادث طبقـــا لنصـــوص العهد القديم التى وضعـــوها على لســـان السيد المســـيح وكأنه يستشهد بها •

٣ — وضـــع العهد الجـــديد مع العهـــد القديم فى الكتـــــاب المقدس وكأن العهـــد الجديد تحقيق للعهـــد القديم وختـــــام له مما فرض على كل مؤمن أن يفهم العهـــد الجـــديد بالرجـــــوع الى العهد القديم • ولم تنفع محاولة سلسوس Celsus فى الوقـــــوف أمام هذا الخلط ، ولم تنجح محاولته للتمييز بين الدينين ، والتفرقـــة بين العهـــدين بعد أن تصـــدى له أوريجين وقضى عليه• وأصبحت الحضـــارة المســـيحية الاوربية ازدهارا وانماء للمصدر اليهودى فيها على الـــرغم من العداء الدفين بين الطائفتين وصراعهما من أجـــــل السلطة والريادة ، عنصرية عبرية فى مقابل عنصرية رومانية(٨) •

ثالثا — الغزو الصهيونى للتراث الاسلامى :

لا يمكن الحديث تاريخيـــا عن الغزو الصهيونى للتراث الاسلامى

---

(٨) Arthur A. Cohen : The myth of the Judeo - Christian Traditian, Schocken, New York, 1971; James Parkes : The conflict of the church and the synagogne, Atheneum, New York, 1969.

لانه فى هذه الفترة استطاع التراث الاسلامى أن يتمثل اليهودية ، وأن تصبح اليهودية أحد مظاهره • ولما كان التراث الاسلامى قائما على النزعة الشاملة Universalist طبقا لروح الاسلام فان هذه النزعة نفسها قد تغلبت على التراث اليهودى ، وكادت أن تختفى النزعة الخاصة Particularist باستثناء بعض الاحبار الذين كانوا يمثلون النزعة المحافظة بدعوى الحفاظ على التراث اليهودى • ويؤرخ لهذه الفترة علماء اليهود أنفسهم ويصفونها بأنها كانت العصر الذهبى للتراث اليهودى الذى ظهرت فيه الفلسفة اليهودية العقلانية وقواعد اللغة العبرية المنمطة على أساس من قواعد اللغة العربية ، والتصوف اليهودى الذى اقترب من التصوف الاسلامى ، وأصول الفقه اليهودى الذى تشابه مع أصول الفقه الاسلامى ، والعقائد اليهودية التى تحدثت لاول مرة عن الذات والصفات والافعال كما هو الحال فى علم أصول الدين الاسلامى ، والطب اليهودى الذى كان مع الطب الاسلامى الطب العلمى القديم •

لذلك ، بدلا من الغزو المتبادل على النمط الاول ، سرقة اليهود لتراث الحضارات القديمة أو غزو اليهود للدين المسيحى ظهر نمط اسلامى آخر يقوم على دعامتين :

١ — ضياع العنصرية والانعزالية اليهودية أى النزعة الخاصة Particularist العملية وذلك عن طريق تطهير الجزيرة العربية منهم ، والتفويت على دسائسهم مثل محاولات اغتيال النبى ،

وتفرقة المسلمين ، وحديث الافك ، والنفاق ، ومحاربتهم حتى تنكسر شوكتهم ويصبحون مثل باقى الناس •

٢ ــ التأكيد على اليهودية الشاملة Universalist كما ظهرت عند الحنفاء ، دين ابراهيم واسماعيل ، ولدى اتقياء اليهود فى الجزيرة العربية الذين يعترفون بالحق • دخل من شاء منهم فى حلف المدينة ، واعتبروا فى الشريعة الاسلامية مع النصارى والمجوس من الامة الاسلامية • وقد كان شعراؤهم فى الجاهلية مثل شعراء النصارى أقرب الى الشعر العربى منهم الى التراث اليهودى • وقد تجسد ذلك كله فى كعب الاحبار الذى آمن برسالة محمد •

وقد حاول اليهود التسرب الى الدين الجديد عن طريق الدس عليه وادخال مشاكل الدين اليهودى وصوره وعقائده فى الدين الجديد فى جو من الحريات العامة وتسامح دينى عريض • وهنا يظهر النمط الثانى من الغزو عن طريق تسرب الثقافات اليهودية الى الدين الجديد وكنوع من انتقام المغلوب من الغالب على عكس النمط الاول وهو الاستيلاء من الغالب وهم اليهود على ثقافات الشعوب والقبائل السامية المغلوبة • وقد حدث هذا التسرب فى النمط الثانى بطريقتين :

١ ــ تشويه عقائد الدين الجديد وفى مقدمتها التوحيد الخالص أى التنزيه ، وذلك بادخال عناصر التجسيم والتشبيه فيه وأحيانا عقائد الحلول والاتحاد مما يطمس معالم الدين الجديد ويحوله الى تاريخ صرف وكما حدث فى التجارب الدينية السابقة فى

اليهودية والمسـيحية • ظهر التشـيع مدعوما فى بعض عقـائده بعبد الله بن سـبأ ووهب بن منبه تأليها لعلى وطعنـا فى الاسلام مما جعل المتكلمين الاوائل يتصـدون له ويدافعـون عن التوحيـد الصـافى الخالى من كل شـائبة أو شبهة •

٢ ـ دخـول الاسرائيليات فى التفسير بأيدى المسلمين وروايات عن الاحبـار وذلك من خلال مناهج التفسـير عند أصحاب التفسـير بالمأثور الذين اعتمـدوا على النقل ، وجعـلوا كل همهم جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات دون التحقق من صـدق الروايات • فدخل كثير من الروايات التى دونت فيمـا بعد فى المشنـــاه والمـدراش والتلمود ، منها الصحيح ومنها المنحول • فالاسرائيليات ليسـت من غزو التراث اليهـودى للتراث الاســلامى بل من عيوب منهـج التفسـير عند المسلمين • ولقد تصـدى الفقهاء المسلمون فيما بعد لهذه الاسرائيليات ولبـاقى التراث اليهـودي وقاموا بنقدها وبيان زيفهـا اتاريخى ، وأسسوا علم نقد الكتب المقدسة قبل تأسيس الغرب الحديث له • وطبقـوا مناهج النقل عند المسـلمين كمـــا وضعهـا علماء أصول الفقه وعمموها على كل تراث دينى ، نصرانى أو يهودى(٩) •

---

(٩) ابن حزم : الرد على ابـن النغريلة اليهـودى ، تحقيـــق د. احسـان عباس ، دار العروبة ، القـاهرة ، ١٩٦٠ ، ابن عزم : الفصـــل فى الملل والاهـــواء والنحل ، صبيح ، القاهرة (بـــدون تاريخ) ، البـاجى الشـافعى : على التـوراة ، كتاب فى نقد التوراة =

وقد استطاع التراث الاسلامى احتواء ما تبقى من خصوصية اليهودية Porticularism داخل بنائه العام . وأصبح من السهل المقارنة بين الحالة الخاصة والبناء العام Universalist والحكم عليهما والانتساب الى العام دون الخاص . ففى علم أصول الفقه رفض الفقهاء شرع من قبلنا باعتباره أحد مصادر الشرع سواء فى توراة موسى أو فى شريعة عيسى . فالشريعة قد تطورت . والشريعة الاسلامية آخر مراحلها فى حين أن التوحيد لم يتطور ، والعقيدة واحدة منذ آدم حتى محمد . وفى علم أصول الدين رفض العلماء التشبيه والتجسيم ، وتحدثوا عن اليهودية ضمن الفرق غير الاسلامية . وتم اخضاع نصوص التوراة للنقد التاريخى كما فعل ابن حزم ، وظهرت الكتابات العديدة فى الرد على اليهودية . وقد رفض المتكلمون قصر النبوة على اليهود وحدهم أو قصر نبوة محمد على العرب وحدهم دون سائر الامم كما تفعل العيسوية منهم . كما فندوا انكار اليهود للنسخ دفاعا عن اليهودية وانكارا للاسلام لان النسخ ثابت فى

اليونانية ، تحقيق د. أحمد حجازى السقا ، دار الانصار ، القاهرة ١٩٨٠. ، ابن القيم الجوزية : كتاب هداية الحيارى فى اجوبة اليهود والنصارى ، المكتبة القيمة ، القاهرة (بدون تاريخ)، ابو الحسن اسحق الصورى (مترجم) : التوراة السامرية ، تحقيق د. أحمد حجازى السقا ، دار الانصار ، القاهرة ١٩٧١ ، الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندى : اظهار الحق ، القاهرة (بدون تاريخ) .

الشريعة ولان التطور واقع فيها . كما فند المسلمون آراء الباطنية والشيعة وكل الفرق التى دس اليهود فيها على الاسلام لهدمه من الداخل والتشويش على عقائده . وفى الفلسفة تمثل اخوان الصفا اليهودية ، ووضعوها فى اطار البناء العام مع كل الشرائع والديانات مادام الاسلام دين العقل ، ودين الطبيعة ، وأصبحت اليهودية احدى ديانات البشر على قدم المساواة لا تتميز على غيرها فى شىء . وفى التصوف احتوى الصوفية المسلمون كل أنواع التصوف السابقة ، اليونانى ، والهندى ، والفارسى ، واليهودى ، والمسيحى دون تمييز لواحد على الآخر . وفى العلوم الطبيعية كان الاطباء اليهود يعملون فى الدولة الاسلامية ويعالجون خلفاءها ، ويعيشون فى بلاط الامراء وينالون كل تقدير واحترام . ولقد تقلد منهم مناصب الوزارة . كانوا يهودا عقيدة ، ومسلمين ثقافة يدينون بالولاء للامة .

لم يتبق من التراث اليهودى الا النزعة الشاملة Universalist والتى ظهرت على نسق البناء الاسلامى العام والتصور الاسلامى للكون والحياة والانسان والمجتمع والتاريخ . وقد اتضح ذلك فى العصر الذهبى للتراث اليهودى خاصة فى الاندلس عندما عاشوا فى كنف المسلمين يحميهم الاسلام ويحافظ على تراثهم حتى لقد تحول البعض فيهم الى الاسلام دينا بعد أن تشبع به ثقافة ، وعاشه حضارة ، ودافعوا عن النزعة الشاملة التى تجمع اليهودية والمسيحية والاسلام ، وغندوا النزعة اليهودية الخاصة التى تنكر

المسيحية والاسلام (١٠) • ونشأ لاول مرة فى تاريخ اليهود علم الكلام اليهودى العقلانى معتمدا على الحجج والبراهين ، لا فرق بينه وبين علم الكلام الاسلامى ، ومكتوبا باللغة العربية وعلى أقصى تقدير باللغة العربية بالحروف العبرية(١١) • ونشأت الفلسفة اليهودية على نسق فلسفات المسلمين عند الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد حتى أنه ليصعب التفرقة بين ابن ميمون وابن رشد ، كلاهما فى قرطبة ، يدرسان فى المعبد أو المسجد ، يتحاوران أمام جمهور واحد ، ويعمل ابن ميمون طبيبا لصلاح الدين ، قاهر الصليبيين • ويعرف ابن ميمون نفسه كهوية بأنه الحكيم الفيلسوف القرطبى الاندلسى أى بالفكر العام وبالمكان وليس الحبر اليهودى(١٢) • وكان سليمان

---

(١٠) ومن هؤلاء : السموأل بن يحيى بن عباس المغربى (شموئيل بن يهوذا بن أيوب) (٥٧٠ هـ) : بذل المجهود فى افحام اليهود ، مكتبة الجهاد الكبرى ، القاهرة (بدون تاريخ) ، سعد بن منصور بن كمونة (٦٨٣هـ) : تنقيح الابحاث للملل الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام ، دار الانصار ، القاهرة (بدون تاريخ) تصوير لنشرة

Moshe Perlmann univeristy of Colifornia Press, 1967.

(١١) سعيد بن يوسف الفيومى : الامانات والاعتقادات ، تحقيق لاندور ، ليدن ١٨٨٠ موسى بن ميمون : دلالة الحائرين ، نقلها الى الحروف العربية د. حسين آتاى ، انقرة أبو البركات البغدادى : المعتبر فى علوم الحكمة ، دائر المعارف العثمانية ، حيدر ابادر الركن ١٣٥٨هـ •

(١٢) انظر دراستنا

Islam and Judaism; A model From Andalusia Unesco, Paris, 1985.

بن جبرول تلميذ الفارابى ، يرد مثله على الفلسفة اليونانية ، ويقبل منها مثله ما يتفق مع العقل . ونشأ التصوف اليهودى فى اسبانيا فى مجموعة « زوهار » Zohar لا فرق فى وصفه لتجليات الروح فى الكون بينه وبين ابن عربى فى الفتوحات المكية . ونشأ الفقه اليهودى على منوال الفقه الاسلامى . فصنف ابن ميمون الاوامر والنواهى كما فعل الاصوليون المسلمون . وظهر علم أصول الفقه اليهودى وموضوعات الاستدلال والقياس والصلة بين الاصول والفروع . وكما أصبحت « الهاجاده » جزءا من التلمود أصبحت « الحلقة » كذلك جزءا آخر منه . وبان أثر العبادات الاسلامية فى الشرائع اليهودية فى غسل الرجلين ، واغتسال المجانب ، والغاء صلاة السر ، واصلاحات الحسيدين Hassides فى الصلاة فى السجود والركوع ، واستقبال القبلة ، والاصطفاف ، وبسط اليدين(١٣) . كما نشأ النحو العبرى على منوال النحو العربى ، وساعد على ذلك أن اللغتين فرعان من لغة أم واحدة وهى اللغة السامية . عرف اليهود لاول مرة قواعد النحو والصرف وعروض الشعر ومع ذلك ظلت اللغة العربية هى لغة التأليف أو اللغة العبرية بحروف عربية . كما ظهرت قواميس اللغة العبرية على منوال قواميس اللغة العربية . واشتغل اليهود لاول مرة بالعلوم الطبيعية والرياضية . وظهر من بينهم العلماء والاطباء والرياضيون فى الحساب

---

(١٣) نفتالى فيدر : التأثيرات الاسلامية فى العبادة اليهودية . ترجمة د. محمد سالم الجرح ، دار العروبة ، القاهرة ١٩٦٥ .

والهندسة والموسيقى والفلك فى اسبانيا ومصر والعراق والمغرب العربى(١٤) •

وظل الحال كذلك الى أن ضاع حكم المسلمين فى الاندلس واسترجعها النصارى فى بداية الغزو الاستعمارى الاوربى • فوقع أبشع ضطهاد للمسلمين واليهود على السواء للتحول الى النصرانية من جديد • فمن تحول الى النصرانية بقى ، ومن رفض وآثر الثبات على دينه قتل أو هرب الى الغرب • فاستقر هناك المسلمون واليهود وحملوا معهم تراثهم • وضاع التراثان الاسلامى واليهودى ابان التحكم المسيحى لاسبانيا ، وانتقلا الى المغرب لتدوينه هناك • وما أن هيمن الغرب الاستعمارى الجديد على المناطق الحضارية فى اسبانيا حتى بدأت نهضة الغرب الحديثة • وكان اليهود والمسيحيون الاسبان قد قاموا من قبل بترجمة امهات التراث الاسلامى الى اللغة اللاتينية فى الفلسفة والكلام والعلوم الرياضية والطبيعية فقامت نهضة الغرب الحديثة من الجنوب الى الشمال ، وكان نفس الشىء قد تم عبر ايطاليا وبيزنطة ونشأت فى الغرب الاتجاهات العقلانية فى الفلسفة والدين والتجريبية فى العلم والصورية فى الرياضة • وقد استغرق ذلك قرنين من الزمان ، الثانى عشر والثالث عشر • وفى القرن الرابع عشر ، عصر الاحياء ، عندما بدأت الثورة على أرسطو العربى الاسلامى

---

(١٤) A. A. Newmann : The Jews in Spain, The Jewish Publication society in America, Philadelphia, USA, 1942.

بدأت النهضـــة الحديثة أيضا بالعـــودة الى الآداب القديمـــة على حسا بـالعقل النظرى القديم ، ووجـــد الوعى الاوربى فى الاساطير اليـــونانية ما لم يجده فى الفلســـفة اليونانية • وفى القرن الخامس عشر ، عصر الاصلاح الدينى ، ظهر الاسلام على نحو غـــير مباشر فى دفاع لوثر عن حرية التفســـير ، والصـــلة المباشرة بين الانسان والله ، واعتبـــار الكتاب وحده مصـــدر الايمان ، والتأكيد على حـــق القوميات ضد الهيمنة الرومانيـــة اللاتينة القديمـــة باســـم الايمان المسيحى ••• الخ • وفى القرن السادس عشر ، عصر النهضـــة ، تم تطـــوير العلوم التجريبية بفضـــل انصـــــار ابن رشد اللاتين والتصـــور الحتمى للطبيعة وتسخيرها لصـــالح الانسان وقـــــدرة العقل على معرفة قوانينها • وفى القرن السابع عشر ، عصر العقلانية، بدأت آثـــار العقلانية الاســـلامية فظهرت العقلانية اليهودية تؤكد النزعة الشاملة Univeersalist وكما هو الحـــال عنـــد اسبينوزا وكأنه معتزلى جـــديد • وفى القرن الثامن عشر ، عصر التنـــوير ، ظهـــر التنوير اليهودى عند مندلسون وكأنه فيلســـوف اسلامى يؤكد صفة العمـــومية للتراث والشـــمول للروح الانســـانى واضعـــا حـــــدا للخصوصية اليهودية والانعـــزالية فى الســـلوك • وقد توجت الثورة الفرنســـية ذلك باعـــلان وثيقـــة التحرر العام لليهـــود كمـــواطنين لهم ما لغيرهم من حقوق وواجبـــات دون ما تمييز فى دين أو عقيدة وباسم الحرية والاخاء والمساواة •

رابعا ـ الغــزو الصهيونى الاوربى فى القــرنين التــاسع عشر والعشرين :

نشأت الصهيونية فى القرن التاسع عشر الاوربى كرد فعل على حركة التنــوير اليهودى Askala فى القرن الثامن عشر فتمركزت حول الذات ، وظهرت فيهـا القوميات ، وعادت الخصوصية العرقيـة من جــديد ، وانتهت العالميـة والشـمول ، ووقعت فى حبــائل الرومانسية والعــودة الى الارحــام حيث الارض الشعب والروح والتــاريخ • ثم تحولت الصهيونية من الصهيونية الروحية ، مجرد حفاظ على التراث اليهودى من الاندثار ، الى الصهيونية السـياسية أى تأسيس الدولة اليهــودية •

فى هذه الفترة نشــأ الغزو الصهيونى للتراث الاسلامى عنــدما ضعف المسلمون بعد ســقوط غرناطة فى المغرب وفســـاد الــدولة العثمانيـــة فى المشرق ، فانهارت دولتــهم ، وضــاعت شــوكتهم ، وهمشوا وشرحوا وتوقفوا فى الوقت الذى بدأت الحضــارة الاوربية فيــه فى التقدم • ابتدأ الوعى الاوربى يتحــول الى ذات تتضــخم تدريجيا حتى ابتلعت ما سواها من الحضارات غير الاوربية وحولتها الى موضـــوع تلتهمه وتشــوهه باسم الدراســة والبحث ، وتأخذ عصارتها ، ولا تترك لها الا النفايات • فى هــذه العصور الاوربيــة الحــديثة التى تعــادل فترة التوقف لدينــا بدأ الغزو الصــهيونى للتراث الاسلامى كجزء من غزو الغرب الثقافى • فقد كانت الصهيونية أحد مظــاهر التراث الغربى ، تقــوم على أكتافه ، وتتعلق بــه ، وتتسرب الى الفكر الغربى ذاته والى الحضارات غير اليهودية •

وهنا يبدو النمط الثالث للغزو الصهيونى للتراث الاسـلامى . ويمتد ويتسـع حتى يشـمل الارض والشعب والوطن والتاريخ . يبدأ الغزو الصهيونى للثقـافة الاسـلامية على أوسع نطاق ؛ ينكر الجميل والفضـل الذين كانا بالامس القريب . فانحسرت النـزعة العـامة ، وسـادت النزعة الخاصة ، وتحول الدين اليهـودى الى عنصرية عرقية تقـوم على الدم ، وتنكر اليهود لاصـولهم الاولى التى منها نشأت حضارتهم سواء فى الشرق القـديم أو فى الشرق والغرب الاسـلاميين . وأرادوا الاستئثار بفضل كل الامم وتنصيب أنفسـهم معلمى البشرية جمعـاء والاوصياء عليهـا . وفى نفس الوقت كانت الدولة العثمـانية تقاوم الاستعمـار غربا وشرقا فأراد الاستعمـار النفاذ اليهـا والنيل منها عن طريق هدم الحضـارة الاسلامية مصدر قوتهـا ، وعنصر بقائها فى التاريخ .

انتشر علم الاجناس وسيكلوجية الشـعوب وطبائعها ، وظهرت النظريات العنصرية التى تجعـل الاوربيين وشعوب الشـمال أكثر رقيـا وتقدما ، وأنقى دما ولحمـا من شعوب الجنـوب أو الشرق فى أفريقيـا وآسـيا . ونشأ علم اللغة الحديث وصنفت اللغـات . وظهر الفرع السـامى أصـلا للغات ، والعبرانية أصل للسـامية ، والعربية أحد فروعها . وتمت دراسـة اللغة العربية كأحد فـروع اللغات السـامية ، وانقلب الامر على ما كان عليه أيام نشأة التراث اللغـوى اليهودى فى الاندلس عندما كان فقه اللغة العربى أسـاس النحـو العبرى الوليد . ونشأت محـاولات تقويض الحضـارة العربية من داخلها . فظهرت نظريات انتحال الشعر العـربى حتى يتم

القضـــاء على السجل القومى للعرب • وقارن مرجـــوليوث وغـــيره الانتحـــال فى الشـــعر العربى والشـــعر اليونانى تعميـــة وتغطيـــة واخفـــاء للباعث الســـياسى تحت غطاء علمى تاريخى ، وأســـــوة بالانتحال فى الكتاب المقـــدس ، واحدة بواحدة • ثم ظهرت محاولات تقويض المصـــدر الاول للحضـــارة الاسلامية وهـــو القرآن عن طريق انكـــار الوحى واثبات أنه تلفيق من وتوفيق بين روايات يهـــودية ونصرانية منتحلة أو روايات صـــحيحة لم يفهمها النبى الجـــــديد أو فهمها وأولها لصـــالح قبيلته • الشعر منتحل • والقرآن تجميع من روايات منتحلة وغير صحيحة أو أسىء فهمها عن عمـــد أو عن غير عمد • وكثرت الدراســـات عن اليهودية والاســـلام لاثبـــــات أن الاسلام مجرد فرع لليهودية فى الجزيرة العربية ، وأن النبى قـــد استقى معلوماته من اليهـــودية والنصرانية خلال اسفاره من الاحبار والكهنة ، وأن قصص الانبيـــاء ، والشريعة ، والعبادات ، والاخلاق ، والعـــادات كلها مستقاة من اليهـــود فى الجزيرة العربية حتى لم يعد للمســـلمين شىء يذكر • أصبح الفرع وهو اليهودية مصدرا للفـــرع الآخر وهو الاسلام ، وتحول الفرع الاول الى أصل ، ونسى الاصل السامى المشترك(١٥) • ثم ظهـــرت محاولات لاعـــادة كتابة تـــاريخ الحضـــارة الاسلامية من منظـــور يهودى صهيونى فخرجت « دائرة

---

(١٥)

Abraham Geiger : Judaism and Islam, KTAV, New York 1970. A. I. Katsh : Judaism in Islam, New York, 1954; Ch. C. Torry : The lewish foundation of Islam, KTAV, New York, 1967; S. D. Goitein : Jews and Arabs; Their contacts through the ages, Schocken, New York, 1970.

المعارف اليهودية » التى تظهر فيها الحضـــارة الاسلامية كأحد روافد التراث اليهــودى فانقلب الاصــل فرعا ، والفرع أصلا . ثم ظهر الاستشراق وســيطرت العناصر الصهيــونية عليه من أجل تفــريغ الحضارة الاسلامية من ابداعها وماهيتها ووحدتها العضوية ونشأتها من مركز واحد عن طريق المناهج التحليلية والتاريخية والاسقاطيــة ومناهج الاثر والتأثر(١٦) .

وظهرت الصهيونية على نحــو مباشر عن طريق تسللها الى معظم الحركات الاوربية الحديثة لاحتوائها والسيطرة عليها . فالماســونية قد بدأت منذ القرن الماضى تعبر عن مثل جديدة لاعادة بنــاء الروح الانسانية الشــاملة باسم وحدة الانسانية واستقلال الروح. وكان الغرض منهــا القضــاء على القوميات حتى يمكن باسم الانســانية الشاملة القضــاء على ما ينقص اليهــود كأقليات فى قوميات غالبــة وفى نفس الوقت تتمسك اليهود بقوميتها الخاصــة . فالكيل هنـــا بمكيالين ، الانســانية للغير ، والقومية للانا ، الاخــوة والتســامح للغير والتعصب والعدوان للانا ، السلام والوئــام والمحبــة للغير ، والحرب والضغينة والكراهية للانا . والاشتراكية التى أرادت تحرير الطبقة العــاملة وتأسيس مجتمعات بلا طبقات تســودها الحــرية والعدالة الاجتماعية سيطرت عليها الصــهيونية أيضا حتى يكون لهـــا اليد الطولى فى العـــالم ودون أن تتخلى عن رأســماليتها . وهنـــا

---

(١٦) انظر كتابنا ، التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، ص ٧٥ — ١٠٨ ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٠ .

يبدو نفس المنطق المزدوج ، الاشتراكية للاخر والرأسمالية للانا ، الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية للاخر والاستغلال والتسلط وسيطرة رأس المال للانا . والعلمانية التى أرادت فصل الدين عن الدولة من أجل أن يكون الدين لله والوطن للجميع ، وعدم تدخل الدولة فى شؤون الدين أو الدين فى شؤون الدولة دفاعا عن حرية الاديان وتأسيسا للحق الطبيعى للافراد وللشعوب تسربت الصهيونية من خلالها من أجل تأسيس الدولة على الدين حتى يسهل بعد ذلك السيطرة على الدولة وتبرير وجودها باسم الدين ، وهو نفس المقياس المزدوج ، العلمانية للاخر والدينية للانا . أما المذهب الانسانى الذى نشأ فى الغرب منذ عصر النهضة دفاعا عن الانسان فى مواجهة طغيان الكنيسة والدولة فقد تسربت اليه الصهيونية كذلك من أجل جعل اليهودى وحده هو نموذج الانسان والذى له حق الحياة والبقاء ، ذلك أنهم قالوا ليس علينا فى الامين سبيل » (٣ : ٧٥)(١٧) .

---

(١٧) لمزيد من التفصيلات عن الايديولوجية الصهيونية وتسللها الى الحركات الحديثة انظر :

A. Hertzberg : The Zionistic Idia, Atheneum, New York, 1971.

محمد خليفة التونسى (مترجم) : الخطر اليهودى ، بروتوكولات حكماء صهيون ، دار الكتاب العربى ، بيروت . روجيه جارودى : اسرائيل ، الصهيونية السياسية ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣ . د. عبد الوهاب المسيرى : الايديولوجية الصهيونية ، دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٢ د. عبد الوهاب المسيرى : اليهودية والصهيونية واسرائيل ، دراسات فى انتشار

وقد ظهرت حركات جديدة فى القرن العشرين حاولت الصهيونية أيضا السيطرة عليها وأمكن لها ذلك بسهولة لان البعض نشأ بتشجيع منها من أجل خدمة أهدافها • ومن ذلك البهائية وتحويل الاسلام الى حركة صوفية اشراقية بعيدا عن الارض لا جهاد فيها لاعداء أو لنصرة الشعوب • لا تعتمد على العقل ولا ترتبط بالواقع • وأصبح معبدها الرئيسى فى حيفا • تعلن نهاية الصراع بين الاديان أى بين الاسلام واليهودية ، وتحرف القرآن ، وتحذف منه كل الآيات التى تحتوى على نقد لبنى اسرائيل سواء لتحريفهم التوراة أو لتشويههم العقائد أو لعصيانهم أوامر الله • كما ظهرت نظريات العقل العربى لتستأنف النظريات العنصرية القديمة • فهناك منهج عربى فى التفكير وأسلوب عربى فى الحياة له سمات خاصة فى مقابل منهج التفكير اليهودى وأسلوب الحياة اليهودى • والفرق بينهما هو الفرق بين التخلف والتقدم ، بين الجهل والعلم ، بين الهزيمة والنصر ، بين الفناء والبقاء(١٨) •

وانحسار الرؤية الصهيونية للواقع ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥ د. اسعد رزوق : التلمود والصهيونية ، منظمة التحرير الفلسطينية مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٠ ، د. محمد ربيع : أزمة الفكر الصهيونى مع دراسة جديدة حول موقع العقيدة من الفكر الصهيونى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ ، الصهيونية والعنصرية ، ابحاث المؤتمر الفكرى حول الصهيونية ، بغداد ١٩٧٦ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٧ .

(١٨) وذلك مثل Philipp Petai : The Arab mind.

ولسوء الحظ يستعمل بعض المفكرين المتقدمين العرب المعاصرين نفس التعبير « العقل العربى » .

وتمت سرقة الفن العــربى وأســاليب الحياة العــربية وعزوها الى اليهود ، وأصبح « الارابيسك » يهوديا ، والموسيقى العربية يهودية ، والخيمة والنخــلة والعقــال والناى والصحراء والابل كلها يهودية مع أن اليهــود عاشوا فى الطــراز المعمــارى العربى وكما يبــــدو لامر من المعبد اليهودى الذى كان يدرس فيه موسى بن ميمــون فى قرطبة . وظهر الاستشراق فى دفعة جديدة من داخل اسرائيل عن طريق ترجمــة الادب العربى الحــديث والفكر العربى الحــديث ، ودراســة التراث العربى الاسلامى ، واصــدار المجلات الثقــافية المتخصصــة للرواية والشعر والنقد ، ونشر النصــوص القديمــة ، واعادة فهرسة المعاجم العربية القديمة ، ونشرها نشرا علميا حديثــا تسهيلا على الباحثين وكبديل عن جهد العلمــاء العرب والنــــاشرين العرب . كمــا سيطرت الصهيونية على كثير من مراكز بحوث الشرق الاوسط فى الغرب ، وروجت لبعض الموضــوعات لتشويه الثقــافة العربية الاسلامية دفــاعا عن اسرائيل مثل « الجنس واللون » فى الاســلام ، والرق فى الاســلام ، وصــلة الاســلام بافريقيــــا حتى لا يقال عن الصهيونية وحدها أنها حركة عنصرية وبالتالى يتم التشريع للتعاون بين اسرائيل وجنوب افريقيا(١٩) .

ثم حاول الغزو الصهيونى الاتجــاه نحو العقل العربى الحديث بعد التطبيع حتى يمكنــه القضــاء على المنــاعة العربيــة ضــــد

---

(١٩) انظر مثلا Bernard Lewis : Race and coulor in Islam .

الصهيونية والتى بدأناها منذ عدة أجيال وحتى يمكنه تصدير الصهيونية الى العالم العربى ثم من خلاله الى أفريقيا وآسيا والى العالم الثالث كله بعد أن كان العالم العربى قلب تحرره ، ومركز قيادته • فالصهيونية كانت حركة تحرير للشعب اليهودى كما أن القومية العربية حركة تحرر للشعب العربى • كلاهما قوميتان شرعيتان ، وحركتان تاريخيتان ؛ والصهيونية ، كما تدعى ، نموذج للتحديث : زراعة الصحراء ، انشاء المدن الجديدة ، التصنيع ، التدريب ، الاخذ بأساليب العلم الحديث ، الابحاث النووية • اذن يمكن صياغة مشروع واحد بين القوميتين يجمع بين العبقرية اليهودية والمال النفطى والعمالة العربية ؛ وذلك يتطلب السلام مع الجيران ، ووقف العداء ، وانهاء حالة الحرب ، وقبول الجسم الغريب ، واعلان الاستسلام ، والتكفير عن الذنوب السابقة • كما يتطلب أيضا الزيارات المتبادلة لاحداث الصدمات الحضارية اللازمة لدى الزوار العرب حين المقارنة بين تقدمهم وتخلفنا • كما يقتضى ذلك انشاء مراكز أبحاث اسرائيلية داخل الوطن العربى لتعويد الطلاب العرب على البحث وابعادهم عن مراكز أبحاثهم الوطنية توجيها للعقل العربى وامتصاصا لقدراته فى جمع مادة عن التراث الوطنى والتكوين الشعبى ومزاج الامة حتى يسهل قيادتها والسيطرة عليها • وما أكثر التسهيلات التى تقدمها الصهيونية لذلك مثل المنح الدراسية ، وتبادل المعلومات ، والاساتذة الزائرين ،

---

(٢٠) انظر بحثنا : مخاطر السلام ، الدين والثورة فى مصر ، الجزء الثالث ، الدين والنضال الوطنى ، مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٨ •

والقيام بمشاريع البحث المشتركة المباشرة أو من خلال مراكز البحوث الامريكية بالمنطقة • والهدف من ذلك كله هو تحويل المنطقة الى دويلات طائفية صغيرة متناحرة تكون اسرائيل فى وسطها الدولة اليهودية الكبرى • وبالتالى تعطى الشرعية لوجودها فى مواجهة أى مشروع آخر يقدمه الميثاق الوطنى الفلسطينى ، مثل مشروع تكوين دولة علمانية يتعايش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون ، بصرف النظر عن العقيدة أو العرف أو الثقافة •

والاسوء من ذلك كله أن يمهد لهذا الغزو من بعض الاقلام العربية التى كانت تبرز بعض الانظمة العربية اتى استسلمت للغزو الصهيونى ، وأنهت مقاومتها ، والقت السلاح ، وذلك عن طريق الترويج لمجمع للاديان فى سيناء فوق جبل الطور حتى يجتمع فيه اليهود والمسيحيون والمسلمون ليصلون من أجل السلام أو ليحفظ فيه أحد القادة بكنوز الدير المجاور تمهيدا للاستيلاء عليه أو لتهريبه الى الخارج ! فاليهود أولاد العم وليسوا غرباء عنا • بيننا وبينهم مجرد حاجز نفسى وليس صراعا قوميا على أرض وطن وتصفية شعب •

وتسهل مقاومة هذا الغزو الصهيونى للتراث الاسلامى كمقدمة لتأكيد غزوه للتراث الوطنى وتشريعه عن طريق اللجوء الى هذا التراث ذاته واستمداد عناصر المقاومة منه • ففى القرآن الكريم ، مصدر هذا التراث ومنبعه الاول • لا يجوز الصلح مع بنى اسرائيل • يكفرون بالحق اذا عرفوه أو يكتمونه ويكذبونه ويبدلونه ويحرفونه أو يؤمنون بالبعض دون البعض الآخر وفقا للهوى أو يجهلونه كلية • اذا عرفوه فانهم يعصونه أو يؤمنون به ايمانا غير

جاد • يعيشون فى مجتمع مغلق يقوم على الهوى والمصلحة • يصدون عن الحق ، يغـالون فى الدين وينافقون فيه • تسيطر عليهم الانانية وحب الدنيا ويأكل الاحبار أموال الناس بالبـاطل ، ويعتدون على غيرهم من الشعوب • يجحدون بالنعم مثل النبوة والخلاص والمغفرة • ينقضون الميثاق فلا عهد لهم • ومـن ثم تستحيل المصالحـة معهم باستثناء البقية الصالحة التى رفضت الصهيونية كعنصرية وأبقت على اليهودية كدين شـامل كما حاول المصـلحون وفلاسفة التنوير(٢١) • فالثقافة الوطنية خير ركيزة يقوم عليها الصمود أمام الغزو الصهيونى لروح الامة • وانها لمسؤولية كل المثقفين العرب وكل المسلمين المستنيرين حماية وجدان الامة وثقافتها القوميـة بهذا الدرع الواقى وأمام هذا الغزو • واذا كان النضال الوطنى فى تاريخ الشعوب فى مد وجذر ، وكان المد قد وصل الى حده الاقصى فى الصلح فان الجذر قد يبدأ من جديد اعتمادا على الثقافة القومية •

---

(٢١) أنظر دارستنا : « هل يجوز شرعا الصلح مع بنى اسرائيل ؟ » فى اليسار الاسلامى ، ص ٩٦ — ١٢٧ ، القاهرة ، ١٩٨١ ، وأيضا فى هذا الجـزء •

هل يجوز شرعاً الصلح مع بنى إسرائيل؟

أولا : مقدمة :

فى هـذا العصر الذى تعيش فيـه أجيالنا افترقت فيـه الامة الى فريقين : الاول يريد الصلح مع بنى اسرائيل والاعتراف بالدولة التى اقامها الصهاينة منهـم ، والثانى يرفض الصـلح معهم وعدم الاعتراف بدولتهم • ونحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر •

ونحن نحاول من جانبنا المساهمة فى حل هذا الخلاف الذى أضاع وحدة الامة وذهب بشوكتها • نحاول ذلك من موقف شرعى خالص ؛ مستنبط من رأى كتاب الله فى بنى اسرائيل دون الاعتماد على مصلحة فئة أو قوم دفاعا عن نظام سياسى أو رفضا لنظام آخر • وبالتالى يمكننا أن نعزم الامر ونحسم الخلاف دون تدخل الاهواء والاغراض والمصـالح « فلا وربك لا يؤمنـون حتى يحكموك فيما شجـر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » (٤ : ٦٥)؛ ومن موقف فقهى خالص لا شأن له بالجبهتين المتصارعتين ، فعسى الله أن يهديهما معا الى الحق ومصالح الامة • وتلك سنة الفقهاء ؛ حماة الشرع ، والمدافعون عن مصالح المسلمين ، منذ تصديهم للغزوات الصليبية وندائهم للجهاد •

وهو أيضا حديث الامـة العربية التى تضع مقاديرهـا الآن على

أكفها ، والتى تمر بمرحلة حاسمة من تاريخها قد تشطرهـا شطرين الى الابد — لا قدر الله — وتكون أشبه بالامة الالمانية أو الكورية . فى وقت مازالت فيه أطراف الامة فى الفلبين جنوبا وأفغانستان شرقـا معرضة للتآكل أو الانحسـار • وقد تخبو الامة — لا قدر الله — ولا يقوم لها قائمة بعد ذلك اذا ما استشرى الداء فى روح الامة ، وتخلت عن الجهاد الذى هو فريضة على المسلمين ، على كل مسـلم أن ينويه مرة فى حيـاته كالحج تماما انلم يكن أبـدى وأهم[١] • فالحرمان الشريفان فى مأمن ولكن المسجد الاقصى وأراضى المسلمين فى فلسطين فى خطر • والقرآن هو تراث الامة ، ومصدر فكرهـا ، وأساس شرعها ، ومحرك جماهيرها ، ومحى قلوبها • وان لم يكن حتى الآن ملهم قادتها ، ومرشد القائمين عليهـا ، والمسؤولين على ولاية أمورهـا •

وهو أيضا حديث مصر ، تلك التى ذكرها الله فى القرآن والتى وصفها الحديث بأن جندها خير أجناد والارض ، وبأن شعبها فى رباط الى يوم القيـامة حتى لا تأثم مصر ، وهى كنز الاسـلام ، وكعبة المسلمين ، وشقيقة العرب الكبرى ، ومفرق الشرق ، وحتى تتحمل مصر مسئولياتها الاسلامية ورسالتها العربية ، وشخصيتها القومية ، وتبعاتها التـاريخية[٢] •

---

(١) أنظر مقالنا : مخاطر السلام ، قضايا عربية ، مارس ١٩٨٠ .

(٢) عمر بن محمد بن يوسف الكندى ، فضائل مصر ، تحقيق ابراهيم أحمد العدوى ، على محمد عمر ، بحسنه وهبه ، القاهرة ١٩٧١ .

ويهمنا أولا توضيح الحقائق الآتية منعا لاى اشتباه أو التباس .

١ — ان قيل ان بنى اسرائيل الذين وصفهم الله فى القرآن غير بنى اسرائيل فى دولة اسرائيل . فقد اندثر الاوائل وتاهوا فى الارض . والاواخـر مجموعة من الهجـرات الاوربية البيضـاء فى أوج المد الاستعمارى الاوربى فى القرن الماضى لا صلة لهم بالاوائل . واليهود الشرقيون عرب خلص تجمعهم وباقى الاعراب من مسلمين ومسيحيين عادات العرب وتقاليدهم ولغتهم ودياناتهم الشعبية ، قلنا ان ذلـك صحيح تاريخيا وعلميا لا جدال فى ذلك . فكرة نقاء الشعب وبقائه فى التاريخ واستمرار هويته فـكرة عنصرية صرفة وهى احـدى أشكال العنصرية الغربية الدفينة . ومع ذلك فان حجة اسرائيل الكبرى هى أنها سليل بنى اسرائيل ، العبرانيين القدماء ، وأن دولة اسرائيل حاليا هى تجميع لشتات بنى اسرائيل القدماء . وسواء كان ذلك الادعـاء حقا أم باطلا فانه فى كلتا الحالتين واقع سياسى ، يدعم دولة اسرائيل ، وتربى اجيالها عليه ، وتستقطب الرأى العـام حوله . وقد ضاعت أراضى المسلمين بسبب هذا الادعاء وعدم مقابلته من جانب المسلمين بتوضيح زيفه وبطلانه وايضاح الحقائق وصياغة نظرية مقابلة ، وان كانت مازالت مطمورة فى صدور المسلمين .

٢ — لا يعنى التوحيد بين بنى اسرائيل فى القرآن ، واسرائيل الجاثمة على صدورنا فى أرض فلسطين استمرارية فى النسـل ، وأن اسرائيل اليوم هى من لحم ودم بنى اسرائيل . فذاك ما ينفيه علماء الاجناس نظرا لتداخل الشعوب وتزاوجها . وبالرغم من انعزاليـة بنى اسرائيل التى تقترب من العنصرية والتى تجعلها أقرب الى الحرص

على بعض الخصائص الثابتة المتوارثة نفسيا واجتماعيا الا أن التماثل القائم بين بنى اسرائيل التى وصفها الله فى القرآن واسرائيل الحالية هو تماثل فى السلوك وفى المفاهيم وفى النظرة للعالم وفى رؤيتهم لباقى الشعوب وفى طريقتهم فى التعامل معها • فهى وحدة معنوية وان لم تكن وحدة جنسية عرقية •

٣ — ان وصف القـرآن لبنى اسرائيل يطابق سلوكهم اليـوم وادعاءهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله دخل معهم فى ميثاق أبدى، يعطيهم كل شىء ولا يطلب منهم شيئا حتى الطاعة لم يطلبها منهم ، ووعدهم بالارض والنسل والغنم والنصر ، فهو رب الجنود ، وجيشهم جيش الله ، ولغيرهم الاستئصال والغرم والهزيمة والاستعباد • ثم ان سلوك بنى اسرائيل لم يتغير فى التاريخ القديم أو الحديث وان تغيرت أساليبه وطرقه ، وهو ما تعتز به اسرائيل وما يؤديه سلوكها طبقـا لوصف القرآن له • فالهوية هنا ليست تاريخية بل سلوكية وليست بيولوجية بل أخلاقية • وقد ينطبق على اسرائيل وعلى أى شعب يتسم بهذه الخصائص السلوكية والتى يشارك فيها أحيانا الغرب المسيحى كله بعنصريته وعنجهيته •

٤ — لا يعنى ذلك الوقوع فى أى دعوة للمعاداة للسامية باصدار أحكام عامة وشاملة على بنى اسرائيل ووصف خصائص ثابتة لهم بل يعنى حكما شرعيا طالما أن سلوك بنى اسرائيل قائم على ما هو عليه • لذلك جاءت معظم هذه الاوصاف فى السور والآيات المدنية عند تأسيس الدولة ووصف سلوك الجماعات والافراد كمواطنين فى الدولة حرصا على أمنها وسلامتها • ولا ينطبق الحكم على من يغير سلوكه وموقفه

كما فعل أنبياء بنى اسرائيل والمسيح وأتقياء اليهود مثل أهل الكهف ، وكل من يرفض ادعاءات بنى اسرائيل فى الاختيار الالهى مثل المصلحين اليهود وفى عصر التنوير ، ويكون جزاؤه القتل والتشريد والتعذيب منهم(٣) . ونحن قادرون على الوقوف أمام علماء بنى اسرائيل ، الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان ، معتمدين على كتبهم المقدسة وتراثهم الدينى وأبحاث علمائهم ونتائج دراساتهم . ولكننا لم نشأ الاعتماد على ذلك هنا نظرا لاننا نكتب لجماهير الامة لاســلامية معتمدين على تراثها وكتابها الذى مازال لديهم مصدرا للفهم والتصديق .

٥ — لا يعنى ذلك دعــوة الى الحــرب ، فذاك متروك لجيوش المسلمين ، وحكام العرب ، وقادة الامة . انما الهدف هو الحرص على وعى الامة ، وعلى شرعية نظرتها للعالم ، وعدم تزييف وعينا القومى سواء فى الحاضر أو فى المستقبل . ليست الخطورة فى أن تهزم الامة عسكريا ولكن الخطورة فى أن يضيع وعيهــا ، وأن تصيب الهزيمــة روحها(٤) . والعلماء ورثة الانبياء ، وأعوذ بالله من علم لا ينفع ، والساكت عن الحق شيطان أخرس . مهمتنا مهمة فقهــاء المسلمين فى الدفاع عن مصالح الامة ، والحرص على روحها ، والدفاع عن براءة وحيها . فلســنا فقهاء السلطان ، أو فقهــاء الحيض والنفاس(٥) .

---

(٣) انظر مقدمتنــا وترجمتنا لسبينوزا : رســالة فى اللاهـــوت والسياسية ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٧ .

(٤) أنظر مقالنا : اجهـــاض العقول ، الفكر المعــاصر ، العدد الثانى ، القاهرة ١٩٨٠ . وأيضا الجزء الاول : الدين والثقافة الوطنية .

(٥) الامام الخمينى : جهاد النفس أو الجهــاد الاكبر ، اعــداد وتقديم د. حسن حنفى . القاهرة ١٩٨٠ .

مهمتنا التصـــدى لقضايا الامة المصـــيرية وعلى رأسها الاســـتعمار والصهيونية والتخلف الاجتماعى والقهر السياسى •

٦ ـــ مهمتنا هو ايجاد الصورة الاخرى لبنى اسرائيل بعـــد أن حاولت أجهزة الاعلام تغييرها ، وأصبح بنو اسرائيل نموذج التحديث لمجتمعاتنـــا فى زرعهم للصحـــارى ، وتشـــييدهم للمستعمرات والمدن الجديدة ، وتأسيسهم للصناعات ، وعلمهم وثقافتهم وخبرتهم وقدرتهم وعبقريتهم • بل ويتعدى الامر الى وصف شرفهم وأمانتهم واخلاصهم ووفائهم وصدقهم وكرمهم وشجاعتهم وعفتهم • وحاول البعض منـــا حتى تغيير صورة اليهودى فى التاريخ بأنه لم يعد ذلك الاحدب الظهر ، المتوس الانف ، الاخنف الصوت ، الاعمش العين ، المرابى العجوز ، شيلوك الادباء ، بل انسان معتدل القامة ، حسن المظهر والصوت ، انسان مثل باقى البشر ، دمث الاخلاق ، يعرف معنى الحب والوفاء • واستمرت أجهزة الاعلام فى مدح القدس الموحدة والخدمات الجديدة فى القدس الشرقية من نظافة وطرق ومياه وكهرباء فى حين كان العرب يتبولون على حوائط القدس القديمة ، فى مواجهة هذا الاعـــلام تهدف هـــذه الدراسة الى اعطاء صورة بنى اسرائيل فى القرآن الكريم حتى تعرف الامة أى الصورتين أصدق ـــ والحق أحق أن يتبع •

٧ ـــ ولم استعمل الحديث الشريف تأييدا للقرآن حتى لا يعترض أحد الادعياء برواية الحديث ، وســـنده ، ودرجة صحته ، وتضـــيع القضية فى مماحكات العنعنة ، هذا بالاضافة الى أنه لا يوجد شىء فى الحديث لا يوجد أصله فى القرآن • والاعتماد على القرآن وحده هو الرجوع الى الاصل أولا وهو أوعى وأشمل وأكمل • أو أن يفسر أحد

وقائع التاريخ النبوى وأقواله بصراعه مع اليهود وتحويل الاحكام العامة الى ظروف ومناسبات طارئة خاضعة لمجريات الاحداث وتقلبات الزمن • كما لم أشأ الاشارة الى وقائع التاريخ سواء فى حياة النبى أو الصحابة أو فيما بعد • فالوقائع لابد أن تكون شاملة غير منتقاه سلفا بناء على غاية المؤرخ وهدفه • كما أنها تخضع للتفسير والتأويل • وقد يأتى من هو أعلم منا بالتاريخ وبالتالى تصعب مجاراته فى كثـــير مما يختار • وكثيرا ما يختار المؤرخ وقائع دون أخرى أو يؤول الوقائع على هواه • والتاريخ فى نهاية الامر لا يكون حكما شرعيا ، فلا يمكن الانتقال من الفرع الى الاصل ، أو من الواقع الى الفكر • والتاريخ أيضا مد وجزر وإن كان اليهود قد عرفوا عصرهم الذهبى فى الاندلس أيام الحكم العربى الاسلامى ولم يعانوا من الاضطهاد الا فى الغرب من مسيحيى الغرب وإن كان العرب الآن هم الذين يدفعون الثمن •

٨ ـــ ولا يهمنا فى تفسير الآيات القرآنية الرجوع الى الوقائع التاريخية المحددة والتى كانت وراء أسباب النزول • فذلك يهدف الى ضبط معنى الآيات • ولكن الذى يهمنا هو تقييم هذه المعانى والاحكام والاوصاف مادامت الوقائع متكررة على ما يحدث فى القياس عنـــد علماء أصول الفقه • مهمتنا قراءة أحوال المسلمين المعاصرة فى النصوص ورؤيتهم مآسيهم فيها • وليس صدق التفســير فى نهاية الامر هـــو مطابقة مضمون النص للواقع التـــاريخى المحدد فى الحـــوادث التى نشأت فى عهد الرسول ، وقت نزول القـــرآن ، بل فى الواقـــع الحى المتكرر والدائم فى حياة المسلمين • وبالتالى ، تجد الامة نفســـها فى القرآن ، ويكون القرآن معبرا عن وضع الامة فى التـــاريخ • ليس المطلوب اذن أن يقول المتعالمون ان هذه الآية فى وصف بنى اسرائيل

لا تعنى ما أرمى اليه بل تعنى شــيئا آخر تاريخيــا محددا فان عزل النص عن واقع المسلمين وحبس طاقاته الكامنة التى يمكن أن يولدها فى نفوسهم لهو خــوف وجبن وتميع وحرص على الدنيا يأبى فقهــاء المسلمين من الوقوع فيه •

٩ ــ فان قيل : ان مقاومة الصهيونية والصراع مع اسرائيل أقوى وأعتى من أن نتم المواجهة معه عن طريق بيان أوصاف بنى اسرائيل فى القرآن حتى بعد تعميمهــا واطلاقها على ســلوك اسرائيل ، قادة وشعبا • فالصهيونية حركة سياسية عنصرية توسعية استيطانية قامت فى القرن الماضى وقت نشأة الحركات القومية والنزعات الرومانســية وبالتالى لا يمكن مقاومتها الا بحركات سياسية مشابهة ، حركات تحرر ومناهضة للاستعمار ، وكما قامت على العدوان فانها لا ترد الا بالقوة • وهذا صحيح علميا وتاريخيا أمام مجامع العلماء والرأى العام المستنير • لا ينكره الا مكابر أو صاحب هوى • ولكن الذى يهمنا هــو الحرص على الوعى القومى لشعوبنا الاسلامية ، وتقوية مناعتها ضد تسرب الصهيونية الى أعماقها بعد أن ظهروا فى أجهزة الاعلام على أنهم أولاد العم ، الاصدقاء الذين يفون بوعودهم ، وبعد أن أصبحت عند البعض منا بعد أن تم تزييف وعيهم القومى ، نموذجا للتحديث فى زراعــة الصحراء ، وصناعة الماس ، وتربية الكتاكيت • أما أســباب قوتهم الاخرى من عقائد وتضحية وتجنيد للجماهير فهى غائبة عنا • مهمتنا اذن شحذ وعينا القومى واستعمال الوحى كحصن حصين لنــا ضد مخاطر الصهيونية والاعتراف بها والتعامل معها ، وغض النظر عــن أطماعها بدعوى ضعف الحيلة والمهادنة المؤقتة •

١٠ ــ وهذا نداء الى علماء الامة الاســلامية وفقهائها للتكاتف

والاتحاد من أجل الوصول الى حكم شرعى واحد • فقد أخطىء وأصيب • فان أخطأت فأرجو تصويبى ، وان أصبت فأرجو تكاتف الجميع من أجل حماية وعى الامة والحرص على روحها وتاريخها ووحيها • فهى مسئولية أمام الله وأمام الناس وأمام التاريخ ، وقضية ليست حكرا لاحد لانه موضوع يعم به البلوى ويمس كل مسلم ، وتتشرد بسببه الملايين • وحتى لا تأتى أجيال بعدنا ، تكون ضحية للصهيونية وتوسعها وأطماعها وانتشارها كنموذج للتحديث لمجتمعاتنا ، ونتحول نحن الى حضارات متحفية فى تاريخ البشرية ثم نتساءل : أين كان علماء المسلمين وفقهاء الامة ؟

ثانيا : الكفر بالحق :

يتناول القرآن بنى اسرائيل ، وهو اللقب الغالب كما يتناول اليهود وهو الاستعمال الاقل كما يشير اليهم ضمن أهل الكتاب ، ويصفهم بصفات دائمة أقرب الى الطبيعة والجبلة بعد أن تكررت أفعال الكفر والنفاق والعصيان •

وأول صفة لبنى اسرائيل هو الكفر بالحق وتجاهله وعدم الاعتراف به والتسليم والاذعان له • فهم شعب لا يعترفون بأية حقوق . وبالتالى لا يسلمون بأية حقوق • ومن ثم يكون انتظار اسرائيل أن تسلم فى يوم من الايام بحقوق شعب فلسطين هو انتظار سيطول الى يوم القيامة •

فأول مظاهر الكفر بالحق هو الكفر بأنبيائهم وعدم تصديقهم لهم

مع أن الحق الذى يأتى به الانبياء ، حق مطلق من الله ، ليدعو الى التصديق المباشر والاذعان التام .

فهم أولا لا يصدقون أنبياءهم ولا يؤمنون بهم « ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (٣ : ١١٠) . عصوا كل الانبياء نوح وابراهيم وموسى وعيسى وصالحا . فلقد أمرهم صالح بترك الناقة دون عقرها ولكنهم عتروها . (١١ : ٦٤ — ٦٥) ويركز القرآن على عصيانهم الانبياء الاربعة الكبار .

لقد أنذرهم نوح قبل أن يحل بهم العذاب (٧١ : ١ — ٢٨) ، وأمرهم بعبادة الله وتقواه وطاعته من أجل أن يغفر الله لهم ويطيل عمرهم ولكنهم لم يسمعوا دعواه . بل كلما دعاهم نفروا منه وهربوا ووضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا ، واستكبروا . دعاهم نوح سرا وعلانيـــة ، ووعدهم بكل النعم المادية والمعنوية . الاموال والبنين والجنات التى تجرى من تحتها الانهار . كما وعدهم المغفرة . دعاهم نوح الى النظر فى حال الدنيا وما فيها من تغير وتطور ولكنهم عصـــوا ، واتبعـــوا البـــاطل ، ومكروا وتشـــبثوا بآلهتهم . وخدعوا الناس وظلموهم . وكان عقابهم الغرق بعد أن دعا نوح الله ليدمرهم كلية واستئصالهم من على وجه الارض . حتى امرأة نوح وامرأة لوط قد خانتـــا وكأن الانبياء وحدهم منبنى اسرائيـــل هم الاتقياء . « كذبت قبلهم قـــوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنـــون وازدجر . فدعى ربه انى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمـــر قد قـــدر » (٥٤ : ٩ — ١٢) .

كذب بنو اسرائيل نوحا (٥٠ : ١٢) ، وقالوا عنه أنه مجنون فنصره الله عليهم . قوم نوح قوم فاسقون (٥١ : ٤٦) ، وقوم سوء « انهم كانوا قوم سوء » (٢١ : ٧٧) . لقد اتهموه بأن به جنة وبأنه بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم ولو شاء الله لانزل ملائكة (٢٣ : ٢٣ — ٢٨) ولكذبهم قوم نوح أيضا لانهم لا يصدقون بشىء . فالنبى لا يتبعه الاراذل من القوم وبنو اسرائيل يستكبرون (١١ : ٢٥ — ٤٩).

وقد أعتبروا أنفسهم من نسل ابراهيم ، وأرادوا أن تكون النبوة فى ذريته وكأن النبوة ميراث خاص بهم . « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » (٢ : ١٢٤) . فالنسل هو العمل الصالح وليس الدم أو الوراثة . وابراهيم هو أبو الانبياء وأول المسلمين . وكل من ينتسب اليه لا يكون يهوديا ولا نصرانيا بل حنيفا مسلما . « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (٢ : ١٣٥) . بل ان أنبياء بنى اسرائيل كلهم مسلمون لانهم يدعون الى عبادة الله وحده والاخلاص لطاعته والى التقوى والعمل الصالح « أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون » (٢ : ١٤٠). فالجدل حول ابراهيم جدل عقيم لانه سابق على التوراة والانجيل . فابراهيم هو أول المسلمين الذى استطاع أن يستدل على التوحيد بعقله ويصل اليه بفطرته « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم

فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين • ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين » (٣ : ٦٥ — ٦٨) • ان ايمان ابراهيم هو الذى يعطى الامن والاطمئنان فى حين أن جدل قومه له لا يدل الا على الخوف الدفين • « وحاجه قومه قال اتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى ، وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون • وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا • فأى الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون » (٦ : ٨٠ — ٨١) •

وبالرغم من أن موسى قد أنجاهم من عذاب فرعون وطغيانه الا أنهم عصوه وطالبوه بعبادة أصنام مشابهة لاصنام الشعوب المجاورة • « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوما تجهلون • ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون • قالوا أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين » (٧ : ١٣٨ — ١٤٠) • وكانت عبادتهم للعجل فى غياب موسى قمة عصيانهم وعدم ادراكهم للتوحيد • « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا له خوار • ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا » (٧ : ١٤٨) • يستضعفون الانبياء ، ويقوون عليهم ، ولا يرهبون الله • « ولما رجع موسى الى قومه غضبان آسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم • وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الاعداء

ولا تجلعنى مع القـــوم الظالمين ... ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحـــياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين » (٧ : ١٥٠ — ١٥٢) . وأن ما فعل موسى لقومه لانجائهم من فرعون لم يفعله نبى لقومه (٧٩ : ١٥ — ٢٦) . ومع ذلك عصوه وآذوه . « واذ قال موسى لقمه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون انى رســـول الله اليكم ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهـــم ، والله لا يهدى القـــوم الفاسقين » (٦١ : ٥) .

وان صدقوا أنبياءهم فانهم لا يصدقون من يأتون بعدهم مثـــل عيسى ومحمد . « واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا نؤمـــن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم . قـــل فلم تقتلوا أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين » (٢ : ٩١) . فالايمان بالانبياء واحد لا يتجزأ ، ومن يؤمن بالبعض دون البعض الآخـــر فان ذلك يطعن فى ايمانه الاول . لذلك يقول المسلمون « لا نفرق بين أحد من رسله » (٢ : ٢٨٥) . هذا الايمان بالانا والكفر بالآخـــر يكشف عن أنانية وعنصرية تجعل بنى اسرائيل غير قادرين على الاعتراف بالآخرين وحقوقهم .

ويكفرون أيضا برسالة المسيح وبما أنزل الله عليه من كتـــاب . « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون (٣ : ٥٠) . وقد أتت رسالة المسيح لصالحهم تخفيفا للتوراة وليحل لهم بعض ما حـــرم عليهم . ومع ذلك كفروا به ولم يصدعوا للحق لانهم ليسوا أهل حق ، ولا يعترفون بحقوق أحد سواهم . « وقفينا على آثارهم بعيسى بن

مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين » (٥ : ٤٦) • وهم يكفرون بعيسى بل ويفترون عليه وعلى أمه مريم • وقد أتى عيسى مصدقا لما بين أيديهم من التوراة • « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما • وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم • وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه • ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما • وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا » (٤ : ١٥٦ — ١٥٩) • لم يصدقوا بعيسى وبشارته بالرغم من البينات التى أتى بها واتهموه بالسحر • « واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين • ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام ، والله لا يهدى القوم الظالمين • يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون • هو الذى أرسله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٦١ : ٦ — ٩)• لقد خاصموا عيسى وجادلوه وتكبروا عليه • وقد أتى ليبين لهم ما كانوا فيه يختلفون •

وهم يكفرون بمحمد وقد أتى مصدقا لما بين أيديهم من التوراة والانجيل « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » (٢ : ١٠١) • مع أن الوحى الذى نزل لهم على محمد والذى يصدق

ما معهم من وحى نزل على موسى أوجب للتصديق اذا كان الايمان لديهم ايمانا شاملا كاملا دون تفرقة بين الرسل . ولكن بنى اسرائيل اعتبرت انزال الوحى عليهم وارسال الانبياء لهم ميزة خاصـة بهم يتفردون بها على غيرهم من الشعوب . فهم أول الكافرين بالوحى الاسلامى وبالقرآن بالرغم من تصديقه لما معهم من كتب سماوية . « وآمنـوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون » (٢ : ٤١) . فايمانهم بالوحى ايمان أنانى خالص . يصدقون ما أنزل اليهم ويكفرون بمـا أنزل الى غيرهم . « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل » (٣ : ٣) . وعدم الايمان بالوحى الاسـلامى ليس له عذر ويستوجب اللعنة ومسخ البشر لان الايمان بآخر الرسالات نتيجة طبيعية للايمان بأوائلها . « يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » (٤ : ٤٧) .

وقد أتت رسالات الانبياء على فترات حتى يتعود بنو اسرائيل على الايمان درجة فدرجـة وحتى لا يكون لهم عذر فى النهـاية . « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسول يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير واللـه على كل شىء قدير » (٥ : ١٩) ومع ذلك فانهم يستعجبون من ذلك ، ويتناسون الوحى السابق . « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا الله لعلكم ترحمون . أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ... » (٦ : ١٥٦ — ١٥٧) .

وبالرغم مما يبدو بين اليهود والنصارى من تحالف واتحاد ضد المسلمين الا أنهم فيما بينهم يناهضون بعضهم بعضا ، وكل منهم لا يعترف بالآخر ، ويكفره ولا يؤمن بما انزل الله له • « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » • (٢ : ١١٣) • اجتمعوا معا على عداوة المسلمين ونهب ثرواتهم والاستيلاء على أراضيهم ، وضياع همتهم ، والقضاء على وعيهم مع أن المسلمين وحدهم هم الذين يعترفون بهم ، ويسلمون بما أنزل الله لهم • كل فريق منهم أنانى لا يحب الا نفسه ، وبالتالى استحالت الوحدة الداخلية بينهما • كل منهم لا يرى أبعد من حدود أنفه • ولا يقدر على الخروج من جنسه وعنصره وجلده ولونه • ومن ثم وقعت الحروب بينهما ، ورأى كل فريق بقاءه فى استئصال الفريق الآخر ، وهذا هو أحد الجذور التاريخية للعنصرية الغربية المتمثلة فى الاستعمار والصهيونية •

ولا تنفع معهم البيانات والآيات والبراهين لان كفرهم بالحق كفر جبلى طبيعى ملى • « سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب » (٢ : ٢١١) •

وبالرغم من كل ما لديهم من آيات يشاهدونها فانهم يكفرون بها وبما يثبتها • « يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون » (٣ : ٧٠) • والذى يكفر بالآية فانه يكفر بكل شيء ويكون كالاعمى

وأضل سبيلا لانه قضى على وسائل المعرفة لديه فيعيش كالحيـوان الاعجم • « ذلك بأنهم كانوا يكفـرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٣ : ١١٢) • والعجيب أن الكفر بآيات الله لا يمكن انكاره لان الله شاهد على كل شيء • « قل يا أهل الكتـاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شـهيد على ما تعملون » (٣ : ٩٨) •

وبالرغم من معرفتهم بالوحى معرفة حسية الا أنهم يكفرون به • « والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم • الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » (٦ : ٢٠) • وهم بكفرهم يخسرون أنفسهم لان الانسان لا يستطيع أن يعيش الا مدركا للحق متمثلا له •

وهم يتركون ما ينزل على الانبياء ويأخذون ما تتلوه الشياطين • أى أنهم يتركون الحق ويأخذون الباطل • وبالتالى فهم غير قادرين على الاختيار بينهما بل تدفعهم طبيعتهم الى ترك الحق وأخذ الباطل • « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت • وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنـة فلا تكفر » (٢ : ١٠٢) يستبدلون بالوحى السحر ، وبالحق الاسطورة • فالانبياء لم تأمر بما تفعله الصهيونية حاليا •

ويضر بنى اسرائيل أنفسـهم بالكفر وتركهم رسـالات الانبياء وأخذهم تعاليم الشياطين • فيتعلمون ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحـد الا باذن الله ، ويتعلمـون ما يضرهم ولا ينفعهم (٢ : ١٠٢) • وبالتالى فانهم سبب عداء الشعوب لهم •

وكل ضرر يلحق بهم هم سببه ، لانهم لا يتعلمون ولا يسلمون الا بما يضرهم •

وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت أى بالظلم والعدوان ، ويروجون للكفر ضد الايمان • « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا • أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعنه الله فلن يجد له نصيرا • أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا (٤ : ٥١ — ٥٣) •

ثالثا : عصيان الحق :

ويظهر الكفر بالحق عمليا فى مظاهر عصيانه ومخالفته ومنها :

١ — الجهل التام بالحق واستبدال الباطل به « وقالت اليهود عزير ابن الله ••• ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ••• » (٩ : ٣٠) • ومن ثم يستحيل اقناعهم بالحق ، والحق عندهم لا يخطر على بال • بل ان مهمتهم هو وضع الباطل فى مقابل الحق حتى يشوشون به عليه • لن يجدى معهم اقناع أو افهام • بل ان مهمتهم اطفاء نور الله ومحو الحق « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (٩ : ٣٢) •

٢ — فان عرفوا الحق فانهم يكتمونه ولا يعلنونه للناس وكأن معرفة الحق جريمة لابد من التستر عليها لان الاعتراف بالحق يدمغ كفرهم ، ويكشف نفاقهم ، ويدحض سلوكهم ، ويبين للناس

عصيانهم . « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (٢ : ١٤٦) . فهم يعرفون الحق معرفة عيانية تقوم على الحس والمشاهدة ، طبقا لطبيعتهم المادية . ومع ذلك فانهم يتكتمون عليه ، ومن يكتم الشهادة فانه آثم قلبه . « وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون » (٢ : ١٤٤) . فهم يعلمون الحق ولكن لا يعترفون به ولايظهرونه حتى لا تدحض أعمالهم ، وتظهر عورات سلوكهم . لذلك أتى القرآن ليكشف عما كانوا يخفونه . « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (٥ : ١٥) . ويقومون بذلك عمدا وكتابة اخفاء للقراطيس . « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلمون أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » (٦٠ : ٩١) . ومن ثم يبدلون كلام الله . « فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم » (٧ : ١٦٢) .

٣ — فاذا عرفوا الحق وأعلنوه فانهم يكذبون على الرسل ، ويزيفون رسالاتهم ، ويكذبون على الله ، ويزيفون كلامه .

٤ — فاذا عرفوا الحق وأعلنوه وزيفوه فانهم بذلك يلبسون الحق بالباطل والباطل بالحق حتى يضيع الحق فى غمرة الباطل . « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » (٢ : ٤٢) . ويكون الخلاف بينهم وبين باقى الشعوب هو

خـلاف على الحق وليس على المصـلحة ويضيع الوقت فى البحث عنه وتخليصـه من البـاطل • « ياأهل الكتاب لم تلبسون الحـق بالبـاطل ، وتكتمون الحـق وأنتم تعلمون » (٣ : ٧١) •

٥ — فاذا أظهروا للنـاس بعض الحـق فانهم يحرفونه حتى يتم التمـويه على النـاس يحرفون نصوصه ، ونطقه ، ومعانيه : « وان منهم لفريقـا يلوون ألسـنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هـو من الكتاب ، ويقـولون هو من عند الله وما هـو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (٣ : ٧٨) • يحرفون الـكلم عن موضعـه عمـدا على غير معنـاه • « من الذين هادوا يحرفـون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سـمعنا وعصينا ، واسـمع غير مسـمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنـا فى الدين ، ولـو أنهـم قالوا سمعنـا وأطعنـا واسـمع وأنظرنا لكان خيرا لهم وأقوم • ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (٤ : ٤٦) • يسيئون نطـق الكتـاب حتى يفيد غير معانيـه « يأيها الذين آمنـوا لا تقولوا راعنـا وقولوا أنظرنا واسـمعوا وللكافرين عذاب أليم » (٢ : ١٠٤) • ويكون التحـريف كتـابة باليـد ، « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقـد كان فريق منهم يسمعـون كـلام الله ثم يحرفونه من بعـد ما عقلـوه وهم يعلمون » (٢ : ٧٥) • يكتبون بأيـديهم ويقولون من عند الله ، « فويل للذين يكتبـون الكتاب بأيديهم ثـم يقولون هذا من عنـد الله ليشـتروا به ثمنـا قليلا ، فـويل لهـم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » (٢ : ٧٩ •)

٦ — فاذا أظهروا الحـق فانهم يؤمنـون ببعضـه ويكفـرون

بالبعض الآخر حتى لا تكتمل الحقائق وتظهر كلها أمام الناس . وذكر الحقائق الى المنتصف هو نوع من الكذب كمثلنا المشهور فيمن يقول « ولا تقربوا الصلاة » وحتى يختاروا من الكتاب ما يتفق مع هواهم ، ويرفضون ما يختلف معه « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » (٢ : ٥٨) .

ويحتجون بالاعذار لتبرير الكفر . ومن هذه الاعذار الغباء ، وعمى القلب ، وهو عذر أقبح من ذنب . فأى انسان يعترف بظلام قلبه فانه ينكر انسانيته . « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » (٢ : ٨٨) . فهم يعترفون بصدأ قلوبهم وبعدم قدرتهم على فهم الحق والاذعان اليه وهو فى الحقيقة تراكم لعصيانهم . « وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (٤ : ١٥٥). والحقيقة أن قسوة قلوبهم هى السبب « وجعلنا قلوبهم قاسية » (٥ : ١٣) لانهم لا يشعرون بغيرهم من البشر ، ولا يعترفون بوجودهم ، ولا يعرفون معنى الانسان . « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة . وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون» (٢ : ٧٤) .

وأحيانا يحاجون المؤمنين ويجادلونهم من أجل نصرة الباطل على الحق وما ينفع معهم جدال « فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم.

فان أسلموا فقد اهتدوا • وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » • (٣ : ٢٠) ، فالوسيلة الوحيدة للمصالحة هو الاسلام لله والتوحيد للواحد ، وتمثل ما يتطلبه التوحيد من تخل عن العنصرية والعدوانية ، وما يتطلبه من العمل الصالح، وما يقتضيه من مساواة بين الشعوب •

ويرفضون الحق حكما بينهم وبين الناس ؛ لانهم لا يعتبرون الحق مقياسا لسلوكهم • « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » (٣ : ٢٣) • وبالتالى لا تنفع معهم محاكم دولية أو لجان تحكيم أو وساطة ، ولا تفلح معهم مفاوضات أو اقناع أو دعوة لهم للاعتراف بالحق أو الاذعان له • « قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين » (٥ : ٦٨) • ولا تعامل معهم الا بالتحكيم ، تحكيم كتاب الله أو الاعراض عنهم « فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ؛ وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، ان الله يحب المقسطين • وكيف يحكمونك ، وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ••• ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٥ : ٤٢ — ٤٤) •

وهم سيئو النية كثيرو السؤال ، ليس من أجل المعرفة بل

من أجل التلكؤ والتباطؤ فى تنفيذ الاوامر الالهية • لا يصدعون للامر الالهى لانه الحق بل يلجؤون الى اللجاجة والتلكع • ويتضح ذلك من قصتهم مع موسى وذبح البقرة • « واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة • قالوا : أتتخذنا هزوا ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين • قال ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟ قال أنه يقول أنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون • قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال أنه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين • قال أدع لنا ربك يبين لنا ما هى ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون • قال أنه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها • قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون » (٢ : ٦٧ — ٧١) • فيسألون عن البقرة أولا فاذا ما تحدد عمرها يسألون عن لونها • فاذا ما أجيب عنه بطريقة واضحة سئل عن ماهيتها حتى تصعب الاجابة • فأجيب عن الماهية بوظيفتها أى بطريقة حسية عملية مرئية حتى لا يكون لديهم حجة • وهو بالضبط موقف المفاوض الاسرائيلى الذى يكثر من السؤال ويتمحك فى الحق وهو يعلمه ، حتى يضيع جوهر الاشياء ويقع الجميع فى متاهات لا مخرج منها •

وقد نزلت التوراة للحكم بها • « أنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والاحبار بما أستحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء • فلا تخشوا الناس واخشون ••• » (٥ : ٤٤) •

وقد كانت العقـوبات لديهم للردع حتى يتعـودوا على العدالة المطلقة والقصاص من النفس • « وكتبنـا عليهم أن النفس بالنفس، والعين بالعـين ، والانف بالانـف ، والاذن بالاذن ، والسـن بالسن ، والجروح قصـاص • فمن تصـدق به فهو كفـارة له • ومن لم يحـكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٥ : ٤٥) • « ولو أنهم أقـاموا التـوراة والانجيـل وما أنزل اليهم من ربهـم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم • منهم أمة مقتصـدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون » (٥ : ٦٦) •

والحق واحد ولكنهم يختلفون فيه طبقـا لمشـاربهم ومآربهم، ونظرا لتضـارب أهوائهم وتعارض مصالحهم • فضـاعت وحـدة الحق ، وتحولوا الى شـيع متنافرة • « ان الدين عند الله الاسلام ، ما اختلف الذين أوتـوا الكتـاب الا من بعـد ما جاءهم العـلم بغيـا بينهم • ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحسـاب » (٣ : ١٩) • والطبيعى أن الانسان مادام قد علم الحـق فانه لايقع الاختـلاف حـوله الا أن بنى اسرائيل علمت الحـق بعـد أن أعطـاهم الله اياه ، ولكنهم اختلفـوا فيه نظرا لتضارب أهوائهم ، واختـلاف مشاربهم • « ولقـد بوأنا اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبـات فما اختلفوا حتى جـاءهم العلم • ان ربك يقضى بينهم يـوم القيـامة فيما كانوا فيه يختلفـون » (١٠ : ٩٣) ، وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العـلم بغيـا بينهم • ولولا كلمـة سبقت من ربك الى أجـل مسمى لقضى بينهم ، ان الذين أورثـوا الكتـاب من بعـدهم لفى شـك منه مريب » (٤٢ : ١٤) • « ولقد آتينـا موسى الكتاب فاختلف فيه • ولولا كلمـة سبقت من ربك

لقضى بينهم وانهم لفى شـك منه مريب » (٤١ : ٤٥) . فعلى الرزق والمادة والنعم يتفقون ، وعلى العلم والحق يختلفون . « ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الامر ، فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (٤٥ : ١٦ — ١٧) . وقد أتاهم القرآن ليقضى على خلافهم ، ويعودون الى وحدتهم من خلال وحدة الحق . « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (٩٨ : ١ — ٥) . ثم تحول هذا الخلاف الى عداوة وايقاظ لنار الحرب والعدوان . « وألقينا بينهم العدواة والبغضاء الى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الارض فسادا ، والله لا يحب المفسدين . ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم » (٥ : ٦٥) . وعدوان اليهود الغربيين على اليهود الشرقيين واحتقارهم لهم معروف ومشهود . ويؤكد ذلك أيضا المجتمع العسكرى الاسرائيلى وقيامه على الحرب ومكانة المؤسسة العسكرية فيه .

فاذا ما آمنوا بالحق بعد كل هذه المحاولات لطمسه وضياعه وايهام الناس بعكسه وهو الباطل فان ايمانهم يتصف بالآتى :

١ — هو ايمان وقتى لا يدوم لهم لانهم ينوون الكفر ويضمرون الغدر • « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون» (٣ : ٧٢) •

٢ — هو ايمان تنقصه الجدية ، ويتخذونه مجرد لعبا ولهوا ؛ يطلبون الايمان فاذا ما جاءهم ليؤمنوا به تراجعوا لانهم لا يطيقون الايمان ، ولا يستطيعون مواجهة الحق أو الثبات عليه • « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٢ : ٨٩) •

٣ — ومجتمعهم مجتمع مغلق ، لا يثقون الا به ، ولايكسرون حصاره • فاليهودى لا يكون يهوديا الا اذا كان يهوديا عن يمينه ، ويهوديا عن يساره ، ويهوديا أمامه ، ويهوديا خلفه ؛ « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » (٣ : ٧٣) • فهم ذو شخصيتين ، شخصية علنية مع غيرهم وهى شخصية مزيفة ، وشخصية سرية مع أنفسهم وهى الشخصية الحقيقية • « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون • أولا يعلمون أن الله ما يسرون وما يعلنون » (٢ : ٧٦ — ٧٧) •

٤ — وهو ايمان يقوم على الهوى والمصلحة وليس على الاقتناع والتصديق • « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى

« يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق .. » ، (٤ : ١٧١) . فالغلو فى الدين لا يدل على زيادة الايمان بل يدل على الكفر الدفين والتستر عليه بالايمان . « قل ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل السبيل » (٥ : ٧٧) .

وهم فى نهاية الامر لا يفهمون ايمانهم ، ولا يعقلون كتابهم، ويفصلون مضمونه عن عملهم ، وتكون معرفة الحق النظرى فى جانب والسلوك العملى المخالف له فى جانب آخر ، ويكونون كالحمار يحمل أسفارا . « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » (٦٢ : ٥) أو على أكثر تقدير يسقطون من أنفسهم على الكتاب ، ويتمنون مايريدونه منه . « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم ألا يظنون » (٢ : ٧٨) .

وهم منافقون ، يؤمنون بأفواههم وليس بقلوبهم « يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواهم ولم تؤمن قلوبهم » (٥ : ٤١) . ينافقون حتى يخدعون المؤمنين . « يقولون أن أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٥ : ٤١) . ومن مظاهر النفاق سماعهم للكذب ، وتحريفهم كلام الله ، « ومن الذين هادوا سماعون للكذب ، سماعون لقوم

أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » (٢ : ٨٧). يمنعهم الاستكبار من التصديق . والاستكبار هو التعالى على الحق لدرجة الانانية والزهو والخيلاء . وهو ما يسمى بلغة اليوم التمركز على الذات أو العنصرية . لذلك يكذبون الانبياء أو يقتلونهم حتى لا يوجد أمامهم شهداء على الحق .

٥ — وهم يتخذون الاحبار أربابا من دون الله بطاعتهم دون الله . « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والربانيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » (٣ : ٧٩ — ٨٠) . فمقياس الوحى هو التحرر من عبادة البشر وطاعتهم الى عبادة الله وحده وطاعته . « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون » (٩ : ٣١) .

٦ — وهم يصدون عن سبيل الله كل من آمن به ، يبغونها عوجا ، ولا يريدون الايمان لاحد حتى لا ينكشف زيفهم وحتى يظل العالم كله فى كفر ونكران . « قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » (٣ : ٩٩) .

وهم يغالون فى الايمان مزايدة منهم على كفرهم وتغطية له

آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه » (٥ : ٤١) • ومن مظاهر النفاق كتمان الحق فى قلوبهم • « واذا جاؤوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون » (٥ : ٦١) •

وهم أنانيون يحسدون الآخرين على ايمانهم • « ود كثير من أهل الكتاب لويردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (٢ : ١٠٩) • يريدون أن يتخلوا عن ايمانهم ويعودون الى الكفر مثلهم • « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما • فمنهم من آمن بربه ، ومنهم من صد عنه ، وكفى بجهنم سعيرا » (٤ : ٥٤ — ٥٥) • بل انهم لايرجون أن ينزل الله على غيرهم من الشعوب أى وحى حتى ينفردوا بهذه النعمة دون سواهم • « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (٢ : ١٠٤ — ١٩٥) • يأمرون غيرهم بالبر ، وينسون أنفسهم وهم أحق بالدعوة والتوجيه • « أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (٢ : ٤٤) فاسرائيل تطلب من غيرها السلام وهى تود الحرب ، وتطلب لنفسها الامن وتهدد غيرها ، وتستحوذ على الارض وتطلب من غيرها التخلى عنها •

وهم يشترون الدنيا بالآخرة ، ويؤثرون الحال على المآل ،

ويشـــترون بآيات الله ثمانـــا قليلا . « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيـــا بالآخرة فلا يخفف عنهم العـــذاب ولا هم ينصرون » (٢ : ٨٦) . وذلك عندما يؤمنـــون ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض الآخر الذى لا يوافق هواهم ، وعندما يتركون الوحى الى تعاليم الشيطان. « ولبئس ما شروا به أنفســـهم لو كانوا يعلمون » (٢ : ١٠٢) . وعندما يرفضون التصـــديق بالقرآن الذى يصـــدق ما معهم فانهـــم أيضـــا يشترون بآيات الله ثمنـــا قليلا . « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون » (٢ : ٤١) .

وقد أدى حبهم للدنيـــا الى انكـــار البعث والحياة بعد الموت . « أن هؤلاء ليقولون : ان هى الا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين ، فآتوا بآبائنا ان كنتم صـــادقين » (٤٤ : ٣٤ — ٣٦) . وقـــــد كان الصـــــدوقيون منهم بالفعل ينكرون البعث حتى ظهور المسيح. ولم يؤمن البعض منهم به الا بعد الاسر البـــابلى وظهور الاخرويات فى حـــالات الضـــنك والقهر والعـــذاب « أيعدكم أنكم اذا متـــم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجـــون . هيهـــات هيهات لما توعدون . ان هى الا حياتنـــا الدنيا نموت ونحيـــا ومـــا نحن بمبعـــوثين » (٢٣ : ٣٥ — ٣٧) . وقـــد بين الله لهم بمثل حسى بعث المـــوتى . ومع ذلك لم يؤمنـــوا به ، وحـــاولوا اخفاء الجســـد ! « واذ قتلتم نفســـا فادارءتم فيهـــا واللـــه مخرج ما كنتم تكتمـــون . فقلنـــا أضربوه ببعضهـــا ، كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكم آياته لعـــلكم تعقلون » (٢ : ٧٢) . وحقيقة الايمان بالآخـــرة هو الخشوع فى الدنيا . « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهـــم اليـــه راجعـــون » (٢ : ٤٦) .

ويأكل أحبارهم أموال الناس بالباطل ، وهم رؤساؤهم ، ونموذج سلوكهم . « ياأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » (٩ : ٣٤) . فهم لا يعترفون بحقوق الناس ، ولا يتمثلون قيمة أو مبدأ للسلوك ، يبغون المادة ، الذهب والفضة . لذلك أصبحوا فى التاريخ تجار ذهب ومصوغات ، ورجال أعمال وصيارف وبنوك . ويتمثل أكل أموال الناس بالباطل فى الربا. « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » (٥ : ١٦١) قد عرف اليهود بأنهم مرابون ، يستغلون ضنك الناس لزيادة ثرواتهم .

ويأكلون الحرام « أكالون للسحت » (٥ : ٤٢) . ولا يعرفون الا جشع المال ، « وترى كثيرا منهم يسارعون فى الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعلمون . لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » (٥ : ٦٢ — ٦٣) .

وقد أسقط بنو اسرائيل صورتهم على الله فتصوروا الله بخيلا مثلهم ، « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا ، بل يده مبسوطتان ، ينفق كيف يشاء ، وليزيدن كثيرا منهم ، ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا » (٥ : ٦٤) .

رابعا — الجحد بالنعم .

وبنو اسرائيل جاحدون بنعم الله . فهم كافرون بالحق

النظرى وكافرون بالحق العملى • وكما لم تنفــع الآيات والبراهين معهم كذلك لم تنفع النعم المحسوسة التى أعطاها الله لهم •

ومظاهر النعم كثيرة • فقد نجــاهم الله من عذاب فرعون ومن استئصــال شــأفتهم من على وجه الارض بذبح ذكورهم واستبقاء نســـائهم فيستحيل النســل والتكــاثر • « واذ نجيناكم من آل فرعــون يســـومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبنــاءكم ، ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بــلاء من ربكــم عظــيم » (٢ : ٤٩) • وهم مهددون بالاستئصــال باستمرار ما لم يسمعوا كلام الله ويذعنــون لاوامره • فالله أبقــاهم من الفناء ، ونجــاهم من العــذاب ولكن اسرائيل كفرت بهذه النعمــة وجحدت بهــا • وما فعله فرعون بهــا تفعــله اسرائيل بغيرها من الشــعوب محاولة استئصــالها كما تفعل حاليــا بشعب فلسطين • ولقد نجى الله اسرائيل من عذاب فرعــون ومن استكباره وجبروته واستعلائه • « ولقد نجينا اسرائيل مــن العذاب المهين • من فرعون انه كان عاليا من المسرفين » (٤٤ : ٣٠ — ٣١) • واسرائيل تفعل نفس الشىء مع غيرها •

كما أنقذ الله بنى اسرائيل من الغرق فى البحر بعــــد أن تبعهم فرعــون وجنوده « واذ فرقنــا بكم البحر ، فأنجيناكم وأغرقنـــا آل فرعون وأنتم تنظرون » (٢ : ٥٠) ، واسرائيل الآن تقضى على غيرها فى المخيمــات وتحت وابل من الرصاص وبين ألسنة النيران •

ثم بعثهم الله من بعد مــوتهم حتى يشــكروا الله بالرغم من أنهم ينكرون البعث والحيــاة الاخرى ، « ثم بعثنــاكم من بعــد

موتكم لعلكم تشكرون » (٢ : ٥٦) . ولا تشكر اسرائيل مهما تم العفو عنها ورغب الناس فى نسيان آثامها والعيش معها .

وقد أعطاهم الله من النعم المادية الكثير : الراحة والسكن والظل الوفير ، والطعام والشراب والغذاء الكثير . « وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، وكلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٢ : ٥٩) . ولكن يبدو أن بنى اسرائيل قد ظلموا أنفسهم بالرغم مما لديهم من أمن واطمئنان فاتخذوا ذلك وسيلة لبث عدم الامن والاستقرار فى نفوس الغير .

وزاد لهم الله على الطعام الشراب . « واذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشر عينا . قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ، ولاتعثوا فى الارض مفسدين » (٢ : ٦٠) . ولكن يبدو أنه فى مقابل الماء عثوا فى الارض مفسدين ، وفى مقابل الرزق وخيرات الله يفسدون فى الارض بالبغى والعدوان .

وأتاهم الله النبوة ، وأنزل عليهم الكتاب حتى يهتدوا . « واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » (٢ : ٥٣) . وهى هبة لا تقدر بثمن ، يعتز بها صاحبها ، وتوجه الى الطاعة لا الى المعصية . « واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين » (٥ : ٢٥) . بل وأعطاهم الله الدولة ،

ولكنهم بعصيانهم فقدوها ودمروها • بل انهم بدلوا كلام الله ، ورفضوا التوبة والاستغفار ، ورفضوا الطاعة والامتثال لاوامر الله • « واذ قلنا أدخلوا هذه القرية فكلوا فيها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين • فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » (٢ : ٥٨ — ٥٩) •

ثم عفا الله عنهم ، ونسى آثامهم ، وغفر ذنوبهم • « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » (٢ : ٥٢) • ولكن يبدو أن اسرائيل لا تعرف معنى العفو أو مقابلته بالشكر • ومهما نسى العرب من مآسيها فانها تعيد فتذكرهم بذنوبها بارتكاب الكثير منها •

وليس الوحى خاصا ببنى اسرائيل « وان من أمة الا خلا فيها نذير » (٣٥ : ٢٤) • بل هو فضل من الله • « أن ينزل الله من فضلهعلى من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب للكافرين عذاب مهين » (٢ : ٩) • والهدى هدى الله يؤتيه من يشاء « قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم • قل أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم » (٣ : ٧٢) • ليس الوحى ميزة لشعب على حساب شعب آخر بل ان الوحى معطى للناس جميعا • « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » (٥٧ : ٢٩) •

ومع ذلك جحدت اسرائيل بهذه النعم كلها ، ولم تشكر الله عليها ، ولم تقابل هذه النعم بطاعة الله وتنفيذ أوامره والايمان برسله والتصديق بكتبه • فقتلوا الانبياء وكذبوا الرسل ، وعبدوا العجل ، وبدلوا قول الله ، وقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، وأنكروا البعث والحياة الاخرى ، ولم يتناهوا عن المنكر ، واعتدوا فى السبت ، وجبنوا فى القتال •

فقد أعطى الله لهم ما شاؤوا من خيرات الارض على مستوى طلبهم : البقول ، والفول ، والعدس ، والبصل ، والقثاء مستبدلين الذى هو أدنى بالذى هو خير • « اذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها ، وبصلها • قال أستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير • أهبطوا مصر فأن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٢ : ٦١) • فهم شرهون ، لا يكتفون بطعام واحد بل يريدون جميع أنواع الطعام سواء الموجودة لديهم أم الموجودة عند غيرهم من الشعب خاصة عند جارتهم مصر • أعطاهم الله الوحى ولكنهم يستبدلون به خيرات مصر • وكان جزاء كل من يطمع فى خير مصر الذلة والمسكنة وغضب الله • تركوا الوحى ، وقتلوا الانبياء ، وعصوا أوامر الله ، واعتدوا على جيرانهم • فالاستثمار المشترك فى سيناء ، ورغبتهم فى مياه مصر ومحاصيلها : كل ذلك لا يستجاب له بل ويعاقبون عليه •

فما أن غاب عنهم موسى حتى ظهر كفرهم وكأنهم لا يؤمنون الا فى حضور الرقيب ، فعبدوا العجل • « واذا واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » (٢ : ٥١) • ان الثقل الطبيعى والارتكان الدائم الى الارض جعل بنى اسرائيل يرجعون الى الوثنية باستمرار فهم لا يتزحزحون عن المادة ، ولا يتركون الارض • « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » (٢ : ٩٢) • فهم فى حاجة الى رقيب من نبى حتى يحدث التوازن فى شعورهم ويذكرهم بالله • ولكن الايمان لا ينشأ طوعا واختيارا من أنفسهم فى قلوبهم ، وبمحض ارادتهم ، وببرهان عقولهم ، وبتمثلهم للخير • ومن ثم فان يقظة العرب ضرورية حتى لا تركن اسرائيل الى الارض وتستحوذ عليها • « واذا قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم • ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم » (٢ : ٥٤) •

وقد بلغت ماديتهم وحسيتهم أقصى حد فى طلبهم رؤية الله جهارا : « واذا قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » (٢ : ٥٥) • وكل هذه المطالب تعبر عن طبيعة حسية واحدة • طلب كتاب ، عبادة العجل أو طلب رؤية الله عيانا ، « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم • ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم

البينـات فعفونا عن ذلك ، وآتينـا موسى سلطـانا مبينا » (٤ : ١٥٣) • فاسرائيل تطلب المستحيل المادى ، وكان جزاؤها على طلبها العقاب والردع • وبالتـالى فطلب الارض العربية مستحيل ، وطلب التوسـع مستحيل ، وطلب اقامة المستوطنات مستحيل ، ولا يقابل ذلك كله الا بالردع والصواعق •

وشيمة بنى اسرائيل العصيـان والعدوان وجزاؤهم اللعنـة والغضب من الله • « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسـان داوود وعيسى بن مريم ، ذلك بمـا عصوا وكانوا يعتدون • كانـوا لا يتناهـون عن منـكر فعلـوه لبئس ما كانوا يفعلون » (٥ : ٧٨ — ٧٩) • ولم يأمروا بالمعروف أو ينهون عن المنكر ولم يذكروا بعضهم بطـاعة الله ، أمتثـال أوامره واجتناب نواهيه •

ويتمثل العدوان والعصيـان فى عدم امتثالهم لقوانين السـبت والطعـام •فقد اعتدوا فى السبت ولم يراعوه ، « ولقد علمتم الذين اعتـدوا منكم فى السبت فقلنـا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناهم نكالا لما بين يديهـا وما خلفها وموعظة للمتقين » (٢ : ٦٥ — ٦٦) • وقد أخـذ الله منهم ميثـاقا ألا يعتدوا فى السبت ولكنهم نقضـوا الميثاق ، « قلنا لهم لا تعتـدوا فى السـبت ، وأخذنا منـهم ميثاقا غليظا » (٤ : ١٥٤) • وقـد شرع الله السبت لهم لتعويدهم على طاعته وامتثـال أوامره • والحقيقة أن الحياة أقـوى من السبت ، وأن منفعة الانسـان وخيره يتحققان فى السبت ، « واسـألهم عن القرية التى كانت حـاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم

حيتـانهم كذلك نبلوهم بمـا كانوا يفسقون » (٧ : ١٦٣) • كمـا شرع الله السبت لهم نظـرا لاختلافهم فيـه وتحقيقـا لوحـدتهم ولكنهم ظلوا على خـلافهم ، « انما جعل السبت على الذين اختفوا فيه ، وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفـون» (١٦ : ١٢٤) •

أما بالنسـبة لقـوانين الطعـام فقد كان كل الطعـام حـلا لبنى اسرائل ولكنهم زيادة منهم فى النفـاق ومزايدة منهم فى مظاهر الايمـان حرموا على أنفسـهم بعض الطعام • ولكن طبيعتهم المادية لم تستطع الصـبر عليه • « كل الطعام كان حـلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسـه من قبل أن تنزل التوراة • قل فأتـوا بالتـوراة فاتلوها أن كنتم صـادقين • فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون » (٣ : ٩٣ — ٩٤) • وجزاء على هذا الظلم والبغى حرم الله عليهم ألوانا من الطعـام عقابا لهما وردعـا لهم وتطويعا لارادتهم • « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصـدهم عن سبيل الله كثيرا » (٤ : ١٦٠) • فالاصل فى الاشيـاء هو التحليل ولكن التحريم أتى لهم تربية لنفوسـهم وتحريرا لوعيهم من أسر المـادة ، « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم • ذلك جزيناهم ببغيهم وأنا لصادقون » « ٦ : ١٤٦ » •

وهم ليسوا أهل قتـال ، لايريدون الموت والاستشهاد فى سبيل

الله ، نظرا لانهم يؤثرون الدنيـا على الآخرة • « ألم تـر الى الملا من بنى اسرائيل من بعد موسى اذا قالوا لنبى لهم أبعث لنا ملكـا نقـاتل فى سبيل الله • قال : هل عسيتم ان كتب عليكم القتـال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سـبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنـائنا ؟ فلما كتب عليهم القتـال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظـالمين » (٢ : ٢٤٦) • فهم يطـالبون بالقتال لاسـتدراك الانبيـاء فاذا جاءت المعركة ولوا الادبار • ويقبلون سبب القتـال نظرا وهـو الاخراج من الديار ، ولكنهم لا يجـاهدون فى سـبيله وكأنهم يقبلون الظـلم والطرد من الديار عمـلا • فاذا ما واجهوا غيرهم نكصـوا وولوا الادبـار وتراجعوا • « وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طـالوت ملكا • فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سـعة من المال ؟ قال ان الله اصطفـاه عليكم وزاده بسـطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسـع عليم • وقال لهم نبيهم أن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هـارون تحملـه الملائكة ، أن فى ذلك لآية لكم أن كنتم مؤمنين • فلما فصـل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لـم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيـده ، فشربوا منه الا قليـلا منهم • فلمـا جـاوزه هو والذين آمنـوا معه قالوا لا طـاقة لنـا اليوم بجـالوت وجنوده • قال الذين يظنـون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصـابرين • ولما برزوا لجالوت وجنـوده قالوا ربنـا أفرغ صـبرا وثبت أقدامنـا وانصرنا على القـوم الكـافرين • فهزموهم باذن الله ، وقتل داود

جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » (٢ : ٢٤٧ — ٢٥١) . وهنا تبدو مقاييس اسرائيل فى تصورها للملك وهو الملك الغنى أى ذو المال الوفير اسقاطا من أنفسهم فى حب المال فى حين أن مقاييس الملك النبى هما العلم والقوة . ومع ذلك أعطاهم النبى آية حسية وهو التابوت الذى به العهد تحمله الملائكة وسطهم . وفى أول امتحان فى الحرب لم تستطع اسرائيل طاعة النبى فى عدم الشرب من النهر . فاذا ما ظهر العدو تراجعت اسرائيل وخافت ، ودب الرعب فى قلبها . ليست اسرائيل اذن بالدولة الحربية ، وليس جيشها بالجيش الذى لا يقهر ، وليس رجالها هم أشجع الرجال . وانتصاراتها على غيرها لم تتم لقوتها بل لضعف الآخرين .

فاذا ما حدث النزال وتمت المواجهة فانهم يولون الادبار . « وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون » (٣ : ١١١) . بل انهم حتى فى دخولهم الارض المقدسة التى يزعمون أن الله قد وعدهم بها يولون الادبار . « يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا أن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا أنا هنا قاعدون . قال رب انى

لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننـا وبين القوم الفاسقين . قال فانهـا محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين » (٥ : ٢١ — ٢٦) . فهم لا يدخلون أرضنا بهـا شعب . ولا يقدرون على مواجهة الشعوب الكـامنة فى الارض ، ويتركون المواجهة لله وللنبى . يقومون بتهجير عرب فلسـطين حتى تظل خاوية لهم . ولكن لا أرض بلا جهد ، ولا نصر بلا حرب ، لذلك ظلت اسرائيل تائهة بين الشعوب بلا أرض .

... واذا حاربوا فانهم لا يحاربون الا داخل حصون مشيدة يخشون المواجهة والنزال . « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ، مـا ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيـدى المؤمنين ، فاعتبروا يأولى الابصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب »(٥٩ : ٢ — ٤) . فهم جبناء فى القتال يحاولون تغطية رعبهم الداخلى بالحصون المشيدة . « لانتم أشـد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »(٥٩ : ١٣ — ١٤) . فهم يخشون المسلمين أكثر من خشيتهم الله . والله أخرج أهل الكتاب من ديارهم وهم يظنون أنهم لن يخرجوا وظنوا أن حصونهم تمنعهم . فأتاهم الله بغتة من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب . كتب

الله عليهم الجلاء من الارض جزاء عصيانهم له • فاذا كانوا لا يعترفون بأن هناك قوة فوقهم فقد أجلاهم الله وأراهم قوته • ومن ثم فان ردهم الى حجمهم الطبيعى أمر الهى •

خامسا : نقض الميثاق :

وأكبر نعمة أعطاها الله لبنى اسرائيل هو الميثاق ، ميثاق الايمان والطاعة ، ميثاق الصلاة والزكاة ، وطالبهم بالوفاء به وذكر نعمه • « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، واياى فارهبون » (٢ : ٤٠) • فذكر النعمـــة والوفاء بالعهد مرتبطان والا كان الجحود والكفران • وهو عهد مشروط وليس عهدا مطلقا كما تدعى الصهيونية الآن ، « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » أى أن اسرائيل لو أوفت بعهدها من جانبها فى الطاعة والاخلاص فان الله يفى بعهده من جانبه • ولكن اسرائيل لا تذكر النعمة ، وتكفر بها ، ومهما أعطى لها من اعتراف ورضى بهـــا من قبول فانها تظل جاحـــدة كافرة ، ومهما يعطى لها من أموال فانها تطلب المزيد وتتنكر لمن يعطونها • اسرائيل لا تفى بعهد ، ولا تبقى على كلمة ، ولا تحرص على وعد ، ولا ترعى قانونا ، ولا تلتزم بمعاهدة • ومن ثم فطريق المعاهدات معها مسدود ، والحديث عن الشرعيـــة الدولية معها لا يؤدى الى شىء • اسرائيل لا تخشى الا من هو أقوى منها « واياى فارهبون » ، ولا تعلم الا لغة القوة والرهبة • لا تخشى الله ولا تتقيه بالرغم من نداء الله « واياى فاتقون » ، ونداء الله لها بأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتركع وتسجد ، « وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واركعوا مـــع الراكعين » (٢ : ٤٣) ، وأن تصبر على الطاعة حتى يتم ترويضها « واستعينوا

بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين » (٢ : ٤٥) • ليس الميثاق كما تقـول الصهيونية ميثـاق الغنم والنعم والنسل والارض والمعبد ، ميثاق الحظ والهبات بل هو ميثاق الطاعة والاخلاق • « واذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصـلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون » (٢ : ٨٣) ، وليس عبادة المـال والطاغوت ، وترك الفقراء واليتـامى والمساكين ، وتشريد الشعوب خارج أوطانهم ، « واذا أخذنا ميثاقكم لا تسـفكوا دمائكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون• ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ، وأن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم • أفتؤمنون ببعض الكتـاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون • أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخـرة فلا يخفف عنهم العـذاب ولا هم ينصرون » (٢ : ٨٤ — ٨٦) •

والميثاق ميثاق حكمة ونبوة وليس ميثاق أرض وغنم • « واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسـول مصدق لما معكم لتؤمنن بـه ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا • قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين • فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »(٣ : ٨١ — ٨٢) •

والميثاق من أجل التبيان والاعلان وليس لاجل التكتم والاخفاء ،

« واذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » (٣ : ١٨٧) .

ولكن اسرائيل نقضت الميثاق ، ميثاق اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والايمان بالرسل وتأييدهم ، وايثار الله على ما سواه ، « ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منه اثنى عشر نقيبا وقال الله انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لاكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين »(٥ : ١٢ — ١٣) . وكان جزاؤهم لعنة الله عليهم ، قسوة قلوبهم ، نظرا لتحريفهم كلام الله ولنسيانهم أوامره ونواهيه ، باستثناء البقية الصالحة منهم . لقد نكص بنو اسرائيل على أعقابهم وتولوا بعد أن عقد الله معهم ميثاق الخير والفضيلة والعمل الصالح . « واذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين »(٢ : ٦٣ — ٦٤) .

نقضوا الميثاق بكفرهم بآيات الله وبقتلهم الانبياء وباعتدائهم فى السبت ، « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا ، وقلنا لهم لا تعتدوا فى السبت ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق ،

وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (٤ : ١٥٤ — ١٥٥) • والميثاق ثقيل ثقل جبل الطور ، ولكنه يقضى بالطاعة سجدا لله ، فالارتفاع بالعهد اعلانه خفض الجباه ، « ولقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون • وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » (٥ : ٧٠ — ٧١) • فنقضهم الميثاق نتيجة لعماهم وصممهم ، لا يرون آيات الله ولا يسمعون كلامه •

ونقضوا ميثاق الايمان بعبادتهم العجل ؛ « واذا أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور • خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين »(٢ : ٩٣) • فبدلا من الحرص على الميثاق وطاعته سمعوه وعصوه ؛ وعبدوا العجل من قلوبهم • ذهب العجل لديهم أفضل من طاعة الله والوفاء بعهده ، « فرجع موسى الى قومه غضبان آسفا • قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى • قالوا ما أخلفنا بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى • فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى • أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا » (٢٠ : ٨٦ — ٨٩) • غضب منهم الأنبياء وتأسفوا على حالهم • ولم يروا سببا للعصيان الا تسرعهم الى الغنم سعيا وراء الذهب ، « ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى • قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى • قال يا هارون

ما منعك اذا رأيتهم ضلوا • ألا تتبعن فعصيت أمرى • قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى • قال فما خطبك يا سامرى ، قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت من أثر الرســول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى • قــال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه ، وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » (٢٠ : ٩٠ — ٩٧) •

والاختيار الالهى لاسرائيل ليس اختيارا عشوائيا لا مبرر لــه وليس اختيارا عن جهل ولكن اختيار عن علم مسبق وببرهان مبين ، « ولقد اخترناهم على علم على العالمين • وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين »(٤٤ : ٣٢ — ٣٣) • وهذا الاختيار أحد مظاهر نعم الله عليهم • « يــا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليــكم وانى فضلتكم على العالمين »(٢ : ٤٧) • والفضل هنا ليس لعنصر أو جنس بل هو تكريمهم بالوحى وبنصرهم وتأييدهم ضــد الطغيان • ومن ثم فان عصيانهم للوحى وطغيانهم على غيرهم يذهب فضلهم • وتكبرهم واستعبادهم للشعوب يقضيان على أسباب تفضيلهم • ويتكرر نــداء القرآن لهم ، « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمــتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العــالمين ، واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شــيئا ولا يقبل منها عــدل ، ولا تنفعها شــفاعة ولا هم ينصرون » (٢ : ١٢٢ — ١٢٣) • فالتفضيل اذن مشروط بتقوى الله فى الدنيــا حتى تتم النجاة فى الآخرة • وهدفه هو تربية الجنس البشرى ممثلا فى اسرائيل حتى تتحقق المسئولية الفردية طبقا لقانون الاستحقاق •

لا يفضل الله شعبا على شعب . وليس له أبنـاء ولا أحباء الا بمقدار تمثلهم للفضيلة وبمقدار طاعتهم له ، « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء »(٥ : ١٨) . فلا توجد « علاقة شخصية » بين الله والانسان الا العمل الصالح ، « قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليهم بالظالمين . قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون »(٦٢ : ٦ — ٨) .

وكما يدعى بنو اسرائيل أنهم أبناء الله وأحباؤه يدعون ان الله لن يعذبهم ولن يدخلهم النار بل سيرسلهم الى الجنة قذفا ، « قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم ، والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه عن العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون . قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عـدو للكافرين »(٢ : ٩٤ — ٩٨) . والذى يضمن الجنة لنفسه فانه يتمنى الموت حتى يفوز بها ، وهذا ليس حال بنى اسرائيل لانهم يعضون على الحياة بالنواجذ حبا للدنيـا وليس خوفا من عذاب الآخرة . فبالرغم من أن بنى اسرائيل تجعل الجنـة

لأنفسهم والنار لغيرهم فانهم لا يتمنون الموت ليحصلوا على ما يريدون ويحرصون على الحياة ، يود كل منهم لو يعمر ألف سنة حتى ينهل من الحياة الدنيا . ولن يمنعه ذلك من العذاب . لذلك إستنكر بنو اسرائيل ملائكة الموت ولعنوهم لانهم يقبضون الارواح ، وعداوة الملائكة عداوة لله ، « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان يهودا أو نصارى ، تلــك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربــه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ١١١ — ١١٢) ، وفرق بين التمنى والواقع . ان من مظاهر أنانيتهم أن الجنة لهم وحدهم والنار لغيرهم فى حين أن الجنة ثواب على الأعمال الصالحة والنار عقاب على أفعال الســوء لاى فرد ومن أى شعب . وأحيانا يتواضعون ويضعون أنفسهم فى النار أياما معدودة : « وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة ، قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مــا لا تعلمون . بلى من كسب سيئــة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنــوا وعملوا الصالحات أولئك أصحــاب الجنة هم فيها خالدون » (٢ : ٧٩ — ٨١) . فالثواب والعقاب مشروطان بالاعمال ، « ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النــار الا أياما معــدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون . فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس مــا كسبت وهم لا يظلمون »(٣ : ٢٤ — ٢٥) . بل أن لعنهم فى الدنيا بنقضهم الميثاق يجعل عذابهم مؤكدا ، « اذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شــديدا . قالوا معــذرة الى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون . فلمــا عتوا عن

ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين •واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب • ان ربك لسريع العقاب ، وأنه لغفور رحيم » (٧ : ١٦٤ — ١٦٧) • فمقياس الثواب والعقــاب هو العمل الصالح ، « ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » (٩٨ : ٦) •

وكانت النتيجة أيضا العذاب فى الدنيا والتيه والتشتت والضياع • « وقطعناهم فى الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون • فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنــا • وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الاالحق ودرسوا ما فيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون • والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، انا لا نضيع أجر المصلحين • واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (٧ : ١٦٨ — ١٧١) •

سادسا : استحالة المصالحة •

ما دامت هذه أصاف بنى اسرائيل فانه يستحيل عقد الصلح معهم أو موالاتهم أو اتخاذهم بطانة أو تلقيبهم بالاصدقاء الاوفياء أو بأولاد العم • فلن تؤمن بنو اسرائيل بغيرها من الشعوب ولن ترضخ لحقوق غيرها • تستحيل مصالحة بنى اسرائيل فهم ينكثون بالوعود ، وينقضون اليوم ما يعاهدون عليه بالامس • لن يؤمنوا بحق أحد سواهم • ولن

ترضى اسرائيل عن غيرها من الشـــعوب حتى تحيلها الى عبيد لهم يرضخون لها ، « ولن ترضى عنك اليهـــود والنصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » (٢ : ١٢٠) • لن ترضى اسرائيل الا بصهينة جميع الشعوب والقضـــاء على هويتهم والتخلى عن مبادئهم والتنازل عن شخصيتهم • تود اسرائيل اخراج كل شعب من دينه ، « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون » (٣ : ٦٩) • تبغى اسرائيل اخراج كل الشـــعوب من دياناتهـــا وحضاراتها حتى يضيع الحق كلـــه ولا تبقى الا اسرائيل ومطامعها ، « يأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله • ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » (٣ : ١٠٠ — ١٠١) •

ولن تصدع اسرائيل لحقوق غيرها مهما قدم لها من حجج وبراهين ومهما عرض عليها من آيات بينات ، « ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين » (٢ : ١٤٥) • فالعلاقة الطبيعيـــة بين اسرائيل وغيرها من الشعوب هى علاقة التضاد والتناحر ، وبالتـــالى تستحيل المصالحة لاستحالة توحيد المآرب والاهداف • والصراع بينها وبين غيرها هو صراع الحق ضد الباطل ، والخير ضد الشر ، والعلم ضد الظن ، والوحى ضـــد الهوى ، والايمان ضد الكفر •

ولذلك يحذر القرآن من اتخاذ بنى اسرائيل أولياء للمسلمين . « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتوله منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » (٥ : ٥١) • فاليهود والنصارى أولياء بعض ، ولن ينصر النصارى المسلمين على حساب اليهود ، ولن ينصر اليهود المسلمين على حساب النصارى • الاتفاق بين اسرائيل والغرب أكثر من الاختلاف بينهما ، والاختلاف بين المسلمين من ناحية واسرائيل من ناحية أخرى أكثر من الاتفاق بينهما • فالاتفاق والاختلاف فى المبادىء والعقائد والنظريات أولا قبل أن يكون فى المصالح الوقتية ،« يأيها الذين منوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين • واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون • قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وان أكثركم فاسقون • قل هل أنبؤكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سوء السبيل » (٥ : ٥٧ — ٦٠) • لن يرضى اليهود والنصارى عن المسلمين الا بعد أن يترك المسلمون ويقلدون اسرائيل والغرب ويصبحوا تابعين لهم داخلين فى أحلافهم ، مروجين لبضائعهم ، متمثلين لثقافاتهم • لن يحترموا ثقافات غيرهم ودياناتهم وقومياتهم وتراثهم وعقليتهم بل يسخرون من سلوكهم وثقافتهم وحضارتهم • مع أن الله قد مسخ اليهود والنصارى وجعلهم قردة وخنازير أى أنهم ليسوا نموذجا للتحدى أو نمطا يحتذى به أو أسوة تتبع • يحرم القرآن موالاة اليهود والنصارى ويكفر من يوالونهم من المسلمين ،

« ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون • ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون » (٥ : ٨٠ — ٨١) •وكيف يوالى المسلمين من يعادونهم ويودون القضاء عليهم دينا ودنيا ، « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » (٥ : ٨٢) •

لذلك يحذر القرآن من اتخاذ بنى اسرائيل بطانة للمسلمين ، « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر • قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون • هـا أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا آمنا ، واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور • أن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، ان الله بما يعملون محيط » (٣ : ١١٨ — ١٢٠) • يحرم القرآن اتخاذهم أصدقاء يوثق بهم أو حلفاء تبدو البغضاء من تصريحاتهم وأقوالهم واهاناتهم للعرب وللمسلمين ولاهل مصر ، كنانة الله فى الارض • وما تخفى صدورهم أعظم ، يعبرون عنه فى كتاباتهم بما فيها من عنصرية وغرور • فكيف يحبهم المسلمون وهم لا يحبون أحدا ؟ وكيف يبغى المسلمون معهم السلام وهم يبغون الحرب ؟ يفرحون بكل مصيبة تحل بالمسلمين ويحزنون لكل خير يأتيهم •

ان المصالحة الحقة لا تأتى الا بناء على تسليم اليهود بالحق

المستقل عنهم ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فتولوا أشهدونا بأنا مسلمون » (٣ : ٦٤) . المصالحة الحقة تتم بناء على الاتفاق على عبادة الله وحده ، وليس عبادة الطاغوت أو المال ، والاخلاص له وليس الايمان أول النهار والكفر آخره أو الايمان فى العلن والكفر فى السر أو الايمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر . كما تقوم على المساواة بين الشعوب أمام اله واحد ، وألا يعتبر شعب نفسه فوق الجميع ، له حق الحياة والوجود وليس أمام الآخرين الا الموت والفناء .

سابعا : البقية الصالحة .

هذه الاوصاف التى أطلقها القرآن على بنى اسرائيل تصدق على الاغلبية منهم ، على أكثرهم وليس على الاقلية منهم ، وهى الاقلية المؤمنة التى تعلم الحق وتعمل به والتى تذكر أحيانا الاغلبية بكفرها وعصيانها ، « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (٣ : ١١٠) . لذلك يشير القرآن الى « فريق منهم » وليس الى مجموعهم أو الى « طائفة منهم » وليس اليهم كلهم أو « من الذين هادوا » وليس كل الذين هادوا أو « ومن الذين أوتوا الكتاب أو « الذين كفروا من بنى اسرائيل » وليس المؤمنون منهم . هذه الاحكام الكلية والجزئية تفصل بين الاغلبية الكافرة والاقلية المؤمنة . وأحيانا يكون الحكم مستثنيا للاقلية من الكفر « الا قليلا منهم » . وقد تبلغ الاقلية أمة « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٧ : ١٥٩) أو « وقطعناهم فى الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » (٧ : ١٦٨) .

وأحيانا تبلغ الاقلية رجلا أو رجلين « قال رجلان من الذين يخافون ... » . هذه الاقلية هي التي تصدت للعنصرية الاسرائيلية القديمة والحديثة والتي آمنت بالرغم من كفرهم ، وأطاعت بالرغم من عصيانهم، وهم الحنفاء الذين رفضوا القبلية العبرانية ، والذي كان ابراهيم منهم ، والذين خرج منهم أخيرا محمد . فالحنفاء يؤمنون بالله ويخلصون له ويطيعونه ويعملون الخير ، ويتقون الله ، ويعيشون على الفطرة . ويحترمون الآخرين ، ولا فضل لعربي على عجمي لديهم الا بالتقوى والعمل الصالح . وهم من المحدثين كل من يرفض العنصرية اليهودية من أمثال فلاسفة التنوير الذين أرادوا جعل اليهود مثل غيرهم من البشر وليسوا منفصلين عنهم .

وقد استغل اليهود هذه الاقلية أسوء استغلال عندما جعلوا الاكثرية تفعل ما تشاء من كفر وعصيان وأن الله سيغفر لها من أجل الاقلية . فتركت الاكثرية لنفسها الحبل على الغارب تعلق أخطاءها على تقوى الاقلية ، وتنتظر خلاصها من خلال ايمان الاقلية . اذ يكفى أن يكون منهم مؤمنا واحدا حتى يتم خلاص الجميع من خلاله . وبالتالي ضاعت المسئولية الفردية وانتشر الكفر والفسوق والعصيان في حين أن ايمان الاقلية كما يصفه القرآن لا يعفى من عقاب الاكثرية التي لعنها الله وضرب عليها الذلة والمسكنة وغضب منها ولفظها وخلدها في النار .

ويصف القرآن هذه البقية الصالحة بالايمان والعمل الصالح ، « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم لا خف عليهم

ولا هم يحزنون » (٢ : ٦٢) • فهم المؤمنون سواء كانوا مسلمين أم يهود أم مسيحيين أم صابئة ، مؤمنون بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، الايمان بالله أى التوحيد ، واليوم الآخر أى رفض التكالب على الدنيا ، والعمل الصالح أى رفض الاختيار المسبق • وليس المهم هو اليهودى المنتسب الى الشعب اليهودى بل المهم هو بماذا يؤمن وماذا يعمل ؟ هل يعتبر نفسه فوق الجميع أم مساويا لغيره من الشعوب ؟ هل يعتدى على غيره أم يعترف بوجودهم ؟ « انالذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥ : ٦٩) • ولا يساوى القرآن بين الاكثرية والاقلية ، « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، أولئك من الصالحين ، ما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين » (٣ : ١١٣ — ١١٥) • فالاقلية مؤمنة تقية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر على عكس الاكثرية من بنى اسرائيل التى كانت لا تتناهى عن منكر تفعله ، ولا تسارع فى الخير وتقترف اثم العدوان • ويستثنى القرآن هذه الاقلية من أهل الكتاب ، « وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله ، ولا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، ان الله سريع الحساب » (٣ : ٩٩)• وهم الذين يتصفون بنقيض صفات بنى اسرائيل والذين يؤمنون ويعملون ويصلون ويزكون • « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سيؤتيهم أجرا عظيما » (٤ : ١٦٢) •

عبد الناصر وقضيه الصلح مع إسرائيل

مقـــــدمة :

أولا : الموضوع والمنهج والغاية .

يبدو أن أقسى ما يمر بجيل ما هو أن تهتز قناعاته ، وتثار الشكوك حول مبادىء نضاله ، وينقلب فى تصوره للعالم وفى وجدانه من الضـد الى الضد . وتكون القسوة على هذا الجيل المخضرم عندما ينقسـم الى شطرين ، الشطر الاول خلقه بيديه ، وناضل من أجله ، واستشهد فى سبيله ، ومازال قادرا على العطاء ، تملؤه امكانيات الاستمرار . والشطر الثانى مفروض عليه ، أتاه دون أن يتوقع ، أدخل اليه كجسم غريب فيه . والاخطر من ذلك أن يجعله يندم على ما فات ، فما خلقه بيديه فى شطره الاول كان وهما خادعا ، سرابا بعيد المنال ، حلما لا يتحقق ، وما أدركه بشطره الثانى كان واقعا حسيا ملموسا ، ادراكا لبدنه وحياته ، لغذائه وكسائه ، لكسبه وغناه ، وما كانت الآخرة لتغنى عن الدنيا شيئا . وذلك هو حال جيلنا ، على الاقل فى مصر ، الذى انقلب مشروعه القومى من معاداة للاستعمار والصهيونية والرجعية ونضال من أجل الحريـة والاشتراكية والوحدة الى تحالف مع الاستعمار ، وتسليم بالصهيونية ، وترسيخ للرجعية ، وقضاء على الحرية ، والاعلان بأن الرأسمالية لم

نشر هذا البحث فى كتاب « قضايا عربية » بعنوان « عبد الناصر وما بعد » ، سبتمبر ١٩٨٠ كبديل عن عدد أكتوبر ١٩٨٠ .

تعد جريمة ، واحتجاب مصر • وبالتالى أصبح جيلا مشـطورا الى شطرين ، ينتابه الذهول لهول ما يرى ، يهاجر ويعـارض ويصرخ فى الخارج ، أو ييئس ويكتم صوته فى الداخل ، أو يعيد تكوينه بطريقة ما • فقد يكون هو المسئول عما حل به •

والحجة التى يسمعها هى الآتية ، وما الجديد فى هذا ؟ ألم يكن ما يحدث الآن نتيجة طبيعية للماضى ؟ لطالما عارضنا الصهيونية فحاربتنا، وتوالت علينا ثلاث هزائم ، وأصبحت اسرائيل أمرا واقعا • فكيف لا نعترف بمن يحتل الارض ، ويهدد بالتوسع والعدوان ؟ لقد اعترف العالم أجمع بدولة اسرائيل شرقا وغربا ، والواقع أكثر ثباتا من المنى والاحلام ، وظل مشروعنا القومى يتقلص يوما بعد يوم ، من تحرير لفلسطين كلها ، الى اقامة دولة علمانية يتعايش فيها جميع الاديان ، الى ازالة آثار العدوان ، الى تكوين دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس العربية ، الى الحكم الذاتى ، الى غزة فقط أى سلسلة من التنازلات لم تنته بعد • الى متى هذا الرفض الخاسر ؟ ولماذا لا نقبل الممكن اليوم ، أى شىء ونحصل عليه ونتمسك به • ونجعل ذلك بداية طريق طويل لمزيد من المكاسب حتى ولو كان الثمن باهظا : اعتراف وصلح ، ومفاوضة ! ويكون الامر أكثر خطورة عندما يقال : وما الغريب فى هذا التحول التاريخى وقد كان جمال عبد الناصر مؤسس نهضة مصر الحديثة ورائد القومية العربية ، وزعيم الامة ومحقق وحدتها والذى مازالت الجماهير تهتف باسمه بصوت عال فى العالم العربى ، وبصوت مكتوم فى مصر ، هو الذى بدأ هذا الطريق خاصة بعد هزيمة العرب فى يونيو — حزيران ١٩٦٧ — وقبوله مشروع روجرز ، وعدم رفضه لمبدأ

التعايش السلمى مع أسرائيل اذا ما انسحبت من الاراضى المحتلة وعادت الى حدود ٥ يونيو — حزيران ١٩٦٧ ، وحديثه عن الحل السلمى . واعتماده على قرارات الامم المتحدة والشرعية الدولية ، وبدايات غزله مع أمريكا ، وضيقه من الروس ، ورغبته فى تحرير النظام الداخلى فى مصر من قبضة الدولة على مظاهر النشاط الاقتصادى خاصة ؟

ومن ثم يكون السؤال بالنسبة لنا هو الآتى : هل اهتزت قناعات جيلنا وثارت الشكوك فى وجداننا عن هذه المبادىء التى كانت مسلمات فى وعينا القومى وعليها قام أكبر مشروع سياسى حديث منذ محمد على فى القرن الماضى ؟ هل هناك تراجع فى موقف عبد الناصر من قضـية الاستعمار والصهيونية وطابعها العدوانى التوسعى العنصرى أم أن هناك مبادىء أساسية لم تتغير حتى فى أحلك فترات الهزيمة التى كان الغرض منها فرض الصلح بالقوة على العرب والاعتراف باسرائيل ؟ هل كان يتصور الصراع بين القومية العربية والصهيونية صراعا جوهريا أساسيا ، لا بقاء لاحدهما الابفناء الآخر ، فالتناقض بينهما مبدئى لا مرحلى ، جوهرى لا عرضى أم أنه صراع مؤقت يعكس ميزان القوى المحلية والدولية ، ليس له أولوية مطلقة على باقى أشـكال النضال العربى مثل التنمية والوحدة ؟ هل كان عبد الناصر ، بحديثه عن التسوية الممكنة ، والتعايش السلمى ، والحل السياسى ، وبقبوله مبادرة روجرز فى آخر عام من حياته ينوى حقيقة الصلح مع اسرائيل أو الاعتراف بها أو التفاوض معها ؟ ألم يعط مشروع روجرز الحـد الادنى من المطالب العربية : ازالة آثار العدوان ، وأعطى اسرائيل كل ما تتمناه من اعتراف ، وصلح ، ومفاوضة ، ومرور فى الممرات المائية بما فيها قناة

السويس ؟ ألم يقبل ناصر مفاوضات غير مباشرة عن طريق مهمة السفير يارنج المبعوث الدولى وممثل الامم المتحدة أو بمباحثات الدول الاربع الكبرى ، أو باتفاق القوتين العظميين ، أو حتى بالحديث عن « صيغة رودس » عام ١٩٤٩ ؟

مهمة هذا البحث اذن هو الاجابة على هذا السؤال • ليس بهدف الهجوم على شخصيات عربية فى موطن الحكم أو خارجه ، حية أو متوفية بل لتحليل مواقف تاريخية فى جيلنا • فما حدث لا خزى فيه ولا عار منه لانه أصبح واقعا لا يمكن تجنبه ، تتوارثه الاجيال ، وتعى دروسه ، ويكون جزءا من خبراتها • وبالرغم من كونها موضوعات مكررة ومعروفة مثل الطابع العدوانى لاسرائيل ، تحالف الاستعمار والصهيونية ، اسرائيل كرأس جسر للاستعمار ، حقوق شعب فلسطين ، قرارات الامم المتحدة ، مأساة ١٩٤٨ ، العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ ، قضايا التسليح الا انها هى التى شكلت الموقف العام ، وحددت عناصر الاجابة على هذا السؤال : عبد الناصر وقضية الصلح مع اسرائيل • فالتكرار بالنسبة لنا قد يكون تثبيتا لاقناعاتنا وابرازا لعناصر موقف جيل بأكمله •

ولا خوف أيضا من الوقوع فى الخطابة السياسية • فهى على كل حال قد شكلت مفاهيم جيلنا ورؤيته للصراع • وقد لعبت دور الايديولوجية لدى الجماهير العربية نظرا لغياب ايديولوجية نظرية محكمة بديلة • وقد كانت خطب عبد الناصر ، وتصريحاته ، وأحاديثه ، ومؤتمراته الصحفية احداثا فى عالمنا العربى وعلى الصعيد الدولى مثل خطاب تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦/٧/٢٦ أو مؤتمره

الصحفى العالمى فى ١٩٦٧/٥/٢٨ قبل الهزيمة بأسبوع واحد • لذلك اعتمدنا أساسا على هذه المادة لتحليل رؤيته لقضية الصلح مع اسرائيل •

ورؤية الزعيم تكشف عن بواعثه ، وتبنى دوافع قراراته السياسية وليست مجرد موضوع نظرى لا صلة له بالاحداث السياسية • فالسياسة هى البواعث ، والبواعث هى التى توجه الرؤية ، وتبين « الحالة النفسية » • فالسياسة أحيانا ايحاء وبث فى الروع وهو ما يسمى باللغة النووية « سلاح الردع » • الخطابة السياسية ليست مجرد «ديماجوجية» بل هى قناعات وجدانية لجيل بأكمله بالرغم مما يشوبها من حدة الانفعال ونقص التصور النظرى(١) •

ويمكن معالجة الموضوع بطريقتين :

الاولى تتبع مراحل فكر عبد الناصر وتطور مواقفه بالنسبة لقضية الصلح مع اسرائيل • ويتضح ذلك من سلسلة المعارك المتتالية التى خاضها فى جملة نضاله السياسى ضد الاستعمار والصهيونية

---

(١) اعتمدنا على المجلدات الخمس التى نشرتها وزارة الارشاد القومى ، مصلحة الاستعلامات ، القاهرة بالجمهورية العربية المتحدة بعنوان « مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر » الاول ١٩٥٢ — ١٩٥٨ ؛ والثانى ١٩٥٨ — ١٩٦٠ ، والثالث ١٩٦٠ — ١٩٦٢ ، والرابع ١٩٦٢ — ١٩٦٤ ، والخامس ١٩٦٤ — ١٩٦٦ . وقد نشر الاهرام ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، مجلدين بعنوان وثائق عبد الناصر ، خطب ، أحاديث ، تصريحات ، الاول ١٩٦٧ — ١٩٦٨ والثانى ١٩٦٩ — ١٩٧٠ وسميناها السادس والسابع سهولة للاحالة . واقتصرنا على رقم المجلد والصفحة .

والرجعية • كان البعض منها داخليا مثل ربطه بين الصهيونية والشيوعية ابان أزمة مارس فى مصر ١٩٥٤ والصراع على السلطة ، ولكن الاكثر منها كان خارجيا مثل ربطه أيضا بين الصهيونية والشيوعية ابان خلافه مع « قاسم العراق » فى ١٩٥٩ • ولكن المعارك الاساسية كانت فى محاولة الصهيونية الوقيعة بين الثورة والغرب لمنع اتفاقية الجلاء فى ١٩٥٤ ، ومعركة كسر احتكـــار السلاح وصفقة السلاح التشيكى فى ١٩٥٥ ، والعدوان الاسرائيلى على غزة فى ١٩٥٥ ، والعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ الذى جعل ناصر يربط بين الصهيونية والاستعمار ، ويكشف عن طبيعتها العدوانية • ثم معاركه من أجل الوحدة فى ١٩٥٨ ، ومناهضة الصهيونية للقومية العربية ، وتأييدها للانفصال فى ١٩٦١ • ثم معاركه من أجـــل التقدم السياسى والاجتماعى وبناء الاشتراكية ومقاومة الرجعية لاعادة البناء الداخلى للامة العربية قبل دخولها معركة التحرير ، تحرير شعب فلسطين من العدوان الصهيونى • ثم معارك تحويل مياه نهر الاردن فى ١٩٦٤ ، وسياسة مؤتمرات القمة ، ومحاولة اقامة دفـــاع عربى مشترك ، وابراز الكيان الفلسطينى • ثم محاربة الصهيونية كحركـــة تحرر مضادة ، وحصارها فى آسيا وافريقيا ودول عدم الانحياز فى ١٩٦٤ • ثم معركته ضد ألمانيا وتسليح اسرائيل وتعويضها والاعتراف بها فى ١٩٦٥ ، والوقوف أمام دعوة الصلح التى ألقى بها بورقيبة فى ١٩٦٥ ثم الشاه والدعوة الى الحلف الاسلامى فى ١٩٦٦ • وأخيرا صموده بعد هزيمة يونيو — حزيران ١٩٦٧ ، ورفض المفاوضات المباشرة ، والصلح ، والاعتراف ، ورفضه الحلول الجزئية ، وربط ذلك كله أولا وآخرا بقضية فلسطين وحقوق شعب فلسطين •

والثانية ، وهى التى اخترناها ، بناء الموضوع ذاته بصرف النظر

عن المواقف التاريخية ، وجعله تصورا ثابتا ودائما حدد رؤية عبد الناصر ، كان الدافع وراء قراراته يقوم أولا على بيان المبادىء الاساسية والتناقضات الجوهرية بين القومية العربية والصهيونية ، بين الاستعمار والتحرر ، بين العدوان وحقوق شعب فلسطين ، بين الرجعية والتقدم • ثم يبنى ثانيا النتائج المنطقية والحقائق الفعلية المترتبة على هذه المبادىء الاساسية مثل استحالة الصلح والاعتراف والمفاوضة مع الكيان الاسرائيلى • وادانة كل محاولة لتحقيق هذا الهدف مثل دعوة الشاه أو بورقيبة أو اعتراف ألمانيا باسرائيل أو تحقيق الهدف السياسى من عدوان يونيو — حزيران ١٩٦٧ •

ثانيا : المبادىء الاساسية والتناقضات الجوهرية •

لم تكن منطلقات عبد الناصر الاعتبارات العملية فى رؤيته لقضية فلسطين مثل الرخاء ، وتوفير الغذاء ، وزيادة المدخرات ، وذلك كله لشعب مصر الذى أضنته الحروب ، وأنهكته المعارك ، وأغقرته ميزانية التسليح • بل كانت منطلقاته مبادىء أساسية فى غاية الوضوح والبداهة، تؤيدها الحوادث ، وتثبتها الوقائع ، ويمكن التحقق من صدقها فى التاريخ • هذه المبادىء تحتوى فى ذاتها على تناقضات جوهرية لا حل لها الا الصراع مثل القومية والعنصرية ، التحرر والاستعمار ، التقدم والرجعية ، فلسطين واسرائيل • لا بقاء لاحدهما الا بنفى الآخر • ويظهر ذلك على النحو الآتى :

١ — الجريمة العنصرية :

يرى عبد الناصر أن مجرد ذكر فلسطين يعيد الى ذهن كل عربى

والى ذهن كل انسان أكبر جريمة دولية ارتكبت فى تاريخ الانسانية كلها • لقد شهد التاريخ من حين الى حين توسع دولة أو انتقاص أراضيها • ولكن لم يشهد التاريخ مثل هذه المحاولة لاحلال شعب بأكمله محل شعب آخر ، واقصاء قومية بأكملها وزرع قومية أخرى بديلة عنها • وطرد وتشريد جنس ووضع جنس آخر مكانه • فحلت الصهيونية محل القومية العربية فى فلسطين ، وقامت اسرائيل دولة ملفقة على عدة أجناس مختلفة ، يتكلمون لغات متباينة ، بدعوى الجنس الواحد • كانت جريمة الاعتداء على مقدسات الامم والافراد ، تلك المقدسات التى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها أو المساس بها • ان قضية فلسطين نقطة سوداء فى حضارة القرن العشرين • ولا تعادلها الا جريمة العنصرية البيضاء فى جنوب أفريقيا ، كلاهما استعمار استيطانى وزرع لاجسام غريبة لدى شعوب أخرى • ومن هنا أتت مناصرة جميع حركات التحرر فى افريقيا وآسيا للقضية الفلسطينية(٢) •

وكان وعد بلفور عام ١٩١٧ فى تصور ناصر بداية الطريق نحو نهاية فلسطين • كانت فلسطين أكثر من زميل فى حلف • وكانت تحت الانتداب البريطانى وتحت كنفه ورعايته ، مسئول عنها أمام عصبة الامم • ومع ذلك سلمها الاستعمار ، وباع شعبها • لقد خلق الاستعمار اسرائيل ، ومكنت بريطانيا اليهود من الهجرة الى فلسطين • كان اليهود أيام وعد بلفور لا يمثلون أكثر من ٥٪ من مجموع السكان • ومع ذلك وعدهم

---

(٢) حـ ١ ص ٢٨١ فى ١٩٥٥/٧/٢٣ ، ص ٨٧ فى ١٩٥٦/٢/١٣ .

بفلسطين العربية • وبدأت العصابات الصهيونية فى تشريد الشعب ، شعب فلسطين ، حتى اغتصبوا الارض بالرغم من قتال شعبها دفاعا عن وطنه ، وأهدرت آدمية الاهل وقومية الشعب تحت سمع وبصر الامم المتحدة ، وبموافقة بعض الدول الكبرى ارضاء للمنظمات الصهيونية • وفى مقابل ذلك لم تطرد الشعوب العربية أى يهودى بيتها ، بل كان لليهود عصرهم الذهبى فى الاندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى بين العرب ، لم تطرد مصر أى يهودى أثناء العدوان الثلاثى لانه يهودى بل لانه انجليزى أو فرنسى • ومن ثم فاسرائيل دولة عنصرية لا تعترف بأية قومية أخرى ، ولا تسلم بحقوق أى شعب آخر • ويظهر ذلك من سلوكها الانانى حتى انها لتعتقد أن تفكير الناس جميعا ينصرف اليها ، وأنه لا يوجد من الامور والمشاكل ما هو أعظم أو أكبر منها ، وهى مشـكلة فريدة من نوعها تختلف عن مشكلة برلين • فبرلين لا خلاف عليها ، مقسمة أو غير مقسمة ، محتلة أو غـير محتلة • أما مشـكلة فلسطين فقد طرد شعب من أرضه وأغتصبت أملاكـه وحل محلـه شعب آخـر فى حين بقى الشعب الالمانى كما هو سـواء فى برلين الشرقية أو فى برلين الغربية لم يتزحزح عن أرضه •

وينتهى ناصر الى النتيجـة الآتية « لن ننسى فلسطين أبـدا ، ولن ينسى العرب المؤامرات التى دبرت للقضـاء على القومية العربية فى فلسطين ، مؤامرات الصهيونية والاستعمار • ان آلام شعب فلسطين المشردين وعذابهم كفيل وحده بأن يقضى على كل حجـة تساق للدفاع عن اسرائيل أو تبرير عدوانها المتكرر • لا مساومة اذن على الجريمة

العنصرية ولا اعتراف بمن ارتكبوها »(٣) •

٢ ـ الطبيعة العدوانية :

ومنذ بدايات الحركة الصهيونية تظهر طبيعتها العدوانية فى طرد شعب فلسطين واحلال شعب آخر بدلا عنه ، وتكرار العدوان على الشعوب العربية دون أى التزام بقرارات الامم المتحدة • وكانت قمة العدوان فى الغارة الوحشية على قطاع غزة التى دبرها بن جوريون فى ١٩٥٥/٢/٢٨ والتى وصفها رجال الامم المتحدة بأنها اعتداء وحشى بربرى للحصول على كميات من الاسلحة من فرنسا • كانت هذه الغارة نقطة تحول فى تاريخ الثورة المصرية ، وناقوس الخطر وبداية التفكير فى « التوازن فى المنطقة » الذى كان يعنى بالنسبة للغرب حفظ ميزان القوى باستمرار لصالح اسرائيل • لم يأت العدوان من جانب مصر كما تقول وثيقة « المخابرات البريطانية » فان جميع الظواهر تدل على أنه ليس لمصر أية نوايا للعدوان • وان مصر لقليلة الثقة فى أن الحكومة الاسرائيلية سوف تنتهج سياسة سلمية • لقد صرح بن جوريون فى أنه قتل ٢٩ من رجال مصر فى الاعتداء على غزة حتى يثير الخوف فى نفوس المصريين كما أراد بيجين أن يثير الخوف فى نفوس الفلسطينيين فى مذبحة دير ياسين • ثم كان أكبر دليل على طبيعة العدوانية للصهيونية العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ ثم عدوان ١٩٦٧ •

---

(٣) ص ٢٨٧ — ٢٨٨ فى ١٩٥٥/٢/١٩ ، ص ٢١٦ فى ١٩٥٤/٩/١٢ •

لذلك كانت قضية التسليح قضية جوهرية من أجل الدفاع عن الامة العربيــة • فلا يقابل العــدوان الا بالدفاع ، ولا تقابل القوة الا بقوة مثلها • فمصر ترد بالقوة على كل اعتداء لاسرائيل بالاعتماد على ميثاق الضمان الجماعى العــربى • ومن ثم كانت قضية كسر احتكار السـلاح قضية جوهرية فى أول الثورة المصرية حتى تتمكن مصر من الدفــاع عن نفسها ورد العدوان • فعقدت صفقة الاسلحة التشيكية بعد الغارة على غزة وفى نفس الســنة والتى كانت بداية للتعاون فيما بعــد مع المعسكر الشرقى • وكانت انجلترا تمد اسرائيل بالسلاح وتمنعــه عن العرب أثناء حرب فلسطين • فاسرائيل تتسلح بواسطة من خلقوها حتى تصــبح سيفا مسلطا على العرب • ثم أخذت اسرائيل أسلحة من فرنسا وبلجيكا وكندا وأخيرا امريكا ليعادل مجموع ما يأخذه العرب من أســلحة • فلما اعتمدت مصر على السلاح الشرقى قال الغرب أنه ســلاح شيوعى • والحقيقة أن هذا التسليح الشامل لاسرائيل يجعلها أكثر قدرة على التوسع والعدوان • بل ان اسرائيل تحاول امتلاك القنبلة الذرية فى حــين أن مصر قد وقعت على معاهدة منع انتشــار الاسلحة النووية حتى تشمل اسرائيل الكبرى فلسطين والاردن والســعودية واليمن والخليج العربى كله وســوريا ولبنان وجزءا من العراق حتى نهر الفرات وصحراء سيناء كلها حتى قنــاة السويس •

ويأخذ العدوان الصــهيونى فى تصور ناصر طابعا توســعيا ، ويعتبر فلسطين ركيزة أولى للانتشار حتى يتحقق الحلم الصــهيونى ، « من النيل الى الفرات » • والذى يتتبع خريطة اسرائيل منــذ ١٩٤٨

حتى الآن يجد اتساع رقعة الدولة ، توسعوا على حساب المنطقة المنزوعة السلاح ، ثم مضايق تيران بعد العدوان الثلاثى ، ثم احتلال أراضى سيناء والضفة الغربية والجولان وغزة فى عدوان ١٩٦٧ • وقد أثبت عدوان ١٩٦٧ أن القضية ليست فلسطين بل التوسع وتحقيق الحلم الصهيونى • لقد كانت محزنة فى اسرائيل عندما انسحبوا فى مارس ١٩٥٧ من غزة ، وكان بن جوريون يبكى ومعه نوابه لانهم كانوا قد ضموا قطاع غزة الى اسرائيل ، واعلنا أن غزة تمثل الجزء الباقى من فلسطين العربية وهو حق اسرائيل • أراد الاستعمار اختبار قوة مصر ومحاصرة جيش مصر بين فكى كماشة فى سيناء فى ١٩٥٦ فدفعوا باسرائيل للقيام بالمهمة • هاجمت اسرائيل الحدود المصرية التى أعلنت مع الاستعمار فى « التصريح الثلاثى » ضمان سلامة الدول العربية واسرائيل ثم دفن هذا التصريح فى بورسعيد • واثر عدوان ١٩٦٧ قال ديان وزير دفاع اسرائيل لشباب حزب العمل : لقد صنع آباؤنا حدود ١٩٤٧ ، خطة الامم المتحدة للتقسيم ، وصنعنا نحن حدود ١٩٤٩ ، وصنعتم أنتم حدود ١٩٦٧ ، وسيمد جيل آخر الحدود الذى ينبغى أن تكون فيه •

وبالتالى تمثل اسرائيل بالنسبة للامة العربية خطرين : الاول ، تعرض الشعب الفلسطينى للابادة والطرد من بلاده ، وحرمانه من ممتلكاته ووطنه • والثانى التوسع الاقليمى بحيث تستطيع اسرائيل توطين ملايين من المهاجرين من أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى حتى تستولى على مزيد من الارض وعلى مصادر الحياة • ثم تأتى الهجرات المتتالية كما صرح بن جوريون بأنه يأمل أن يصل عدد المهاجرين ليس الى الآلاف بل الى عشرات الالاف • فتفتح الهجرة

من البلاد الشرقية ، وترفع قيــود الهجرة من الاتحاد السوفيتي • والهجرة من شرق أوربا قادرة على احضـــار ما بين ٢٥٠ — ٣٠٠ ألف يهــودي ، ومن الاتحاد السوفيتي ٥ر٣ مليون يهودي • فاذا كانت اسرائيل قد أحضرت مليونا من المهـــاجرين في العشر سنين الماضية ، فانها تأمل أن تحضر ما بين مليون ومليونين في العشر سنوات القادمة • وبالاضافة الى الاقتصـــاد المنهار ، وبثلاثة أرباع ميزانية الدولة من الخارج لا يســـع اسرائيل الا التوسع على حساب مزيد من التشريد للامة العربية(٤) •

٢ — صـــنيعة الاســـتعمار :

لقد نشأت اسرائيل — في تصور عبد الناصر — في كنف الاستعمار • واحتلت وغزت وتوســـعت كحليف للاستعمار • كان لبريطانيا الانتداب في فلسطين ولكنهـــا سلمت فلسطين لليهود ، وساعدتهم على الحصول على السلاح • يستعمل ناصر التعبيرات التي أصبحت شعارات وعنوانا لتصورنا لاسرائيل « رأس جسر » للاستعمار ، « مخلب قط » ، « الطعم الحقير » ، « الكلب الامين » • فبعد أن وعد الاســـتعمار العـــرب التخلص من الاتراك نكث بوعده ، وعملت بريطانيا على تقســـيم البلاد العربية لبث الفرقـــة بينها • وكشف العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦ ذلك بوضـــوح عندما استخدم الاستعمار اسرائيل في هـــذا العدوان لتكوين رأس جسر له على البـــلاد لتهديد العرب ، وتفتيت

---

(٤) ج ٣ ص ١١٤ — ١١٥ ، ص ١٤٠ ، ص ٥٠٣ في ٦١/٨/٢٦ •
ج ٢ ص ٢٩٣ — ٢٩٥ في ١٩٥٩/٢/٢١ •

القومية العربية حتى يرتمى العرب فى أحضان الدول الاستعمارية ويطلبوا منها الحماية ضد اسرائيل • فبعد أن خرجت قوات الاحتلال من مصر بدأت اعتداءات اسرائيل على الحدود حتى ننضم الى الاحلاف ونطالب الدول الاستعمارية بحمايتنا ضد اسرائيل ، فندخل فى حلف بغداد ، فيخرج الاستعمار من الباب ويعود من النافذة(٥) • وعلاقتها بالاستعمار علاقة ابتزاز واستغلال ، تدعى الصهيونية أنها مهددة كى تستحوذ على أكبر قدر ممكن من المال من الدول الاستعمارية • وبالتالى تخضع أوربا للصهيونية كما هو واضح فى مذكرات وكتابات قادتهم ، وكأن الصليبية القديمة مازالت تكشف عن جذورها فى الوعى الاوربى ، وكأن أوربا تريد التكفير عن أخطائها بالنسبة لليهود فآثرت التسليم بمطالب الصهيونية على حساب العرب • ولم تكن الصهيونية فى فلسطين وحدها بل كان وراءها النفوذ الصهيونى فى العالم ، والاستعمار العالمى بالمال والتأييد والمساعدة • فاسرائيل لا تمثل للمصريين أو للعرب أو للكتلة الاسيوية الافريقية وللضمير العالمى عدوانا اجراميا أو عسكريا ضدها فى هذه المنطقة من العالم فحسب بل تمثل شيئا آخر وهو السيطرة على شعوب المنطقة كلها من خلال هذه الدولة العنصرية المزروعة ، تمثل ضغطا أجنبيا على العرب • لقد صورت الصهيونية فى نيويورك قلب أمريكا أن العرب هم المعتدون وأن اسرائيل هى الضحية • والحقيقة أن اسرائيل هى المغتصبة وأن شعب فلسطين هو الضحية •

وبعد الاستعمار البريطانى ، اعتمدت الصهيونية على الاستعمار

---

(٥) جـ ٢ ص ٥٥٠ فى ٥٩/٧/٢٨ ، ص ١٣١ — ١٣٢ فى ١٩٥٨/٥/١٥ •

الامريكي بعد الحرب العالمية الثانيــة بعد أن ظهرت أمريكا كقــوة استعمارية أولى تخلف الاستعمار البريطاني العتيد • فالنفوذ الصهيوني في أمريكا له تأثير كبير ، ويقف حائلا بين العــرب وأمريكا ومن ثم « فانه من العبث أن ينشــد العرب عون أمريكا لان الساسة الامريكيين يضعون في اعتبارهم أصوات اليهود في الانتخابات الامريكية • واني على يقين بأن الولايات المتحــدة لا تستطيع أن تفعل أى شيء بالنسبة للشعوب العربية » • يتحدث الصهاينــة في أمريكا في مجلس الشيوخ عن الحرية ، حرية الشعوب ، ولكنهم لا يعنون حرية الجــزائر أو حرية فلسطين أو حرية عمــان أو حرية جنوب أفريقيا • يتحدثون عن حرية الملاحة لانها تخــدم أغراض الاستعمار والصهيونية • ولا يتحدثون عن حرية شعب فلسطين • فلتحــرر أمريكا من الصهيونيــة ولتحرر صحافتها من نفوذها أولا(٦) •

وبالتالي لن تقدر أمريكا أن تفعل للعــرب أى شيء بل انها تحاول ادخال المنطقة العربية في الاحلاف حتى تواجه مصر اسرائيل وحدها « لم أدرك أن اسرائيل مسألة حيوية للدول الغــربية الا قبيل ذهابي الى مؤتمر باندونج في العام الماضي • فالغرب يريد حمــاية اسرائيل قبل كل شيء • ولو نجحت خطة الغرب لاصــبح العالم العربي باسره متجها بنظره الى الشمال ، ومصر وحدها لاسرائيل » •

ولن تتحسن العلاقات بين مصر وأمريكا حتى توقف أمريكــا انحيازها لاسرائيل « وليس يجدي في ذلك أن نبدي النوايا الطيبــة

---

(٦) ج ١ ص ٣٨١ في ١٩٥٥/٧/٢٠ ، ج ٣ ص ٢٤٧ في ١٠/١٠/ ١٩٦٠ •

من ناحيتنا أو من ناحيتكم وانما الحقائق العملية هى وحدها التى يعتد بها » . فالعرب راغبون فى علاقات المودة مع الولايات المتحدة . ولكنهم ينتظرون أن يعاملوا نفس المعاملة التى تحظى بها اسرائيل . ان السياسة الامريية سائرة فى تحقيق هدفها ، وهو أن يتصور الناس هنا فى المشرق العربى أن أمريكا عاجزة عن تحقيق أى غرض فى صالحهم . كما أن من أهدافها تحويل الانظار عن اسرائيل وتوجيهها نحو خطر شيوعى مفتعل على سوريا ، وتفتيت الاجماع العربى على أن اسرائيل هى مكمن الخطر وليست الشيوعية . وتتركز أهداف السياسة الامريكية تجاه العالم العربى فى تصفية مشكلة اسرائيل على أساس الامر الواقع أى تحويل خطوط الهدنة مع اسرائيل الى خطوط دائمة واهدار حقوق شعب فلسطين . وبالنسبة لاسرائيل كانت أهداف أمريكا تحويل الانظار الى بعض الدول العربية الحليفة ، وأخيرا ربط الدول العربية فى نطاق واحد مع اسرائيل تقوم فيه أمريكا بدور التوفيق والتنسيق فى جميع النواحى العسكرية بحيث أن اسرائيل لم تعد فى الحقيقة عدوا للدول العربية بل زميلا لهم فى حلف مثل مشروع ايزناهور ومشروع الدفاع عن الشرق الاوسط الذى رفض فى ١٩٥١ وأيام حلف بغداد(٧) .

ويربط عبد الناصر بين الصهيونية والشيوعية . فالاستعمار واحد بصرف النظر عن مصدره ، من الغرب أو من الشرق . وقد

---

(٧) ج ١ ص ٤٦٠ فى ١٩٥٦/٣/٢٦ ، ج ٣ ص ١١٧ فى ١٩٦٠/٣/٢١ ، ص ٤٢٤ فى ٥٥/١٠/٦ .

ظهر هــذا الربط فى أوج معركته مع الشيوعيين فى ١٩٥٤ فى مصر وفى ١٩٥٩ فى مصر والعـراق • فالشيوعيون فى رأى عبد الناصر أكبر عون للصهيونية • كما تعمل الصهيونية على ايجاد تنظيمات شيوعية تخدع الناس تحت بعض الاسماء الخلابة البراقة مثل الحرية والديمقراطية • وتخــدر الناس بكلام معسول عن المساواة ورفع مســتوى العامل والفلاح والاخذ بيد الفقــير • وكان يمول أكبر منظمة شيوعية فى مصر كوربيل الصهيونى • ويستعملون طرقا معينة للتضليل كى يمكنــوا الصهيونية العالمية من احتلال وادى النيل وجزءا من العراق وجزءا من المملكة العربية السعودية • وهم لذلك يثيرون بعض الشعب وينسبونه الى الشعب باسم الشــيوعية وهم فى الحقيقة جماعة صهيونية قامت بعمل حرائق فى بعض المدن والمنشآت الوطنية •

ويتهم ناصر اسرائيل بأنهــا تشاطر الشيوعيين فى موقفهم عن قصــد أو عن غير قصد حينما تسعى للحيلولة دون الوصــول الى تسوية سلمية لمشكلة قناة السويس التى دامت ٧٢ عاما وعقد اتفاقية جــلاء قوات الاحتلال البريطانى عن قناة السويس فى ١٩٥٤ • فقد عقــد الشيوعيون والصهيونيون عزمهم على تعطيــل التســوية لان الاضطرابات فى العــالم العربى لا تخدم الا العناصر الهــدامة • وقــد ثبت فى مصر أن كلا الفريقين قد دبرا مؤامرة لحــرق مكتب الاستعلامات الامريكى بالقاهرة لان الكفــاح المسلح هو الطــريق لمحاربة الاستعمار •

كما عمل كلا الفريقين لهدم القومية العربية وبالتالى كانا حليفيين للرجعية والاستعمار • اذ يحــارب الشيوعيون فى العراق القوميــة

العربية ويتركون محاربة الصهيونية • وقاسم العراق فى رأى ناصر حليف للشيوعيين والبريطانيين والصهيونيين • كان هذا الموقف فى بداية الثورة المصرية وابان معركتهـا ضد خصومها • فاذا كانت الصهيونية تستعمل الافكار الاشتراكية أحيانا للانتشـار فان الشيوعيين ليسوا حلفاء للصهيونية • ويستعمل ناصر العداء الشعبى للصهيونية ويوجهه ضد الشيوعية التى تبناها خصومه السياسيون • ومع ذلك فان هـذا الربط بين الصهيونية والشيوعية لا يمثل عنصرا جوهريا فى تصـوره للصهيونية بدليل أنه لما سئل عنـه بعد انتهاء معركته مع قاسم لم يجب عنه نظرا لانتهاء الموضوع بانتهاء المعركة(٨) •

٤ ـ التحالف مع الرجعية :

وكانت مأساة ١٩٤٨ أكبر دليل على أن الرجعية العربيـة أكبر حليف للصهيونية • فقد كان الفساد والغدر والخيانة من أهم أسباب الهزيمة الاولى فى فلسطين • لم يحارب الجيش ، وراح ضحية الغـدر والخيانة والهدنة ، وخسر العرب الحرب نتيجة للانهيار والفسـاد السياسى الذى كان نتيجة للفسـاد الاجتماعى • لقد باع الملك عبد الله العرب وفلسطين الصهيونية واسرائيل • فكان قائدا للجيوش العربية • أمر بالانسحاب من اللد والرملة ، وقبل الهدنة ، حفاظا على العرش • وكان البعض الآخر يدخل المعركة بلا دبابات مع أن العرب كانوا يملكون المال • وكان باستطاعة الفلسطينيين شراء الطائرات •

---

(٨) جـ ١ ص ١٢٥ فى ١٩٥٤/٤/١٩ ، ص ١٨٧ فى ٥٤/٧/٢٩ ، ص ٢٢٠ فى ١٩٥٤/٩/١٣ ، جـ ٢ ص ٧٠٣ فى ١٩٥٩/١٢/١٣ ، ص ٤١٠ فى ٥٩/٤/٢٥ .

ثم أخذ البعض الآخر فيما بعد يؤيدون فلسطين بالخطب المنمقة وبتسمية اسرائيل « اسرائيل المزعومة » حتى يتأثر العرب وتنبعث الطمأنينة فى نفوسهم • ويصيح ناصر « اتجهوا الى العمل لانقاذ فلسطين » • سلم الاستعمار اليهود فلسطين ولم يفعل العرب شيئا ، انخدعوا وراء الكلام المعسول ، وضللهم زعماؤهم حرصا على مآربهم الشخصية ، ولم يستعملوا سلاح البترول •

وأراد الاستعمار أن يشطر العالم العربى شطرين • فأقام اسرائيل لقطع كل المواصلات البرية بين مصر والدول العربية شرق السويس • كان منطق الاستعمار فى زرع اسرائيل هو تمزيق الوحدة الجغرافية للعالم العربى من ناحية وأن يقيم لنفسه وسط العالم العربى من ناحية أخرى قاعدة يهدد منها الشعوب العربية وحتى يأمن مخاطر الوحدة العربية ، وليفصل بين عرب آسيا وعرب افريقيا ويقضى على القومية العربية ابتداء من القضاء على فلسطين(٩) •

لذلك كانت معارك التحرر العربى — كما يرى عبد الناصر — تهدف كلها الى تحرير فلسطين • فاذا كانت فلسطين قد ضاعت فى ١٩٤٨ بفعل الخيانة والغدر والتحكم واحتكار السلاح ، واستطاعت العصابات الصهيونية اغتصاب فلسطين ، وهزمت سبع جيوش عربية بسبب الخيانة ، خيانة الملوك ، وفساد النظم بالرغم من البيانات عن تحرير فلسطين فان كل معارك العرب اليوم من أجل القضاء على الاستعمار

---

(٩) جـ ٢ ص ٢٨١ — ٢٨٢ ، ص ٨٧ — ٨٩ فى ١٩٥٣/١٢/١٣ ، ص ٢٥٣ فى ٦٠/١٠/١٢ ، ص ٢٣٢ فى ١٩٦٠/٩/١٧ •

وأعوانه والاجراء وخدام الاستعمار . بل ان معارك العرب ضد الطائفية والانفصالية والانقسامية كلها من أجل تحرير فلسطين لان اسرائيل تعلم أن الوحدة العربية والقومية العربية خطر عليها . فمن أجل فلسطين حارب العرب فى ١٩٤٨ فاكتشفوا قوتهم وضعفهم ، قوتهم فى الوحدة والشرف وضعفهم فى الفرقة والغدر . كان شعور العرب فى فلسطين انه لابد من الثورة السياسية والثورة الاجتماعية حتى تنتصر الثورة العربية . ويعبر عبد الناصر فى فلسفة الثورة عن تمزقه وهو يعيش بخياله فى مصر حيث كان الحكام فى ذلك الوقت والانتهازيون يتاجرون بالقضية ، ويشترون الاسلحة الفاسدة . ويجمعون المال . كان القتال فى القاهرة وليس فى فلسطين . لذلك كانت الثورة المصرية رد فعل على مأساة فلسطين . وكما يتضح ذلك من « فلسفة الثورة » عندما كان يسرح خيال الضباط الاحرار فى مصر ، بؤرة الفساد السياسى والاجتماعى فى ذلك الوقت ، للقضاء على عملاء الاستعمار والخيانة ، والقيام بثورة سياسية واجتماعية فى مصر . « ولكى نكسب معركة فلسطين لابد من كسب معركة التحدى السياسى والاقتصادى والعسكرى » . فعلى ربى فلسطين ، وفى سهولها ووديانها، وفى خضم مأساتها ، وفى معترك الخيانة والغدر والفساد ظهرت حركة الضباط الاحرار ، وتجمعت عناصر الثورة . وبدأ المتطوعون يقتفون أثر البطل أحمد عبد العزيز ، كان أغلبهم من الضباط الاحرار . وكان كمال الدين حسين أولهم . واستشهد عدد منهم . فبفضل مأساة ١٩٤٨ وقضية فلسطين بدأت بواكير اليقظة العربية(١٠) .

---

(١٠) جـ ١ ص٧٣٠ فى ١٩٥٧/٩/١٧ ، جـ ٣ ص ٢٩٣ فى ١٩/ ١٠/

ونتيجة لذلك تحالفت الصهيونية مع الرجعيــة لضرب حركــة التحــرر العربى ، والقضــاء على الثورة العربيــة وانهاء التجــربة الاشتراكية فى مصر • فقد كان ناصر يرى أن التحرر العربى مقدمــة لتحرير فلسطين ، وأن كل ثورة عربية هو رصيد لقضية فلسطين • فكما أيقظت قضية فلسطين الوعى العربى فان الوعى العربى ، ردا للدين ، ووفاء بالجميل ، يكون شرطا لتحرير فلسطين • قد يأخذ ذلك وقتــا طيلا ، وقد لا يسعف الاستعمار لا ينتظر • لذلك حاول الاستعمار أن يجهض الثورات العربية قبل أن تكتمل لتصفية المقاومة العربية من الداخل ، لقد أدركت اسرائيل خطورة الثورة العربيــة عليهــا اذا ما نجحت فى اجراء التحول العظيم وانتقلت من التخلف الى التقدم لانها تدرك أن التقدم هى القاعدة التى يمكن للامة العربية أن تخوض عليها المعركة ضدها • ظنت اسرائيل الثورة انقلابا عسكريا ولم تدرك انها تغيرا ثوريا وحركة تحرر عربى • كما ان اسرائيل كانت تخشى تقــدم الشعب السورى وقوته وان ينهض صناعيا واجتماعيا لانه حين يتقدم سيكون أشد خطورة عليها • ويذكر ناصر فى ١٩٥٦ مقالا فى المجلــة العسكرية الاسرائيلية بعنوان « الى دمشق » فيقول : اذا أردنا أن نهزم العرب فليس أمامنا الا أن نتجه الى دمشق • وان الغلطة الكبرى التى ارتكبها الصليبيون حينما احتلوا البلاد العربية هــو عدم احتــلال سوريا كلها واخضاعها للصليبيين ، وهى الغلطة التى مكنت العرب من

= ١٩٦٠ ، ص ٢٦٩ فى ٦٠/١٠/١٦ ، جـ ٥ ص ٢٢٩ فى ١٩٦٥/٣/٩ ، وايضا « فلسفة الثورة » ص ٥٥ — ٦٣ وزارة الارشاد القومى ، مصلحة الاستعلامات ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

الاتحاد والتخلص من الاستعمار الصليبى . وقالت صحيفة اسرائيلية ان الخطر ينبعث من سوريا لان بها المقومات الكبرى للتطور الاجتماعى السريع .

ان تخلف العرب هو الذى يضمن لاسرائيل البقاء على الارض العربية الى الابد . وان الخطر الاسرائيلى يتلاشى حتى قبل المعركة العسكرية اذا تمكنت الامة العربية من أن تخلص نفسها من التخلف الذى فرضه الاستعمار عليها والذى تحاول الرجعية أن تفرضه بعد الاستعمار(١١) .

وتمثل اسرائيل فى تصور عبد الناصر احدى محاولات تمزيق الصف العربى ، وبث الفرقة بين العرب . فقد زرعت اسرائيل حتى تفصل المشرق العربى عن المغرب العربى ، واحتلت النقب حتى لا يمكن لعرب المشرق الاتصال بعرب المغرب ، تسعى اسرائيل لتفريق كلمة العرب والحيلولة بينهم وبين أن يجتمعوا ويتفقوا ويستفيدوا من تراث بلادهم وما فى مركزهم الجغرافى من منعة . لذلك ظهرت قضية فلسطين فى فكر ناصر بصورة ملحة أيام الوحدة بين مصر وسريا فى ١٩٥٨ — ١٩٦١ . وهى الفترة التى بلغت فيها القومية العربية الذروة وأثناء قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وأثناء رحلاته الى الاقليم الشمالى ووجوده فى حمص ، وحلب ، وحماة ، ودمشق .

كما انزعجت اسرائيل من تفجر الثورة العربية فى اليمن ومساندة

---

(١١) ج ٤ ص ٥٥١ فى ١٩٦٤/٣/٢٥ .

الثورة العربية فى مصر لها لان تحرك الشعب العربى فى كل مكان كما صرح بن جوريون معناه تطويق اسرائيل • فقد كانت الجنود تهتف عائدة من اليمن : فلسطين •• فلسطين(١٢) •

لذلك عادت اسرائيل الوحدة العربية وهللت للانفصال ، لانها تعلم أن وحدة الامة العربية تهدد وجودها ذاته لانها قامت على أنقاض هذه الوحدة • بل ان اسرائيل كانت وراء الانفصال ، ووجهت نداءات الى شعب غزة للثورة على مصر من أجل تسليمها للملكة الاردنية وبالتالى الى الاستعمار والصهيونية • لقد ضاعت الوحدة والامل لتحرير فلسطين بفعل الطابور الخامس وعملاء الرجعية • فالاستعمار والصهيونية والرجعية تود كلها التخلص من الوحدة العربية • تدافع اسرائيل عن خصوم مصر وتهاجم ناصر ، وتؤيد الانفصال وتهاجم الوحدة •

كانت الغاية النهائية من انشاء اسرائيل ضرب القومية العربية بمضمونها الثورى فى معاداة الاستعمار والتخلف والرجعية والصهيونية، وهى القوة التى بدأ يعمل لها الاستعمار حسابا لاول مرة فى التاريخ • فالصهيونية والقومية العربية على طرفى نقيض مثل الاستعمار والتحرر ، فى وجود اسرائيل ضعف للقومية العربية ، وفى وجود القومية العربية نهاية لاسرائيل • القومية العربية هى اذن الدرع الواقى ضد اسرائيل وأطماعها • ويعترف عبد الناصر بأنه قبل الغارة على غزة فى ١٩٥٥/٢/٢٨ لم يشغل نفسه كثيرا بخطر اسرائيل • وكان يعتبر خطر اسرائيل مشكلة

---

(١٢) جـ ١ ص ٣٨١ فى ١٩٥٥/٧/٢٠ •

السباق مع الوقت لبناء الوطن • كان خطر اسرائيل فى حقيقة أمره هو ضعف العرب • ولولا هذا الضعف لما قامت اسرائيل لتغتصب من الوطن العربى بقعة من أقدس بقاعه وأطهر أراضيه • فاذا استطاع ناصر بناء مصر ، هذه الارض الكبيرة التى يحلم ببنائها فان خطر اسرائيل يتلاشى • كانت مأساة فلسطين هى الصحوة الكبرى التى نبهت العرب الى محاولة القضاء على القومية العربية • فوجود اسرائيل وفكرتها تهديد للقومية العربية فى فلسطين من أجل القضاء عليها كلية فى هذه المنطقة • فبعد أن انهارت الدولة العثمانية ، حاولت أوربا تحقيق أطماعها فقسموا البلاد العربية بين فرنسا وبريطانيا • وحاول الاستعمار حينئذ القضاء على القومية العربية فزرعوا الصهيونية وقامت اسرائيل لتقضى على القومية العربية فى فلسطين كمقدمة للقضاء على العرب من النيل الى الفرات بداية بالهجرة ثم التوسع • وبالتالى أشعلت معركة فلسطين نار القومية العربية ، وقالت احدى صحف اسرائيل أنه أثناء احتلال ملوك أوربا لفلسطين وقع خطأ كبير لان القوات الصليبية لم تحتل العقبة وتفصل سوريا عن مصر • فلا مجال مطلقا لان تتحد سوريا مع مصر لان قيام اسرائيل بهذا الوضع لن يمكن التقاء القوى فى مصر مع القوى فى سوريا ، ولن يمكن القومية العربية من أن تجتمع لتتغلب على اسرائيل كما تغلبت من قبل منذ ١٢٠٠ سنة على العدوان الاوربى وعلى جميع ملوك أوربا(١٣) •

---

(١٣) ج ١ ص ٦٩٠ — ٦٩١ فى ١٩٥٧/٧/٢٣ ، ج ٣ ص ٩٨ فى ١٩٦٠/٣/٤ •

ثالثا : النتائج المنطقية والحقائق الفعلية •

ينتج من هذه المبادىء الاساسية والتناقضات الجوهرية السابقة عدة نتائج منطقية يدركها العقل ببداهته وهى فى نفس الوقت حقائق فعلية ووقائع يشاهدها الحس ، وتصدقها التجربة ، يراها كل منصف متجرد عن هواه • كلها تجعل الصلح مع اسرائيل بطبيعتها العدوانية التوسعية وبجرائمها العنصرية فى فلسطين ، وبتحالفها مع الاستعمار والرجعية ، تجعله مستحيلا حتى ولو تم فرض تسوية بالحرب كما حدث بالفعل بعد عدوان ١٩٦٧ • فلا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضة قبل ازالة آثار العدوان واسترداد حقوق شعب فلسطين وتطبيق قرارات الامم المتحدة حتى يقوم السلام على العدل • وكل دعوة للصلح أو للاعتراف كما حدث أيام الشاه وبورقيبة وألمانيا تهدف الى تحقيق أطماع الصهيونية والاستعمار فى المنطقة • وكل فرض للصلح وللمفاوضات المباشرة أو غير المباشرة هو تسليم للعدوان • ولكن الامكانيات العربية وحدها وقدرات الامة العربية وحدها هو الطريق الى الحل العادل الشامل •

١ — شروط الصلح المستحيل :

يرفض ناصر أى حديث عن التسوية السلمية أو اقرار السلام فى الشرق الاوسط ، قبل تحقيق شيئين : الاول ، ازالة آثار العدوان ، وانسحاب إسرائيل من جميع الاراضى العربية المحتلة ، والعودة الى خطوط ما قبل الخامس من يونيو — حزيران ١٩٦٧ : سيناء ، وغزة ، والجولان ، والضفة الغربية ، والقدس الشرقية ، وأى حديث عن التسوية قبل ذلك هو استسلام للعدوان ، ومكافأة على الاعتداء • ويرفض

ناصر فى أية تسوية رجوع سيناء منزوعة السلاح باستثناء ثلاثة عشر كيلو مترا على الجانبين فى سيناء والنقب ، فسيناء تمثل ٢٠٪ من مساحة مصر • كما يرفض أى تعديل فى الحدود بين اسرائيل والدول العربية ، فالضفة الغربية ٧٠٪ من الاراضى الاردنية ، والجولان ١٥٪ من الاراضى السـورية •

والثانى ، استرداد حقوق شعب فلسطين كما أقرتها الامم المتحدة بقراراتها العديدة والتى لم تنل حظ التنفيذ والتى تنص على حق شعب فلسطين فى العودة الى وطنـه والتعويض عن ممتلكاته • ان موقف مصر فى رأى ناصر ثابت لا يتغير ، وهو رفض عقد أية معاهدة صلح مـع اسرائيل الا بعد أن تقـوم اسرائيل باحترام قرارات الامم المتحدة وتنفيذها ، وبعد أن تحترم شروط الهدنة التى تنقضهـا كل يوم • ولكن اسرائيل ما برحت تتحدى الامم المتحدة ، وتواصل غاراتها الوحشية على القرى الامامية التى أثارت سخط الرأى العام العالمى • ان أية مفاوضات مـع اسرائيل يجب أن تكون لاقرار حقوق شعب فلسطين على أساس قرارات الامم المتحدة التى تنص على رجـوع اسرائيل الى الحدود التى تضمنها مشروع التقسيم الاصلى وأن تدفع تعويضات للعرب وتسمح بعودة الراغبين منهم الى ديارهم وتدويل القدس • ومع ذلك فاسترداد حقوق شعب فلسطين ليس فى حاجـة الى مفاوضات بل الى تنفيذ قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين فى ١٩٤٧ وفى ١٩٤٩ • ان حدود اسرائيل المتفق عليها هى حدود مشروع التقسيم فى ١٩٤٧ ، « ليس الامر اذن هو حرب أو سلام ، خطر أو أمان بل هناك طريق ثالث وهو الطريق الى المنطق والحق وطبـائع الاشياء ، وذلك هو طريق ميثاق الامم المتحدة وقراراتها ، ذلك هـو

الطريق المفتوح » • بل ان ناصر يرفض وجود دويلة فلسطينية نتيجة لتفاوض الفلسطينيين مع اسرائيل • « فذلك مستحيل ولا يمكن للفلسطينيين أن يوافقوا عليه • فهم يعرفون أن مثل تلك الدولة ستكون ضعيفة وتحت سيطرة اسرائيل • انما البديل أن تقوم دولة لا تقوم على أساس دين واحد بل تكون فيها كل الاديان ، ويعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود معا كما عاشوا من قبل قرونا طويلة • ربما يحدث ذلك فى الاجيال القادمة • أما الزعماء الحاليون فهم قصيرو النظر ، ولكن بعض الاسرائيليين يفكرون الآن على نحو آخر • فالاخاء لا يكون على حساب الحقيقة •

لقد طالما ناقش الغرب حق اسرائيل فى الوجود ، وحقها فى الامن ، وحقها فى الحدود المعترف بها ولكنه لم يناقش على الاطلاق حقوق الشعب الفلسطينى •

وبالتالى فان اقرار السلام بالشرق الاوسط رهن باحترام استقلال البلاد العربية والاعتراف بحقوق شعب فلسطين • ولن يكون هناك سلام فى الشرق الاوسط طالما غابت حقوق شعب فلسطين »(١٤) •

ليست المسألة اذن مسألة حل عسكرى ولا تسوية سلمية بل

---

(١٤) جا ص ٥١ فى ٥٣/٨/٢٢ ، فى ١٩٥٥/١١/١٢ ،ص ٤٣٣ — ٤٣٤ فى ٥٥/١١/١٨ ، ص ٤٥٥ — ٤٥٦ فى ١٩٥٦/٢/٢٧ ، ص ٧٧٤ فى ١٩٥٨/١/٢٧ ، جـ ٣ ص ١ — ٢ فى ٨/٣/ ١٩٦٠ ، جـ ٦ ص ٢٣٨ فى ١٩٦٨/٣/٤ •

مسألة عدوان وقع على شعب • ورداً على سؤال : كيف تأملون فى حل نزاعكم مع اسرائيل نهائيا بالمفاوضات السلمية أو بالحـــرب ؟ وعلى سؤال : لماذا تريدون القاء اليهود فى البحر ؟ ألا يمكن قبول الامر الواقع والاعتراف باسرائيل أم أن الحرب هى الحل الوحـــيد ؟ شرح ناصر أبعاد الجريمة العنصرية التى تمت فى فلسطين ليكسر بها حدة الدعاية التى أغرقت بها الصهيونية شـــعوب العالم مبينا أن مشكلة فلسطين لم يحدث مثلها فى التاريخ • فقد كانت بريطانيا قائمة على الانتداب فى فلسطين ، وكان الشعب الفلسطينى يمثل ٩٠٪ أو أكثر من سكان فلسطين والاسائيليون ١٠٪ • فبتحالف الاستعمار والصهيونية على طرد شعب فلسطين من فلسطين واعطاء البلاد لاسرائيل لاقامة دولة مبنية على الدين كيف يمكن الاعتراف بالامر الواقع على هـــذا النحو ؟ هناك أكثر من مليون عربى طردوا من فلسطين ، سلبوا أملاكهم ، وتعرضوا للعدوان ، وتعرض أولادهم ونساؤهم للقتل لانهم طردوا تحت الارهاب فى ١٩٤٨ • ثم اتخذت الامم المتحدة قرارات عن طريق مجلس الامن تنص على عودة الفلسطينيين الى بلادهم ، وتعويضهم عن أملاكهم التى اغتصبت • فضرب بهذا الكلام عرض الحائط بل ان الامم المتحـــدة قررت أيضا فى آخر ١٩٤٨ تكوين لجنة للتوفيق بين العرب واسرائيل واجتمعت فى لوزان وكانت تتكون من الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا وتتبع الامم المتحدة • بعد اجتماع واحد رفضت اسرائيل حضـــور اللجنة ، وأعلنت أنها لن تســـمح لأى فلسطينى بالعودة الى وطنه • وفى اسرائيل اليوم ٢ر٦ مليون اسرائيلى بالاضافة الى ٢٠٠ ألف عربى يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية فى مناطق مقفلة خاضعة للحكم العسكرى • هناك تمييز عنصرى ضدهم • لا يستطيعون أن يعملوا فى

الأعمال التى يريدونها أو أن يتحركوا من مكان الى مخر • هل يرضى الانجليز أو الامريكيون أن يحدث ذلك فى بلادهم والى مواطنيهم وأن يحل آخرون محلهم على بقعة من وطنهم ؟ وينتهى ناصر قائلا « اننا نعتقد أن السلام لا يمكن أن يقوم الا اذا كان قائما على العدل ••• واذا كان هناك من يريد أن يتحدث عن السلام فى الشرق الاوسط فليس له أن ينسى العدل فى الشرق الاوسط والسلام الذى لا يقوم على العدل معناه التهديد باستخدام القوة » (١٥) •

ولم يتنازل عبد الناصر عن منع مرور السفن الاسرائيلية بقناة السويس وربط ذلك بقضية فلسطين • ولم يتزحزح عن ذلك قيد أنملة منذ بداية الثورة المصرية وهى فى أوج انتصاراتها حتى هزيمة يونيو — حزيران ١٩٦٧ ، « اسرائيل لن تمر من قناة السويس ، وفلسطين جزء من الامة العربية » • لقد رفضت اسرائيل القيام بالتزاماتها وتنفيذ قرارات الامم المتحدة بشأن حقوق شعب فلسطين ، العودة أو التعويض• فلم تقبل اعادة اللاجئين الى أوطانهم كما لم تعوضهم عن ممتلكاتهم • فمسألة حرية الملاحة بقناة السويس هى مسألة فلسطين برمتهـا • فاسرائيل تريد الحصول من العرب على كل شىء ولا تريد أن تعطى العرب شيئا • وقد حدث أن أرادت اسرائيل اختبار صلابة الجمهورية العربية المتحدة وتحدى ارادتها فأرسلت سفينتين للحدود فاحتجزهما ناصر فى بورسعيد ورفض تفريغ شحنتيهما لانهما ملك لشعب فلسطين ، وجزء من تعويض ممتلكاتهم التى استولت عليها اسرائيل • وبعـد

---

(١٥) جـ ٤ ص ٤٥٨ — ٤٥٩ فى ١٩٦٣/١٠/١ •

عدوان ١٩٦٧ رفض ناصر أن تفتح قناة السويس للملاحة الدولية طالما أن هناك جنديا أجنبيا فى أرض عربية • لن تستخدم قناة السويس الا اذا جلت القوات المعتدية عن الاراضى التى اعتدت عليها واسترد ناصر مضايق تيران التى حلت فيها قوات الامم المتحدة منذ العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ • وأغلق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية لأنه مياه اقليمية عرضه ثلاثة أميال والمياه الاقليمية ستة أميال • ولقد كان مرور علم العدو أمام قواتنا أمرا لا يحتمل فضلا عن دواعى أخرى تتصل بأعز أمانى الامة العربية • وان اتفاقيات القسطنطينية فى ١٨٨٨ حول حرية الملاحة فى الممرات المائية لا تنطبق على مصر لان مصر فى حالة حرب مع اسرائيل • وان أى لجوء الى محاكم العدل الدولية لهو تعد على السيادة المصرية • « ولن نسمح لاسرائيل مهما كان الثمن ومهما كانت التكاليف أن تمر فى قناة السويس • ان المرور فى قناة السويس جزء لا يتجزأ من قضية فلسطين الاصلية وليس جزءا من ازالة آثار العدوان »(١٦) •

٢ ــ ادانة محاولات الصلح :

وقد أدان عبد الناصر كل محاولات الصلح مع اسرائيل أو الاعتراف بها وهى الدعوات التى روجها شاه ايران السابق والحبيب بورقيبة فى أوج صراعه مع عبد الناصر داخل العالم العربى أو التى حاولتها ألمانيا الغربية والتى دفعت عبد الناصر بقطع علاقته معها

---

(١٦) جـ ٣ ص ١٨٢ فى ١٩٦٠/٥/٧ •

والاعتراف بالمانيا الشرقية • وكل دعوة من هـذا النوع انما تهدف الى تحقيق أطماع الاستعمار والصهيونية وتثبيت لاركان الصهيونية •

كانت أول دعوة للصلح مع اسرائيل دعوة الرئيس بورقيبة فى ١٩٦٥ • فبالرغم من قبول عبد الناصر الدعـوة الى تونس للاحتفال بذكرى جلاء الفرنسيين عن بيزرت وتغليبا لوحـدة العمل العربى ؛ وبالرغم من رد بورقيبة الزيارة لمصر أدلى بتصريحات عن فلسـطين صدمت الامـة العربية فى مرحلة كانت القضية الفلسطينية فيها تمر بمرحلة حاسمة : تجمـع استعمارى صهيونى لتصفية قضية فلسطين ، تزويد اسرائيل بالسـلاح • مع أن بورقيبة وافق فى مؤتمر القمـة العربى الاول على اعتبار قيام اسرائيل هـو الخطر الاساسى الذى أجمعت الامـة العربية على دحره • كما وافق على مقررات مؤتمر القمة العربى الثانى الذى حدد الهدف العربى بأنه هدف نهـائى ، وهو تحرير فلسطين من الاستعمار • كما ارتبط بقرارات عدم الانحياز فى أكتوبر ، وأعلن تأييده لاسـتعادة حقوق الشعب الفلسطينى ، وتأييد الشعب العربى الفلسطينى فى كفاحه ضد الاستعمار والصهيونية •

وفجأة طالع بورقيبة العـالم العربى بتصريحات : التعـايش السلمى مع اسرائيل ، التفاوض مع اسرائيل ، الاعتراف باسرائيل ، مطالبة الدول العربية بالتعـاون مع اسرائيل ، اقامة علاقات اقتصادية بين العرب واسرائيل • وقال أنه لما ذهب الى الاردن وزار اللاجئين فى أريحا اكتشف الحل : الاعتراف باسرائيل والتعايش معها • وقـدم عدة حجج أهمها أن قضـية فلسطين ظلت سبعة عشر عاما بلا حـل فتعفنت ولا مخرج لها من كفنها الا بالاعتراف باسرائيل ! وانه أراد

أن يخدم العـــرب بتحريك القضية ! ويرد ناصر على ذلك بأن هـــذا الكلام لا يخدم العرب بأى حال من الاحوال . صحيح أنه يحـــرك القضية ولكن لصالح اسرائيل . فاسرائيل تأخذ هذا الكلام وتعرضه على الدول الافريقية والاسيوية التى أيدتنا فى مطالبنا بالنسبة لقضية فلســـطين كى ترجع عن تأييدها بسبب أن رئيس عربى تبنى وجهـــة نظر اسرائيل . كما ادعى بورقيبة أنه يود احراج اسرائيل حتى تعترف هى بحق شعب فلسطين بعد أن اعترف العرب بها . ويرد ناصر على هذه السذاجة بمؤتمر لوزان فى ١٩٤١ فى اللجنـــة التى كونتها الامم المتحدة « لجنة التوفيق » لتنفيذ قرارات الامم المتحـــدة : جلست اسرائيل فى اللجنة الى أن قبلت عضوا فى الامم المتحدة ثم غادرتهـــا ورفضت تنفيذ القرارات . كما رفضت اسرائيل تنفيذ مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ التى تنص على ضرورة تنفيذ قرارات الامم المتحدة . ويقدم بورقيبة حجة ثالثة بأن هذا الاعتراف يولد ضغطا على اسرائيل . ويرد ناصر بأن الدول العربية لم تضغط على اسرائيل ، ولم تمنـــع الدول الغربية مساندتها السياسية والعسكرية لاسرائيل . كما لم تضغط أمريكا على اسرائيل منذ ١٩٤٩ حتى الآن بل أعطتها كل ما لديها من امكانيات لاستمرار بقائها فى الوجود . ويدعو بورقيبة للتفاوض والجلوس مع اسرائيل حتى تضيع حجتها بأن العرب يرفضونها . كما يدعو الى التعايش معهـــا والتعامل الاقتصادى معها والاعتراف بهـــا . ويرد عبد الناصر بأن ذلك كان دائما مطلب اسرائيل . وقد صرح بن جوريون بأنه مستعد للتفاوض مع أى قائد عربى بلا قيد أو شرط . وكل عام تطالب اسرائيل فى الامم المتحدة بالتفاوض مع العرب . لقد تبنى بورقيبة اذن موقف اسرائيل دون أن يأخذ شـــيئا للعرب . لقد خرج بورقيبة عن الاجماع

العربى ، وأصبح منفذ خطط الصهيونية والاستعمار فى المنطقة • واتبع سياسة الانتهازية واللعب بقضايا المصير • وأراد أن يبيع القضية بلا ثمن • فقد الثقة فى قوته وفى قوة الامة العربية ، وأراد للعرب أن يكونوا أذيالا للغرب ، ولا قيمة لشعب يكون تابعا لاحد • يمثل طابورا خامسا داخل المجموعة العربية ، والافضل له أن يظل خارجها لا داخلها • لا يريد الجامعة العربية ، ويريد أن يظل خارجها لان الجامعة لا فائدة منها • ان الجامعة العربية أداة توحيد وتنسيق للجهود العربية وليس من مصلحة العرب تمزيقها • وكانت النتيجة أن « انعزل بورقيبة ، انعزل شعبيا عن الامة العربية » •

ان قضية فلسطين لا تقبل المساومات أو التجارة بها • قد كان هدف الدعوة للصلح ضرب القوى الثورية وتصفيتها ، والقضاء على وحدة العمل من أجل فلسطين ، والتشكيك فى القيادة العربية الموحدة • اذا كانت الدول العربية فى الماضى فى رأى ناصر قد تهاونت فى حقوق شعب فلسطين فلانها كانت أيضا خاضعة للاستعمار • ولكن تحررت الدول العربية الآن • والدعوة للصلح تدعو العرب لليأس من الحاضر بعد ما بدأت القضية الفلسطينية تتحرك ، وبعد ما ظهر الكيان الفلسطينى ، وبعد ما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية تعمل • كانت خطة الاستعمار والصهيونية دائما تصفية قضية فلسطين • ولا يمكن أن تصفى قضية فلسطين الا بتصفية شعب فلسطين(١٧) •

---

(١٧) جـ ٥ ص ٢٨١ — ٢٨٥ فى ١٩٦٥/٥/١ ، ص ٣٦٨ — ٣٦٩ فى ١٩٦٥/٧/٢٢ ، ص ٤٠٢ فى ١٩٦٥/٨/٢٩ ، ص ٤٣٦ فى ١٩٦٥/١١/١٨ ، ص ٥١١ — ٥١٢ فى ١٩٦٦/٢/٢٢ ، ص ٥٣٢ — ٥٣٣ فى ١٩٦٦/٣/٢٢ . جـ ٦ ص ٣٥ فى ١٩٦٧/٢/٤ •

أما الشاه فقد أعلن فى ١٩٦٠ اعترافه باسرائيل • فقطعت مصر علاقاتها السياسية معه بالرغم من وجود علاقات بين مصر وبعض الدول الاخرى المعترفة باسرائيل ومنها أمريكا والاتحاد السوفييتى • وذلك لان الشاه يتاجر بالدين ، ويضلل المسلمين باسم الاسلام • كان الشاه قد اعترف باسرائيل فى ١٩٥٠ ثم جاءت حكومة مصدق فى ١٩٥١ وسحبت اعترافها ، وأغلقت القنصلية الاسرائيلية فى طهران • ولكن بعد عودة الحكم الرجعى فى ١٩٥٣ عادت العلاقات التجارية والثقافية ، وفتحت الوكالة اليهودية فرعا لها فى طهران • وفتحت دولة اسلامية من دول حلف بغداد كل مجالات العمل مـــع اسرائيل ، وتساعدها ضد الوطن العربى حتى أصبحت طهران فى عهد الشاه قاعدة اسرائيلية •

وقد كان الغرض من ذلك هو ادخال المنطقة كلها فى نظم دفاعية موالية للغرب بما فى ذلـــك اسرائيل • فقد نشرت جريدة « هاعام » أنه قد تم توقيع اتفاقية سرية بين اسرائيل وايران فى ١٩٦١ فى مطار طهران ، وكان بن جوريون وهو فى طريقه الى بورما تد مر على طهران • ونشر الخبر فى ١٩٦١/١٢/٦ • ثم عرف السر بعد ذلك من الزيارة فى ١٩٦١/١١/٦ بالرغم من أن الصحف الايرانية ادعت أن السبب كان تعطيل المحركات • والحقيقة أن الزيارة كانت مرتبة ، واشترك فيهـــا رئيس أركان حرب الجيش الايرانى وممثل ايران فى الحلف المركزى لدراسة دور اسرائيل فى النظم الدفاعيـــة لبلدان الحلف المركزى • وضرورة تعزيز التعاون الاقتصادى والسياسى والعسكرى بين البلدين •

كان الغرض اذن من تسوية الامور بين العرب واسرائيل هو قيام نظم دفاعية عن المنطقة تشترك فيها اسرائيل والدول العربية وأمريكا •

وقد رفض ناصر ذلك كله لإن العالم العربى يرفض سياسة الاحلاف ، ويرفض الدخول فى مناطق النفوذ • وطالما وقف أمام حلف بغداد ، وحلف ايزنهاور للدفاع عن الشرق الاوسط • فاسرائيل تشطر العالم العربى شطرين • ينبغى لمصر والبلاد العربية أن تحصل على مواصلات برية وحيوية لتجارتها ورخائها ولنظمها الدفاعية من أجل الدفاع عن الشرق الاوسط • هذا الدفاع الذى يقع على كاهل شعوب المنطقة وحدها • وسيواصل العرب مشروعاتهم الدفاعية بصرف النظر عن اسرائيل • ان العرب قادرون على مقاومة سياسة « الضغط من أجل الصلح » ، وقادرون على الدفاع عن بلادهم بالتعاون فيما بينهم فى ميثاق الضمان الجماعى العربى فى حالة أى اعتداء يتم عليهم(١٨) •

وقد حاولت ألمانيا اقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل والاعتراف بها والتهديد بقطع المعونات الاقتصادية عن العرب اذا هم قاموا بالرد عليها • ويسمى ناصر هذا الاسلوب « أسلوب المساومات » ، وهو أسلوب لا يحقق الاهداف خاصة اذا كانت تتعلق بحرية الشعوب وحقوقها •

« واذا كنا سنعامل ألمانيا بأسلوب المساومات كى تعطينا ماركات أو دولارات فهل نستطيع أن نحافظ على قوميتنا فى العالم • اننا على ثقة بأن ألمانيا تستطيع أن تقول ان الدولة التى تسكت فى هذه

---

(١٨) جـ ٥ ص ٥٠٨ فى ١٩٦٦/٢/٢٢ ، جـ ١ ص ٢٢٠ فى ٥٤/٨/١٣ ، ص ١١٩ — ١٢٠ فى ١٩٥٤/٤/١٩ •

الازمة والتى تخرج على الاجماع العربى نعطيها ٢٠ مليون أو ٣٠ مليون دولارا • ولكن سنأخذ العشرة مليونا ذظير شرفنا ومبادئنا وهيبتنا وكرامتنا ••• لن نساوم فى قضية العرب ولن نساوم فى قضية فلسطين لان المساومات لن ترضى عنها الامة العربية ولن ترضى عنها أبدا • حاولت ألمانيا بهذه الرشاوى الصغيرة تفريق صفوف العرب ، وحاولت بالدولارات تصفية القضية الفلسطينية » • ان خطورة المساومات فى ذهن ناصر — هو التخلى عن المبادىء ، ولما كانت مصر تسير على المبادىء فانها قطعت علاقاتها بالمانيا الغربية بعد اعترافها باسرائيل ، ووضعت أموالها تحت الحراسة ، واعترفت بالمانيا الشرقية بالرغم من تحفظ ثلاث دول وسط الاجماع العربى • لقد قادت مصر الحملة ضد اعتراف ألمانيا الغربية باسرائيل • فاجتمع العرب فى ابريل ١٩٦٤ بالجامعة العربية ، وقرروا انه اذا اعترفت ألمانيا باسرائيل أو اذا أقامت لها تمثيلا قنصليا فانهم سيتخذون من ألمانيا موقفا شديدا يتناسب مع اللطمة التى توجهها للعرب • وحينما اجتمع رؤساء الحكومات العربية من ٩ — ١٢ يناير ١٩٦٥ قرروا أن يواجهوا ألمانيا اذا استمرت فى تقديم السلاح الى اسرائيل أو اذا اعترفت باسرائيل • كما اجتمع سفراء الدول العربية فى ديسمبر ١٩٦٤ فى بون وقرروا أن تتخذ الدول العربية موقفا شديدا مع ألمانيا اذا استمرت فى مد اسرائيل بالسلاح أو اذا اعترفت باسرائيل • ويقول ناصر : « اذن من يقول اليوم اننا قمنا بمواجهة ألمانيا بدون أن نتشاور مع الدول العربية انما يريد أن يموه على العرب ويحول المعركة الى معركة أخرى »(١٩)

---

(١٩) جـ ٥ ص ٢١٣ — ٢١٤ فى ١٩٦٥/٣/٨ ، ص ٢٤٨ — ٢٥٠ فى ١٩٦٥/٣/١٢ •

٣ — رفض التفاوض تحت الاحتلال :

لقد حاولت اسرائيل فرض الصلح على العرب بعد عدوان ١٩٦٧ . وكان قادتها ينتظرون استسلام العرب . ولكن كل صلح فى هذه الحالة — فى رأى ناصر — كان قبولا للعدوان ، واستسلاما لشروط المنتصر ، واعترافا بالهزيمة ، وضياعا للحق . ومن هنا خرجت شعارات ناصر : ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة ، لا صوت أعلى من صوت المعركة ، السلام لا الاستسلام ، السلام القائم على العدل ، ازالة آثار العدوان ، ارادة الصمود . وقد قال بن جوريون انه يريد فرض السلام واجبار العرب على قبول الامر الواقع . وفى رأى ناصر ان فرض السلام يعنى العدوان وشن الحرب على العرب . ان جيش مصر وشعب مصر ليفنيان عن آخر رجل وآخر امرأة لرد العدوان بالعدوان . ولطالما اتخذت اسرائيل الهدنة ستارا للعدوان . واذا كانت هناك مفاوضات فعن طريق لجان الهدنة لايقاف العدوان . لذلك لم تشأ اسرائيل تحديد حدودها حتى يمكنها شن الحرب والتوسع . بل ان الامم المتحدة تنظر الى حدود اسرائيل كخطوط للهدنة لا كحدود فعلية . ان خطر اسرائيل واضح أمام العرب منذ ١٩٥٥ ، وأطماعها فى التوسع لم تعد خافية . ان أية مفاوضات تحت تهديد العدوان مستحيلة . فالعدوان الاسرائيلى على الاراضى العربية وعلى الحقوق العربية قائم ولم تعد بادرة ما توحى بعدول اسرائيل على ما فعلته أو استعدادها للرجوع عنه . والعرب لا يثقون باسرائيل ، وسجلها معهم معروف . لقد كانت الدعوة الى السلام مقترنة دائما فى عرفها بالاستعداد للحرب كما حدث قبل العدوان الثلاثى بأيام قليلة عندما أعلن رئيس وزراء اسرائيل فى الكنيست الاسرائيلى بيانا قال فيه « انه على استعداد

لان يطير لمقابلتى من أجل السلام » • وكان فى ذلك الوقت مشغولا الى قمة رأسه بالتحضير للعدوان الثلاثى المشهور ضد مصر • ان السلام يعنى اتفاقا بين طرفين مستقلين لا بين طرفين أحدهما يحتل الآخر ويهدده بالعدوان • فلا يمكن التفاوض بين من يقوم بالاحتلال وبين من يقع عليه الاحتلال ، كما لا يمكن أن يحل السلام بينهما • ومن هنا كانت مقررات الخرطوم التى أصبحت موضعا للسخرية بعد ذلك بسنوات « لا اعتراف باسرائيل ، ولا صلح معها ، ولا مفاوضة ، ولا تصرف بالقضية الفلسطينية لانها ملك شعب فلسطين »(٢٠) •

ويرفض عبد الناصر سياسة « التسليم بالامر الواقع » وهى سياسة الاستعمار والصهيونية • يقول الاستعمار ان اسرائيل حقيقة واقعة ويرد عبد الناصر ولكن القومية العربية أيضا حقيقة واقعة • فلماذا يعترف الاستعمار بالاولى دون الثانية ؟ ولماذا يسلم بالامر الواقع فى الاولى دون الثانية ؟ أن فلسطين ، وشعب فلسطين، وحقوق شعب فلسطين كل ذلك أمر واضح يجب التسليم به • يقول ناصر فى استقبال القوات العائدة من اليمن « ان السلام الذى لا يمكن أن يكون على الارض العربية سلام غيره هو السلام الذى يعود به الحق الى أصحابه فى فلسطين • ولن نقبل مهما كانت الظروف سلام الامر الواقع • فمثل ذلك السلام ليس سلاما حقيقيا وانما هو عدوان يتستر ضلالا بأردية السلام • ولن تقبل أمتنا أى ضلال • ان السلام

---

(٢٠) جـ ٣ ص ١ — ٢ فى ١٩٦٠/٢/٨ ، جـ ٦ ص ٢٩٢ فى ٢٣/١١/ الاولى كتبت فى خريف ١٩٨٧ •

الذى تريده الامة العربية على الارض العربية لا يمكن الا أن يكون سلاما عربيا فى نواياه وفى أهدافه وارادته . ولن تستطيع قوة من القوى أن تفرض علينا ما تسميه سلاما . ان السلام لا تفرضه حرب العدوان . والسلام لا تفرضه قوة الدول الكبرى التى شعرت بنفسها قدرة التدخل فى شئون غيرها من الشعوب . ان على الامة العربية كلها أن تحمى الوديعة الغالية التى قدمتها اليها تضحيات الرجال وجهودهم حتى بالحياة . وحين تجد انحرافا مع الهوى أو انسياقا مع المطامع الاستعمارية أو تلاعبا بالاهداف الكبرى وخصوصا من جانب عناصر تفترض انها من قوى الثورة فانها لا تعتبر ذلك تورطا سياسيا أو حزبيا فحسب وانما تعتبره اساءة الى شرف التضحيات التى بذلها البواسل من الرجال الذين حركوا المد الثورى العربى من جديد بعد نكسة الانفصال « وانى لاثق ساعتها أن الامة العربية اذا غفرت أى شىء فلن تغفر مهما طال المدى أى اساءة الى شرف التضحيات العظيمة فى ميدان القتال »(٢١) .

ويرفض عبد الناصر جميع أشكال المفاوضة ، مباشرة أو غير مباشرة ، بصيغة رودس أو بصيغ جديدة لان الجلوس على مائدة المفاوضات مع اسرائيل تعنى التسليم بشروط المنتصر ، وتنفيذ ارادته . لم تقبل اسرائيل تنفيذ قرارات الامم المتحدة وصممت على تنفيذ استراتجيتها المعروفة عنها وهو تحقيق السلم بالقوة أو تحقيق الوصول الى اتفاق بالقوة . فبالحرب يريدون اجبار العرب على توقيع وثيقة

---

(٢١) جـ ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ فى ١٩/١٠/١٩٦٠ ، جـ ٤ ص ٣٥٥ فى ٢٠/٥/١٩٦٣ .

استسلام بهدف كسر ارادة الصمود • يريدون المفاوضة من أجل المفاوضة باسم المفاوضة من أجل السلام • والجلوس للتفاوض مع العدو الذى يحتل الارض معناه املاء شروط المنتصر ، لقد أحبطت اسرائيل مهمة يارنج سفير الامم المتحدة الذى عهدت اليه مهمة تنفيذ قرار الامم المتحدة الذى صدر بعد عدوان ١٩٦٧ • وفسرت القرار على أنه ينص على المفاوضة ، المفاوضة على تنفيذ نصوص الاتفاق ، وذلك من أجل تحقيق الهدف السياسى من نصرها العسكرى وهو التفاوض المباشر وتوقيع معاهدة صلح • ولكن اسرائيل لم تستطع حتى الآن أن تحقق هذا الهدف السياسى مع أى من الدول العربية المحيطة بها — هكذا كان يظن ناصر — • ولماذا تنسحب اسرائيل من الاراضى التى احتلتها بعد أن حصلت على نصر عسكرى ساحق على أمل أن تتغير الاوضاع أو الانظمة فى العالم العربى ، وتأتى أنظمة أخرى تقبل أن توقع معاهدة صلح معها ؟ تعلم اسرائيل أن الاحتلال راسخ على قلب كل عربى ، كابوس ثقيل • وقد يؤثر ذلك فى الجبهة الداخلية مما يمكنها بالتعاون مع القوى الامبريالية والاستعمارية من تغيير الانظمة • وطالما ان اسرائيل تعلم أن العرب لم يصلوا بعد الى القوة العسكرية الهجومية الساحقة تظل تسعى الى تحقيق هدفها السياسى من نصرها العسكرى وهو عقد معاهدة الصلح • وحين قبل ناصر العمل من أجل الحل السياسى لم يعن مطلقا بأن ذلك يعنى الاستسلام بل هو الحل السياسى المشرف الذى لا يمكن لاسرائيل أن تأخذ منه بوصة من الارض العربية فى أى بلد عربى • « لا يتقدم العمل السياسى الا بالجبهة العسكرية » • لم يكن ناصر حتى على استعداد لقبول « صيغة رودس » أى المفاوضات غير المباشرة لان ذلك معناه التفاوض على

الاستسلام • وقد رفض الفرنسيون التفاوض مع المحتل أثناء الحرب العالمية الثانية ويقول ناصر « وأنا أرفض أن أكون بيتان فى مصر »(٢٢) •

ولم يستسلم عبد الناصر للضغوط الامريكية من أجل اجــراء تسوية سلمية قبل استرداد حقوق شعب فلسطين • « هؤلاء الذين يتكلمون عن القمح وهم يظنون انهم يبيعونه لنا لكى يسيطروا علينا ، هؤلاء نذكرهم بما فعلنا عام ١٩٥٦ ، واننـــا قبل أن نبنى السد العالى نبنى العزة والكرامة • ونقول لهم انه ليس فى مقدور القمح ولا الذرة التى تأتينا من أمريكا أن تضعفنا عن السير فى طريقنا والوصول الى هدفنا ، وان كل ما فى أمريكا لن يثنينا عن قوميتنا ، وان أهدافنا ثابتة ، وسنسير فيها لتحقيق قوميتنا وتضامننا ووحدتنا واقدامنا ثابتة ، نسالم من يسالمنا ، ونعادى من يعادينا » •

لقد ساعدت الولايات المتحدة اسرائيل بكل الوســائل لتحقيق أهدافها فى الامم المتحدة وخارجها حتى لا يصدر أى قرار وفيه تحديد دقيق بضرورة انسحاب اسرائيل الى مواقع ٥ يونيو — حزيران ١٩٦٧ ، وأخذت الولايات المتحدة تضغط حتى صدر هذا القرار الغــامض • وهناك محاولات أخرى للضغط على الامة العربية من الولايات المتحدة لوضعنا فى موضع الاذلال ، وفى وضع المهزوم المستسلم حتى ترضخ لشروط اسرائيل ، وتقبل التفاوض معها ، وتقبل عقد معاهدة صلح

---

(٢٢) جـ ٢ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ فى ١٩٦٨/٤/٢٩ ، ص ٤٩٤ — ٤٩٥ فى ١٩٦٨/٧/٢٣ ، جـ ٧ ص ٢٣ فى ١٩٦٩/١/٢٠ .

معها • والهدف الامريكى اذلال العرب والاستسلام أمام هذه الضغوط(٢٣) •

ومشكلة فلسطين تخص الدول العربية جمعاء ولا يحق لاية دولة عربية أن تنفرد بالتصرف فيها • لذلك كان من أهداف الاستعمار والصهيونية فرض السلام على العرب عن طريق فرض السلام بالقوة على مصر أولا حتى تستسلم فيستسلم العرب ، ويستشهد ناصر بأقوال بن جوريون : « لابد أن يسود السلام مع الجمهورية العربية المتحدة أكبر دولة عربية » ويعلق ناصر : « لانه يشعر اذا استطاع أن يفرض الصلح أو يفرض السلام على الجمهورية العربية المتحدة فان القضية بعد ذلك تكون سهلة وهينة له • وقد اعتدى فى ١٩٥٦ ولكنه لم يستطع أن يفرض السلام أو الصلح وكان الهدف من العدوان فرض الصلح على العرب وفرض التسوية على أساس الامر الواقع • وتبنت اسرائيل سياسة فرض السلام على العرب كسياسة ثابتة ومعنى ذلك الحرب والعدوان مما يثبت أن الحرب لديها هو المعنى الحقيقى للسلام • ان قضية اسرائيل ليست قضية مصر وحدها ولكنها قضية الامة العربية جميعا » •

لذلك كانت المشروعات الامريكية المقدمة كلها تريد أن تحل الموضوع المصرى الاسرائيلى فقط وتأجيل الموضوع الاردنى الاسرائيلى والموضوع السورى الاسرائيلى أى الفصل وتجزئة الحلول بحيث يكون هناك حل منفصل لمصر وحل للاردن وحل لسوريا ، وكلها حلول

---

(٢٣) جـ ٣ ص ٣٤٧ فى ١٩٦٨/٣/١٠ .

منفردة • تبدأ بمصر • وقد رفض ناصر هذه الحلول كلها لانها كانت تستهدف اخراج مصر من الموضوع باعتبارها مركز الثقـل السياسى والعسكرى • وبذلك تستطيع الضغوط الاسرائيلية والامريكية أن تحقق ما تشتهيه اسرائيل من ضم أراض عربية جديدة • رفض ناصر تجزئة قضيـة العرب الى عدة قضايا منفصلة ، فالانسحاب يعنى الانسحاب من جميع الأراضى العربية • وقد وضحت الخطة الامريكية فى مشروع روجرز ــ الذى لم يكن لدى ناصر أى احتمال فى نجاحه نظرا لرفض اسرائيل مبدأ الانسحاب حتى ولو حصلت على الاعتراف والصلح • فبالرغم من أنه ينص على الانسحاب من الاراضى التى احتلتها اسرائيل الى الحدود الدولية التى كانت موجودة لمصر أيام الانتداب فى فلسطين الا أنه ترك تحديد كل شىء فى هـذه المفاوضات يجـرى بين مصر واسرائيل ، وبين الاردن واسرائيل ، وبين سوريا واسرائيل • ومعنى ذلك أنه يضع العرب تحت حق الاعتراض أو حق الفيتو الاسرائيلى خاصة وأن المشروع يورد كلاما عن توحيد القدس دون أن يوضـح الوضع السياسى لها بعد التوحيد • مشروع روجرز يسعى فى حقيقة الامر الى الضغط على العرب ويفتت الوحدة العربية ويجعل الاسرائيليين يتفاوضون من مركز القوة مثل السيف المسلط على رؤوس العرب(٢٤) •

٤ ــ القوى الذاتية العربية :

يرى عبد الناصر أن القوى الذاتية العربية قادرة على أن تمنع

---

(٢٤) جـ ٣ ص ٢٩٣ فى ١٩٥٩/٢/٢١ ، جـ ٣ ص ١١٣ فى ١٩٦٠/٣/٧ ، ص ١١٧ فى ١٩٦٠/٣/٢١ ، جـ ٧ ص ٣٤٣ فى ١٩٧٠/٤/١٨ •

اسرائيل من تحقيق الهدف السياسى من نصرها العسكرى وتتمثل هذه القوى الذاتية فى الآتى :

● ارادة الصمود ورفض الاستسلام • وقد ظهرت هذه الارادة لدى جماهير ٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧ ورفض الهزيمة • يقول ناصر : « ليس يخيفنا أن تكون هناك بقاع غالية من أراضينا تحت احتلال العـــدو ولكن يخيفنا أكثر أن تعيش أوطاننا كلها غير منتبهة للخطر المحيط بهـــا ، راضية بالاستسلام ، تخلط بينه وبين السلام ، بينما العدو يمضى فى تنفيذ مخططاته العدوانية بغير قتال ، ويحقق ما يريد بغير مواجهة ، وينتصر عليها وهى فى غيبوبة لا تميز فيها بين العـــدو والصديق ، بين عزلها عن العالم العربى وجرها الى صلح منفرد مع اسرائيل كما نص على ذلك مشروع روجرز •

● بناء جيش مصر ، وتسليحه ، فما ضاع بالقوة لا يسترد الا بالقوة • لقد حارب العرب فى ١٩٤٨ ، واستشهد منهم الرجال ، وظهر فيهم الابطال وفر العدو ، وبان فى ذلك الوقت المبكر أن جيش العدو ليس بالذى لا يقهر ، وانهم بشر يخافون ، يصيبهم الذعر ، ويفرون من المعارك ، ويتجنبون مواجهة جيش مصر • لم ينهزم جيش مصر فى فلسطين بل قاتل وقاوم • رأى ناصر بعينه كيف كان اليهود ينسحبون منهزمين • ويذكر معركة ١٩٤٨/١٠/٢٦ فى عراق المنشية حين واجهوا اليهود المتفوقين عليهم فى العدة والعتاد ، وناصر ورفاقه فى موقـــع محاصر منعزل • ولكنهم تمسكوا بالشرف والواجب والوطن فهزموا المعتدين ، وفر العسكرى اليهودى مذعورا لمجرد رؤية المصريين يقاتلون• فمهزلة ١٩٤٨ لا تقع على عاتق الرجال المقاتلين •-لقد اعتمدت اسرائيل

على هذه الخرافة ، هزيمة الجيش المصرى طبقا للمثل المشهور « لا يزال المرء يكذب ثم يكذب ثم يكذب حتى يصدقه الناس ثم يكذب ثم يكذب ثم يكذب حتى يصدق نفسه » . وقد قاتل الجيش المصرى أيضا فى عدوان ١٩٥٦ وحارب فى معركة أبو عجيلة وهو فى أوج الانسحاب ، وقابل العدوان بالعدان ، كما حارب بالقدر الذى سمح له فى عدوان ١٩٦٧ .

● النظم التقدمية فى العالم العربى هى الوحيدة القادرة على التصدى للاستعمار والصهيونية ، فالثورة العربية معادية لكليهما لا تهادن ولا تساوم . لذلك كان الهدف من عدوان ١٩٦٧ هو قلب نظام الحكم فى مصر وسوريا حتى يتم تسليم العالم العربى للنظم الرجعية المتحالفة مع الاستعمار والتى تحرص على مكاسبها قبل حرصها على تحرير فلسطين . ويعترف عبد الناصر بأن ذلك قد يدوم بعض الوقت ولكن الصليبيين مكثوا سبعين عاما . كما كشفت له تجربته الثورية أن فلسطين قد ضاعت فى ١٩٤٨ بسبب هزيمة العرب وليس بسبب انتصار اسرائيل .

● القومية العربية التى حاول الاستعمار وصنيعته الصهيونية القضاء عليها واحلال الصهيونية محلها فى فلسطين العربية . وكما كانت فلسطين أحد أسباب اليقظة العربية فان القومية العربية هى الطريق لتحرير فلسطين . لذلك حرص الاستعمار والصهيونية على تفتيتها ،

---

(٢٥) جـ ١ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، جـ ٢ ص ٥٣٠ — ٥٣٣ فى ٢٦/٧/١٩٥٩ ، جـ ٧ ص ٢ فى ٢٣/٧/١٩٦٩ .

وبث عناصر الفرقة بين البلاد العربية وأتهام ناصر بالرغبة في السيطرة على العالم العربى حبا فى الزعامة واستيلاء من مصر على باقى البلاد العربية : فكما أيقظت فلسطين الوعى العربى فان الوعى العربى بؤرة القومية العربية هو السبيل لتحرير فلسطين • لذلك شغل ناصر نفسه بقضايا القومية العربية خاصة أيام الوحدة فبرزت قضية فلسطين كرأس القومية العربية •

● الوحدة العربية التى تجسد على الصعيد السياسى القومية العربية • لذلك ارتعشت اسرائيل من وحدة مصر وسوريا ، وظنت أن الاوان قد حان لوضعها بين فكى الكماشة • كذلك ارتعدت من القيادة العربية المشتركة ، ومعاهدات الدفاع العربى المشترك لانها تعلم أنها لا قبل لها بحرب على جميع الجبهات ، وبأن العرب قادرون لو أرادوا تجنيد ثلاثة ملايين مقاتل فى مواجهة اسرائيل • وتظل تجربة الجمهورية العربية المتحدة أولى التجارب الرائدة على طريق الوحدة • وفى نفس العام قامت الثورة — يوليو — تموز فى العراق • وتكون الاتحاد الهاشمى ثم سقط ، ووقفت الوحدة العربية أمام الغرب والشرق ، ومر العرب فى ١٩٥٩ أثناء رحلة ناصر الى سوريا وفى خطابه فى دمشق بأزهى فترات حياتهم •

● القوى البشرية العربية القادرة على العطاء وعلى سد احتياجات المعركة فى الجند والخبرة مهما حاولت اسرائيل فى سياسة التهجير من احضار جميع يهود العالم نظرا لما بينهم من قوميات متنافرة وعنصرية متبادلة ، فى حين أن الامة العربية متجانسة القوى ، قادرة على الحشد والتجنيد لكل متطلبات المعركة • ان البحر البشرى العربى لقادر اذا

ما هاجت أمواجه على ابتلاع أية جزر صغيرة تعترض طريقه أو تظهر على سطحه • وتكون القضية كيف يمكن تحويل الكم العربى الى كيف عربى • بل ان القوى البشرية العربية ذاتها داخل اسرائيل قبل ١٩٤٨ لقادرة على تحويل اسرائيل ذاتها الى دولة يكون أغلب سكانها من العرب •

● النفط العربى الذى لم يدخل المعركة حتى الآن فى حياة الزعيم الراحل الا باسلوب تفجير أنابيب التصدير فى معارك ١٩٥٦ • ولكن طائرات العدو وآلياته تسير بالنفط العربى • والاسطول السادس الامريكى يحركه النفط العربى • وعائدات النفط مخزونة فى البنوك الامريكية والصهيونية تستثمر لصالح اسرائيل لزرع الصحراء ، واقامة الصناعات ، وصناعة الاسلحة • لم يحشد العرب الى الآن جميع امكانياتهم المادية من أجل قضية فسطين • ومازالوا يحاربون بأقل من قدراتهم الفعلية • واسرائيل تحشد كل شىء ، وتجند كل الانصار ، وتستنفذ جميع الامكانيات بما فيها الامكانيات العربية !

● بروز الكيان الفلسطينى بعد أن حاول الاستعمار والصهيونية تصفية القضية ، وظهور منظمة التحرير الفلسطينية ، وتكوين جيش التحرير فرض على العالم قضية فلسطين • وتحولت من قضية لاجئين الى قضية شعب له حقوقه السياسية فى تحرير أرضه ، وتكوين دولته ، واختيار نظامه السياسى أى حقه فى تقرير المصير • لذلك حاول الاستعمار تصفية القضية ، وتشريد الشعب ، ومحو الاسم • وكل دعوة للصلح أو للاعتراف كان الهدف منها تصفية القضية • ويشيع الاستعمار أن

فلسطين تخيف العرب أكثر مما تخيف اسرائيل ، والعرب أكثر رفضا لدولة فلسطين من اسرائيل حتى تحدث الفرقة فى صفوف العرب .

رابعا : خاتمة : كيف ؟ ومتى ؟

بالرغم من أن الناصرية تمثل لنا نحن فى مصر حلما ما زلنا فى يقظته الا أن السؤال الذى يفرض نفسه هو الآتى . اذا كان هذا هو موقف عبد الناصر من قضية الصلح مع اسرائيل فلماذا لم تحرر فلسطين وما الذى أخر الزعيم الراحل عن الدخول فى معركة فاصلة كان قادرا عليها بزعامته والثقة التى أولته اياها الامة العربية ؟ ويمكن الاجابة على ذلك على النحو الآتى :

١ — بالرغم من أن حركة الضباط الاحرار تبلورت أثناء حرب فلسطين فى ١٩٤٨ فقد اندلعت الثورة بالفعل بعد ذلك بأربع سنوات الا أن القضية الاساسية فى ذلك الوقت كانت جيوش الاحتلال الرابضة على ضفاف القناة . كانت مصر مستعمرة عسكريا فكان أول ما يشغل بال قادة الثورة الجدد هو جلاء القوات الاجنبية حتى يتفرغوا للتنمية . وكانت احدى حجج بورقيبة التى أقام عليها دعوته للصلح هى : ماذا فعل العرب ؟ وكان رد عبد الناصر : كان العرب مستعمرين يتحرزون من الاستعمار مثل فلسطين . وهذا هو الذى أخر معالجة القضية كل هذا الوقت . فماذا تستطيع دولة عربية مستعمرة العمل لفلسطين الواقعة تحت أبشع أنواع الاستعمار ؟

٢ — كان عبد الناصر يريد انهاء احتلال القوات الاجنبية لمصر وتوقيع معاهدة الجلاء مع بريطانيا سلما ، هذه المعاهدة التى نقدها

الشيوعيون والاخوان والوفديون فى مصر وكانت بداية الفرقــة بين التيارات الوطنية التقليدية قبل الثورة والثورة ذاتها ، حتى تتفرغ لعملية البناء الداخلى فى مصر • وكانت حجة ناصر على بعض النصوص المجحفة بمصر فى هذه المعاهدة التى تعطى للغرب حق الرجوع الى مصر فى حالة الحرب لاستعمال قناتها ومطاراتها وأرضها ، انه يريد أن يتفرغ لبناء مصر ، ويريد مساعدة الغرب فى ذلك • وكان نقد ناصر للشيوعيين انهم يتخذون موقف اسرائيل فى رفض معاهدة الجلاء من أجل افساد العلاقة بين مصر والغرب • ومع ذلك رفض ناصر عرض بريطانيا لتمويل السد العالى فى مقابل الصلح مع أسرائيل • فقضية فلسطين مبــدأ لا يمكن المساومة عليه •

٣ — لم يترك الاستعمار لعبد الناصر فرصة لالتقاط الانفـــاس وجره الى معارك متتالية فرضتها الظروف ، كل معركة تولد أخــرى وقد أدرك عبد الناصر بالفعل ان محاربة الاستعمار هو فى نفس الوقت محاربة لاسرائيل لانها كما اتضح له « رأس جسر » الاستعمار « ومخلب القط » له •

فجاء العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ والذى تحول بعده عبد الناصر بطلا قوميا ، وزعيما لحركات التحرر فى العالم الثالث كله ثم دخل معارك الوحدة الوطنية فى ١٩٥٨ ، ومعارك الرجعية العربية بعد الانفصـــال فى ١٩٦١ ، ومعارك التحول الاشتراكى فى ١٩٦١ — ١٩٦٤ تدعيما للحركة الثورية العربية ، ومعارك الاحلاف العسكرية والحلف الاســلامى فى ١٩٦٥ • وكان آخرها تكالب الاستعمار والصهيونية عليه فى يونيو ١٩٦٧ •

٤ — لما أدرك عبد الناصر أن مأساة فلسطين انما نتجت عن ضعف العرب أكثر مما نتجت عن انتصار اسرائيل فى ١٩٤٨ فان قضية تثوير العالم العربى كانت الطريق الى تحرير فلسطين • كانت اسرائيل تخشى الثورات العربية كلما تفجرت واحدة منها • ولما كانت الثورة المصرية رائدة للثورات العربية فقد عملت اسرائيل على محاربتها كما عمل ناصر على تثبيت أركانها ودعم القوى الثورية كلها فى العالم العربى لتطويق اسرائيل • فقامت ثورة العراق فى يوليو — تموز ١٩٥٨ ردا عى الاعتداء الثلاثى ، وقامت ثورة اليمن فى سبتمبر ١٩٦١ ردا على الانفصال السورى • وقامت ثورة الفاتح فى سبتمبر ١٩٦٩ ردا على عدوان ١٩٦٧ •

٥ — بعد الغارة الاسرائيلية على غزة فى ١٩٥٥/٢/٢٨ أدرك عبد الناصر أهمية السلاح ، ودخل معركة تسليح جيش مصر ، وعقد صفقة الاسلحة التشيكية فى نفس العام • وكان ذلك بداية كسر احتكار السلاح ، والتحول من الغرب الى الشرق كمصدر أساسى للتسليح • وقد كانت سياسة الغرب دائما تسليح اسرائيل بحيث يكون جيشها أقوى من جيوش الدول العربية مجتمعة وهو ما سماه الغرب « ميزان القوى » فى الشرق الاوسط والذى أدرك ناصر معناه ومغزاه • وظل سباق التسلح قائما حتى آخر لحظة من حياة الزعيم الراحل وتدعيم مصر بحائط الصواريخ ضد غارات اسرائيل فى العمق ، واعادة بناء جيش مصر بعد تدمير ٨٠٪ من معداته فى عدوان ١٩٦٧ • بل ان قبوله مشروع روجرز تم وهو يفاوض الاتحاد السوفيتى على صفقات السلاح وبطؤ التسليم ، وتحديد نوع السلاح وكميته كوسيلة ضغط على الاتحاد السوفيتى للحصول على السلاح المطلوب •

٦ ــ الحروب المتتالية التى أجهضت مصر ، والتى أجعلتها كل عشر سنوات أو أقل تعيد بناء جيشها وتبحث عن مصادر جديدة للسلاح فى دول تفرض شروطها ولزعيم يحرص على الاستقلال الوطنى وفى صناعة تتطور يوما بعد يوم • فالعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ لحقه العدوان الاسرائيلى فى ١٩٦٧ • هذا بالاضافة الى حروب مصر الكثيرة اما للدفاع عن نفسها كما هو الحال فى حرب الاستنزاف فى ١٩٦٩ أو للدفاع عن الثورات العربية كما هو الحال فى حرب اليمن أثناء فترة التحول الاشتراكى فى ١٩٦٢ ــ ١٩٦٤ وكأن الاستعمار أراد لمصر دائما أن تبدأ من الصفر حتى لا يحدث لديها تراكم تاريخى تضيع فيه أشواطها المتعددة حتى تموت سيرا •

٧ ــ صعوبة التحرك على الساحة الدولية فى مشكلة يصفها العالم بأنها مشكلة لاجئين وتحويلها ابان الثورة المصرية الى « حقوق شعب فلسطين » ، ويعترف باسرائيل بما فى ذلك القوتين العظميين ، الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى ، وفى عالم تسيطر عليه أجهزة الاعلام الغربى بما فيهــا من نفوذ صهيونى ومصالح دول كبرى لا تسلم بحقوق الشعوب الا اذا هددت مصالحها وفرضت هذه الشعوب نفسها على الساحة الدولية الامر الواقع • لذلك لجأ ناصر باستمرار الى التنويه بقرارات الامم المتحدة المتعددة بالنسبة لحقوق شعب فلسطين • وابتدأت محاصرة اسرائيل فى الساحة الدولية ، وأصبحت قضية فلسطين جزءا من قضايا شعوب آسيا وافريقيا ، واحدى حركات التحــرر فى العالم الثالث • فى حين ظهرت الصهيونية كحركة ثورية مضادة ، وحركة عنصرية توسعية ، واستعمار استيطانى له ما يشابهه فى جنوب افريقيا •

٨ — ابراز الكيان الفلسطينى ، وتكون منظمة التحرر الفلسطينية ، وانشاء جيش تحرير فلسطينى للمحافظة على شعب فلسطين ، حتى تكون قضية فلسطين لها جسم وروح • وفى نهاية الامر لن يحرر فلسطين الا أبناء فلسطين فى هذا الخضم الواسع من المساندة العربية والتأييد العالمى • وبالرغم مما كان يحدث بين ناصر والفلسطينيين من خلاف فى وجهات النظر خاصة بعد مشروع روجرز فانه كان خلافا بين رفقاء السلاح ، خلافا على الوسائل المتبعة وليس على الاهداف ، وبلغة العصر خلافا فى « التكتيك » وليس خلافا فى « الاستراتيجية » • لذلك رفض كل دعوات الصلح مع اسرائيل والمساومة على حقوق شعب فلسطين •

هذا هو صوت ناصر المكتوم وهو يئن فى مضجعه ، ويتململ فى مثواه ، فلعله يعود يوما رنينا مدويا يخرج من صدور الناس فيصم الآذان •

عبد الناصر والحلف الاسلامي

١ ــ الاسلام الامريكي :

لقد كانت لعبة الاستعمار في المنطقة العربية الاسلامية دائما استغلال الدين لصالحه في معركته مع النظم الاشتراكية . اذ يظن الاستعمار بناء على مستشاريه وعلمائه الاجتماعيين والمستشرقين أن الدين في منطقتنا هو تراث الامة ، ومحرك جماهيرها . وبالتالي فهو يقوم باستعماله من أجل تحقيق أهدافه في المنطقة وهي :

١ ــ الوقوف أمام الافكار الاشتراكية وانتشارها في المنطقة على أساس أنها أفكار تعارض الدين ، يروجها الكفار والملحدون ، مادية لا تتفق مع روحانية الاديان ورسالاتها السماوية .

٢ ــ تفسير الدين تفسيرا رأسماليا بمعنى قصره على الشعائر والطقوس والعبادات والصلوات والعقائد وترك النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى ينشغل المسلمون عنها فتكون بالتالي نظما موالية للغرب ، تحقق أهداف الاستعمار في السيطرة على الموارد ونهب الثروات .

(*) كتب هذا المقال بعد معاهدة كامب ديفيد واندلاع الثورة الاسلامية الكبرى في ايران في فبراير ١٩٧٩ من اجل احياء الناصرية والمقارنة بين سياسات مصر في الستينات وبينها في السبعينات . والمقال الاول مفقود بعد ان سلم الى احدى المجلات العربية . وهذه صياغة ثانية من المسودة كتبت في خريف ١٩٨٧ .

ويقوم الاستعمار بذلك فى لحظات التحول التاريخية فى المنطقة مثل ثورة يوليو ١٩٥٢ وما تمثله من استقلال وطني ، وقضاء على الاحلاف ومناطق النفوذ ، وتأميم مصادر الدخل القومى ، والتحول الاشتراكى ، والاصلاح الزراعى ، والتصنيع ، ومقاومة الاستعمار والصهيونية ، واقامة كتلة عدم الانحياز ، وتأسيس منظمة الشعوب الاسيوية الافريقية • بدأ الاستعمار ذلك من خلال عملائه فى المنطقة خاصة فى مرحلة التحول الاشتراكى ١٩٦١ — ١٩٦٤ •

والآن يعيد التاريخ نفسه بعد أن انحسرت الناصرية بعد موت قائدها فى ١٩٧٠ وتحولت تدريجيا الى ثورة مضادة حتى عادت من جديد بعد اندلاع الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران فى فبراير ١٩٧٩ تعيد الى الناصرية مجدها الاول وتكملها عن طريق بنائها على ثقافة الجماهير وهو الاسلام وعن طريق تعبئة الملايين فى الشوارع فاكتملت لها عناصر النجاح : القيادة الحاسمة ، والاسلام كأيديولوجية ثورية ، وتعبئة الجماهير • أعادت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران الى الناصرية حلمها الاول فى معاداة الاستعمار ، والوقوف فى مواجهة الصهيونية ، والقضاء على محاولات التغريب التى كانت تهدد الهوية الاسلامية فى ايران • واستطاعت الثورة أن تتحدى أعتى الدول الاستعمارية وأقواها عدة عتادا هى الولايات المتحدة الامريكية • فقضية الرهائن ليست فى الحقيقة قضية جاسوسية أو تسليم شاه ، بل هى قضية اثبات الذات ، سواء من الخارج بالحصار البحرى الاقتصادى ، وقطع العلاقات السياسية ، أو الداخلى عن طريق اثارة النعرات القومية والعرقية والطائفية أو تدبير المؤامرات أو اغراء بعض كبار الضباط فى الجيش الذين مازالوا يدينون بالولاء للشاه أو جماعات الطفولة اليسارية خارج

الوحدة الوطنية اذ كثيرا ما يتلاقى الطرفان • اكتشفت الولايات المتحدة سماحة الاسلام ، وأنه دين الحب والاخاء والمساواة • لم يقع هذا الاكتشاف أيام حكم الشاه والسافاك ، وقت الارهاب والتعذيب والقتل• فسماحة الاسلام الآن فى صالح الاستعمار ولم يكن لها وجود أيام الشاه الذى كان يقوم بالدفاع عن مصالح الاستعمار بلا حاجة الى اللجوء الى سماحة الاسلام • وقد حدث ذلك أيضا بعد التدخل السوفييتى فى أفغانستان ، فقد اكتشف الاستعمار فجأة أن أفغانستان بلد مسلم ، وأن شعبه شعب مسلم ، وأن الاسلام فى خطر ، فبدأ يشحذ نفوس المسلمين ، ويقوى من هممهم ضد الاحتلال السوفييتى ، وكأن الولايات المتحدة أصبحت بين عشية وضحاها راعية للاسلام ، وحامية للمسلمين ، وخادمة الحرمين الشريفين ، وكأن شعب فلسطين ليس شعبا مسلما ، وكأن القدس ليس بها مقدسات المسلمين ، وكأن العنصرية فى جنوب افريقيا وفى قلب الولايات المتحدة يرضاها الاسلام ، وكأن الفقر والجريمة والرشوة والفساد والقتل والتسلط مقررات اسلامية ، شريعة تطبقها الولايات المتحدة نصا وروحا • ان المصالحة الحقة لا تأتى الا بناء على تسليم اليهود بالحق المستقل عنهم « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٣ : ٦٤) • والمصالحة الحقة تتم بناء على الاتفاق على عبادة الله وحده وليس عبادة الطاغوت أو المال ، الاخلاص له ، وليس الايمان أول النهار والكفر آخره أو الايمان فى العلن والكفر فى السر أو الايمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر • كما تقوم على المساواة بين الشعوب أمام اله واحد وألا

يعتبر شعب نفسه فوق الجميع ، له حق الحياة والوجـود ، وليس للاخرين الا الموت والفناء •

لقد اكن هدف الاستعمار منذ اندلاع الثورات العربية وصياغة أكبر مشروع عربى قومى حديث منذ صلاح الدين ومحمد على حتى الآن محاصرتها بهدف منع انتشـارها • ولما كان الاسلام على الطريقـة الرأسمالية خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف تمت صياغة الحلف الاسلامى، وهو حلف بغداد القديم ، حيث تدخل فيه السعودية وايران وباكستان فى حلف جديد من أجل عمل نموذج اسـلامى آخر ، يقف فى مواجهة النموذج الثورى العربى • ولما كان وعى الجماهير السياسى ليس قويا وكانت تربيتها الدينية تقليدية كان من السـهل خداعها • ولما كانت النظم العربية التقليدية متفقة فى الاهداف مع الاستعمار فى صد المد الثورى الاشتراكى فى الستينيات وضعت نفسها فى أيدى الاستعمار متكاتفة معه لتحقيق الهدف المشترك •

٢ ـ الاسلام كقناع لحلف بغداد •

ويستخدم الاستعمار الاسلام كقناع يخفى وراءه أهدافه السياسية فى المنطقة • ان التعاون الاسلامى مقبول بل واجب ولكنه يجب أن يكون فعلا لوجه الله ولوجه الاسلام وليس نتيجة لسياسة امريكية انجليزية • الحلف الاسلامى الصحيح يجب أن يخدم الاسلام وليس الاستغلال السياسى (الاجتماعى) ، وأن يعمل علماء الاسلام من مراكز الفكر الدينى لا أن يدافع عنه الارهابيون وسماسرة الدين • أخذوا الاسلام حجة ووسيلة ليخدعوا بها بسطاء الناس •

الحلف الاسلامى خديعة كبيرة • وكما تصدت الثورة من قبل للرجعية فانها تتصدى الآن للحلف الاسلامى وتكشف عن نواياه فان الخديعة لا تنطلى على أحد ، هو حلف جديد يتخذ من الدين اسما وستارا لحلف بغداد • وجدوا له اسما عربيا وسموه حلف بغداد ، وألبسوه عقالا وعباية حتى تختفى انجلترا وأمريكا وراءهما • والحلف الجديد ألبسوه عمة ليسموه الحلف أو المؤتمر أو التجمع الاسلامى ، أى شىء اسمه اسلامى لخداع المسلمين باسم الدين • ولقد اعترفت الصحف البريطانية نفسها بأن هذا الحلف سياسى أساسا تحت غطاء الدين • لقد قيل فى صحف لندن أن الحلف الاسلامى حلف سياسى وليس حلفا اجتماعيا • قال ايزنهاور لسعود فى ١٩٥٧ على فكرة الحلف الاسلامى ، وتحدث سعود فى هذا الامر فى القاهرة(١) • ومن السهل استنتاج أن هؤلاء عملاء الامريكيين وأدواتهم تحت ستار الدين مدعين أن الحلف عملية دينية وليست عملية سياسية • يدعى فيصل أن الامريكيين ليسوا وراء الحلف ، وأنها فركته الخاصة ، يهدف بها خير المسلمين وخير الدين فى حين أن الانجليز والامريكيين فى السعودية مسيطرون عليها وذلك كفيل أن تكون دعوة فيصل لوجه الله ! ويشاركه حسين فى دعوته بأنه يخدم الاسلام

---

(١) ستتم الاحالات باستمرار الى خطب واحاديث جمال عبد الناصر عن طريق ذكرها على نحو حر وليس نصا نظرا لتكرارها وأسلوبها العامى وتأسيا بطريقة القدماء فى أحد انواع الشرح وهو العرض الشارح أو الشرح العارض ، فالمهم هو المعانى وليس الالفاظ . الاعمال الكاملة لخطابات واحاديث جمال عبد الناصر ، الاجزاء الثلاثة الاولى ، الهيئة العامة للاستعلامات ، وجزءان اخيران ، الاهرام ، خطاب فى عيد الوحدة ٢٢/٦/ ١٩٦٦ ج ٥ص ٥٩٨ ، ص ٥١١ ، ص ١٥٢ .

والمسلمين وهما يخدمان أمريكا وانجلترا والاستعمار . لقد قرر الاستعمار بعد جلائه عن المنطقة العودة اليها من جديد عن طريق العملاء فبدأ الكلام عن الحلف الاسلامى ، والتضامن الاسلامى ، والمؤتمر الاسلامى . ولكن معظم الدول الاسلامية ردت ردودا غير مشجعة لان معظمها يعمل بالسياسة ، ونظمها متحررة ، وتعلم الهدف من الدعوة . ومعروف فى العالم العربى كله أن العملية الغرض منها خداع الجماهير والشعوب العربية(٢) .

يقول فيصل أن الغرض من الحلف مقاومة الالحاد ! وكيف يقاوم الالحاد بالسياسة ولا يقاوم بالدين ؟ الحلف الاسلامى حلف سياسى وليس تكتلا دينيا لان التكتل الدينى يكون من رجال الدين وليس من رجال السياسة . ومن الذى سيقاوم الالحاد فى العالم العربى وفى العالم الاسلامى ؟ شاه ايران وبورقيبة ؟ وماذا يعرف الشاه عن الاسلام ؟ ومنذ متى يدافع بورقيبة عن الاسلام ؟ لقد ألغى بورقيبة أجازة العيد كلها وقصرها على يوم واحد . بورقيبة الذى يتكلم على الاسلام أكبر متنكر للاسلام فى بلده وهو اليوم يدافع عن الاسلام . لقد أصدر فتوى بالافطار فى رمضان ، ولبس العمة اليوم ، وجعل نفسه الشيخ بورقيبة داخل الحلف الاسلامى . كيف يصح الحلف الاسلامى ؟ شاه ايران يبحث فى الشؤون الدينية وهو لا يعلم شيئا عن الدين ، يعارض رجل سياسة وليس رجل دين . وكيف يضم الحلف بورقيبة بفتاويه للافطار فى رمضان والصلح مع اسرائيل ؟ بورقيبة عميل ومدسوس فكيف يتحدث فى الدين أو يناقشه أحد فى الدين ؟

---

(٢) ج ٤ ص ٦٥ ، الجلسة الخامسة لمناقشة الميثاق ١٩٦٢/٥/٢٨ .

لم تكمل الثورة فكرتها الاولى عن المؤتمر السياسى من خـــلال الحج ، فقد قام حلف بغداد فى أوائل ١٩٥٥ وأصبح من المستحيل أن يجتمع المؤتمر الاسلامى كمؤتمر سياسى غير مرتبط بالاستعمار ، يعمل لصالح الاسلام والمسلمين ، ويعمل على التخلص من الاستعمار والاحلاف وعلى اقامة عدالة اجتماعية لانصاف المسلمين فى كل بلد مسلم • ولكن بعد قيام حلف بغداد ، وانضمام تركيا وايران وباكستان لهذا الحلف أصبح من العسير أن يجتمع المؤتمر الاسلامى على أساس سـياسى • لذلك سارت الثورة فى الفكرة على أساس شعبى . فكل تقـارب على مستوى القمة يجب أن يبدأ من الذين اسـتطاعوا تحرير بلادهم من الاستعمار والاحلاف ومناطق النفـوذ • وقد كانت اتصالات هؤلاء بعضهم ببعض مستمرة • اذا لم تكن دعوة التقارب الاسلامى على هذا الاساس بل على أساس سياسى على اجتماع قادة الدول تكون غايتها بالرغم من رفع اسم الاسلام ضرب المسلمين وتشتيتهم باسم الدين ، وتفتيت العرب لحسـاب الاستعمار أى تزييف الدين من أجل خدمة المبادىء والاهداف الاستعمارية • ولم يأخذ مؤتمر القمـة الاخير قرارات بشأن التعاون الاسلامى مع مصر من أجل قضايا الحرية ومن أجل قضية فلسطين(٣) •

لقد صرح الملك فيصل لاحدى الصحف الكويتية معلقا على الحلف الاسلامى بأنه قام تعاون بين الطوائف المسـيحية ، وكان هناك المجمع المسكونى ولم يقل عنه أحد أنه تحالف(٤) • والحقيقة أن اجتمـاع

---

(٣) جـ ٥ ص ٥١٣ — ٥١٤ •

(٤) جـ ٥ ص ٥٦٤ •

المجمع المسكونى ليس اجتماعا سياسيا أو عسكريا بل اجتمـاع ضم رجال الدين المسيحيين ولم يضم رؤساء الدول المسيحية . أما اذا ضم رؤساء الدول المسيحية فانه ينقلب الى اجتماع ومؤتمر سياسى . ان التضامن الاسلامى الحقيقى هو تضامن الشعوب الاسلامية المناضلة ضد الاستعمار لا تضامن الحكومات الرجعية العميلة للاستعمار والمستغلة للاسلام والمزيفة له . والجماهير قادرة على معرفة من يخدم الدين ومن يستغل الدين . لا تجد الرجعيـة العربية المتحالفة مـع الاستعمار من خط دفاعى سوى تزييف الدين . وتكشف الجماهير العربية هذا التزييف واستخدام الدين لوضـع البلاد العربية داخل مناطق النفوذ . والشعوب العربية قادرة على اسقاط الحلف الاسلامى المزعوم كما أسقطت حلف بغداد . وان الثورة المصرية لعلى استعداد لعقد مؤتمر اسلامى لعلماء الدين وليس من علماء السياسة والسماسرة والارهابيين أو شاه ايران وبورقيبة ، مؤتمر اسلامى لله وللدين وليس للاستعمار والرجعية . وان الاسلام لاتدس من أن يسـخر لخدمة الاستعمار أو الرجعية . وتظل الثورة المصرية على استعداد كامل لان تعمل من أجل التضامن الاسلامى الحق السليم الذى يخدم الدين ، ويتكون أساسا من علماء الدين . وتظل أيضا على استعداد لعقد اجتماع اسلامى كريم ونزيه داخل الازهر بالقاهرة ، أو داخل الحرم النبوى فى مكة أو داخل المسجد الاموى فى دمشق أو داخل المسجد الاقصى فى القدس ، مؤتمر لله وليس للاستعمار والرجعية .

والحقيقة أن حجج ناصر ، بالرغم من قوتها الجدلية لافحـام الخصم ، الا أنها ضعيفة اسلاميا اذ لا يوجد فى الاسلام هذه التفرقة بين رجال الدين والسياسة فرجال الدين هم أهل الحل والعقد الذين بيدهم عقد البيعـة على الحاكم أو عزله . ورجال السياسة هم أئمة

المسلمين . لا يفرق الاسلام بين الدين والسياسة كما يريد ناصر أن يجعل رجال الدين يتكلمون فى الدين ورجال السياسة يناقشــون فى السياسة . هناك موضوعات واحدة تجتمع فيها شؤون الدين وشؤون الدنيا . واذا كان ناصر يدين تسييس الدين ويرى أن الدين ثورة اجتماعية ونظاما اشتراكيا فانه من الصعب قصر الدين على العبادات والتعاون الاخوى بين الدول الاسلامية وابعاده عن السياسة ومعاركها . واذا كان ناصر قد وصف رجال الدين من قبل بالتخلف والرشوة وتبعيــة الحكام فكيف يرجى من مثل هؤلاء أى نفع أو خير للمسلمين ؟ ويبدو أن مقارنة الحلف الاسلامى الغربى بالمجمع المسكونى المسيحى يجعل تصور ناصر للاسلام تصورا تقليديا مسيحيا خالصا . يستــعمل ناصر ولا شك حجة جدلية ضد خصومه دون أن يعلم أنها قد ترد اليــه . فهو أيضا يدخل الدين فى الساسة والسياسة فى الدين بتحويل الحج الى مؤتمر سياسى سنوى كما عبر عن ذلك فى فلسفة الثور ويبــرر الاشتراكية باسم الاسلام . عبد الناصر يتكلم فى الدين وهو رجــل سياسة ويستعمل الدين فى السياسة حتى وهو يحاجج لفصل الدين عن السياسة . فالدين فى كلتا الحالتين بين عبد الناصر وخصومه فى أتون السياسة لما شهر سلاح الدين فى وجه ناصر اضطر ناصر لاعادة شهره فى مواجهة خصومه ، فعبد الناصر وخصومه سياسيون يستعملون الدين كسلاح ايديولوجى لتدعيم المواقف السياسية . معارك الدين هى معارك السياسة ، واختلافات التفسير هى اختلافات فى المصالح وفى المواقف السياسية .

أما حجج ناصر ضد بورقيبة فى فتواه الافطار فى رمضان وتقصير أجازة العيد فانها أيضا حجج ضعيفة . فقد اعتمد بورقيبة على أصول دينية معروفة عند القدماء ، ولا يعيب بورقيبة أن يكون مجددا أخذ

برأى دون الرأى السائد ، ومن حق حكام المسلمين اعادة الاختيـار بين البدائل طبقا للظروف المتغيرة أو اصدار حكم جديد لم يتوصل اليه القدماء • فاذا كانت الغاية زيادة الانتاج ، وزيادة ساعات العمل فان الاجتهاد يكون صحيحا ضد ما هو سائد الآن من اتخاذ رمضان حجة للكسل والتراخى وذريعة للغياب عن مواقع العمل • ان العمل لهـو خير عيد للمسلمين بدلا من كثرة الاجازات مرة باسم الاعياد الوطنية ومرة أخرى باسم الاعياد الدينية •

٣ ــ حلف بغداد الاسلامى •

الحلف الاسلامى هو طبعة جديدة لحلف بغداد • فبعد سـقوط هذا الاخير بعد الثورة العراقية فى يوليو ــ تموز ١٩٥٨ ، أراد الاستعمار والرجعية احياء الحلف بالباس القبعة والبذلة العمامة والجبة حتى يبدو محليا وكأنه يدافع عن مصالح الشعوب فى المنطقة • كان هدف الرجعية والاستعمار تحويل حلف بغداد الى حلف اسـلامى بعدما دخلت تركيا وباكستان وايران والعراق فى الحلف ثم خرجت العراق وبقيت تركيا وباكستان • ليس الحلف الاسلامى الا استكمال لحلف بغداد لوضـع الامة العربية داخل مناطق النفوذ • ومن لم يستطع الدخول فى حلف بغـداد قبل اليوم حاول عن طريق الاسلام ، ولكن الشعب العـربى يعلم أن طريق الاسـلام هو الاسم الجديد لحلف بغداد والاسم الجديد لمناطق النفوذ • وكل من هلل لحلف بغـداد فى ١٩٥٥ ينادى اليـوم بالحلف الاسلامى • ولما كان هذا الحلف مثل حلف بغداد فان مصيره أيضا مثل مصير حلف بغداد(٥) •

---

(٥) خطاب فى عيد الوحدة ١٩٦٦/٢/٢٢ ، جـ ٥ ص ٥١٠ ، خطاب فى المؤتمر الشعبى بمدينة دمنهور ١٩٦٦/٦/١٥ جـ ٥ ص ٥٩٨ .

وفى كلتا الحالتين ، لم يتجاوز الامر مرحلة الشعارات التى سرعان ما أسقطها الشعب العربى • فشعار الحلف الاسلامى الذى يروج له ليس بالفكرة الجديدة بل سبقتها محاولات مشابهة مثل حلف بغداد ، ولا تختلف الفكرتان فى شىء • وكما رفض الشعب العربى الفكرة الاولى سيرفض الفكرة الثانية • والدول الداعية للحلف الاسلامى أو المؤتمر الاسلامى هى جدة وطهران • ووجود طهران يؤكد بل ويزيد التأكيد على أن الحلف ضد العرب وضد المسلمين لحماية الرجعية • والذى أيد الحلف صحف السعودية وايران وصحف بورقيبة فى تونس وأعداء العروبة والاسلام فى لبنان • نفس الجرائد التى أيدت حلف بغداد فى ١٩٥٥ — ١٩٥٦ هى التى أيدت الحلف الاسلامى فى ١٩٦٥ — ١٩٦٦ (٦) •

وهنا يبين ناصر أن التاريخ يعيد نفسه مرة على نحو علمانى فى حلف بغداد ١٩٥٥ ومرة على نحو اسلامى بعد ذلك بعشر سنوات فى ١٩٦٥ • ولكن الغاية واحدة ، محاصرة الثورة العربية بأجنحة الرجعية المتعاونة مع الاستعمار • ليست المعركة اذن بين العلمانية والدين ، فكلاهما قد يخدم الاستعمار ولكن علمانية من ؟ ودين من ؟ علمانية لصالح الجماهير أم لصالح الاستعمار ؟ ودين لصالح الشعب أم لصالح الرجعية ؟ يكرر ناصر نفسه ولا يطور حججه الى ايديولوجية ثورية مضادة ، ويجعلها معركة بين قيادات أو عواصم عربية واسلامية ، صحيح أنه كان ضد الاحلاف والمحاور المضادة حتى ولو كانت لصالحه وحرصا

---

(٦) حديث لجريدة « ازفستيا » السوفيتية ١٩٦٦/٢/٧ جـ ٥ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ ، ص ٥٢٢ •

على وحدة الامة العربية ، ولكنه ظل دائما فى موقف الدفاع وليس فى موقف الهجوم ، يجره الاستعمار الى المعارك ولا يبدأ هو معاركه فى جبهاته التى يختارها .

٤ ـ الانحياز للغرب .

أراد الحلف الاسلامى الايقاع بدول المنطقة فى سياسة الانحياز والاحلاف ومناطق النفوذ لمواجهة سياسة عدم الانحياز ومناهضة الاحلاف والخروج من مناطق النفوذ . بعض الدول الاسلامية دخلت فى مواثيق ، وانحازت للغرب . وبدأت محاولات لاستغلال الدين الاسلامى من أجل سياسة الانحياز التى تتنافى مع سياسة عدم الانحياز ، سياسة الثورة المصرية . وقد بدأ الحديث عن حلف اسلامى غير منحاز مباشرة الى الغرب ولكنه منحاز بطريقة غير مباشرة . بدأ ذلك قبل ١٩٥٥ ولم ينقطع . كانت هناك خطورة كبيرة فى أن تنضوى مصر تحت اسم الاسلام لتنحاز الى الغرب أو لتدخل تحت سيطرة الدول الغربية لان ذلك يتنافى مع الاسلام . فالاسلام ينادى بالحرية ، وبأن يكون الشعب حرا وسيدا لنفسه وألا تكون مصر داخلة فى مناطق النفوذ لاية دولة أخرى . وكيف يكون هناك حلف اسلامى يأخذ أوامره من لندن أو واشنطن أو أية دولة أخرى ؟ الحلف الاسلامى فى هذه الحالة يتنافى مع كلمة الاسلام ، يكون حلفا غربيا . لذلك رفضت الثورة المصرية أن يكون العمل تحت اسم الاسلام جارا الى الاحلاف أو الى الانحياز للغرب بطريق الخديعة تحت اسم الحلف الاسلامى أو الرابطة الاسلامية أو أى اسم من الاسماء لان سياسة مصر هى سياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز سواء كان الحلف الاسلامى أو المؤتمر الاسلامى أو التجمع الاسلامى أو التكتل الاسلامى أو

مؤتمر ذروة اسـلامى • هو حلف للتأخر ضد الشعوب العربية ووضعها فى مناطق النفوذ الغربى • وهو حلف للتآمر على البـلاد الاسلامية الاخرى غير العربية التى تتبع سياسة عدم الانحيـاز • الحلف كله المقصود منه وضـع الامة العربية كلها تحت مناطق نفوذ أمريكـا وانجلترا(٧) • واذا ما تم الانحياز للغرب فانه يسهل تطويق الاتحاد السوفييتى من الجنوب الغربى لآسيا حتى أوربا فيمتد الحصـار على ثلاث قارات آسيا وأفريقيا وأوربا وبالتالى يتم شـق حركة عـدم الانحياز والقضاء على منظمة الشعوب الاسيوية الافريقية • وبالرغم من هـذه الخطابة السياسية التى تجعل الخصم فى نفس الدرجة من القوة يظل الخـلاف بين الرؤيتين ليس خلافا فى الدين بل صراع بين قوتين سياسيتين • ولا يكون الحسم بينهما فى أى الرؤيتين أصح من الاخرى بل فى أى القوتين أقدر على حسم الصراع • وبهزيمة ١٩٦٧ ثم وفاة عبد الناصر فى ١٩٧٠ انحسرت القوى الثورية فى المنطقة وكسب الاستعمار والرجعية الجولة •

٥ ــ ضرب القومية العربية •

كان الهدف من حلف بغداد كذلك ضرب القومية العربية بما تمثله من مضمون تقدمى اشتراكى فى مواجهـة تحالف القوى الرجعية ورأس المـال ، وذلك باعتراف الصحف الغربية نفسها • فقد طلع حلف بغداد من جديد فى صـورة الحلف الاسلامى فى انجلترا فى ديسمبر ١٩٦٥ • وبدأ الكلام على الحلف الاسلامى فى ١٩٦٥/١٢/٣ • فقد نشرت الصحف

---

(٧) جـ ٥ ص ٥١٢ ، جـ ٦ ص ١٥٧ .

انبريطانية فى ذلك الوقت أن الملك فيصل أوفد صديقه المغربى محمد الكتانى فى مهمة سرية الى دول الغرب تستهدف الى انشاء حلف اسلامى مقدس يتصدى للثورات التقدمية فى المنطقة ولمكافحة للشيوعية فى العالم العربى • وأن الفكرة هى محاولة ايجاد صيغة اسلامية مناسبة لقيام الحلف • وفى ١٩٦٥/١٢/٤ فى تعليق لصحيفة « لا تربيون » أن واشنجطن كلفت الملك فيصل والشاه للقيام بتشيكل الحلف الاسلامى المكى المقدس للرد على القومية العربية بزعامة القاهرة • وأنه اذا دعيت اسرائيل للاختيار بين جبهة الملوك والجبهة المتحررة فستختار جبهة الملوك • وفى ١٩٦٥/١٢/٧ قالت « رويتر » أن فيصل سيبحث مع الشاه الوحـدة الاسلامية ! وفى ١٩٦٥١٢/٢٨/ قالت صحيفة « كومبا » الفرنسـية أن فيصل انتهز فرصة الهدنة الحالية فى اليمن لوضـع أساس تحالف ايرانى سعودى فى جميع المجالات وانشاء جمعية اسلامية متحدة • وقالت مجلة « جين أفريك » بمناسـبة صفقة السلاح السعودى من بريطانيا أن الصفقة لها صلة بزيارة فيصل لايران ودعوته لانشـاء جمعية اسلامية وهو مشروع ايزنهاور لملا الفراغ فى الشرق الاوسط وتحقق حلم بريطانيا وأمريكا قديما بانشاء جبهة تخلف حلف بغداد والحلف المركزى بالوقوف فى وجه القومية العربية والحيـاد • وأن بريطانيا تزود السعودية بالاسلحة لا ضد اسرائيل بل لاقامة قـوة دفاع غرب السويس تحت اسم الجبهة الاسلامية • وفى ١٩٦٦/١/١٢ قالت « لوسوار » الفرنسية أن التفـاهم السعودى الانجليزى الامريكى فى ايران يدعم النظرية القائلة بأن واشنجطن ولندن يؤيدان فيصـل والشاه لمشروع حلف اسلامى ضـد توسع الاشـتراكية فى الشرق الاوسط • وفى نفس التاريخ قالت صحيفة « لا تربيون » الفرنسية أن أمريكا تعتمد على السعودية فى تعبئة العـالم العربى • ويبدو أن هناك

نوايا لاستراتيجية واسعة قد يفسرها تزويد ايران والسعودية بالاسلحة، وتغيير تكتيك حلف بغداد الارضى بتكتيك جوى وبحرى • وقالت الصحيفة أن الغرض مساندة التيارات الرجعية وخنق المطالب القومية الاقتصادية ، وربط رفاهية هذه البلاد بالمصالح الاجنبية(٨) • وقالت « الديلى تليجراف » فى ١٩٦٦/١/١٨ ان الملك فيصل يقود حركة احياء الحلف الاسلامى • وقالت الصحيفة انه طالما أن الشرق الاوسط حانوت مغلق من الدول العربية فان القاهرة ستظل بلا جدال عاصمته السياسية• لكن وجود حلف اسلامى تشترك فيه دول مثل تركيا وايران وباكستان يغير الوضع • وتضيف الصحيفة أن كثيرا من الزعماء المسلمين يرون أن الحلف الاسلامى يكون أقوى نفوذا من القومية العربية فى الشؤون العالمية • وهو يكون بطبيعة الحال أقوى نفوذا فى الموالاة للغرب لان الحلف الاسلامى من أهدافه موالاة الغرب • وقالت « التايمز » فى ١٩٦٦/٢/١٥ ان فكرة عقد مؤتمر اسلامى ليست جديدة • وعلى الرغم مما يقال من أن المؤتمر الجديد سيبحث فى مسائل اجتماعية واقتصادية فان من المسلم به أن أهداف هذا المؤتمر سياسية أساسا اذ ستحضره دول عربية محافظة مما يساعد على تخفيف ثقل الدول العربية المتحررة •

وتساءلت جريدة « لوموند دبلوماتيك » فى ١٩٦٢/٢/١٦ عما اذا كان شعار الاسلام سيتمكن من القضاء على القوى التقدمية فى العالم العربى • وقد قام وزير الدولة البريطانى السابق أنطونى ناتنج بجولة فى الدول العربية بعد فشل خطة السويس • ونشر عدة مقالات فى صحيفة

---

(٨) جـ ٥ ص ٥٠٨ — ٥٠٩ •

« نيويورك هيرالد تربيون » خلال عام ١٩٥٧ يقول فيها ان الوسيلة الوحيدة للتفاهم مع القومية العربية يجب أن يكون عن طريق تأسيس جماعة اسلامية من الممالك الاسلامية بالمنطقة • عندئذ تخرج البلاد العربية من حيز القومية العربية الضعيف الذى لا يمكن التفاهم فيه الى حيز العقيدة الاسلامية الواسع الذى يجمع العربى والتركى والايرانى والباكستانى فى مجال واسع اذ ينسون جنسياتهم ولا يفكرون الا فى الاسلام • حينئذ يمكن للبلاد العربية التفاهم مع الغرب ! وقد قال ناتنج ذلك عن الحلف الاسلامى أو الجماعة الاسلامية أو التكتل الاسلامى فى ١٩٥٧ • لقد ظنت الدول الاستعمارية والرجعية أن القوى التقدمية فى العالم العربى مختلفة مع بعضها ، وأنها قد تعبت من النضال ، وبهذا أصبح الطريق مفتوحا أمام الاستعمار القديم لوضع البلاد العربية فى حلف جديد ، يلبسوه عقالا وعباية ويتخذ من الدين اسما أو ستارا لحلف بغداد • والاهداف واحدة وهى القضاء على القومية العربية التى سيطرت على أفكار واتجاهات الشعوب العربية باعتبار أن القومية العربية هى الوسيلة الوحيدة للتخلص من الاستعمار ومناطق النفوذ وتحقيق الوحدة العربية • لقد تحالف التآمر الرجعى ضد العراق من أجل ابعاد بغداد عن القاهرة ونشر فكرة الوحدة الاسلامية فى مواجهة الوحدة العربية • واتفقا على أن تعمل دول حلف بغداد الاسلامية من أجل الوحدة الاسلامية وتكون قطب جذب للدول العربية فتقوم الوحدة الاسلامية فى مواجهة الوحدة العربية • وقد زار سعود عام ١٩٥٧ أمريكا ثم عاد بعد أن تشاور مع ايزنهاور من أجل اقامة حلف اسلامى وطبقا لنصيحته ، وطلب من باقى العرب أن تشترك معه فى حلف اسلامى • وقد ذكر ايزنهاور فى مذكراته أن

السياسة الامريكية فى ١٩٥٧ قد خطت على أساس استخدام الملك سعود ضد الوحدة العربية والوقوف فى وجه القومية العربية(٩) •

والغريب أن أنتونى ناتنج يضرب به المثل فى معارضته للعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ واستقالته احتجاجا على ذلك وهو من ضمن المخططين للحلف الاسلامى لاحتواء القومية العربية بأسلوب أكثر ذكاء وأدوم من العدوان المباشر • فلم يختلف ناتنج مع ايدن فى الاهداف بل فى الوسائل فقط • والغريب أيضا أن يصبح الملك فيصل بعد ١٩٧٠ من أخلص الزعماء للقضية العربية والعالم الاسلامى ورمزا للاخوة الاسلامية والتضامن العربى والاخاء الاسلامى • وما ان انتهى خطر الناصرية على الملوك حتى انفرد بالزعامة • وكان وراء الحظر البترولى فى ١٩٧٣ • وظهر بطلا فى وقت كثر فيه العملاء • وواضح وسط كل ذلك اطلاع ناصر على الصحف العالمية ودرايته ووعيه بالعالم حوله • استطاع الغرب أن ينسج حوله حلقة الاسلام ضد حلقة العروبة ، ويحكم حصاره حوله حتى قضى عليه •

٦ — الصلح مع اسرائيل •

وقد كان من ضمن أهداف الحلف الاسلامى انهاء الصراع العربى الاسرائيلى لان القومية العربية ترفض الصلح أو الاعتراف أو عقد أية معاهدة سلام مع العدو الصهيونى • فمن خلال الحلف الاسلامى يمكن التفاهم مع اسرائيل فى حين أن القومية العربية لا تقبل وجود اسرائيل بدليل اعتراف ايران وتركيا باسرائيل • لذلك وضع الحلف

---

(٩) خطاب فى عيد الوحدة ١٩٦٦/٢/٢٢ ، جـ ٥ ص ٥٠٨ — ٥١١ .

الاسلامى الرجعية والاستعمار يدا بيد ضد العروبة وضد فلسطين بل وضد المسلمين . وفى نفس الوقت تدعى لندن وواشنجطن المخططتان للحلف أن الحلف كسب وتأييد للقضية الفلسطينية وهو نفس ما قاله نورى السعيد فى ١٩٥٥ . وماذا تكسب فلسطين من حلف تشرف عليه أمريكا وبريطانيا ويشترك فيه حكام ايران وتونس الذين يدعون للصلح مع اسرائيل ؟(١٠) . لقد أزعجت القيادة العربية الموحدة الصهيونية والاستعمار فبدأت الرجعية فى الحديث عن الحلف الاسلامى ثم بدأت الاتصالات مع شاه ايران . وحينما يتحرك فيصل وحسين وبورقيبة فان هذا يعنى أن الاستعمار قد دفع أصدقاءه الى العمل وتحقيق عدة أهداف منها اضعاف القيادة العربية الموحدة واضعاف الكيان الفلسطينى وجيش تحرير فلسطين . والعجيب أن تدافع اسرائيل عن الحلف الاسلامى فتذكر فى اذاعتها أن عبد الناصر وقف ضد الحلف الاسلامى لانه يهدد زعامته فى المنطقة . وهذه شهادة من العدو بأن الحلف الذى تدافع عنه اسرائيل يعبر عن أحقاد الصهيونية . وقد قيل ان الحلف الاسلامى هو تكتيل للمسلمين ضد اسرائيل والحقيقة أن الحلف من صنع الاستعمار والرجعية واسرائيل ممثلا فى السعودية والاردن وايران . يستطيع الحلف أن يخدم قضية فلسطين بشىء واحد فقط هو منع امداد اسرائيل بالبترول الذى يأتى من احدى دول الحلف من ايران الى ايلات . الحلف حلف استعمارى ، ومعنى هذا أنه مع الصهيونية لان الصهيونية هى الحليف السياسى للاستعمار . ويعلم العالم العربى ذلك . والقومية العربية قادرة على تعبئته ضد عملاء الاستعمار وحلفاء الصهيونية والطابور الخامس . وكيف يضم الحلف

---

(١٠) حديث صحفى للرئيس مع الصحفيين العرب ١٩٦٧/٢/٤ ، ج ٥ ص ٥١٣ .

بورقيبة بفتاويه للافطار فى رمضان وبالصلح مع اسرائيل ؟ واذا كان بورقيبة عميلا مهووسا فكيف يتحدث أو يناقش فى الدين ؟ وفى عــام ١٩٦٠ أعلن الشاه اعترافه باسرائيل فقطعت الثورة المصرية علاقتها معه مع أنها فى علاقات مع دول أخرى معترفة باسرائيل • وذلك لان ايران أيام الشاه كانت تتاجر بالدين ، وتضلل باسم الاســلام • وكانت ايران قد اعترفت باسرائيل فى ١٩٥٠ ثم جاءت حكومة مصدق فى ١٩٥١ وسحبت اعترافها ، وأغلقت القنصلية الاسرائيلية فى طهران • ولكن بعــد عودة الحكم الرجعى فى ١٩٥٣ عادت العلاقات التجارية والثقافية، وفتحت الوكالة اليهودية فرعا لها فى طهران • وايران دولة اســلامية من دول حلف بغداد تفتح كل مجالات العمل مع اسرائيل وتســاعد اسرائيل ضد الوطن العــربى ، وأصبحت قاعدة اسرائيلية • ونشرت جريدة « هاعام » الاسرائيلية أنه تم توقيع اتفاقية سرية بين اسرائيل وايران فى ١٩٦١ فى مطار طهران • كان بن جوريون وهو فى طريقــه انى بورما قد مر على طهران ونشر الخبر فى ١٩٦١/١٢/٦ • ثم عرف السر من الزيارة فى ١٩٦١/١٢/٦ • وبالرغم من أن الصحف الايرانية قالت ان السبب هو تعطيل المحركات الا أن الزيارة كانت مرتبــة ، واشترك فيها رئيس أركان حرب الجيش الايرانى وممثــل ايران فى الحلف المركزى لدراسة دور اسرائيل فى النظم الدفاعية لبلدان الحلف المركزى وضرورة تعزيز التعاون الاقتصادى والسياسى والعسكرى بين البلدين • وان بريطانيا تزود السعودية بالاسلحة ليس ضد اسرائيل بل لاقامة قوة دفاع غرب السويس باسم الجبهــة الاسلامية(١١) •

---

(١١) خطاب فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى القومى بمناسبة الاحتفال بالعيد القومى للسويس ١٩٦٦/٣/٢٢ ، خطاب فى مركز القيادة المتقدمــة للقيادة الجوية ، ١٩٦٧/٥/٢٢ ، جـ ٥ ص ٥٠٨ — ٥٠٩ .

وان تعاون الرجعية والاستعمار فى الحلف الاسلامى انما هو موجه ضد العروبة والاسلام وضد فلسطين • فشاه ايران وبورقيبة تونس عملاء الاستعمار والصهيونية وكلاهما أكبر متنكرين للاسلام • وقد يكون الهدف الاكبر للحلف الاسلامى هو تهديد لاستمرار أى عمل عربى مشترك لمواجهـة عدو العرب المشترك وهـو اسرائيل • وبالرغم من التناقضات مع الرجعية العربية فقد استطاعت الثورة المصرية أن تضع أسس عمل موحد من أجل فلسطين • كما تم انشاء القيادة العربيـة الموحدة لاول مرة ، وهو حدث كبير فى تاريخ كفاح العرب ونضال الامة العربية • واستطاعت الثورة المصرية أيضا من خـلال مؤتمرات القمة أن تجمع الشعب الفلسطينى لاول مرة منذ ١٩٤٨ • وبذلك ظهر الكيان الفلسطينى ومنظمة التحرير الفلسطينية • وبطبيعة الحال لم يقبـل الاستعمار واسرائيل هـذا العمل العربى المشترك من أجل فلسطين • فعمل على تفتيت الجبهة العربية عن طريق احداث الفرقة بينها وذلك بانشاء الحلف الاسلامى(١٢) •

٧ ـ تثبيت الرجعيـة والاسـتعمار •

والهدف الاخير من الحلف الاسلامى هو تثبيت أركان الرجعية وقواعد الاستعمار فى الوطن العربى • الحلف الاسلامى اسـتعمارى هدفه أنه يقاتل حركات التحرر وأن يتصدى للتقدم الاجتماعى • هو مجرد تجميع القوى الرجعية المتعاونه مع الاستعمار فى خط دفاعى

---

(١٢) خطاب فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى فى الاحتفال بالعيد القومى للسويس ١٩٦٦/٣/٢٢ جـ ٥ ص ٥١١ ــ ٥١٢ ، ص ٥٣٢ .

أخير ضد المد الثورى العربى التقدمى فى البـــلاد العربية • وكان من الطبيعى أن تتعـــاون الرجعية والاستعمار وهما يشعران بالخوف من المد الثورى العربى الذى يمثل خطرا على مصالحهما وعلى احتكارات البترول وخشية من الاشتراكية التى تهدد كيانهما المشترك وأنظمتهما ووجودهما • فبدآ معا فكرة جديدة ، استغلال الدين كســلاح حتى تتحقق أهدافهما المشتركة فى المحافظة على نفوذهما ودورهما فى سلب ناتج الشـــعب العربى والمحافظة على الاحتكارات البترولية ومكاسبها الباهظة وضمان استعادة نفوذهما فى البلاد العربية • وبهــذا يمكن التخلص من الحركات التحررية الشعبية فى الوطن العربى • ان وصف الحلف الاسلامى بالرجعية والتعاون مع الاستعمار ضد العروبة وضد المسلمين وضد فلسطين يســتند الى أصحاب الدعوة الاصليين فى صحف لندن وواشنجطن • كما أن العواصم الداعية للحلف الاسلامى همـــا جدة وطهران • وذلك يعنى أن الحلف ضد العرب وضد المسلمين ولحماية الرجعية • لم يؤيد الحلف الاسلامى الا ايران والسعودية فى العالم العربى • كما أيدت صحف بورقيبة الحلف ، وكذلك أيــده أعداء العروبة والاسلام فى لبنـــان وكل من هلل لحلف بغداد فى ١٩٥٥ • والحقيقة أن الحلف موجه ضـــد قوى الثورة فى العالم العربى بالرغم من أن الاسلام ثورة وأن التضامن الاسلامى جزء من العقيدة الاسلامية تحتاجه الشعوب(١٣) •

وعندما سأل كرانجيا عبد الناصر : هل يمكن أن يقال أن الهجوم

---

(١٣) جـ ٥ ص ٥١٢ .

الاستعمارى هو فى الواقع امتداد فى شكل جديد لاستراتيجية منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط والحلف المركزى وحلف جنوب شرقى آسيا ؟ وأنا عندما أقول ذلك أفكر فيما يسمونه بالمؤتمر أو الحلف الاسلامى ؟

أجاب عبد الناصر : هذا صحيح ، أنها نفس الاستراتيجية القديمة . كانوا فى الماضى يضعون الخطط لمحاربة الثورة ولتمكين الاستعمار الجديد تحت ستار الخوف من الغول الشيوعى . لكنهم اليوم قد أعطوا هذه الاستراتيجية طلاء دينيا زائفا . حاولوا فى أول الامر أن يفرضوا على المنطقة منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط . وعندما فشل حلف بغداد فى تحقيق النتائج التى أرادوها بدؤا يفكرون فيما يسمى بالحلف الاسلامى ليوقفوا زحف الاشتراكية والديمقراطية فى المنطقة بتفسيرات مضللة للتعاليم الاسلامية العظيمة التى تدعو فى جوهرها الى الاشتراكية والديمقراطية . وقد ذكر أيزنهاور هذه المؤامرة فى مذكراته . وكانوا يفكرون فى ذلك الوقت فى الملك سعود كأداة رئيسية لمؤامرتهم الرجعية الاستعمارية . وسقط سعود لان الاقطاع لابد له أن يسقط عندما يتصدى للقوى التقدمية الثورية . اكتشفوا اليوم أن الملك فيصل نبى جديد لهجومهم الاستعمارى الا أنه لم يجد تأييدا لهذا التحريف فى تفسير الاسلام لتحويله الى اسلام سياسى رجعى الا من بورقيبة وشاه ايران . وهى نفسها ملابسات التحالفات العسكرية السابقة مثل حلف بغداد . والشىء الوحيد الجديد هو تحريف الاسلام ليكون ستارا دينيا لمؤامرة رجعية استعمارية ضد الاستقلال والتغير الاجتماعى وحركات التحرير والاهداف الثورية

لشعوب هذه المنطقة(١٤) . وكما تحطمت أحلاف الاستعمار القديمة مثل حلف بغداد فان الحلف الاسلامى المقترح يوشك اليوم أيضا أن يتحطم . وقد اكتسبت الجماهير العربية بذلك مناعة تقويها على فضح التضليل وكشف أساليب الخداع وبالتالى عرفت أن هذا الحلف الاسلامى المقترح ليس الا اسما لواجهات جديدة لحلف بغداد القديم . هذا الحلف المنهار هدد سوريا فى ١٩٥٧ ، والآن يهدد اليمن فى ١٩٦٥ . تتاجر الرجعية اليوم بالدين سواء كان مؤتمرا اسلاميا أو تجمعا اسلاميا أو حلفا اسلاميا . ويعرف الشعب العربى فى كل مكان ، ويعلم علم اليقين أن الذين يدعون للمؤتمرات الاسلامية ويقولون أنها عملية اسلامية أنهم أبعد الناس عن الاسلام ، وأبعد الناس عن الدين ، وأن العملية كلها سياسية الغرض منها أن يوضح الشعب العربى من جديد داخل مناطق النفوذ . لم يكن الحلف الاسلامى بالسياسة الجديدة فقد كانت أمريكا تريد حلفا اسلاميا فى المنطقة منذ ١٩٥٧ كما ذكر أيزنهاور فى مذكراته . ثم دعى الملك سعود الى أمريكا ولكنه لم ينجح فى اقامة الحلف الذى طلبه ايزنهاور ومن أجل ضرب القوى الثورية التى كانت تتزعمها مصر فى هذا الوقت(١٥) .

كان الهدف الاساسى من الحلف الهجوم المضاد على القوى الثورية العربية . فعندما دعت مصر الى مؤتمرات القمة فانها تصورت أنها بذلك تصل الى تعايش سلمى بين الانظمة الاجتماعية المختلفة .

---

(١٤) حديث الى د . كرانجيا رئيس تحرير مجلة « بليتز » الهندية فى ١٩٦٦/٥/٨ ، جـ ٥ ص ٥٦٣ .

(١٥) جـ ٥ ص ٥٦٩ ، ص ٥٩٩ .

وفجأة بدأ الملك فيصـــل يعلن عن الحلف الاسلامى ، وبدأت دعاية واسعة جدا ضـــد النظام الاشتراكى فى مصر ، وأعلن فيصل والشاه عن الحلف ودعيا بقية الدول الاسلامية لتنضم اليهما • والحقيقة أن الولايات المتحـــدة كانت وراء الملك فيصل فى سياسته ، تحاول تحقيق نفس الاهداف وعلى رأسها الدفاع عن الشرق الاوسط وذلك عن طريق جمع الدول العربية كلها فى صف واحد تحت السيطرة الغربيـــة • وفى نفس الوقت كانت هناك مؤامرات تحـــاك ضد سوريا والعراق • وكان الاردن مسؤولا عن التنظيم ، والسعودية عن التمويل • بدأ فيصـــل يعمل من أجل الحلف الاسلامى لخدمة مصالح أمريكا ومصالح الانجليز • وتصور أنه يستطيع أن يقوم بهذا العمل فى حماية مؤتمرات القمـــة • لذلك لما اجتمع رؤساء الحكومات تكلموا فى كل شىء الا فيمـــا يهم العرب • ولم يقل أى واحد منهم كلمة واحدة عن الحلف الاســـلامى علما بأنه كان فى رأس كل منهم • ولكنه لم يجرؤ أن يتفوه فيه بكلمة حتى لا ينفضح التآمر الرجعى الاستعمارى على الامة العربية باسم الدين(١٦) • ولما سأل مراسل جريدة « الاوبزرفر » البريطانية : هل صحيح أنكم تعتبرون بعض التطورات الاخيرة فى المنطقة هجوما على القوى الثورية خصوصا من فيصل والحلف الاسلامى ؟ أجاب عبد الناصر فيما أجاب : بدأ الملك فيصـــل يعمل من أجل الحلف الاسلامى لخدمة مصـــالح أمريكا وانجلترا ، وتصـــور أنه يستطيع أن يقوم بهذا العمل فى حماية مؤتمرات القمة • فالداعون له عملاء لامريكا وأدوات لها ،

---

(١٦) خطاب فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى بمناسبة الاحتفال بالعيد القومى للسويس فى ١٩٦٦/٣/٢٢ جـ ٥ ص ٥٣٥ .

يقولون أنهم يدافعون عن الدين ، وأن الحلف دينى وليس سياسيا ، وهم يعملون لتنفيذ المخطط الامريكى فى المنطقة ، وقد واجهت مصر كل مخططا تالرجعية والاستعمار مواجهة واضحة ومريرة حماية لمؤتمرات القمة من استغلالها للدعـوة الى الحلف الاسلامى • وكشفت استحالة أن يكون الحلف الاسلامى مؤتمرا اسلاميا أو تضامنا اسلاميا يعمل من أجل الدين • لقد حاولت أمريكا من قبل استخدام السـعودية ضـد القوى الثورية فى ١٩٥٧ ، وأعلن أيزنهاور ذلك وقال انه لا يبدأ حلف اسلامى بلا عمل اسلامى • وقال فى مذكراته أنهم أرادوا أن يكونوا قوة مضـادة ضد القوى الثورية العربية التى كانت تتزعمها مصر فى ذلك الوقت ، واقترحوا على الملك سعود أن يعمل من أجل تأسيس حلف اسلامى أو مؤتمر اسلامى • ودعوا الملك سعود الى أمريكا • ثم عاد ولم تنجح العملية كلها • ومع ذلك يدعى فيصـل أن الامريكيين ليسـوا أصحاب المؤتمر الاسلامى أو الحلف الاسلامى وأن الفكرة من لديه يهدف منها الى تحقيق خير المسلمين وخير الدين • والحقيقة أن الامريكيين والبريطانيين موجودون فى السعودية ، وهى تحت نفوذهم ، ولا يمكن أن يكون الحلف لوجه الله(١٧) •

٨ ــ خاتمة : الاسلام السياسى •

فاذا كان السؤال : الى أى حد يمكن اعتبار نقد عبـد الناصر

---

(١٧) حديث صحفى الى جريدة « الاوبزرفر » فى ١٩٦٧/٢/٥ ، جـ ٦ ص ٤١ ، ص ٦٤ ــ ٦٥ •

وهجومه على الحلف الاسلامى أحد مكونات الاسلام السياسى فانه يمكن الاجابة عليه على النحو الآتى :

١ — لم تتحقق نظرية الدوائر الثلاث التى عرضها عبد الناصر فى « فلسفة الثورة » ، الدائرة المصرية والدائرة العربية والدائرة الإسلامية، ولم تكن على نفس الدرجـــة من التشاط والتكامل فيما بينها • كانت الدائرة العربية أقوى الدوائر وأكثرها نشاطا • أنتجت القومية العربية ، والاشتراكية العربية ، وحركة التحرر العربى ، والقوى التقدميـــة والثورية العربية •• الخ • وتلتها الدائرة المصرية ، فالقاهرة مركـــز الثقل فى العالم العربى والثورة المصرية بداية الثورة العربية ودعامتها الاولى • ولكن ظلت الدائرة الاسلامية مجـــرد رابطة دينية روحية دون أن تتحول الى نظرية سياسية أو الى عمل سياسى ، قـــوة فعالة على مسرح السياسة الدولية باستثناء استخدامها استخداما سياسيا للتأثير على الرأى العام فى موضـــوع القدس والمســـجد الاقصى ، وارسال البعثات العربية لتدريس اللغة العربية والدين فى العالم الاسلامى، وقبول الطلبة الوافدين من العالم الاسلامى فى الجامعة الازهرية ، وارسال المصاحف والكتب الدينية ، وتبـــادل العلماء ، وحضور المؤتمرات وتكوين المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية لهذا الغرض(١٨) • وبالرغم من مبادرة الثورة المصرية فى مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ وتضامن الشعوب الاسيوية الافريقية والتنبيه على أن هذا التكتل الجديد هى صياغة

---

(١٨) أنظر بحثنا الدين والتنمية فى مصر ، الجـــزء الرابع : الدين والتنمية القومية .

سياسية حديثة للعالم الاسلامى الذى امتد كله بين قارتى آسيا وأفريقيا لم تستطع الثورة استخدام الاسلام كعنصر ترابط بين شعوب آسيا وأفريقيا واستغلال طاقاته فى توحيد هذه الشعوب ثقافيا وحضاريا وسياسيا(١٩) • وظلت علاقة مصر بالهند وبالصين وبيوجوسلافيا أقوى منها بكثير من علاقاتها بالدائرة الاسلامية فى اندونسيا والملايو وباكستان وأفغانستان وتركيا بالرغم من الخلاف السياسى بين الانظمة السياسية لهذه الدول والثورة المصرية • فالخلاف السياسى بين الحكومات شىء عابر والتقارب الثقافى والحضارى بين الشعوب ثابت ودائم • وقد أدرك عبد الناصر ذلك أيضا دون أن يحققه• اذ يصرح فى حديثه الى المحرر السياسى لجريدة «الاوبزرفر البريطانية» أن الدور الدينى الذى يؤديه الاسلام قائم وفعال • ولقد تسألنى لماذا تبدو علاقاتنا بالهند أقوى منها بايران المسلمة وأقول لك ان الخلاف بين الحكومة المصرية والحكومة الايرانية لا يمكن أن يعوق أو يحجب العلاقة بين الشعب المسلم فى مصر والشعب المسلم فى ايران • ان العلاقات الدولية بظروفها الموضوعية لها أحكامها • لكن ذلك لا يناقض ولا يتعارض مع تعاطف الشعوب التى تعتنق نفس الدين • وقد تحدثت فى «فلسفة الثورة» عن دور افريقيا لمصر ، وعن دور أفريقى آسيوى ، وعن دور فى العالم الاسلامى ، ولست أرى تصادما بين هذه الادوار الثلاثة أو احتكاكا بين دوائرها(٢٠) •

---

(١٩) مالك بن نبى : فكرة الاسيوية الافريقية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار العروبة ، القاهرة .

(٢٠) حديث الى مستر روبرت ستيفن المحرر السياسى لجريدة الابزرفر البريطنية ١٩٦٤/٧/٥ .

٢ ــ ظلت تفرقة عبد الناصر بين الدين والسياسة تفرقة ضعيفة ولا تخدم قضيته • فهو يواجه عدو يتستر بالدين ليحــقق أهدافا سياسية فى الحلف الاســلامى ، ويبين أن الدين أقرب الى سياسة عدم الانحياز والخروج عن مناطق النفوذ والاحلاف العسكرية • وفى كلتا الحالتين هناك تداخل بين الدين والسياسة ، أولا لصالح الاســتعمار والرجعية ، وثانيا لصالح الثورة والتقدم • بل أن عبد الناصر أراد فى « فلسفة الثورة » تحويل الحج الى مؤتمر سياسى سنوى وليس مجرد شعائر ومناسك تقضى ، قوة سياسية وليس مجرد تذكرة لدخول الجنة ، وهو تأويل سياسى للدين يتفق مع روح الدين الهدف من اقامة الحج وشعائره قبل الاسلام عندما كانت تحج القبائل الى البيت العتيق وبعده عندما يأتى العالم الاسلامى كله فى مكان واحد ووقت واحد ليتدابروا شــؤون الامة •

٣ــ اقتصر استعمال الثورة المصرية فى التطبيق الاشتراكى على النحو الدعائى الجدلى الاعلامى للمحافظة على النظام ضــد هجوم السعودية • كانت معركة بين نظامين سياسيين وحركتين تاريخيتين من خــلال أجهزة الاعلام الرسمية ومفكرى كل نظام دون أن يكون له أثر كبير على الرأى العــام • ولم تتحول المبادىء الثورية الاســلامية العامة الى مشاريع ثقافية وحضارية للتحقيق • فالاســلام الثورى كان مجرد خطابة يتعلمها الناس فيحفظها طلاب المدارس دون أن يكون لها مضمون عملى يذكر • فلا يكفى أن يقال : ان الاسلام دين تقدمى ، رابطة بين الشــعوب الاسلامية ، دعوة قدسية الى الحــرية ، نزل ليطالب البشر فى كل زمان ومكان أن يرفضوا استغلال شعب لشــعب ، وطبقة لطبقة ، وانسان لانسان • بل نادى بالمساواة والعــدالة بين

الناس • كما لا يكفى أن يقال : ان رسالة الاســـلام بطبيعته معادية للاستعمار وللامتيازات الاقطاعية وللاستغلال الرأسمالى • أو يقال : ليس الاسلام قيدا يشد الناس الى الماضى بل حافز يدفع الى اقتحام المستقبل على توافق وانسجام كاملين مع مطالب الحرية السياســـية والحرية الاجتماعية والحرية الثقافية • فالتحدى الحقيقى هو قياس بعـــد المسافة بين المثال والواقع ، بين الممكن والمتحقق ، بين النوايا الطيبة والأفعال القائمة ، بين العبارات الانشائية ومضامينها الخبرية •

٤ ـــ الدائرة العربية نفسها ممتزجة بالدين • فالعروبة لغـــة والاسلام ثقافة • أما القومية العربية التى راجت ابان الثورة المصرية فقد كانت أقرب الى العلمانية باستثناء لبنان التى اقترنت فيها الناصرية بالقومية العربية والاســـلام ساعة الازمات وكما حدث ابان الحرب الاهلية الاولى فى ١٩٥٨ ثم الحرب الاهلية الثانية فى ١٩٧٥ وحتى الآن• أما ما يقال عن العروبة والاسلام فى مواثيق حزب البعث ولدى حركة القوميين العرب فانه أقرب الى التبشير بالعروبة وسط جماهير المسلمين • الاسلام مجرد أداة للتعبير ، ووسيلة للانتشار • وكيف يمكن استعمال الكل وهو الاسلام من أجل التشريع للجـــزء وهو العروبة دون وضع للجزء فى اطار الكل ؟ ان القـــول بأن تعاون جميـــع المسلمين دون خروجهم عن الولاء لاركانهم الاصلية هو تناقض يكشف عن استحالة الولاء المزدوج ، الاول نظرى للاســـلام والثانى عملى للعروبـــة • فاسلام دين دولة ، نظر وعمل ، ثقافة وسياسة ، حضارة وأمـــة • والحقيقة أن كليهما ، العروبة والاسلام ، قادران على الاســـتجابة لمطالب العصر فى الحرية والتحرر وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة • ومن هنا فلا وجود لتعارض مفتعل بين القومية العربية والاخوة الاسلامية

على ما يقول عبد الناصر • فالامة العربية بقواها الثورية التقدمية لا ترى فى الاسلام عائقا عن التطور بل دافعا له • ليست القومية العربية عازلا عن تضامن الشعوب الاسلامية ، فمواقع النضال من أجل الحرية السياسية والاجتماعية تعزز بعضها البعض وتتكامل فيما بينها(٢١) •

٥ — لم يكن دور مصر فى المحافظة على الاسلام قليلا • فمصر هى التى دافعت عن حصن المسلمين منذ الصليبيين حتى عين جالوت • جندها خير خير أجناد الارض وشعبها مرابط الى يوم القيامة • ومن ثم لا يعقل أن يحدث تصادم بين الاخوان والثورة كما حدث فى مارس ١٩٥٤ بدعوى الصراع على السلطة • ومنذ ذلك الحين تم شق الامة الى قسمين : الاسلام ضد الثورة والعروبة والقومية والاشتراكية والعلمانية • ثم انزوم الاسلام وتحول الى داخل السجون ثم خرج راغبا فى الانتقام • والثورة العربية تحولت الى ثورة مضادة من داخلها وبالتالى ضاع الحسنيان معا(٢٢) • وان ثقل مصر فى محيطها العربى والاسلامى انما يأتى من اللغة ، فالعروبة هى اللسان ، ومن الدين ، فالاسلام ثقافة الامة •

٦ — وبصرف النظر عن تشخيص المبادىء والافكار والسياسات

---

(٢١) انظر بحثنا : القومية العربية والاسلام ، هذا الجزء : الدين والنضال الوطنى •

(٢٢) انظر بحثنا : الحركة الاسلامية المعاصرة ، الجزء الخامس •

فى الزعماء وكثرة نقد الاشخاص فانه قد يتحول الامر الى أن تصبح المعــارك السياسية معارك شخصية بين زعامات ، كل منها يدافع عن نفســه ، والكل يدعى الشرعية فى التمثيل السياسى للامة جمعاء . انما كان الهدف من ذلك بيان كيف أصبح أعداء الامس أصدقاء اليوم ، وكيف تحولت الزعامة فى القاهرة من ثورة الى ثورة مضــادة . قد يكون فى البحث تكرار كثير ، ولكن الهدف كان ترك أقوال عبد الناصر تدل بنفسها ، فالخطابة السياسية ليست فقط شــكل تعبير أو أداة اتصال بل هى أيضا موضوع سياسى يكشف عن الاوضــاع السياسية العامة التى كان الخطاب السياسى فيها محورها الاول .

عبد الناصر والشـــاه

فى الوقت الذى لا يجد الشاه فى العـــالم كله مكانا يأويه أو طبيبا يداويه أو وطنا يحميـــه يتبرع حاكم مصر بالقيـــام بذلـــك تأييدا لعميل أمريكا وطاغية ايران ، فالعملاء يؤيد بعضهم بعضا ، والكـــل يتسابق لدى السيد فى اظهـــار مزيد من عمالته . اذا ســـقط عميل أتى الآخـــر ليحمى الاول أو على الاقل ليأويه فى أيامه الاخـــيرة . وربما كان الدافع الرغبة فى أخذ أموال الشاه الهارب وثرواته المهربة التى تقدر بمئات الملايين من الدولارات فى البنوك الاجنبية والعقارات الشاهقة على الجبال وفى العواصم الكبرى والمجوهرات من فوق تاج الطاووس ومن ثنايا خزائنه ، الشاه أولا وماركوس ثانيا . وربما تأتى المصاهرة من أجل تشريع النهب والسرقة . فالمال مشاع بين الاسرة القديمة التى بها الشاب المدعى للعرش والاسرة الجديدة الطامعة بها العروس ، زوجة ملك المستقبل ! استقبل استقبال الملوك وهو الشـــاه الهارب المخلوع ، وشيعت جنازته رسميا ، وعلى عربة مدفع ، وأمامه جنود مصر ، وحرس حاكمها الخاص باسم اكرام الميت ، وواجبات الدفن ، واستقبال العزاء ! وهـــو الذى كان يسرع وهو حى بالقضاء

(*) كتب هذا المقال أيضا بعد اندلاع الثورة الاسلامية فى ايران وبعد موت الشاه واقامة جنازة له فى مصر وبعد عقد معاهدة كامب ديفيد فى ربيع ١٩٧٩ ، لتوضيح التقابل بين عدو الامس وصديق اليوم (الشاه) وبين زعيم الامس (عبد الناصر) وحاكم اليوم (السادات) . والاصل مفقود . وهذه صياغة ثانية من المسودة الاولى تمت فى خريف ١٩٨٧ .

على الاحياء وانهاء الآجال • كانت جنازة لا يحيط بها ولا يسير فيها فيها ولا يرعاها الااالخونة والعملاء باسم الدين وتحت ستار الاسلام • وقد يكون أطباء أمريكا هم الذين قتلوه أثناء اجراء العملية الجراحية له بجرح الكبد حتى تنتهى مشكلة تسليم الشاه والافراج عن الرهائن • قتلته أمريكا باسم العلم ، وواريناه نحن التراب باسم الدين ، خديعة فى الاولى ، ونفاقا فى الثانية •

وهو الشاه الذى عادته مصر فى ثورتها والذى كان عدوها اللدود مع حكام الرجعية والخيـانة • فلما انقلبت الثورة الى ثورة مضادة ، تحول عدو الامس الى صديق اليـوم • أحالنا الواقع المر الحالى الى الحلم الثورى القديم • ماذا كانت صورة الشاه أيام كانت مصر فى قلب الثورة العربية وتحت قيادة زعامتها الثورية ؟ كان الشاه أداة الاستعمار ضد التقـدم ، ومطية الصهيونية ضد شعب فلسطين ، وعميل أمريكا ضد الاستقلال الوطنى للشعوب ، وحليف الرجعية ضد القومية العربية ، والمناهض للوطنية ضد مصدق والحكم الوطنى ، والمتـاجر بالدين والمزيف لشـعارات الاسلام باسم الحلف الاسلامى ، والقاضى على الحريات بأوامره للسافاك • هذه هى صورة الشاه فى الخطابة السياسية للزعامة الثورية فى الستينات فى مصر •

١ ـــ أداة الاسـتعمار •

فأول خط فى رسم صورة الشاه فى الخطاب السياسى عنـد عبد الناصر أن الشاه أداة للاستعمار • فقد كان محرضا فى حلف بغداد ، وكان محرضا لانجلترا وقت العدوان ومؤيدا لها ، وكان محرضـا ضد

الامة العربية وضد القومية العربية . كان يزيف الشعارات ليضع الامة العربية داخل منطقة النفوذ الأمريكية والبريطانية . لذلك حاولت الثورة المصرية كشفه باستمرار باعتباره عميلا للاستعمار وعدوا للرجعية . أيده الاستعمار ، ونصبه على العرش خلفا لابيه ، وأرجعه بعد هروبه فى وجه ثورة مصدق الوطنية . وأيده بالسلاح والمعلومات عن المعارضة . كان الغرب يعتبر ايران واحة أمان فى الشرق الاوسط ، وأبعد البلدان عن الثورات والتقلبات السياسية . وفجأة وبلا مقدمات اندلعت الثورة ، ونزلت الملايين الى الشوارع ، وظهر الائمة كقادة تاريخيين للشعوب الاسلامية . وانضم الجند الى الشعب فى ثورة عرابية ناجحة ، وهرب الشاه . رفض الاستعمار استقباله ، واستقبله أعوان الاستعمار الآخرون فى المناطق القريبة . تنصل الاستعمار منه حرصا على شعب ايران ، وتمادى باقى العملاء فى مساندته تقربا للاسياد ، وطمعا فى ثروة الشاه المخلوع . وانضم الشاه الى نادى الملوك المخلوعين الذين رأوا فى الاستعمار خير سند لهم ضد شعوبهم مثل لول نول ، سبارك ، ديم ، تشان كاى تشيك ثم لحق بهم ماركوس والنميرى ، والباقون آتون بأشخاصهم أو ان لقوا حتفهم قبل الهروب يمثلون بأزواجهم(١) .

---

(١) تم الاعتماد فى هذا المقال على الخطاب السياسى لجمال عبد الناصر بروحه لا بنصه وعن طريق شرحه دون فصل بين النص والشرح . وهى احدى طرق القدماء فى الشرح عن طريق العبارات الشارحة للمعنى Paraphrasing سواء بنفس الالفاظ أم بغيرها . والمقال تكبير لنقطة واحدة هى « عبد الناصر والشاه » من المقال السابق الاعم « عبد الناصر والحلف الاسلامى » الذى يشمل سعود ، وفيصل ، وبورقيبة ، والحسين ، والشاه . والذى هو بدوره تكبير لنقطة واحدة من المقال القادم « عبد الناصر والدين » .

٢ ـ مطيـة الصهيونية •

وثانى خط فى صـورة الشاه هو أنه مطيـة الصهيونية وحليف اسرائيل • لقد باع الشاه نفسه بأبخس الاسعار للاسـتعمار حتى اعترف باسرائيل ليرضى أمريكا • ولكن الامة العربية لم تخدع ولم تتأثر بهذه الشعارات الزائفة • فهى تعلم أن الاستعمار أقام اسرائيل فى قلب الامة العربية ، وأنه يريد من اسرائيل أن تقضى على الامـة العربيـة ، وان أعوان الاستعمار لا يمكن أن يكونوا للاستعمار الا خدما ينفذون أوامره • وتنظر الزعامة فى مصر الى هؤلاء الاعـوان باحتقار شديد لانها عندما صممت على استقلال البلاد استطاعت أن تنتزع الاستقلال انتزاعا • هذه الروح هى التى تسرى فى كل شعوب الدنيا • وان شعب ايران الذى ثار ليتحرر والذى انتكست ثورتـه لا يمكن أن يقبل أن يخضع للاستعمار أو لمناطق النفوذ ، ولا يمكن أبدا أن يكون مطية للصهيونية العالمية لتتحكم فى مصير ايران • لقد باع الشاه نفسه للاستعمار والصهيونية ، وأعلن بنفسه أنه يعترف باسرائيل ليرضى هؤلاء الاسـياد ، أمريكا وبريطانيا والصـهيونية واسرائيل • لذلك لم تقبل الثورة المصرية أن تبقى لها سفارة فى ايران بل أغلقتها • ولم ترض أن يكون لها ممثل لدى هـذا الذى باع نفسه للصهيونية وللاستعمار • وقد أتى اليوم الذى تحررت فيه ايان من الرجعية والفسـاد والسيطرة والاستعمار والصهيونية حتى تعـود الثورة المصرية وتفتح سفارتها لدى شعب ايران الحر الابى الكريم • ان الثورة المصرية تقف مع شعب ايران وتؤيد ثورته من أجل التحرر حتى يصبح هذا الشعب سيد نفسه ، لا مطية للاستعمار والصهيونية •

٣ ــ عميل أمريكا .

والخط الثالث فى صورة الشاه فى الخطاب السياسى لدى عبد الناصر هو أنه عميل أمريكا ، لما كانت أمريكا هى زعيمة الاستعمار فى العصر الحديث بعد أن تخلت بريطانيا زعيمة الاستعمار القديم عن دورها المباشر فى قيادة الاستعمار العالمى وتنازلت عنه لامريكا . ولما كانت الصهيونية أداة الاستعمار وخلقه وكانت أمريكا زعيمة الاستعمار كان الشاه فى نفس الوقت أداة الاستعمار ومطية الصهيونية وعميل أمريكا . لقد جعل الشاه نفسه مطية للصهيونية وللاستعمار ، وأراد أن يتحدى الامة العربية وأن يجعل من نفسه ومن بلاده خادما للصهيونية وللاستعمار . لذلك أغلقت الثورة المصرية سفارتها فى طهران اذ لا يمكن أن يكون لها ممثل لدى رضا بهلوى شاه ايران وهو نفسه ممثل الاستعمار والصهيونية . لقد ظن الشاه أنه بواسطة اسرائيل والصهيونية العالمية يستطيع أن يحصل على دولارات أكثر وتأييد أمريكى أعظم لاخضاع شعب ايران . ولقد كافح شعب ايران طويلا ، ومع ذلك استطاع الشاه اخضاعه واجهاض ثورته . وفى كل يوم كان الشاه يعقد مؤتمرا صحفيا للهجوم على الثورة المصرية التى حررت شعب مصر والتى أصبحت رائدة التحرر للثورة العربية ، وهو فى الحقيقة بوق لاسياده ، جعل ايران مستعمرة أمريكية ومستعمرة صهيونية ؛ خاضعة للنفوذ الامريكى والصهيونى . قام الشاه باستغلال ايران لصالحه ، ونهب أموال الشعب ، وسرق ثرواته . حول ايران إلى دولة داخلة ضمن الاحلاف الغربية ، واقعة تحت حماية الغرب . يعطيه الغرب معونات كل سنة فيسرق بعضها وينفق الباقى على الجيش لحمايته وللانقضاض على الثورة العربية اذا ما حان الوقت .

٤ ــ حليف الرجعية ٠

والخط الرابع لرسم صورة الشاه من الخطاب السياسى لعبد الناصر هو أنه حليف الرجعية العربية ، وعدو الحركة التقدمية العربية ٠ لذلك أيدته النظم الرجعية فى السعودية والاردن وتونس والمغرب ، وهو يعادى النظم التقدمية العربية فى سوريا والعراق ومصر والجزائر ٠ والرجعية ترى أمريكا حليفها الاول فتتعاون فيما بينها وتتسق مع أمريكا من أجل اجهاض الثورة العربية التقدمية والقضاء كلية على احتمالات الثورة فى ايران ٠ كان عبد الناصر على علاقة وثيقة بكل التنظيمات الثورية الايرانية المناهضة للشاه والعاملة داخل الوطن مثل « مجاهدى خلق » ، و « فدائيى خلق » ، يمدهم بالسلاح ويعدهم بالتدريب مع جيش فلسطين حتى يأتى الوقت لتخليص شعب ايران من حكم الشاه ٠ ان ثروات الشاه وثروات أمراء النفط فى الغرب وفى أمريكا لاستثمارها هناك خشية من مطالبة الشعبين الايرانى والعربى بها عندما تحن الثورة ٠

٥ ــ المتاجر بالدين ٠

والخط الخامس فى رسم شخصية الشاه هو أنه متاجر بالدين ٠ فباسم الحلف الاسلامى أراد تجميع الرجعية العربية والاستعمار الامريكى فى حلف واحد تحت ستار الاسلام وهو الحلف الاسلامى ٠ لقد زيف الشعارات الوطنية والشعارات الاسلامية ٠ ولكن الشعبين الايرانى والعربى كشفا زيف هذه الشعارات وأغراضها فى أن تخدع الامة العربية لتدخل من جديد فى مناطق النفوذ ، وليتم تكبيلها بالسلاسل الى الابد ٠ ان شعب ايران اليوم يستطيع أن يكشف كل

ما يدعيه الشـــاه حينما كان يتكلم عن الحلف الاسلامى وهو حـــلف بغداد القديم وحينما كان يبين أن هذا الحلف الاسلامى انما هو السند للعروبة جمعـــاء • ان هذه الاحلاف التى نادى بها أعوان الاستعمار ليست الا السند الاكبر للاستعمار ومناطق النفوذ والســـند الراسخ للصهيونية العالمية • أما الامة العربية فقد كافحت مع شعب ايران فى ســـبيل حرية الوطنين ومن أجـــل استرداد حقوق شعب فلســـطين ان رد الثورة المصرية على الاستفزاز الناتج عن تزييف الشعارات لخداع الامة العربية وتكبيل شعب ايران هـــو مزيد من الكشف عن التجارة بالدين والخداع باسم الدين اعتمادا على التصـــور الدينى التقليدى لدى عامة الناس الموروث من التراث القديم والذى تروجه أجهزة الاعلام فى النظم الرجعية وفى الغرب على حد سواء(٢) •

٦ ـــ المناهض للوطنية •

والخط السادس فى صورة الشاه هو أنه أكبر مناهض للوطنيـــة وللاستقلال الوطنى داخل ايران • لذلك لم يتحمل الثورة العربيـــة التى كانت تدافع عن الاستقلال الوطنى للامـــة العربيـــة دفاعا عن سيادتها واستقلالها فى صنع القرارات السياسية والاقتصادية • كان من الواضح أن الشاه لديه عقدة مصدق ، مصدق الذى قـــام ليحرر بلده ، ويقضى على الاحتكارات التى قامت فيها ، مصدق الذى قـــام ليقضى على النفوذ الاجنبى ، مصدق الذى استطاع الشاه بالتعاون مع

---

(٢) انظر مقالنا السابق « عبد الناصر والحلف الاسلامى » .

الاســتعمار أن يقضى عليه وعلى ثورته • كان شبحه يقف دائما للشاه بالمرصاد • وكان ينظر الى الثورة التى قامت فى مصر والى الحــركة التحررية فى أنحاء الامة العربية ، كان ينظر اليها بخوف ورهبة لانه كان يعلم أن ثورة قــد قامت فى بلده فى الماضى واستطاع بواســطة الاستعمار أن يقضى عليها ، وأن ثورة قد تنشب فى المســتقبل وتطيح به • كانت عقدة مصدق هى التى تدفع شاه ايران دائما الى أن يضــع نفســه داخل النفوذ الاجنبى • واذا كان شاه ايران قد باع نفســه بثمن بخس فان شعب ايران لا يمكن أن يبيع نفســه بالذهب أو بكل كنوز الدنيا • ان شعب ايران يكافح ولم يتوقف عن النضــال ضد الشاه • ومنذ أسبوع واحد فقط استغنى الشاه عن ٥٠٠ ضــابط من ايران بدعوى أن الفساد موجود بالجيش ، وهم الضــباط الاحرار الذين يخشى الشــاه منهم • وقد قام الشاه من قبل ، بعد ثورة مصدق وقضــاء الاستعمار عليها باعدام ٦٠٠ ضابط وبعدما مكنه الاســتعمار من العودة الى العرش مرة أخرى بعد هروبه خارج ايران وكما هرب بعد الثورة الاسلامية الاخيرة •

٧ — القاضى على الحرية •

سيظل الشاه مثلا يضرب فى التعذيب والتنكيل بالشعب وبالخصوص على يــد السافاك الذى طار صيته الآفاق فى الوحشية والقسوة • كان الخصوم السياسيون يعذبون حتى الموت فى السجون ، تقطع أيديهم وأرجلهم ويقذف بهم فى البحار والمحيطات • كانوا يخطفون نهــارا وليلا ، ويختفون ولا يدرى أحد مصيرهم • كان الشاه يصور نفســه ويصــوره الغرب على أنه أكبر نصير للحريات ضد الهيمنة الشيوعية

والارهاب الماركسى • وكان فى نفس الوقت يزج بالآلاف فى المعتقلات• وحتى اندلاع الثورة الاسلامية الاخيرة ، كانت دباباته تسير على أجساد الآلاف من المتظاهرين فى الشوارع • لقد مثل المشوهون والباقون أحياء من التعذيب أمام المحاكم الثورية الاسلامية بعد انتصار الثورة كشواهد حية ضد عملاء السافاك دون ما حاجة الى أقوال اثبات ودون ما حاجة الى أقوال دفاع عن المتهمين : آذان مقطوعة ، أيادى مبتورة ، أصابع مثلومة ، عيون مفقوعة ، ألسنة مشطورة ، أنوف مجدوعة ، أجساد كسيحة ••• الخ • ولقد استطاعت الاتحادات والتنظيمات الطلابية فى الخارج تأليب الرأى العالمى كله ضد الشاه ، وبالوثائق والصور حتى لم يعد أمام الاستعمار مهرب الا الاستسلام والتخلى عن عميلها والتضحية به وبحثا عن عميل آخر ينجح ويعيد الكرة(٣) •

هذه خيوط سبعة تظهر فى الخطاب السياسى لعبد الناصر وترسم صورة الشاه • ليس هو الاخ السليم ، أو الصديق المخلص الذى مد العرب بالبترول أثناء حرب أكتوبر ، أو الذى أعطى مصر صفقة الاوتبيسات المريبة التى انسابت منها العمولات فى جيوب الحكام • وليس هو الصهر المحتمل والحمو الرقيب وأب « العريس » المرتقب ، ولى العهد الذى ينزل بسراى القبة ويجثم على أرض مصر • هو

---

(٣) خطاب فى المهرجان الرياضى الذى اقيم مساء ١٩٦٠/٧/٢٦ جـ ٣ ص ٢١٧ — ٢١٩ ، خطاب فى عيد النصر ببورسعيد فى ١٩٦٤/٢/٢٢ ، جـ ٥ ص ١٠١ ، خطاب فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى بمناسبة الاحتفال بالعيد القومى للسويس فى ١٩٦٦/٣/٢٢ ، جـ ٥ ص ٥٣٢ ، حديث للرئيسين عارف وناصر للصحفين العرب فى ١٩٦٧/٢/٤ جـ ٦ ص ٣٥ .

صاحب الكنوز الذى هربها فى كل مكان والتى كان حاكم مصر يقتفى أثرها ودفع ثمنا بخسا فى نظره ، باهظا فى نظر الشعب ، قطعة أرض وحفنة تراب من ثرى مصر يوارى فيه الخائن جسده بعد أن لفظته الارض فى كل مكان • ولكنه سرعان ما لحق به • فتشابهت الجنازتان ، واتحد المصيران •

عبد الناصر والدين

يظهر ناصر هذه الايام وكأنه كان حلم حياتنا . فقد استطاع لاول مرة فى تاريخنا الحديث منذ محمد على صياغة مشروعنا القومى الذى تمثل فى مبادىء الثورة الست والذى تحقق على مدى ثمانية عشر عاما فأعطى المنطقة واقعا وكيانا مناهضا للاستعمار والصهيونية والرأسمالية ومؤداه استقلال الارادة الوطنية للشعوب وسيطرتها على وسائل الانتاج ومؤسسا حركة عدم الانحياز التى أصبحت تمثل مستقبل العالم ، تمده بقيم جديدة فى التحرر الوطنى والعدالة الاجتماعية .

وبالرغم مما عاناه البعض منا أثناء تحقيق مشروعنا القومى ، رغبة فى المزيد من العدالة الاجتماعية أو مطالبة منا بالمشاركة فى صنع القرار ، وتأسيس نظام ثورى شعبى يساند القيادة الا أننا فى هذه الايام وبالمقارنة بما يحدث الآن ، نعتبر معاناتنا القديمة وكأنها لا شىء بالنسبة لمآسينا الحالية وانقلابنا على أنفسنا ، واقامتنا مشروعا مضادا يتحالف مع الاستعمار ، ويستسلم للصهيونية ، وتتشابك مصالحه مع الرأسمالية العالمية . أصبح كل من يقاوم الرأسمالية العالمية عميلا

(*) كتب هذا البحث ابان الثورة المضادة فى مصر لاستغلال الدين من أجل الابقاء على الوضع القائم وكتبرير للثورة المضادة واضفاء الشرعية عليها . وقد أرسل الى جريدة « السفير » فى بيروت لنشره فى سبتمبر ١٩٧٩ بمناسبة الذكرى السنوية لوفاة جمال عبد الناصر .

للاشتراكية الدولية ، وكل من يرفض الاستسلام للصهيونية مغامرا رافضا متاجرا بالحروب وكل من يناهض الاستعمار مأجورا للمعسكر الاشتراكى ويعمل لحســاب الشيوعية ، وكل من يتحدث عن معاناة الجماهير كافرا ملحدا ! •

كما يظهر الدين انا هذه الايام وكأنه قد أصبح الدعامة الاولى للثورة المضادة نظرا لغياب أى تنظير لها • فالطبقة الحاكمة التى بيدها المال والسلطة ليست فى حاجة الى تنظير بل وتدرك سذاجة المنظرين الجــدد وسطحيتهم ونفاقهم وجبنهم • لم يبق الا اللجوء الى الدين لتدعيم الثورة المضــادة واضفاء الشرعية عليه • فالدين يدعو الى التوازن بين الدنيا والآخرة وعلى الفقراء المحرومين ألا يشغلوا أنفسهم بهموم الدنيا فالآخرة خير وأبقى • كما يدعو الى التوازن بين الفــرد والمجتمع ، فعلى الاغنياء أن يقووا من فرديتهم وأنانيتهم ضد النزعات الاجتماعية • كما يدعو الى التوازن بين العنصر المــادى والعنصر الروحى ، فعلى الفقراء أن ينعموا بالروح الباقيــة بدلا من المــادة الفانية التى يعكف عليها الاغنياء !

أصبح الدين فى أيامنا مجموعة من الشعائر والطقوس ، واطــالة اللحاة ، وتمتمة الشفاة ، وتسبيل العينين ، وبناء المساجد ، وانارة المآذن ، والاعلان على الصــلوات الخمس فى أجهزة الاعلام ، ولبس الحجاب حتى يحيد الشــعور الدينى عن البناء الاجتماعى ومظــاهر الظلم والفساد وأشكال التسلط والطغيان • أصبح الدين فى أيامنا دعوة الى تطبيق الشريعة ، واقامة الحدود ، ووضع مادة فى الدستور تجعل الشريعة مصدرا أساسيا للتشريع ، وايقاف بيع المشروبات الروحية فى

شهر رمضان فى الاماكن العامة على المصريين وحدهم دون العـرب والاجانب تشجيعا للسياحة ! كما أصبح دعوة لتطبيق الحدود قطـع اليد ورجم الزانى على صغار الناس وافسـاح المجـال للمضاربات والرشاوى والعمولات بلا حدود ، وانتشار قيم الاستهلاك والانحـلال وتجارة الرقيق الابيض . وكلها مزايدات كلامية وتعمية على ما يدور فى الواقع من اختلاس وحرائق ونهب لثروات الشعوب ، وتبرئة للذمة للتستر على أسباب الجرائم الحقيقية فى النظام الاجتماعى . أصبح الدين فى أيامنا مجموعة من العقائد النظرية يؤمن بها الانسان ولا ينتج عنها أثر عملى فى الحياة الاجتماعية كل من خرج عليها يكون كافرا وذلك لمنع حرية الفكر والاجتهاد وحتى لا ينكشف المضمون الاجتماعى للعقيدة فيثور الناس . أصبح الدين شيئا والسياسة شىء آخر ، وعدنا الى المقالة الابليسية القديمة التى روج لها الاستعمار ، ودعت اليها الرجعية . أصبح الدين مجموعة من القيم السلبية مثل الصـبر والرضا والقناعة والتسليم والمحبة تدعو الناس الى الاستكانة والرضوخ والاستسلام والخروج من حلبة الصراع الاجتماعى ، وقبول الامر الواقع ، وانتظار الفرج القريب . فالايمان يدعو الى القبول والتسليم بلا تفكـير أو اعتراض ، والاصالة تحتم التصدى للنظم الاشتراكية المسـتوردة ، والصلابة تقف فى مواجهة مخاطر الانقلابات وتغيير النظم الاجتماعية .

وهنا يظهر لنا ناصر من جديد واستخدامه الدين من أجل الثورة كعزاء لنا عما نحن فيه هـذه الايام من استخدام الدين لتكريس الثورة المضـادة . أصبح الدين لدينا الآن « أفيونا للشعب » بعـد أن كان « صرخة للمضطهدين » . وقد ظهر البعد الثـورى للدين فى معظم المعارك التى دخلها ناصر : الدين والثورة (١٩٥٢) ، الدين والسلطة

(١٩٥٤) ، الدين والوحدة (١٩٥٨) ، الدين والاشتراكية (١٩٦١) ، الدين وعدم الانحياز (١٩٦٥) ، الدين والصمود (١٩٦٧) . وسأترك ناصر يتحدث عن نفسه من خلال خطبه ومواثيقه وأحاديثه(١) .

١ ـ الدين والثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) :

لقد قام الضباط الاحرار بالثورة التى سبقتهم اليها رجال الدين . فثورة الجيش وثورة العلماء ثورة واحدة . لقد وقف رجال الدين أمام نابليون ، ونادوا الى الجهاد ، وقاوموا الحملة الفرنسية . ثم قام عرابى متسلحا بروح الازهر مدافعا عن حقوق الوطن . ثم اشترك العلماء فى ثورة ١٩١٩ ، وقاد رجال الدين المظاهرات . لذلك كان هدف الاستعمار هو القضاء على الجيش وعلى الازهر ، قمع الضباط الاحرار ورجال الدين . ففى مصر قوتان : قوة الجيش وقوة العلماء ، وكان هدف الاستعمار دائما تسريح جيش مصر والقضاء على هيبة العلماء ، وتشويش الدين وافساد نظم التعليم . لقد كان دور العلماء دائما هو توجيه السياسة المصرية . فقد قام السيد عمر مكرم بتنصيب محمد على واليا على مصر ، وارتفع صوت محمد عبده ينادى بالاصلاح الدينى . كما ارتفع صوت لطفى السيد مناديا بأن تكون مصر للمصريين .

---

(١) هذه المعارك التى دخلها ناصر حول الدين والنضال الوطنى بدأت فى تواريخ محدودة ولكن ظلت مستمرة على مدى حياته وابان الثورة المصرية . فمعركة « الدين والثورة » مثلا بدأت منذ اندلاع الثورة فى ١٩٥٢ ولكنها استمرت حتى ثورة اليمن ١٩٦٢ وكذلك ايضا بدأت معركة الدين والسلطة فى ١٩٥٤ ولكنها استمرت حتى صراعه الثانى مع الاخوان فى ١٩٦٥ . فالتاريخ المعطى هو بداية المعركة فقط وليس مسارها .

ودعا قاسم أمين الى تحرير المرأة • فالدين والوطنية والمجتمع كله روافد ثورية واحدة لان الدين ثورة وطنية اجتماعية •

ولكن لسوء الحظ استغلت الدولة العثمانية الدين ضد مصلحة الجماهير ومن أجل تثبيت دعائم الظلم والطغيان ، وبث الرشوة وافساد الضمائر وتدعيم حكم الاقلية المسيطرة ضد غالبية الشعب المطحون حتى عاش الشعب أسود فترات الظلم والطغيان تحت ستار الدين • ثم أتى الاستعمار فأيد نظام الاستبداد واعتبر مع السلطان كل ثائر من رجال الدين أو رجال الجيش خارجا على الدين • لذلك لم يكتف الضباط الاحرار فى مصر بقول « يارب يا متجلى ، اهلك العثمانللى » ، ولكنهم كانوا يرون أن ميدان الجهاد الاكبر هو فى مصر وذلك من أجل الثورة ، « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ••• » ، تلك المهمة التى شاءها القدر لهم • كما استطاع الاسلام أن يقف فى مواجهة الحملات الصليبية قديما وهى الشكل القديم للاستعمار • واستطاع أيضا الوقوف أمام الغزوات الاستعمارية حديثا وهى الشكل الحالى للحملات الصليبية •

لقد أتى الاسلام برسالة تحرر للانسانية جمعاء من الذل والعبودية والمادية • تلك هى روحانية الاسلام لا الروحانية العرجاء الصماء التى تعبر عن العجز والنفاق • « ان القيم الروحية الخالدة النابعة من الاديان قادرة على هداية الانسان وعلى اضاءة حياته بنور الايمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة » • فالدين توجيه للانسان وثورة للجماهير يقوم على الحرية • « فان هذه القيم لابد لها أن تعكس نفسها فى ثقافة وطنية حرة تفجر ينابيع الاحساس

بالجمال فى حياة الانسان الفرد الحر . ان حرية العقيدة الدينية يجب أن يكون لهـا قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة » . فالدين ليس تكفيرا وتفتيشا فى الضمائر واتهاما للابرياء بل ثقافة وطنية حرة واجتهاد مفتوح والتزام بأهداف الامة . « ان رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات انسانية استهدفت شرف الانسان وسعادته . وان واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته ». فالدين ثورة انسانية ، ورجال الدين هم الثوار وليسوا بائعى الفتاوى وفقهاء السلطان . « ان جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة ، وانما ينتج التصادم فى بعض الظروف ومحاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السامية » . فالدين فى حقيقته ثورة ولكن النظم الرجعية تحيله الى ثورة مضادة . « لقد كانت جميع الاديان ذات رسالة تقدمية ولكن الرجعية التى أرادت احتكار خيرات الارض لصالحها وحدها أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى توقف تيار التقدم .

وتعود القيم الثورية فى الاسلام للظهور بعد ثورة اليمن فى سبتمبر ١٩٦٢ وتظهر قيم الحرية والتحرر بالاضافة الى النظام الجمهورى الجديد ، حكم الشعب بالشعب والقيم الاشتراكية الجديدة فقد كانت معركة الاسلام والاشتراكية فى أوجها . لقد قامت ثورة ٢٣ يوليو فى مصر وهى تحمل شعارات الاسلام التى خرج بها الى العالم أول مرة وأولها الحرية ، حرية الفرد وحرية الوطن . فقد حرر الاسلام كما حررت الثورة الفرد من سيطرة الاقطاع ورأس المال وكل أشكال

السيطرة . لقد عادت الثورة تثبت دعائم الاسـلام التي قوضتها الخلافة وحررت المسلمين من الاسـتعمار البريطاني . ثم قامت ثورة اليمن فحررت العلماء الاحرار والضباط الاحرار من السجون والمعتقلات . قامت ثورة اليمن للقضاء على الرق والعبودية بالقضـاء على حكـم الائمة الذين اتخذوا الدين سـتارا للاقطاع والتسلط فى حين أن رسالة الاسـلام رسالة الحرية والمساواة . لقـد انتشر الاسلام من اليمن فى أرجاء الارض ولكن نظام الائمة عزل اليمن فقامت الثورة لتعـيد الى اليمن رسالته فى الحرية والتضامن ، رسـالة الاسلام الاولى . لقـد حرر الاسلام اليمن من الرق والعبودية والاقطاع ولكن نظـام الائمة قضى على ما أتى بـه الاسلام . ثم جاءت الثورة وأعادت الى اليمن رســالته الاولى . فقد قام محمد بن عبد الله للقضـاء على الاقطاع والاستبداد والاطاحة بحكم الاسر ، أسر بنى سفيان وقريش . كان حكم الائمة مشابه للحكم العثمانى ، كلاهما باسم الدين وتحت ستاره ، وكلاهما تكاتف مع الاسـتعمار فى الارهاب وقطع الرؤوس والاعتقــال .

ورسالة الاسلام أن يكون الامر شورى ، لا امامة ولا ملكيـة بل جمهورية يشعر فيها كل فرد بحقه فى الحَرية والحياة ، له الحق فى أن يكون رئيسا للجمهورية . « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسـدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » . لم يكن حكم الائمة قائما على الشـورى بل على مبدأ الحكم الفردى والسيطرة والتحكم ، حكم السـيف وقطع الرقاب . ولكن ثورة اليمن أعادت اليه حكم الشـورى ، حكم الاسلام الممثل فى مجلس الامة والحركات الشعبية وحق كل فرد فى التعبـير الحر عن رأيه . وعلى هـذا النحو ترسى دعائم الاسلام . لم يورث

الاسلام الامة ابنا عن أب أو أبا عن جد ولكنه نادى بأن يكون الحكم للشعب لا أن تكون الولاية وراثية • لقد حكم المسلمين بعد النبى أبو بكر وعمر لان المسلمين اختاروهما وبايعوهما • فالاسلام يعنى المساواة بين الجميع أو حق كل فرد فى الحكم اذا ما اختاره الناس بغض النظر عن حسبه ونسبه وعائلته وقبيلته • يكفى أنه مسلم له حق الحرية والمساواة •

والنظام الجمهورى هو الذى تتحقق فيه هذه المبادىء الاسلامية عادة كالشورى والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والمبادىء التى قامت من أجلها الثورة فى الديمقراطية والمساواة • فالجمهورية تعنى اختيار الشعب بارادته الحرة الحاكم الذى يتولى شئونه • ويمكن لكل مسلم أن يتصدى للحاكم كما تصدى المسلمون لعمر وقالوا له « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » • ليس بالاسلام كهنوت يحكم بالحق الالهى اذ يستطيع الشعب أن يعزل الحاكم اذا انحرف عن مصلحة الشعب وارادته •

ولما كانت الثورة فى حاجة الى البذل والعطاء فان الاسلام يوفر لها ما تريد بما يقدمه للناس من قيم الجهاد والتضحية التى تتضح فى عيد الفطر وعيد الاضحى • فالصائم يضحى بمأكله وشرابه فى سبيل الاحساس بالآخرين • وابراهيم ضحى بابنه طاعة لله وتنفيذا لامره • وحياة الرسول كلها تضحية وجهاد فى حربه للمشركين حتى فتحه مكة • والانسان هو الذى حمل الامانة بعد أن أبتها السماوات والارض والجبال ، والمسلم هو الذى عقد تجارة مع الله للجهاد فى سبيله • فالاسلام جهاد ، وما فرضت العبادات فى الاسلام الا لتقوية

النفس واعدادها لخوض المعارك دفاعا عن الوطن . « لقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » . وتتحقق أماني الشعوب بالاعمال وليس بالاماني والمنى . وقد أعطت المسيحية أيضا درس الجهاد والشهادة والتضحية في حياة المسيح والحواريين والمؤمنين وما لاقوه جميعا من اضطهاد الرومان . طريق الجهاد اذن هو طريق الانبياء وطريق الثوار ، طريق العمل والفداء . كما جاهد محمد والمسيح وقد كان باستطاعة الله تأييدهما ونصرهما . وما قام به الضباط الاحرار ان هو الا جزء من الجهاد .

ولما ترك المسلمون الجهاد واستسلموا للذل والطغيان غزاهم الاستعمار . وبالتالي لن يتحقق تحرير المسلمين الا بالجهاد وتوحيد الامة ضد تفككها من أجل مواجهة الاستعمار والقضاء على المنافقين في الامة من الامراء والسلاطين مثل يوسف خنفس في مصر والجلاوي في المغرب . ان تحرر المسلمين من الاستعمار البريطاني لهو الجهاد الذي نادى به الاسلام ، الجهاد في سبيل الوطن وفي سبيل الله لا ابتغاء الشهرة بل ابتغاء مرضاة الله . رسالة الدين رسالة الجهاد في مواجهة بريطانيا التي تآمرت على المسلمين في جميع أنحاء العالم ، وتآمرت على العرب لانها اعتقدت أن ذل العرب ذل للاسلام . وقد كتب الجهاد على جنود مصر من أجل الحق الالهي للانسان العربي في أن يحيا بالحرية والعدل . ولم تتردد مصر في ارسال أبنائها لدفع العدوان الرجعي الاستعماري على ثورة اليمن لان الثورة في مصر تؤمن بعزة العرب جميعا كأساس لعزة الاسلام . « ان جبال اليمن تحمل قبسا من نفس الشعلة المقدسة التي يحج اليها المسلمون في عرفات » ، نفس الروح العظيمة التي أجرت بها العناية الالهية قدرة البشر على التضحية

من أجل العقيدة وفاء للرسالة ، رسالة الانسانية والتحرر . لقد عاهد جيش مصر على هذه الارض المقدسة على طرد بريطانيا من عدن ومن كل الجنوب العربى وعلى نصرة دين الله ومساعد الاخوة الذين يكافحون الاستعمار فى جنوب اليمن . ان رسالة مصر نحو الاخوة العرب والمسلمين هو شد الازر والمساعدة على أن يرسوا فى بلادهم دعائم الاسلام الحقيقية . لقد جاءت الثورة المصرية لمساعدة الثورة اليمنية ورد اعتداء الرجعية والاستعمار عليها تنفيذا لامر الله ، لم تحارب الثورة المصرية فى بلد غريب بل فى بلد شقيق . ان جنود مصر حضروا الى اليمن واستشهدوا فى سبيل الله من أجل رسالة الله ، لا من أجل منفعة بل من أجل مبدأ ، وسارعوا لملاقاة الله من أجل رفعة راية الحرية وهى راية الاسلام ، جزاؤهم عند الله وليس عند الناس كما خرج الجنود الاوائل طلبا للاستشهاد فى سبيل الله .

واذا كان الجهاد الاصغر هو الجهاد ضد الاستعمار من أجل تحقيق الاستقلال فان الجهاد الاكبر وهو جهاد النفس ، جهاد ضد التخلف والفقر ، جهاد التنمية والتغير الاجتماعى . الاول ثورة ضد الاستعمار الاجنبى ، والثانى ثورة ضد الفقر والجوع والجهل والمرض . فالجهاد ثورتان : ثورة سياسية وثورة اجتماعية وهو ما حققته الثورة المصرية رائدة الثورات العربية .

٢ — الدين والسلطة (١٩٥٤ — ١٩٥٥) :

لقد كان من سوء الطالع صدام الثورة المصرية مع الاخوان المسلمين فى بداية المد الثورى فى ١٩٥٢ وفى بداية الانحسار الثورى

فى ١٩٦٥ • كانت العلاقة بين الثورة والاخـوان علاقة وطيدة من خلال اتصالات ناصر بحسن البنا ووجود بعض الضباط الاحرار من الاخوان مثل عبد المنعم عبد الرؤوف ومساهمة الاخوان ليلة الثورة وبعـدها فى تأييد الثورة والدفاع عنهـا • وقد حدث الصراع على السـلطة حتى قبل الثورة عندما طلب عبد المنعم عبد الرؤوف انضـمام حركة الضباط الاحرار الى الاخوان حتى تؤمن الجماعة حياة الضباط ومستقبلهم فى حالة فشل الثورة • ولما رفض ناصر لان الوطنية لا ترهن بموضوعات شخصية استقال عبد المنعم عبد الرؤوف قبل الثورة بعدة أشهر من حركة الضباط الإحرار • وفى أول يوم لقيام الثورة طالب الضـابط أبو المكارم عبد الحى رئيس التنظيم الاخوانى بالجيش أسلحة لتوزيعها على الاخوان تأييدا للثورة ولكن رفض ناصر بالرغم من قبوله مبدأ التعاون معهم • ولم تحل الجماعة طبقا لقانون حل الاحزاب ولكن حدث الصـدام بعد ذلك حينما رفض الاخوان الاشتراك فى الوزارة الا بشروط ثلاث : الاول ألا يصدر قانون الا اذا أقـره الاخوان ، والثانى لا يصـــدر قرار الا اذا أقر الاخوان • وقد رفض ناصر هذين الشرطين لان الثورة ترفض أية وصايا عليها • وهناك فرق بين الوصايا والتعاون • والثالث طلب الاخوان أن يفرض ناصر الحجاب وأن يغلق المسارح والسينما وأن يتحول ناصر الى حاكم بأمر الله فى حين أن ذلك موكول لرب كل أسرة ، وهو شرط فى ظاهره تطبيق الاسـلام وفى حقيقته أيضا فرض الوصايا على الثورة • وهنا يبدو الصراع على السلطة بين الثورة والاخوان ، بين الشرعية الثورية والشرعية الدينية • كان يكفى عقـد حوار بين الشرعيتين حتى تتحقق الوحدة الوطنية فى ضمير الامـة وفى وعيها القومى بين الدين والثورة ، ولكن ذلك لم يحدث حتى الآن فقد

كانت الثورة فى السلطة وكان الاخوان يريدون التغير عن طريق السلطة . « لان الله يزغ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

ومن هنا جاء اتهام الاخوان بالاطماع الشخصية وبالحقد وبأنهم كانوا ضحية الحزبية البغيضة . حاولوا هدم الثورة من أجل السلطة مع أن الثورة أخرجتهم من السجون وحققت للجميع العـزة القومية . خدع الاخوان الناس باسـم الدين وعادوا الثورة وأصبحوا يمثلون العهد البائد ، الحزبية والملكية . احتكروا تفسـير الدين ووقعـوا فريسة التعصب وتآمروا ضـد رجال الثورة الذين يعبرون عن أمانى الشعب . فالثورة تمثل شعب مصر ، ولا يمكن ترك الاسلام حكرا على فئة تتسـتر وراءه للخداع والتضليل وانتهاز الفرص . لذلك كون الاخوان جهازا مسلحا للانقضـاض على الحكم بالرغم مما يرفعونه من شـعار الديمقراطية . لقد أسس حسن البنا هذا النظـام لمحاربة الملك والاحزاب ولكن القيادة الجديدة للاخوان حلته وأقامت نظاما سريا بديلا عنـه ليست مهمته مقاومة الانجليز والاستعمار بل لمقاومة حكـام مصر الوطنيين وللوقوف ضـد الشعب وللسيطرة على الجيش والشعب والشـباب وللقيام بعمليات ارهابية للقضاء على الحيـاة الديمقراطية فى البلاد .

وكما هادن الاخوان القصر هادنوا الانجليز واتصـلوا بمستر ايفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية . وقد كان ناصر فى حقيقة الامر يعلم بأمر هـذه المفاوضات التى رفض فيها الاخوان ما قبله رجال الثورة فى المعاهدة . كان الاخوان يمثلون تيارا شـعبيا وليسوا

فى الحكم ، وكان رجال الثورة فى الحكم ومازالوا فى البحث عن سند شعبى . واذا كانت قياذات الاخوان قد سجلت أسمائها فى سجل التشريفات واعتبرته ولى الامر ولم تعارض اباحية الملك فان الملك كان يعتبرهم ألد أعدائه بدليل اغتياله لمرشدهم حسن البنا .

وقد اتهم ناصر الاخوان بأنهم أيضا أعوان الصهيونية والرجعية العربية . فقد كانت اذاعات اسرائيل والعواصم الرجعية العربية تروج لهجوم الاخوان على الثورة ، وكانت السعودية تؤيد الاخوان ضد الثورة ، وكان الحلف المركزى الاستعمارى يؤيدهم كذلك . والحقيقة أن جهاد الاخوان ضد الصهيونية فى فلسطين مشهود ، وتعاونهم مع السعودية تعاون الاحلاف ضد الثورة المصرية التى يصارعونها السلطة . لم يتجاوز الاخوان حدود الشعارات الدينية ولم يملؤوها بمضمون سياسى فى حين أن الثورة حققت المضمون دون الشعارات . فاذا كان القرآن هو الدستور فان ذلك يعنى خلع الملك والقضاء على الفساد والظلم الاجتماعى وتحقيق الجلاء وهو ما حققته الثورة .

وقد بلغت قمة المأساة فيما يسمى بحادثة المنشية بعد الصراع حول اتفاقية الجلاء . وللحقيقة والتاريخ أن اتفاقية الجلاء كانت تمثل أقل من المطالب الوطنية اذ كانت تسمح بعودة قوات الاحتلال الى قناة السويس فى حالة الحرب . ولم يتحقق الجلاء بالفعل الا بعد تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ . ولكن نقد الاخوان للاتفاقية فى ذلك الوقت كان أقرب الى المطالب الوطنية . ولكن ناصر أخذ عليهم أسلوب الاغتيالات والتغرير بمحمود عبد اللطيف وأمثاله من الفقراء الذين يدافع عنهم ناصر . كما أخذ عليهم الغدر به بعد تعاونهم معه وايثارهم

نجيب عليه . والاسلام كما هـو واقع من سيرة الرسول اتفاق الظاهر والباطن ، السر والعلن ، « وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها » ؛ وكما قال القرآن : « فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » .

لقد كان صراع الثورة مع الاخوان مأساة وطنية خسرت فيهـا الثورة التأييد الشعبى الذى كان يمثله الاخوان كما خسر الاخـوان التفسير الثورى للدين الذى كان يمثله رجال الثورة ، وضاعت الوحدة الوطنية من أجل الصراع على السـلطة ، وكأن السلطة السياسية والدينية لصالح الثورة ضرورة لاحداث أى تغير اجتماعى شعبى فى مستقبل مصر(٢) .

٣ ـ الدين والوحدة (١٩٥٨ ـ ١٩٦٠) :

يظهر موضوع الوحدة الوطنية بين عنصرى الامة الاقباط والمسلمين داخل مصر أو خارجها بين المسيحيين والمسلمين فى لبنان فى ١٩٥٨ على أنها الدرع الوحيد الذى يحمى الشعب من الطائفية التى يغرسها الاستعمار ويتلاعب بها لاحداث الفرقة والقضاء على وحدة الشعب . والحقيقة أن الطائفية فى مصر ليس لها أى أساس فى مجتمـع ثورى يقـوم على المساواة بين المواطنين فى الحقوق والواجبات . كل على

---

(٢) وهذا يفسر نشأة كل مشروعنا « التراث والتجديد » الذى تعاد فيه الوحدة بين الدين والثورة انظر « من العقيدة الى الثورة » ، المجلد الاول ، ، المقدمات النظرية ص ٤٩ ـ ٥١ ، مدبولى ، القاهرة ١٩٨٨ . ولهذا أيضا تم انشاء منبر فكرى لهذه الوحدة وهو مجلة « اليسار الاسلامى » ، العدد الاول ، القاهرة ١٩٨٠ .

قدر جهده ، وكل له فرصـــة مساوية فى العمل • فلا توزع الاعمال على أساس طائفى ، والترقيات بالاقدمية أو الكفاءة ، والاجور على مستوى العمل وليس كما تروج أجهزة الدعاية الغربية من أن الاشتراكية فى مصر تتــوم على أساس طائفى • ويدخل الطلاب الجامعات على أساس المجموع وليس على أساس الدين • والمادة الرابعة والعشرين من الدســتور تنص على أن المصريين أمام القانون ســواء ، وهم متساوون فى الحقوق والواجبات العامة لا تمييز بينهم فى ذلـك بسبب الجنس أو الاصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة • ولقــد أراد الاستعمار فى سوريا أيضـــا التلاعب بالطائفية ولكن استشهد المسلم والمسيحى كلاهما دفاعا عن استقلال ســوريا • كما حاول الاستعمار فى مصر تقســيم الطبقة العاملة بالاستعانة بفلول الرجعية • تقوم الوحــدة الوطنية اذن بين المسلمين والمسيحيين على مبادىء الثورة ، فالاسلام والمسيحية كلاهما ثورة قامتا على المحبة والمســاواة وتكافؤ الفرص وهى المبادىء التى نادت بها جميع الاديان • لقد عملت الاديان للفقراء والمساكين والعامة ، واستنكرت الاستعباد والاستغلال • كان المسيح ضــد الاستعباد الرومانى ، وكافح محمد بن عبد الله ضد الاســتعباد القبلى • اعترف الاســلام بأهل الكتاب وأعطــاهم حقوقهم • وفى فلسطين فى ١٩٤٨ حارب المسلم والمسيحى جنبا الى جنب ، ولم تفرق قنابل الاعداء فى ١٩٥٦ بين المسلم والمسيحى • ولكن التعصب والجهل يثيرهما رجل فيرد عليــه آخر ، حوادث فردية قليلة وليست ظاهرة عامة ، وتاريخ مصر خال منهــا • والوحدة الوطنية بين عنصرى الامة هى الاساس كما بان ذلك فى ثورة ١٩١٩ •

ثم ظهر موضوع الاســلام والوحدة الوطنية أثناء الثورة

اليمنية • فقد قامت الثورة للتوحيد بين الشعب بعد أن فرقه الائمة • « لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » • لقد رفعت الثورة شعار الوحدة الوطنية حتى تفوت على الاستعمار تفرقته بين أبناء الوطن الواحد تحت ستار الحزبية أو الطائفية • فالكل عرب لا فرق بينهم لان كل فرد يعرف واجبه وهدفه وهو الحرية والاستقلال • ان الاسلام يقتضى تضامنا ووحدة بين الاشقاء والعمل من أجل عزة العروبة • كما ينادى الاسلام بالتعاون على البر والتقوى ليس فقط بالابناء والآباء بل بالامة كلها • وتقوى الله فى جميع الامور تعنى التخلص من الانانية والفردية ، كما تعنى رفض ألاعيب الاستعمار ونبذ لغة المال • وتعنى ثالثا بناء البلاد من أجل صالح الابناء فى الحاضر والمستقبل • تلك هى تعاليم الاسلام الواضحة • وطريق الوحدة الوطنية هو طريق العفو ، والعفو من تعاليم الاسلام • فعندما دخل النبى مكة منتصرا لم ينتقم من أعدائه بل قال « اذهبا فأنتم الطلقاء » حتى تتحقق الوحدة الوطنية ويجمع شمل العرب •

وقد ظهر الاسلام فى معارك الوحدة العربية فى ١٩٥٨ بعد اتحاد مصر وسوريا وتكوين الجمهورية العربية المتحدة • دخل الاسلام المعركة على نحو تاريخى عن طريق استرجاع الحروب الصليبية أو مظاهر الاستعمار فى صورة القديمة وتوحيد المسلمين تحت قيادة صلاح الدين الذى وحد مصر وسوريا • لقد انتهز الاستعمار الاوربى فى ذلك الوقت تفكك الامة العربية واستطاع باسم الحملات الصليبية — وهى شكل مقنع للاستعمار تحت ستار الدين — أن ينفذ الى الوطن العربى • ورغم ضعف العرب هبوا للدفاع عن أراضيهم ، واتحدت الامة لمواجهة

الغزو الاستعمارى ، وكان النصر حليف القومية العربيـــة • واستمرت الحرب ثمانين سنة استطاع الصليبيون فى أول الامر احتـــلال فلسطين وبيت المقدس وتفرقة الامة العربية وقطع الطريق بين مصر والشام • تقدم نحو مصر ، الى الشرقية وبلبيس على أبواب القاهرة فكـــان اتحاد مصر وسوريا هو ســـبيل النصر • فقد أرسل السلطان نور الدين محمد — السلطان السورى — جيشه ليحارب مع جيش مصر ضد الغزاة • ثم اتحدت مصر وسوريا مرة أخرى تحت قيادة صلاح الدين ليصد الغزو الصليبى ضـــد سوريا بعد ذلك بربع قرن وانتصر صلاح الدين فى معركة حطين ، فكانت الوحدة هى الدرع الذى تحطمت عليه موجات الغزاة • كمـــا استطاعت الوحدة بين مصر وسوريا قبل ذلـــك صد هجمات التتار التى وصلت حتى بغداد واستولى عليها هولاكو ثم توجه الى سوريا فقامت مصر لتحارب مع سوريا وهزمت جيوش التتار فى عين جالوت • لم ينخدع المسيحيون العرب بالحملات الصليبية لانهم كانوا يؤمنون بالقومية العربية وباستقلال أراضيهم التى نشأوا عليها فوقفوا جنبا الى جنب بجوار اخوانهم المسلمين يدافعون عن أوطانهم وفطنوا الى تســـتر الحملات الصليبية بالدين • فقد غيرت احدى هذه الحملات طريقها الى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية التى كانت تحمى المسيحية فى الشرق فدمروها ونهبوها واحتلوها • فكانت وحدة المسلمين والمسيحيين ســـبيل النصر •

والآن يعيد التاريخ نفسه • فلا سبيل الى تحرير الاراضى العربية من الصهيونية العالمية الا بوحدة مصر وسوريا والوحدة العربية • ولم تكن مصادفة أن دخل الجنرال اللنبى قائد الجوش البريطانية الى القدس وقال « اليوم انتهت الحروب الصليبية » • ولم تكن مصادفة أيضـــا

حين وصل القائد الفرنسى جورو الى دمشق ووقف أمام قبر صلاح الدين قال « ها قد عدنا اليك يا صلاح الدين • لقد هزم العرب فى ١٩٤٨ لانهم كانوا سبع جيوش عربية ، ولو كانوا جيشا واحدا مثل جيش صلاح الدين لكان النصر حليفهم • ان الانتداب البريطانى على فلسطين لهو الصليبية الجديدة من أجل القضاء على القومية العربية • لقد قامت أساطيل بريطانيا من قبل فى ١٨٠١ ثم ١٨٠٧ لغزو الامة العربيـة وفشلت • ثم عادت الجيوش البريطانية بعـد انهيار الامبراطورية العثمانية فى أواخر الحرب العالمية الاولى ، ولم يخرج الاسـتعمار البريطانى حتى ١٩٤٨ قبل أن يسلم الجزء الاكبر من فلسطين الى الصهيونية عميل الاستعمار الاول فى المنطقة • وأخيرا مكنت الابريالية الامريكية فى ١٩٦٧ الصهيونية من الجزء الباقى من القدس وفلسطين • وساعدت اسرائيل على تنفيذ أكبر مؤامرة للصهيونية والاستعمار فى تاريخ الامة العربية • ولكن تاريخ الامة العربية شاهد على أنهـــا قادرة على الصمود والعزم على التحرر •

٤ — الدين والاشتراكية (١٩٦١ — ١٩٦٤) :

الاسلام دين اشتراكى ، حقق أول تجربة اشتراكية فى العالم ، وأسس فى أول أيامه أول دولة اشتراكية • وكان محمـد بن عبد الله رئيس أول دولة اشتراكية وأول من طبق سياسة التأميم فى حديثه المشهور « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلا والنار » ، وفى قول آخر يضاف الملح ، وهى المقومات الاساسية للمجتمع فى ذلك الوقت التى لا يجوز ملكيتها لفرد • وقد عاش النبى ولم يملك شـيئا ، ولم يأخذ شيئا من أموال المسـلمين ، ولم ينصب نفسه ملكا • ومات ولم يترك

شـــيئا بل باع ثوبه وتصدق به • لم يكن ملكا ولا أميرا من ملوك وأمراء اليوم الذين يملكون الملايين ويكنزون فى بنوك فرنسا وسويسرا •

ثم استمرت الدولة الاسلامية الاشتراكية الاولى أيام أبى بكر وعمر • فقد حارب أبو بكر مانعى الزكاة لان الامتناع عن الزكاة ردة عن الاسلام ، فالزكاة حق المال • كانت حروب الردة نموذجا للثـــورة الاجتماعية ، ثورة الفقـــراء ضد الاغنياء ، ثورة من لا يملكون ضـــد من يملكون ، ونموذج اشتراكية الثورة حتى تزول الفوارق بين الطبقات وحتى تقام العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص بين الناس • صحيح أن النبى عفا عن قومه بعـــد فتح مكة ، فى قوله المشهور « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ولكنه أيضـــا رفض العفو عن المنافقين بقوله « ان المنافقين يقتلون ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة » • وقد نصت جميع الاديان على العدالة الاجتماعية وعلى الزكاة • فى الاسلام ربع العشر من المال الموجود آخر كل عام • فلو عاش الانسان أربعين أو خمسين عاما لمثلث الزكاة ثروة طائلة يمكن استخدامها لصالح الجماعة • الزكاة أساس من أسس الاشتراكية • لذلك لم يكن فى الدولة الاســـلامية الاولى فقراء أو عجزة بل كان هناك تكافل اجتماعى • كما حرم الاسلام الربا حتى لا يتحكم الغنى فى رقاب الناس وينتهز فرص حاجاتهم ، وهو ما عملته الثورة بالقضاء على الربا فى السلفيات الزراعية • أما عمر فقـــد أمم الارض ووزعها على الفلاحين كما أخـــذ الارض من الاقطاعيين فى العراق ، وزعها على المعدمين • رفض عمر أن تكون هنـــاك طبقية أو فقر ، ولم يملك شيئا مما تملكه ملوك الرجعية الحالية •

« الاشتراكية شريعة العدل ، وشريعة العدل شريعة الله » •

والاسلام دين المساواة والعدل الاجتماعى وتكافؤ الفرص • يدعو الاسلام الى قسمة الربح مع الآخرين وأخذ حقوق الفقراء من أموال الاغنياء • والاسلام لا يسمح بوجود فقراء فى مجتمع غنى • الاسلام دين العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » • ينص الدين على تكافؤ الفرص « ان جوهر الاديان يؤكد حق الانسان فى الحياة وفى الحرية • ان أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل انسان • اذ يبدأ كل فرد حياته أمام خالقه الاعظم صفحة بيضاء يخط فيها ما يشاء باختيـاره الحر • لا يرضى الدين بطبقة تورث عقاب الفقر والجهل والمرض لغالبيـــة الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم • أن الله جلت حكمته وضـــع الفرص المتكافئة أمام البشر جميعا أساسا للعمل فى الدنيا وللحساب فى الآخرة » • والغنى الذى يمتلك الاموال الضخمة فى مجتمع فقير لا يمكن أن يكون ثروته عن طريق العمل بل عن طريق الاستغلال • الدين عمل ، وكان النبى يعمل بيديه ، ولم يكن الدين تجارة أو المعل استغلال • الدين والاشتراكية اذن سواء • نادى كل منهما بالمســاواة وتكافؤ الفرص ورفع مستوى المعيشة وتذويب الفوارق بين الطبقات • كان نصف فى المائة يملكون نصف الدخل القومى فقضت الثورة على هذا التوزيع غير العادل ، وأصبح الدخل القومى موزعا على الشعب بعد أن قضت الثورة على الطبقة الرأسمالية والاقطاعية • وبهذا طبقت الثورة مبادىء الاسلام • بل ان الاسلام والاشتراكية متفقان من حيث المنهج فكلاهما يتم تطبيقــه بالتدريج فيما يسمى بمرحلة التحــول الاشتراكى • وقد أرشد القرآن الى حكمة التدريج لانه لم يحرم الخمر من أول مرة • فقد ذكر أولا « يسألونك عن الخمر والميسر قل

فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما » ثم ذكر ثانيا « ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » • وذكر ثالثا « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » •

ولكن رجال الدين يشوهون الدين ، ويصدرون الفتاوى لصالح الاقطاع بعد أن يقبضوا الثمن ، يؤيدون الملكية الفردية ويحرمون المساس بها « بعض المشايخ يروح يخبط ديك رومى أو خروف عند الاقطاعيين ويطلع يدى فتوى أن الملكية لا يمكن أن نتقرب لها أو نمسها • انهم لا يفكرون الا فى بطونهم وهم بذلك أجراء للاقطاع والرأسمالية » • ليست مهمة رجال الدين الخطابة فى المساجد بل النزول الى الاسواق والحياة العامة والتعرف على مشاكل الجماهير والعيش معهم ، فرجل الدين لا يتاجر ولا يعجز بل يقول الحق ويعمل به •

كما أن أعداء الاشتراكية والاسلام من فلول الرجعية العربية تحاول الاساءة الى الاشتراكية والاسلام معا لحساب تحالف الاقطاع والرجعية والرأسمالية • والحقيقة أن الاسلام ضد الاستغلال وكنز الاموال وصرفها على الجوارى • أموال المسلمين للمسلمين وليست للملوك والامراء الذين يدعون تمثيل الاسلام • والحقيقة أنه لا يوجد ممثل للاسلام ، ولا يوجد حامى حمى الحرمين أو أمير المؤمنين لان للكعبة ربا يحميها ، أما العائلة المالكة فهى أكبر تشويه للاسلام فى صحف الغرب • ليست الاشتراكية بديلا عن الاسلام ، وليس ناصر نبيا جديدا لدين جديد بل الاشتراكية جوهر الاسلام وناصر محقق لرسالة الاسلام • ليست الاشتراكية الحادا كما تدعى الرجعية بل ان الرجعية هى الالحاد واغتصاب لاموال المسلمين • ليست الاشتراكية

كفراً بل هى شريعة العدل ، وشريعة العدل شريعة الله ، الكفر هو نهب أموال المسلمين والاستيلاء على ثرواتهم . ليســت الاشتراكية هى اشتراكية النهب والاولاد والاموال بل استرداد الاموال المغتصــبة من الشعب وردها الى الشعب . الاشتراكية احترام للعائلة والدين والوطن . ليست الاشتراكية شيوعية أو ماركسية لينينية لانها تؤمن بالدين والرسل وتؤمن بالله ، تقــوم على أسس روحية وليس على الاساس المادى وحده . ليست الاشتراكية تعد على حقوق الله فالعدالة الاجتماعية ليست من وضــع الله وتدبيره كما تقول الرجعية بل هى من صــنع البشر نتيجة لاوضاعهم الاجتماعية والا فلماذا وزارة العدل ؟ الجنة ليست للفقراء ، فليأخذها الاغنياء ويتركوا دنياهم الى الفقراء . ليست الاشتراكية صدقة كما تقول الرجعية من أن الدين يطالبنــا بالصدقة . فالحقيقة أن الدين لا يطالب بالصدقة فقط . فالمال مــال الله ، ومال الله مال الشعب ، لا يوضع فى البنوك الاجنبية بل يستثمر داخل البلاد « وفى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » . انهم يستحسنون الاشتراكية شعرا ويستهجنونها نظاما . فعندما يقول شوقى « الاشتراكيون أنت امامهم » وتغنى أم كلثوم « أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى » تنبسط أساريرهم ويصفقون بأيديهم ولكنهم يعادونها كنظام اجتماعى يهدد مصالحهم ، ويستعيد ثرواتهم المسلوبة من الشعب، الاسلام والاشتراكية اذن صنوان .

٥ ــ الدين وعدم الانحياز (١٩٦٥ ــ ١٩٦٦) :

لقد كان لمصر دورها فى الحفاظ على الحضارة الاســلامية ، وعرفت الاسلام الحضــارى وليس الاسلام الصورى الشعائرى .

« وكان الفتح الاسلامى ضوءا آنار هذه الحقيقة وأنار معالمها وصنع لهـا ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحى وفى اطـار التاريخ الاسلامى ، وعلى هدى من رسالة محمد قام الشعب المصرى بأعظم الادوار دفاعا عن الحضارة الانسانية » • هذه هى رسـالة مصر ، بؤرة الاسلام ومركز اشعاعه الحضـارى • وقد حفظت مصر التراث الحضارى الاسلامى وجعل من الازهر حصنا للقاومة ضـد عوامل الضعف والتخلف التى فرضتها الخلافة العثمانية استعمارا ورجعيـة باسم الدين ، والدين منها براء « فمصر مركز الثقل الاسـلامى وضمان استمرار تراثه » • وليس عبثا أن الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامى — الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة — تراجع الى مصر ، وأوى اليه فى مصر ، وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى عين جالوت •

وحول هذه البؤرة الاسلامية فى مصر ينسج ناصر دوائره الثلاث منذ « فلسفة الثورة » حتى « الميثاق الوطنى » ، الدائرة العربيـة والدائرة الافريقية ، والدائرة الاسلامية • فالدائرة العربيـة أهم الدوائر « وقد امتزجت هذه الدائرة معنا أيضـا بالدين فنقلت مراكز الاشعاع الدينى فى حدود عواصمها من مكة الى الكوفة ثم الى القاهرة ثم جمعها الدين فى اطار ربطته كل هـذه العوامل التاريخية والمادية والروحية » • أما الدائرة الافريقية والتى تشـير أيضا الى تداخلها مع الدائرة الاسيوية فيما عرف فيما بعـد باسم العالم الافريقى الاسيوى فانها فى حقيقة الامر الكيان السياسى المعاصر للدائرة الثالثـة وهى الدائرة الاسلامية « أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالما اسلاميا تجمعنا

واياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب وانما تشدها حقـائق التاريخ » • انها الدائرة التى تشد العـالم الاسلامى كله وتربطه برباط روحى وتوجهه نحـو غاية واحدة • « ثم تبقى الدائرة الثالثة التى تمتد عبر قارات ومحيطات والتى قلت انها دائرة اخوان العقيدة والذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس الى قبلة واحدة وتهمس شفاهم الخاشعة بنفس الصلوات » • ويرى ناصر الحج رمزا سياسيا لما يمكن أن يكون عليه ثقل العالم الاسلامى ومدى فاعليته وايجابيته وترابطه حينما يتجه الى الكعبة كل عام المسلمون من جميع أنحـاء العالم الاسلامى • « لا يجب أن يصبح الذهاب الى الكعبة تذكرة دخول الجنة بعد عمر مديد أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة • يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ويجب أن تهرع صحافة العالم الى متابعة أنبائه لا بوصفه مراسم وتقاليد تصبح صورا طريفة لقراء الصحف وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأى فيها وتجارها وشبابها ليضعوا فى هذا البرلمان الاسلامى العالمى خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معـا حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام • يجتمعون خاشعين ولكن أقوياء متجردين من المطامع لكن عاملين ، مستضعفين لله ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة » • ويقـول ناصر أيضا • « وحين أسرح بخيـالى الى ثمانين مليونا من المسـلمين فى أندونيسيا ، وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة مليون فىمنطقة الشرق الاوسط وأربعين مليونا داخل الاتحاد السفيتى ،

وملايين غيرهم فى أرجاء الارض المتباعدة ، حين أسرح بخيالى الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة أخــرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لاوطانهم الاصيلة بالطبع ولكن يكفل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة » .

الاسلام اذن حكمة سياسية عالمية شاملة تضم ملايين المسلمين فى آسيا وأفريقيا ، وبالتالى تكون الحركة الافريقية الاسيوية فى جوهرها حركة اسلامية . ويكون مؤتمر القارات الثلاث فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية مؤتمرات ذات أهداف واحدة فى التحــرر والاستقلال والعدالة الاجتماعية نظرا لان ظروف الكاثوليك الرومان فى أمريكا اللاتينيــة مشابهة لظروف المسلمين فى آسيا وأفريقيا . جمعهم وحــدة الموقف والهدف ، وهى وحدة الاسلام الحقيقية . كما أن حركة عدم الانحياز فى جوهرها حركة اسلامية « لا شرقية ولا غربية » لانها تقــوم على رفض الصراع بين القوى العظمى ، وأن تكون الشــعوب المتحررة حديثا خارج مناطق النفوذ والاحلاف وأشكال الاستعمار الجديد . هذا الترابط الاسلامى يتم على أساس شعبى وليس على أســاس حكومى . واذا كان هناك خلاف بين الحكومتين المصرية والايرانية فانه خلاف حكومات وليس خلاف شعوب مسلمة .

ولا يوجد تعارض بين هذه الدائر الثلاث . تربطهما معاملات وثيقة بين مصر والعــالم العربى والعالم الاسلامى من خلال البعثات الازهرية . لا يوجد تعارض بين القومية العربية والامة الاسلامية .

فكلاهما يشارك فى معارك التقدم والثورة والدعوة الى الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية • هذا التضامن الاسلامى الذى يجمع الدوائر الثلاث انما يتم لوجه الله غير متجه للسياسة الامريكية أو البريطانية • وهنا يتصدى ناصر للحلف الاسلامى باعتباره حلفا انجليزيا أمريكيا استعماريا تحت ستار الدين يأخذ أوامره من لندن وواشنطن • بدأت الفكرة بعد ١٩٥٧ بعد بداية حركة التحرر العربى اثر تأميم قناة السويس وضرب الاحلاف العسكرية فى المنطقة ، وكان الهدف احياء حلف بغداد القديم بعد خروج العراق ودخول تركيا وباكستان وايران من أجل حصار العالم العربى واعادته تحت مناطق النفوذ فالاسماء واحدة : مؤتمر اسلامى ، تجمع اسلامى ، رابطة اسلامية ، تكتل اسلامى ، مؤتمر ذروة اسلامى ، والهدف واحد : عودة الاستعمار الى المنطقة عن طريق اللف حول العالم العربى من خلال العملاء حكام السعودية وايران والأردن وتونس • لقد قاد هؤلاء معركة الحلف الإسلامى لضرب القوى الرجعية لهذا الغرض • كان الهدف أيضا تخفيف الضغط على اسرائيل بدليل أن ايران وتركيا معترفتان باسرائيل• لم يكن الهدف فلسطين وتحرير فلسطين بل الدفاع عن اسرائيل والاعتراف بها واتهام ناصر بمعاداة الحلف بأنه يدافع عن زعامته فى المنطقة • لم يكن الهدف مقاومة الالحاد لان مقاومة الالحاد تتم بالدين لا بالسياسة ، والحلف الاسلامى حلف سياسى وليس تكتلا دينيا لانه يجمع رؤساء الدول وليس رجال الدين • وهل شاه ايران وبورقيبة دعاة للايمان ، شاه ايران الفارسى النعرة وبورقيبة الذى جعل أجازة العيد يوما واحدا ، وأفتى بالافطار فى رمضان • وبصرف النظر عن الصلة بين الدين والسياسة وتوحيد الاسلام بينهما وبين فتاوى علماء

تونس وشرعيتها فانه يبقى أن الحلف الاسلامى حلف استعمارى تحت ستار الدين كان يهدف الى حصار القومية العربية وايقاف حركة التحرر العربى .

٦ — الدين والصمود (١٩٦٧ — ١٩٧٠) :

ظهر موضوع الايمان بوضوح بعد هزيمة ١٩٦٧ فى فكر ناصر من أجل الصمود فى المعركة وتقوية الروح المعنوية للشعب والجيش واذكاء ارادة الصمود فى الامة . وليس السبب فى ذلك التربية الدينية بل التربية السياسية من أجل بث الامل فى النصر بعد أن استشرى روح الهزيمة فى النفوس . كان موضوع الايمان فى أول الثورة مرتبطا برفض الالحاد والردة والاثارة الجنسية . كما ظهر ضد أخطار الشيوعية الممثلة فى حكم العراق والبعث السورى ، فالشعب المصرى شعب مؤمن . ولكنه أصبح بعد هزيمة ١٩٦٧ الدرع الواقى لروح الاسلام . وارتبط بالقدرية وذلك أن الهزائم قدر الامم ، والايمان بالقضاء والقدر يجعل الانسان صابرا مجاهدا قادرا على الصمود وعاملا وآملا بالعدل الالهى « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » . وكان « الميثاق الوطنى » قد صاغ من قبل فى خمس ضمانات للعمل الثورى وهى : ارادة التغيير الثورى ، الطليعة الثورية ، الوعى العميق بالتاريخ ، الفكر المفتوح على كل التجارب الانسانية والضمان الخامس « ايمان لا يتزعزع بالله وبرسله ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى الى الانسان فى كل زمان ومكان » . فالايمان ضمان للعمل الثورى وليس خنوعا واستسلاما ورضى وقبولا . وقد أكد بيان ٣٠ مارس نفس المعنى بربطه العناية الالهية بصلابة الجماهير الثورية حتى يتحقق النصر

ويتجاوز الشعب مرارة الهزيمة • وقد حدد البرنامج خطة عمل تقوم على دعائم ثلاث : التحرر والنصر والتجديد والتجدد للثورة • وجعل الثانية تدعيم القيم الروحية والاخلاق • وحدد مهام المرحلة القادمة في ست مهام : تثبت دور قوى الشعب في بنـاء الدولة الحديثة ، التنمية الشاملة ، اطلاق القوى الخلاقة ، تلاحم الشعب والجيش ، وجعل أيضا المهمة الرابعة العمل على تدعيم القيم الروحية والخلقية • وبالتـالى يمكن تحقيق النصر ، ويكون حينئذ نصر الله « ولتعمل ارادة الحق فوق كل ارادة لانها جزء من ارادة الله » •

ولكن لا يعنى ذلك حربا دينية ضد اسرائيل فقـد عاش العرب ، يهودا ومسيحيين ومسلمين فى فلسطين منذ آلاف السنين بل لقد رفض بعض اليهود مغادرة مصر الي اسرائيل وآثروا البقاء فى وطنهم ، فاليهود فى مصر مصريون وفى الدول العربية عرب • العرب واليهـود شعوب سامية ، والتشابه بينهما أكثر من الاختلاف ، وموسى مولود فى مصر • فكيف يكون العرب معادين للسامية ؟ ولقد طردت اسرائيل الفلسطينيين مسلمين ومسيحيين ، أكثر من مليون لاجىء • ومن ثم يجب أن يتعايش الجميع على أرض فلسطين بصرف النظر عن الدين • فان لم تتحقق هذه الرؤية المستقبلية الشاملة فان تحرير الارض المقدسة من الصهيونية يصبح حتمية مقدسة ، وجزء من الايمان بالله والشرف المهان بواتع الاحتلال وحرق المسجد الاقصى • ان الحرب فى الاسلام ليست من أجل الحرب « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » • ولكنها من أجل العـدالة والحرية ودفعا للاذى والاضطهاد « آذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا

وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » .

وكانت معركة الايمان والصمود آخر المعارك التى خاضها ناصر باسم الدين . يظهر لنا ناصر هذه الاهداف وكأنها حلم حياتنا . فقد صاغ مشروعنا القومى وعبر عن مصالح الجماهير ، ومازال كامنا فى روح شعبنا ينتظر الانطلاق ، فتعود « الناصرية الشعبية » ويعـــود مشروعنا القومى لمناهضة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية ولتحقيق أمانينا القومية فى الحرية والاشتراكية والوحدة .

مخاطـــر الســـلام

ليس السلام بضعة كيلو مترات هنا أو هناك ، أو انسحابا كليـــا أو جزئيا من هذه المنطقة أو تلك ، وليس اتفاقا أو اعلانا أو بيانا فى هذا اليوم أو ذاك ، وليس زيارة أو مبادرة أو استقبالا فى هذه المدينة أو تلـــك ، هنا أم هناك • وليس السلام مناطق عازلة وأخرى منزوعة السلاح والثالثة محددة السلاح • وليس تحجيما للجيش المصرى أو تحـــديدا لانـــواع أســـلحته أو اقـــامة نقاط للمراقبـــة ووضـــعا لقوات دولية تابعة للامم المتحدة أو تشكيل دوريات مشـــتركة ونقاط حراسة • انما السلام شيء أهم من ذلك وأعمق وأدخل فى روح الامـــة وتحديدا لوعيها • الســـلام جزء من تاريخ الامة ، وتحديد لمستقبلها ، وبيان لهويتها ، واظهار لرسالتها ، وحكم عليها بالحياة أو الموت •

ان ما قيل بيننا من أن المشـــكلة بيننا وبين اسرائيل هى فى جوهرها مشكلة نفســـية ، وأن الحواجز بيننا وبينها هى فى صميمها حواجز نفسية ، انما هو أخذ لوجهـــة نظر الصهيونية • فبالنسبة لنا تعنى اسرائيل ملايين من الكيلومترات المحتلـــة ، وملايين من الشـــعوب مشردة ، وما تعيش عليه مهدد بالضياع • ولكن بالنسبة للاخر السلام هو قبول الصهيونية كفكرة فى أذهان العرب • والاعتراف بهذا الكيان

---

* كتب هذا المقال فى الاصل كورقة للمناقشة فى « لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية » . وبعد انتظار عدة اشهر دون رد أرسلته الى قضايا عربية فى بيروت ، ونشر فى عدد مارس ١٩٨٠ .

كجزء طبيعى من المنطقة ، وبالتالى تحويل العلاقة بيننا وبين الآخــر على هذا المستوى النفسى الذى يعنى بالنسبة للعدو التسليم بأيديواوجيته وتقبلها ، والذى يعنى بالنسبة لنا مبادرة شجاعة ولفتة كريمة واظهار لحسن النوايا والرغبة فى السلام ، وما يعنيه الســلام بالنسبة للعدو حقيقة وما يعنيه بالنســبة لنا مجرد مظهر يكشف العدو حقيقته ؛ وان استبدالنا فى لغتنــا السياســية اسرائيل بالصهيونية وعدم ذكرنــا للصهيونية وذكرنا لاسرائيل لهو اعتراف مبدئى بالدولة ذات السيادة وقبول ضمنى بالايديولوجية التى تمثلها فى حين أن الصهيونية بالنسبة لنا تمثل ايديولوجية معارضة ومناقضة حتى ولو لم تتمثل فى دولة ، حتى ولو كانت فكرة أتت الينا من الفضــاء الخارجى دون أن يكون لها أى ركيزة فى الارض .

لم تعد الصهينية تطلب الارض فقد حصلت على أضعاف ما كانت تتمنــاه فى بدايتها بل قادرة على أن تحصل على المزيد ، ولم تعــد تطمع فى القضــاء على الشعب ، شعب فلسطين ، فقد تم تشريد نصفه واحتلال النصف الآخر ، وقادرة على أن تشرد المزيد من الشــعوب العربية فى الاقطار المجاورة ، ولم يعد هدفها هو القضاء على اســم فلسطين حتى ولو كان اسما لفندق أو لهيئة أو لمنظمة أو اسما لندوة أو لقاء أو لجنــة أو حتى شعارا لعلم أو لنشــيد . أصبح الهدف هو هو تصدير الصهيونية للذهن العربى ، وهو الذى تعود على الاستيراد والتصدير فى محنته الاخيرة ، من أجل الاعتراف بها وقبولها وجعلها بديلا عن القومية العربية فى المنطقة ووريثتها فى التاريخ !

ولما كان الاستعمار هو الاخطبوط الذى يعبر عن العنصرية الدفينة

فى الغرب ، فانه قادر على تغيير أشكاله وصـــوره وتبديل أســـاليبه وخططه • لم يعد الاستعمار هـــو الاستعمار العســـكرى ، الزحف بالجيوش والاستيلاء على أراضى الغير بالقوة واحتلالها • فقد أثبتت التجارب مدى الخسارة التى تلحق بالاســـتعمار أثر بداية حروب التحرير الوطنيـــة ، وسرعة يقظة الشعوب ، واذكاء روحها القوميـــة وان أعتى الجيوش قوة وعتادا لا تستطيع أن تصمد أمام مقاومـــة الشعوب • ثم تحول الاســـتعمار الى الاستعمار الاقتصادى من أجل نهب ثروات الشـــعوب ، واستنزاف خيراتها ، والاستيلاء على مواردها الاولية ، واستخدام أيديها العاملة ، وتسويق منتجاته لدى شعوبها المستهلكة الفسيحة بعد أن فرحت بمظاهر الاستقلال الوطنى ، العلم والنشيد ، والمقعد فى هيئة الامم المتحدة ، ومظاهر الامارة والسفارة ، ومتعة السلطة وشهوة الحكم • ولكن الشعوب سرعان ما تدرك بعـــد مرحلة التحرر الوطنى ان استقلالها السياسى لا يكون تاما الا باقامة اقتصـــاد وطنى وتأميم الشركات الاجنبية ، والقضـــاء على مظاهر الاحتكار واسترداد ثرواتها ومدخراتها الوطنية ، فيصـــبح الشعب مسيطرا على وسائل الانتاج • ثم تحول الاستمعار الى استعمار ثقافى ، يسيطر على أذهان الوطنيين حتى يدخل الاستعمار من جديد فى العقول عن طريق « التغريب » Westernization ، وتقليد أنماط الحضارة الغربية فى قوالب التفكير وانماط الســـلوك • ولكن الشعوب بدأت أيضا تكشف عن هـــذه الصورة الجديدة للاستعمار ، وبدأت فى نهضاتها الاخيرة برفض التغريب والعودة الى تراثها الوطنى تجد فيـــه أصالتها ومواطن ابداعها • والآن عاد الاســـتعمار من جديد ليحاول أسر روح الشـــعوب والقضاء على وعيها القومى ، واستلاب تاريخها ، واقتلاع

جذورها حتى ينتهى مستقبلها وتصبح مجرد أقليات تلحق بالغرب ، وحضارات مندثرة تدرس فى متاحف الانثروبولوجيا !

والسلام المطروح الآن أمام شعوبنا هــو من هذا الشكل الاخير من أشكال الاستعمار ، تبنته الصهيونية ، وهــو استعمار جديد أيضا من دولة صغرى بمســاعدة الدول الكبرى من أجل احتواء الشعوب التاريخية التى يظل رصيدها فى تراثهــا موطن تحررها ، ومصــدر ايديولوجيتها ، ومثبت هويتها • فالاســتعمار يتلون ويتشكل طبقــا للظروف ، كالحية ذات الرؤوس المتعــددة اذا قطعت احداها ظهرت أخرى • وقد يظل الامر كذلك حتى يتم تحجيم الغرب ، ورده داخل حدوده بالقضــاء على عنصريته الدفينة التى جعلته محور العالم ، ومركز ثقله ، والنموذج الاوحد لحضاراته ، وبعودة الشعوب التاريخية فى الصين والهند وايران ومصر الى أخذ مكانهــا الطبيعى فى دورة التاريخ الجديدة • وقد يعود الغرب الى ما كان عليه من حياة طبيعية لقبائل متوحشة تأكل بعضها بعضا ، ويعود الى شريعة الغاب •

وقد قامت صحافتنا أخيرا بالتنبيــه المفتعل على هذا الخطر فيما سمته بمعركة « التحدى الحضارى مــع اسرائيل » ذرا للرماد فى العيون ، واظهارا لعضلاتنا الحضارية كما كنا من قبل نظهــر قوانا العسكرية ، فى مظاهرات اعلامية • وعدنا الى ما كنا فيــه من رفض لاسرائيل على مستوى المبدأ وقبول لهــا على مستوى الواقع ، نقوم بمعركة التحدى الحضارى مع اسرائيل ونســهل لها عملية الغــزو الحضارى لنا • وتلك هى مخاطر السلام •

أولا : القضاء على روح النضال :

تتمثل مخاطر السلام على روح النضــال لدى الشعوب • فقد

أخذنا بالسلام ما لم نأخذه بالحرب ، وما خسرناه بالحرب كسبناه بالسلام • الحرب طريق مسدود يؤدى الى مزيد من الخسائر فى حين أن السلام طريق مضمون يؤدى الى كثير من المكاسب • فتتخلى الشعوب عن الجهاد ، وهو أمر الهى « وجاهدوا فى الله حق جهاده » • ولا عجب أن اتخذت الثورة الايرانية آية « فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » (٤ : ٩٥) شعارا لها • وكأن محمدا لم يحارب ، وكأن الشعوب لم تحارب ، وكأن الحرب بدعة ، وكأن هناك حربا تكون هى آخر الحروب ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض » (٢ : ١٥١) • ويتم تشويه الحروب عمدا بأنها السبب فى الازمات الاقتصادية وان السلاح يؤدى الى الجوع بالضرورة فى حين أن السلام يجلب الرخاء وان الحرب دمار وقتل ويتم وترمل ، وان السلام حمامة وغصن وحياة وحب وتعايش واخاء ، وان الحرب همجية ووحشية فى حين أن السلام تحضر ومدنية • والقتال فرض فى الاسلام حتى فى الاشهر الحرام • « ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير » (٢ : ٢١٧) • والقتال أمر الهى « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال » (٨ : ٩٥) • صحيح أن الحرب بها خسائر ولكنها خسائر متبادلة ، « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله (٣ : ١٤٠) بالاضافة الى أن قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار •

وجيلا بعد جيل ، بعد تغيير كتب التربية الدينية والقومية ، وتغيير كتب التاريخ والجغرافيا ، تضيع منا روح النضال ، وتخمد فينا روح المقاومة ، وتضيع منا ارادة الصمود ، وتنتهى الشعوب الى الاستسلام لهزائمها ، وقبول مقاديرها ، وتفرض عليها سياسة الأمر

الواقع التى طالما حاول الاستعمار فرضها على الشعوب حتى لا تتحرك وتأخذ مصائرها بأيديها من جديد . فى حين أن هزائم الشعوب قد ولدت فيهـا روح النضال ، وقوت فيها روح المقاومة ، فيتحول العدو الخارجى الى تحد حضارى . حدث ذلك فى تاريخ بنى اسرائيل قديما بعد الاسر البابلى . فما كان من كتابها وشعرائها ومفكريها ورواتها الا أن حفظوا روح الامة وتراثهـا رمزا لمقاومتها وعدم اندثارها وسجلوه فيما سمى فيما بعـد بالتوراة أو الكتاب المقدس أو العهـد القديم « تناخ » . وحدث ذلك أيضا عندنا اثر هجمات التتـار وغزوات المغول فحفظت الامة تراثها فى الموسوعات الضـخمة التى ورثناها من العصر المملوكى ، عصر الشروح والملخصات ، وكنا الى عهد قريب ونحن فى قمة الهزيمة قد عبرنا عن روح الصـمود باللاءات الثلاث « لا صلح ولا مفاوضـات ولا اعتراف » التى أصـبحت الآن موضـع سخرية أو استهزاء . ان الهدف هـو هزيمة روح الامة ، وكسر شوكتها ، وضياع كرامتها ، واهانة شعوبها ، وركوب قلبها ، والنزول الى أحياء الحسين والازهر من تل أبيب للشراء من خان الخليلى ، قلب الامـة وحفاظ تراثها ، وكأننا أصبحنا متحفا وذكريات يحملها السـائح الاوروبى الجديد معه ، ورؤية القادة الجـدد الاهرامات . وركوبهم الترام ، ورفضهم السكنى فى الضواحى دون قلب المدينة حتى تكون المدينة فيما بعد بلا قلب وبلا حرمات . وطالما ذكر عبد الناصر من قبل ما قاله اللنبى قائد الجيوش البريطانية الى القدس « اليوم انتهت الحروب الصليبية » أو ما قاله القائد الفرنسى جورو فى دمشق أمام قبر صلاح الدين « ها قد عدنا اليك يا صلاح الدين » . والآن يتول حكامنا الصهاينة الجدد « ها قد عدنا اليك يا قاهرة المعز » . ولا عجب أن يهدى الينا

« دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون ونحن نفرح بـــه دون أن نعي المقصود به • كانت حضارتنا نحن اليهود فى عقر داركم واليها ستعود • ولا عجب أيضا أن يعلن حكامنا الصهاينة الجدد فتح حدود مصر من داخل اسرائيل ، ورفضهم اعترافنا بهم ، وهـــو الاعتراف الذى طالما تمنوه ، فلهم اليد العليا ، والمعركة لديهم معركة كبرياء • فاذا ما انتهت روح المقاومة والنضـــال سلكت الشعوب كى تأخذ حقوقها أســلوب الاخذ والعطاء وطريق التجارة والفصال ، وضاعت منها روح المبادىء التى لا يمكن التنازل عنها أو المساومة عليها • تتحول الشعوب الى شعوب تجارية ، تبيع كل شىء ، وتضيع منها عناصرها التاريخية الثابتة فى حين تد استطاعت المقاومة عن طريق الثبات على مبادئها • وقـــد استطاعت الصهيونية أنتحصل على ما تريد عن طريق التشبث بأهدافها وعدم التنازل درجة واحدة عن متطلبات أمنهـــا • وقد انتصرت رسالات الانبياء فى التاريخ أيضـــا عن طريق عدم التنازل عنها « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونـــه ما تركته » • أو كما يقـــول القـــرآن « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (٣ : ١٧٣) • ولقد أتصفت جميع الثورات الكبرى فى التاريخ بالجذرية والا تحولت الشعوب الى أقليات تستجدى حقوقها وتصبح مهددة بالقمع أو الاستئصال •

حينئذ تبدأ الشعوب فى المساومة على حياتها من موقف الضعيف أمـــام القوى ، وتستعمل أسلوب الاستجداء العاجز ، واستثارة نخوة الغالب وانسانيته وعدالته • وتستمر فى الاستجداء حتى يأنف منهـــا الاصدقاء ويزداد احتقار الاعداء لهـــا بالرغم من مظـــاهر الترحيب

وعبارات المجاملات ويرمون لها بالفتات الذى تفرح بـه ، وتعتبره انتصارا لها واستردادا للعزة القومية . تستنصر القـوى الكبرى ، تستنصر الشعوب المحبة للسلام ولكن الاولى لا تعرف الا لغة القوة ، والثانية لا تملك من القوة شيئا ، وقوتها معنوية أكثر منهـا فعلية . فى الواقع السياسى لا يتغير شيئا الا بالقوة الفعلية . وقد حذر من قبل « اقبال » من أسلوب الشحاذة والشكاية والاستجداء ، وخطورته على حياة الافراد والشعوب . وسماه « فلسفة السؤال » وفى نفس الوقت نردد اليد العليا خير من اليد السفلى !

ثانيا : نهاية مشروعنا القومى :

وسيوحى السلام لشعوبنا بأن ثوراتنا العربية الاخـيرة التى قامت كرد فعل على هزيمتنا فى فلسطين فى ١٩٤٨ قـد انتهت ، وانها كانت عاجزة عن تحرير فلسـطين . بل ان مزيدا من الاراضى قد ضاع فى عهدها . وانها كانت سببا فى انتكاسات الامة . وبالتالى نتوب عما قمنا به ، والتوبة الصـادقة كما يقول الصوفية تقتضى الندم على ما فات ، وترك الذنب فى الحـال . وعدم العودة الى مثله فى المستقبل ! تحدث لدينا عقـدة الذنب بأننا سلكنا الطريق الخطأ ! وما كان أجدانا أن نقبل قرار التقسـيم فى ١٩٤٧ أو قبول الاستسلام بعد هزيمة ١٩٦٧ ، فالثورة طريق مسـدود ، فورة سرعان ما تنطفىء ، يسلبها منا القادة ثم لا يستطيعون الصمود . لذلك كان المطلب فى كل اعتداء علينا تحريرنا من الطغمة الثورية التى سببت لنا الهزائم وخربت الديار ، وهدمت المدن ، وشردت المواطنين ! وبالتالى تنتهى روح الثـورة من الشعوب . وتكون الثورة العربيـة التى كانت رائدة الثورات فى العالم

الثالث ، تكون تلك الثورة الام قد تمت تصفيتها وادانتها واعتبارها خطأ لابد من التكفير عنه ، واستثناء فى تاريخ أمة هادئة الطبع ، ترفض العنف والغضب ، وتكرم الضيف ، وتحب الجار ، وتسامح المعتدين •

ولما كان لكل أمة مشروعها القومى ، فلا يوجد شعب الا وله رسالة بها يحيى وبدونها يموت ، فالشعوب السلافية تقوم على حب الارض والدفاع عن روسيا الام (ايفان الرهيب) ، والشعوب الجرمانية تعتز بروحها وثقافتها ولغتها (فشتة) ، والشعب الانجلوسكسونى يعتز بديموقراطيته ودساتيره ومجالسه النيابية (كرومويل) ، والشعب الفرنسى يفخر بوطنيته وثورته (جان دارك ونابليون) — فاننا صغنا مشروعنا القومى فى مبادىء الثورة الست ثم فى « الميثاق الوطنى » ، يقوم على مناهضة الاستعمار والرأسمالية والصهيونية والرجعية ، ويحقق آمال الامة فى الحرية والاشتراكية والوحدة • يعنى السلام بالنسبة للعدو ونحن وراءه انهاء مشروعنا القومى • فقد أيدنا الاستعمار فى مطالبنا على مائدة المفاوضات ، وأعلنا بأن الرأسمالية لم تعد جريمة ، فليكسب كل منا ما يشاء ويدفع ضرائبه للدولة أى يتهرب منها ، وأن العمل ليس وحده مصدر الثروة • وأدركنا أخيرا أن الصهيونية أقامت دولة متحضرة ندخل معها فى علاقات طبيعية ونغمض أعيننا عما تفعله فى جنوب لبنان وعن احتلالها لفلسطين وبيعها لاراضيها وتشريد شعبها • تمزق العالم العربى أربا ، وانعزلت مصر قلبه النابض ، واكتشفت أنها خسرت فى حروب العرب الرجال والاموال ، وأن ما أنفقته فى معارك العرب كان أولى بها أن تنفقه للبناء والتعمير • أما حرياتنا فلا يجوز لها المساس بالكيان الصهيونى أو الاعتراض عليه والا اعتبر ذلك معاديا لاتفاقيات السلام ، ودعوة للمشاغبة ،

وبثا للكرامية بين أولاد العم ، وبالتـالى ينتهى مشروعنا القومى ، ونصبح شـعوبا بلا هدف ، وتصبح الصهيونية هى الصوت الوحيد المسموع فى المنطقة ، تحل محل القومية العربية ، وتكون مفتاح القوى فى الشرق الاوسط ومركز الثقل فيه • وتقوم بدور مصر التاريخي حتى ولو بدت مصر فى أعقابها كحليف ومساعد لها •

فاذا ما تم ذلك انتهى دورنا فى تأييد حركات التحرر الوطنى فى العالم تلك التى بدأناها وأيدناها وقويناها وأصبحت جزءا من فخـرنا فى حياتنا المعاصرة • بل تحولنا الى حركة تحرر مضـادة ترى فى حروب التحرير استعمارا جديدا وتدخلا سـوفياتيا وصراعا ايديولوجيا بين القوى الكبرى • وقد كان فى القاهرة ابان المد الثورى العربى أكثر من ثلاثمائة ممثل لحركات المقـاومة ولمنظمات التحرير فى افريقيا • فينتهى دور القومية العربية كرائدة لحركات التحرير فى العـالم ، وتسبقنا شعوب أخرى تأخذ منا الريادة • فلا نحن أصبحنا ثورة وطنيـة ولا نحن أصبحنا ثورة كبرى يثار عليها بل أصبحنا ثورة مضادة نهدم ما بنيناه بأيدينا ونتخذ من أعداء الامس حلفاء اليوم •

وهنا أيضا ينتهى التعـاون المشترك مع المعسكر الاشتراكى الذى كان الحليف التاريخى لمعظم حركات التحرر الوطنى يمدهـا بالتأييد المادى والمعنوى بل اننا نعاديه ، ونعتبره لا يقـل استعمارا وهيمنة عن الاستعمار الغربى الرأسمالى التقليدى ونصـفه بأنه أصبح زعيم الثورة المضـادة فى العالم يمنع تزويد السـلاح ، ويرفض اعادة جدولة الديون ، ويريد دوران العالم الثالث فى فلكه ، وربطه بالمعاهدات والاحلاف ، يعادى القوميات ، ويثير الانقلابات ، ويجند العملاء •

وهـذا لا يعنى أن المعسكر الاشتراكى خارج دائرة النقد وان الدول الاشتراكية لا تؤثر أحيانا مصالحها الخاصـة كدول على دورهـا التاريخى كثورات ، ولكن نقد الثورة للثوار شىء ونقـد الثورة المضادة للثوار شىء آخر • وهكذا نصبح بلا حلفاء ، ونقطع جسورنا ، وحلفاؤنا الجدد يؤيدوننا بالكلمات وبالنوايا الحسنة ، وجسورنا الجديدة لم يمر عليها عتاد بعد •

ثالثا : الغرب كحليف طبيعى :

ولما كان السـلام سيأتى بفضل تدخل الاستعمار وبمعاونته فان الغرب وهـو موطن الاستعمار الاول يصبح حليفا طبيعيا لنـا ، فقد ناصرنا فى قضايانا المصيرية ، وأرجع الينا أرضنا وأحيى الينا شبابنا ، وأرجع البسمة الى وجـوه أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا • نصبح جزءا من الغرب ، ويصبح الغرب مرجعنا الاول • لقد استرددنا أرضنا سلما بمعاونة الغرب وخسرناها حربا بمعاونة الشرق ! ثم نتم فى « التغريب » بأيدينا ، تغريب وعينا القومى • ولما كان الغرب نفسه هـو الحليف الطبيعى للولايات المتحدة الامريكية ، فاننا أيضا نصبح حليفا لهـا ، وهى التى تملك بناصية مصيرنا القومى ، وبيدها ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى المنطقة ، وهى التى بيدها مفتاح الحياة والموت لنا ولاعدائنا !

ثم نتبنى نظام الغرب الاقتصادى ، وتصـبح الرأسمالية النظام الاصلح لنا • والواقع أن الغرب لم ينصب نفسه مدافعا عن قضايانا الا بعد أن اطمأن الى أننا أصبحنا من حلفائه الاقتصاديين ، فتأتى رؤوس الاموال الاجنبية ، وتفتح الشركات العالمية فروعا لدينـا ، ويفرض البنك الدولى شروطه ، ويطالب برفع الدعم عن الاسـعار ،

وتعفى شركات الانفتاح من الضرائب لمدة معينة ، ويتم الاستيراد والتصدير بلا قيود ، ونعود من جديد الى اقتصاد ما قبل طلعت حرب • وتكون أقصى أمانينا لاجيال قادمة تكوين اقتصاد وطنى ، والغاء المعاهدة مع بريطانيا الجديدة ، ومقاومة المستعمرين الجدد • وكأن التاريخ لا يمثل بالنسبة لنا تراكما حضاريا • نعود كما بدأنا • ونبدأ كى ننتهى ثم نعود من جديد دون أن نكسب خبرة أو أن نتعلم من دروس التاريخ ، ودون أن يبقى لدينا رصيد سياسى ومخزون تاريخى يسمح لنا برؤية المستقبل حتى لا تتكرر أخطاؤنا • وفى نفس الوقت نفخر بأننا حضارة سبعة آلاف سنة • وما حققته الصهونية أخيرا من اعادة دولة بنى اسرائيل هو فى الحقيقة تراكم طويل من خبراتهم التاريخية عبر آلاف السنين •

ثم نستورد مع النظام الرأسمالى مشاريع الغرب وقيمه الحضارية، فتنشأ لدينا أنماط جديدة من الحياة ، نقلد بها غيرنا • فمجتمع الرفاهية لا يقدر عليه الا الاغنياء أى الاقلية المترفة فى مجتمعاتنا ، وزيادة الانتاج تتطلب قدرة على الانتاج لا نملك مواردها ولا أساليبها • ويبقى لنا زيادة الاستهلاك أى امتصاص اقتصادنا الوطنى وابتلاعه أولا بأول بلا عائد ولا ادخار • وتفرض قيم الاستهلاك نفسها علينا مع رغبة زائدة فى النهم والثراء ومظاهر الغنى وأساليب البذخ عند الطبقات التى انقلبت من الفقر الى الغنى دون جهد وبلا وقت وبغير أهلية • وتنتهى الامة كما وصف ابن خلدون •يصدر الغرب مشروعه القومى — أكبر قدر ممكن من الانتاج لاكبر قدر ممكن من الاستهلاك لاكبر قسط ممكن من الرفاهية — بعد أن ثبت فشله لديه بعد أزمة الطاقة ، وسيطرة الشعوب المتحررة على مواردها الاولية

وثرواتها الطبيعية ، وأزمة الحضارة الغربية ذاتها التى تعبر عنها ثورة الشباب وانحرافهم ووقوعهم فى حلقـات الذكر أو غرز الحشيش أو انضمامهم الى جماعات الرفض العلنى أو السرى •

وأخيرا ، تضيع هويتنا القومية ، ونتخلى عن تاريخنا الطويل ، ونستأصل جذورنا بأيدينا ، ويأمن الاستعمار مخاطر ثقلنا التاريخى ويقظـة وعينا القومى التى يشوهها الغرب بدراساته الانثروبولجية عن المأثورات الشعبية والحضارات القديمة وأشكال التخلف وبدايات الانسان • وتكون روحنا قـد أصبحت أسيرة حتى يقضى عليها بالموت بطئا • ونكون أمام مجتمع يعض بالنواجذ على هويته فى الطعـام والشراب ، فى المسكن والملبس ، فى العادات والتقاليد ، يفخر بنقـاء عنصره دون اختلاط الانساب ، ويعتز باستمراره عبر التاريخ بالرغم من حياة الجيتو بين الشعوب •

رابعا : الصهيونية كنموذج للتحديث :

فاذا ما استطاع السلام أن يبرز محاسن العدو وأسـلوبه فى الحياة ، وزراعته للصحراء ، وبنائه للمستعمرات ، وتعميره للخراب ، واقامته المدن الجديدة ، وانشائه القرى السياحية ، وتخطيطه الموانىء على السواحل ، واستخراجه ثروات الارض ، أصبحت الصهيونية نموذجا لتحديث مجتمعاتنا ، نرسل اليها البعثات ، ونجلب منها الخبراء ، ونبعث اليها الافواج السياحية ، ونستقبل منها الوفود • وما استطاعت الصهيونية القيام به من قبل فى أفريقيا على أنهـا نموذج للتحديث وتاومناه ، قامت به الصهيونية لدينا فى عقر دارنا وفى قلب العـالم العربى وقبلناه • فبدل أن كان الغرب نموذجا للتحديث حلت الصهيونية

القريبة محله • ان أقصى ما نستطيع أن نعطيه هى السواعد الفنية ، والايدى العاملة ، والمواد الخام ، والاسواق والاموال • أما الفن وأساليب الانتاج والعلم كل ذلك تقــوم به الصهيونية فتكون بالنسبة لنا الروح ونكون بالنسبة لها الجســد • هى مصدر الخبرة ونحن مادتها ولا حياة لنا بدونهم • ونعود الى دور رجال المال الاجانب وخبراء الغرب فى حياتنا المعاصرة ، ونعــود من جديد الى المطالبة بالخبرة الوطنيــة التى نفخر بهــا كل يوم فى جامعات الغرب ومعــاهده ومستشفياته ومؤسساته ومعامله •

فاذا ما تمت المقارنة بين حياتنــا وحياتهم ، وفقرنا وغناهم ، وتخلفنا وتقدمهم ، وهمجيتنا وتحضرهم ، وجهلنا وعلمهم ، وخيانتنا وولائهم ، نشأ لدينا الاحســاس بالدونية ، وأصبح أقصى مطمح لنا فى الحياة هو اللحاق بهم وتقليدهم والوصول الى مستواهم • يصبح ما لديهم مقياسا لسلوكنا ومعايير لقيمنا ، وبالتالى يضيع ما ناضلنا من أجله منذ فجر النهضــة العربية من اعتزاز بالتراث ، واثبات للهوية ، ودفاع عن القومية ، ونصبح ضحايا العنصرية الحضارية • ونؤكد فى أنفسنا العجز ، ونرى بأعيننا ما روجــه الغرب عن الصدمة الحضارية أو الفجوة الحضارية • وان الفجوة بيننا وبينهم تتسع أكثر فأكثر كلما مر الزمان لان معدل لحاقنا بالتكنولوجيا المتطورة أبطأ بكثير من معدل انتاج الغرب لها • وبالتالى فالزمان والتاريخ بالنسبة لنا يعنيان مزيدا من التأخر • فالعالم يتقدم الى الامام ونحن نتقدم الى الوراء • ولما كانت الصهيونية جزءا من العالم ومحركه الاول بأموالها وعبقريتها أصبحنا نحن خارج العالم بفقرنا وجهلنا •

فاذا ما تم ذلك قبلنا الصهيونية كفكرة • ورأيناها كمــا ادعت

الصهيونية دائما حركة تحرر للشعب اليهودى • فقد استطاعت تجميع اليهود من الشتات واقامة دولة ، وكسب ثلاثة أو أربعة حروب • وأدركنا أن ما كان يروج بيننا من أن الصهيونية حركة استيطانية توسعية عسكرية عنصرية كان دعاية همجية ضد شعوب متحضرة • وبالتالى يضيع أكبر مانع كان يحفظنا من الغزو الصهيونى وهو الاعتقاد ، وهو ما تسعى اليه الصهيونية الآن بعد أن استولت على الارض ، أرض فلسطين ، وشردت الشعب ، شعب فلسطين ، ومحت الاسم ، اسم فلسطين • ويكون أكبر انتصار حققناه لها يضمن لها البقاء • لن تحتاج الصهيونية بعد ذلك الى جيوش وأساطيل بعد أن رأينا العربى الاسرائيلى واليهودى الاسرائيلى يعيشان سويا ، ونسينا وضع اليهود الشرقيين داخل الدولة الصهيونية الذين يكونون أكثر من ٦٠٪ من السكان والذين يعيشون على هامش الحياة دون سلطة أو تمثيل فى المجالس النيابية أو فى السلطة التنفيذية أو فى قيادات الجيش أو طلابا وأساتذة فى الجامعات • نسينا أن اليهودى لا يكون كذلك الا اذا كان بولنديا أو روسيا أو أمريكيا •

وأخيرا ، تتم صهينة العالم العربى ككل ، وتصبح الصهيونية بديلا عن القومية العربية • تأخذ الصهيونية تاريخنا وتشكل حاضرنا وتصنع مستقبلنا • وتحقق حلم الصهيونية القديم بأن تكون الحضارة العربية والاسلامية جزءا من الحضارة اليهودية كما هو واضح فى دائرة المعارف اليهودية ، وأن تكون الحضارة اليهودية هى ممثل الحضارات السامية كلها ، ونموذجها الاوحد • ويدافع كل منا عن الصهيونى المضطهد • ويتول كتابنا ورؤساء تحرير صحفنا أن اليهودى ليس ذلك الاحدب الظهر ، المقوس الانف ، الاصلع الرأس ، الاخنف

الصوت ، المرابى الذى صوره شكسبير فى شخص شيلوك ولكنه انسان حسن المظهر والهندام ، حسن المعاشرة ، دمث الاخلاق • لا تصبح القدس المدينة التى كان العرب يتبولون على حوائطها كما يقول أحد كتابنا بل المدينة الجميلة الحديثة النظيفة بعد أن استولى عليها اليهود • بل ويفتخر بعض قادتنا وكتابنا بأن لكل منهم أصلا يهوديا وكان مجهولا لديه من قبل واكتشفه بعد السلام عن طريق الام أو عن طريق الزوجة حتى يتم الرباط بالدم عن طريق الرحم • فاليهودى هو من تكون أمه يهودية ، وينشأ فى رحم يهودى •

تلك هى مخاطر السلام ، فى بساطة ووضوح ، وبحماس الطالب ان لم يكن بعلم الاستاذ • فالامن المطلوب ليس هو الامن العسكرى بل الامن الحضارى ، وها نحن قد أعطيناه لهم ، جيل السلام •

لا مفر من الصمود والحوار

لم تر مصر طول تاريخها ، حتى فى أيام المماليك ، وضعا ثقافيا أسوأ مما عليه الآن • فعلى الاقل ، حفظت مصر التراث الاسلامى فى عهد المماليك فى الموسوعات الكبيرة ، فيما يسمى بعصر الشروح والملخصات • أما الآن ، وبالرغم من النهضة التى بدأناها منذ مائتى عام ، والمكاسب الضخمة التى حصلنا عليها : العقل والحرية من الاصلاح الدينى (الافغانى ومحمد عبده) ، والطبيعة والتقدم فى الفكر العلمانى (شبلى شميل وفرح انطون) ، والوطن والدستور فى الفكر القومى (الطهطاوى ولطفى السيد) •• فاننا خسرنا ماكسبناه ، خاصة فى العقد الاخير ، فانتهى الاصلاح الدينى الى محافظة عقائدية شعائرية صورية ، وانتهى الفكر العلمانى الى وقوع فى الوهم والخرافة والاستكانة والخنوع ، ووانتهى الفكر القومى الى وقوع فى النظم الثيوقراطية والابوية القديمة •

انتهى الابداع نهائيا من حياتنا الثقافية ، الا بعض ومضات من أدبائنا الشبان ، تبقى من خلالها روح الامة • فالابداع مشروط بالحياة الثقافية الطبيعية ، حيث تسود التيارات الثقافية والعلمية ، يقارن بينها الفنان أو الاديب أو المفكر أو العالم ، ثم يختار فى حرية تامة ، ينفعل بها جميعا ، يؤيد واحدا ويرفض الباقى ، أو يرفضها جميعا

---

* كتاب الموقف العربى ، ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

ويشق له تيارا خاصا ، ذلك لا يأتى الا فى جو الحرية الفكرية والحياة الديمقراطية ، وهما لا يتوافران فى مجتمعاتنا الحالية •

هذا بالاضافة الى ارتباط المبدع بالقضايا المصيرية للبلاد ، فلا ابداع من منازلهم ، ولا خلق من مواكب المتفرجين المصفقين • ولما كانت القضايا الوطنية المصيرية — مثل الحرب والسلام والرأسمالية والاشتراكية — حكرا على السلطة السياسية ، لا يتطرق اليها المواطنون، فان مصادر الابداع قد تم القضاء عليها ، وأصبح المبدعون بلا وطن ، هائمون على وجوههم فى الطرقات وعلى المقاهى وفى المنتديات يبكون حظهم •

بل اننا فقدنا الحماس لعمل أى شىء •

والترجمات الزاهرة التى قام بها الطهطاوى وتلاميذه والبعثات التى أرسلها محمد على نكصنا عنها ، وظللنا نترجم بلا تخطيط وبلا هدف مقصود • وألفنا عن طريق الترجمة غير المباشرة • والسرقات وعدم ذكر المصادر ، وجمع المعلومات وترتيبها وتنسيقها ، فلا هى ترجمة أمينة كما كنا نفعل فى الماضى ، ولا هو تأليف مبدع كما ينبغى أن يكون • وفى رؤيتنا للواقع ، غابت التحليلات النظرية التى تعتمد على أسس ثقافية ، بل وابتلعت هموم الدنيا عقولنا ، وركبنا الواقع بدلا من أن نسوده نحن ، وبالتالى عشنا بلا ثقافة •• ابداعا ، أو نقلا ، أو رؤية •

ومع ذلك ، فانه يمكن رصد أربعة اتجاهات ثقافية ، تظهر بين الحين والآخر فى حياتنا العامة والخاصة : الاول : الاتجاه الدينى المحافظ الذى تتبناه الدولة ، والذى يظهر فى الدين العقائدى الشعائرى،

والذى تغلب عليه الصورة دون المضمون •• وهو الطريق السهل الذى يعطى للناس تحقيقا سريعا لمتطلبات الايمان ، ويترك الطريق الصعب•• طريق تحقيق النظام الاجتماعى والسياسى الدينى ، أعنـــى قضيتى العدالة الاجتماعية والحرية •

والثانى : الاتجاه العلمانى التقدمى الذى ترفضه الدولة ، والذى أصبح محاصرا من السلطة ومحصورا عند الشعب ، وكأنه صرخة فى غير واد ، نظرا لعدم تأصيلة فى تراث الامة •

والثالث : الاتجاه الوطنى التقدمى الذى ورثنـــاه من ثوراتنا الاخيرة ، والذى بدأ يخبو ويتحول الى اتجاه مضاد ، والذى ظل حتى فى أوقات ذروته شعارات وأمانى •

والرابع : هو اليســـار الاسلامى الذى يحاول صياغة قضايا المساواة والحرية ابتداء من تراث الامة ، داعيا الى تحريك الجماهير وتحذيرها على المدى الطويل ، خاصة بعد فشل الاتجاهات الثلاثة الاولى •

أما أزمة الحريات فى مجتمعاتنا الحالية ، فانها ليست وليدة القوانين الاستثنائية والاستفتاءات الشعبية ، ولكن تمتد جذورها الى تراثنـــا الطويل الذى يكفر جميع فرق المعارضة باستثناء فرقة ناجية واحدة ، وهى الحكومة ، وتبرير العقل للمعطيات دون تحليلها ، وسيادة الرؤى الالهامية دون الحوار العقلى بين البدائل ، وحرفية التفسير ، والبدايات اللغوية والنصية التى تغفل معطيات الواقع ، وسلطوية التصور ، وهرمية البنيان النفسى لشـــعورنا • كل ذلك ـــ فى الواقع ـــ يحتاج

اعادة بناء حتى يمكن تجاوز أزمة الحريات • وقد عرضنا ذلك فى مقالنا « الجذور التاريخية لازمة الحرية والديمقراطية فى وجداننا المعاصر »(١)•

وبالنسبة لتطبيع العلاقات الثقافية مع اسرائيل فان العلاقات الثقافية هى نتيجة للعلاقات السياسية — فالثقافة هى سياسة على مستوى النظر ، والسياسة ثقافة على مستوى العمل • وبالتالى فان ما يحكم طبيعة العلاقات الثقافية ، هو نفسه الذى يحكم طبيعة العلاقات السياسية • وعلى ذلك ، فسيأتى المثقفون والعلماء من الجانب الآخر بنية تحديثنا وتعليمنا وتثقيفنا ، وليس بنية الحوار المتكافىء بين الطرفين، مما يسبب عند جماهيرنا عقدة « الخواجة » من جديد •

ومع ذلك ، فان مخاطر تطبيع العلاقات الثقافية تتمثل فى كل حياتنا • وستفرز الصهيرنية ثقافتها بيننا ، يعاونها فى ذلك الاستعمار والرأسمالية • فمثلا ستعتقد جماهيرنا بأن الجهاد لن يؤدى الى شىء ، وأن الحرب خاسرة بالضرورة ، وبالتالى تضيع روح النضال ، وتظل شعوبنا تستجدى حقوقها من الاقوياء ، والفصال فيها والتجارة عليها والتنازل عنها شيئا فشيئا ، حتى نتخلى عنها بفعل الزمن ، ونتحول الى أقلية فى دارنا نتمثل حضارة الاقوياء •

ستفرز الصهيونية فى حياتنا قيمها ، فالصهيونية وسيلة تحديث لنا ، حركة تحررية للشعوب المضطهدة حتى ننسى عنصريتها وعسكريتها وعدوانها وتوسعها • نقبل الصهيونية أخيرا كفكرة ، حتى تتم صهينة العالم العربى من خلالها ، وتكون بديلا عن القومية العربية فى المنطقة •

---

(١) المستقبل العربى ، يناير ١٩٧٩ وأيضا الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ ، ٢ — الدين والتحرر الثقافى .

وسيدخل الاستعمار أيضا مع الصهيونية لاثبات فشل مشروعنا القومى الذى وضعناه بعد ثوراتنا الاخيرة العربية : معاداة الاستعمار والصهيونية والقضاء على الاقطاع والرجعية والرأسمالية • وبالتالى ننهى تعاوننا مع حركات التحرير العالمى ، ونغير أحلافنا من المعسكر الاشتراكى الى المعسكر الرأسمالى ، أوالرجوع الى الحليف التقليدى فى الغرب ، والى اقتصادنا التقليدى فى الرأسمالية • وتعمنا قيم الغرب الاستهلاكية ، وتضيع هويتنا القومية ، ويضيع ما حاولناه منذ طلعت حرب من محاولات انشاء اقتصاد قومى وصناعة قومية • سينبهر شبابنا باسرائيل الحديثة بعد تبادل الزيارات طلابا أساتذة وبعثات ، وتكون اسرائيل نموذج التحديث فى العالم العربى ، وتذهب اليها العقول المهاجرة والعمالة ، وتأخذ رأس المال والخبرات ، وتكون الصهيونية هى الحليف الطبيعى لنا •

لقد حاولت الصهيونية ابتلاع الارض — أرض فلسطين — ثم تحاول الآن القضاء على الشعب — شعب فلسطين — بسياسة المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة والقدس ، واستئصال شعب فلسطين من جنوب لبنان ، كما تحاول القضاء على مجرد الاسم • والآن تحاول تصدير البديل : اسرائيل والصهيونية ، تحاصر مصر وتعزلها عن العالم العربى ، فهى واسرائيل هما جزيرتا الحضارة وسط الشعوب الهمجية كما قال أحد كتابنا • ويفتخر كاتب آخر بأن جذوره اسرائيلية • ويدافع كاتب ثالث عن اليهود فى التاريخ ، بأنه ليس صاحب الانف المقوس والصوت الاخنف والصلعة البيضاء ، وليس كل يهودى هو « شيلوك » شكسبير • وهكذا أتت العلاقات الثقافية الطبيعية أكلها بيننا من قبل أن تبدأ رسميا •

هناك ضرورة لاستمرار الروافد الثقافية للنهضة التى بدأت منذ مائتى عام • فالاصلاح الدينى يستطيع أن يربط بين العقيدة والثورة ، بين التوحيد والتحرر ، بين الحياة الابدية ومقاومة الصهيونية ، بين الروح والبدن ، حتى يتحول الاسلام فى حياتنا الى فلسفة للمقاومة والصمود • ويستطيع الفكر العلمانى اعادة تحريك دعواه الى العلم والتقدم والاشتراكية والحرية ، فهى أفكار ما زلنا نتخوف منها ونكفرها • ويستطيع ما حاوله لطفى السيد والطهطاوى من تأسيس نلامة والدستور ، ودعوة لقيام الدولة الحديثة — أن يعيد ما خسرناه ، وأن يبين لنا أن الدولة ليست ارهابا وتسلطا وادارة فردية وقهرا وطغيانا وضياعا لحقوق الناس •

لا مفر أمامنا الا اجراء حوار حول الوحدة الوطنية ضد التسلط الثقافى وواحدية الطرف فى الرأس ، حوار بين اليمين واليسار ، بين الاتجاهات الدينية والاتجاهات العلمانية ، بين الاخوان والماركسيين ويدخل كطرفين فى الحوار ثورة يوليو — التى حاولت تطوير الواقع متجاوزة الايديولوجيتين المعروفتين ، واليسار الاسلامى — الذى قد يكون فى النهاية بوتقة الحوار الوطنى وخلاصته •

ولا مفر أمامنا الا من تحمل مسئولية الثقافة ضد الحرفية وضد ايقاع المثقفين فى التخصص المهنى ، وكأنهم آلات انجاز أو خبراء أجانب ، وضد التكسب وعمليات التجارة وأساليب البغاء فى حياتنا الثقافية ، وضد الهجرة الى الخارج ، ونزيف عقل الامة فى العالم العربى أو فى أوربا وأمريكا ، فالمقاومة فى الداخل وليس فى الخارج ، وتغيير الامر الواقع خطوة أفضل من عشرات المجلات وجرائد المعارضة

فى العواصم الاجنبية ، وضد الهجرة الى الداخل والانزواء والانطواء والاكتئاب والاحباط واليأس والجنون والانتحار •

لا مفر أمامنا الا من الصمود الذاتى داخل الدوائر الضيقة والقيام بمبادرات فردية فى نشر محاولات الابداع للادباء والمفكرين الشبان • وان ما ظهر حتى الآن مثـل « الفكر المعـاصر » و « كتابـات » و « اليسار الاسلامى » — عن قريب — لبوادر خير • وعادة تبدأ الثقافة فى الازدهار فى أحلك اللحظات التى تمر بها الامم ، وفى أقصى ساعات الهزائم ، فاذا ما عجزت الجيوش والنظم استطاعت الاقلام والعقول •

قبل الانتفاضة وبعدها

لشد ما هو أقسى على النفس عندما يشعر المفكر العربى أن الاحداث قد سبقته ، وأن دوره يأتى بعد الاحداث لينظر لها بفكره الثورى ، ويزايد عليها لعله يستطيع أن يكون له دور وسط الاحداث التى طالما كان يرجو قيادتها وهو الآن يشعر أنه قد تخلف عنها . فاذا فعل فانه لا يزيد على التنظير التقليدي أما بنظرية فى الثورة ضد الاحتلال الصهيونى والامبريالية العالمية باسم فلسطين مرة ، وباسم العروبة مرة ثانية ، وباسم الاسلام مرة ثالثة ، وهو ماعرفه الجميع من قبل . وطالما سمعنا وتحدثنا من قبل عن الوطنية والعروبة والاسلام ولم نحدث ثورة .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذا الاحساس بالذنب أمام الاطفال والنساء والشيوخ : أنهم سبقوا المفكرين ، وقاموا بالثورة قبل التنظير لها ، وبالرغم من الاحساس بالتقصير النظرى ، أننا لانملك الا المفاهيم التقليدية للثورة بعد أن قامت بها الجماهير فى الاراضى المحتلة ، وأننا مازلنا قاصرين عن الابداع الثورى فى العمل والنظر — بالرغم من هذا كله فاننى أحاول أن أتجاوز هذا الحصار النفسى ، وأدلى بهذا الاعتراف أمام النفس ، وأقدم هذه الشهادة للتاريخ ، ليس ابراء للزمة أو تكفيرا عن الذنب ولكن عقدا للنية على الاجتهاد ، وعقد للعزم على أن تكون الانتفاضة ليس فقط الطريق الى دولة فلسطين المستقلة ولكن أيضا بداية

---

* مجلة « اليوم السابع » ، باريس ، أكتوبر ١٩٨٨ .

صحوة الفكر العربى وتمد به لنفسه وادراكه لمدى قدراته على الفهم والابداع .

تدل هذه الانتفاضة ، ماقبلها ومابعدها على عدة حقائق على النحو الآتى :

١ — أسقطت الانتفاضة نظريتين شائعتين سادتا الفكر السياسى فى المنطقة . الاولى استمرار الاحتلال العسكرى طالما كانت له القوة المسلحة وطالما سكتت الجماهير ، وتأقلمت معـه ، وتعودت عليه ، وأصبح جزءا من حياتها اليومية حتى مع سياسة تهجير الشباب خارج البلاد ، والاستيلاء على الاراضى بالقوة ، وادماج الباقى فى النشاط الاقتصادى للنظام العنصرى . والثانية التثوير من الخارج عن طريق المقابلات والزيارات والمفاوضات الجانبية والرسائل المتبادلة ولجـان التنسيق والنداءات والوعود . وهى كلها بلا مضمون ، تحركات بلا واقع يسندها . فلا مفاوضات بين الشعوب الواقعة تحت الاحتلال ومحتليها الا تحت ضغط المقاومة وخسائر العـدو كما كان الحـال فى فيتنام والجزائر . ثم بدأت الانتفاضة الفعلية على أرض الواقع ، وتحركت جماهير الشعب الفلسطينى لتبين أنها اصدق من النظريتين السابقتين . فلا الاحتلال استمر ، ولا التثوير من الخارج قد تم .

٢ — قامت جماهير الشعب الفلسطينى بالانتفاضة من الاطفـال والشباب والنساء والشيوخ وليس جيش التحرير الفلسطينى والمنظمات الفدائية الفلسطينية مما يدل على أن جيش الشعب ماهو الا بلورة لنضال الشعب . بدأت الانتفاضة بالحجارة لا بالرصاص ، وبالزجاجات لا بالمدفع الرشاش ، يحملها الاطفال والنساء والشيوخ لا رجال المقاومة،

وعلى نواحى الطرقات وفوق أسطح المنازل لامن الكمائن وعن طريق حرب العصابات ، فالشعب يثور على أرضه • ولا احتلال للارض الا فوق الاجساد • وبالتالى سقط تصور اعطاء أرض بلا شعب الى شعب بلا أرض • وثبت صحة تصور « أعطاء من لا يملك لمن لا يستحق » •

٣ — وأمام هذه الحركة الشعبية انهار الجند المدجج بالسلاح الذى تعود على مقاتلة جند مثلة وبما له من عدة وعتاد • لم يتصور مرة أنه سيقاتل طفلا أو امرأة أو شيخا بلا سلاح ، وبالتالى يتحول الى شرطة أمن ، وظيفته المحافظة على نظام وليس الدفاع عن أرض وسلامة دولة • أصبحت الترسانة العسكرية للعدو بلا هدف أو غاية ، دبابة فى مواجهة طفل ، وطائرة فى مواجهة قرية ، ومدفع مصوب الى صدر امرأة، والحجارة فى وجه الجندى وفوق رأسه • امتهان لكرامة المقاتل الشريف . ودعوة الى النزال بين ندين غير متكافئين ، عنف الاحتلال يقابله لا عنف المقاومة ، حديد تقابلة حجارة • فانهار السلاح أمام نزع السلاح • وبهت العدو الذى تعود على السيطرة على السماء بسلاحه الجوى ونقل المعركة الى أرض غيره بأن أتته السيطرة على الاراضى المحتلة ومن داخل حدود الغزو والاحتلال • ثم يأتى دور الحوار • الطفل والمرأة والشيخ يحاورون الجند ، ويتوجهون الى معتقداتهم العنصرية بعد أن تم « غسيل المخ » على مدى أربعة عقود • وتهتز قناعات جنود الاحتلال وهم يواجهون خصما من نوع جديد ، جندى فى مواجهة مواطن ، سلاح فى مواجهة برهان • فيتزعزع منطق الصهيونية والاحتلال، وتبدو العنصرية والعدوان واضحين للعيان • وتنهار المعنويات بعد أن بطل السلاح • فتحت الانتفاضة بذلك طريق نضال الشعوب ليس فقط أمام الاحتلال الخارجى بل أمام القهر الداخلى • وهاهو شعب

بورما الآن يسير فى نفس الطريق الذى خطته الانتفاضة ، مواطن يقنع جنديا بأن يكون طليعة التحرر الشعبى لا أداة لقمع السلطة .

٤ — ليست الثورة ضد الاحتلال نظرية ثورية وطنية أو قومية أو اسلامية أو ماركسية بل هى فعل ثورى تتصهر فيه الايديولوجيات النظرية ، وتتوحد فى العمل الثورى الموحد . فالانتفاضة وحدة وطنية تتحقق بالفعل ، تعطى الاولوية للعمل على النظر ، وللفعل على القول ، وللموقف على الشعار . حدث ذلك تلقائيا وبدافع وطنى طبيعى دون نظرية مسبقة فى الوحدة الوطنية أو الجبهة الوطنية أو الائتلاف الوطنى. وكان ذلك أيضا هو الفعل الثورى لابى جهاد . شهيد الانتفاضة الذى رفض أن يشتت جهده فى معارك نظرية ، وآثر أن يكون الشعب كله صفا واحدا فى مواجهة الاحتلال .

٥ — استطاعت الانتفاضة أن تبنى المؤسسات الثورية بفضل القيادة الموحدة للانتفاضة سواء فى تنسيق العمل الثورى وتنظيم الاضرابات أو فى تكوين نواة الاقتصاد الثورى المستقل عن النشاط الاقتصادى لنظام الاحتلال . فأصبحت الانتفاضة ليس مجرد حركة شعبية بل بناء فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والتاريخ . واستمرت الإنتفاضة وقاربت على عشرة أشهر ومازالت مستمرة ، بالرغم من مراهنة الاحتلال على سرعة قمعها وتصفيتها وطرد قادتها . ومازالت الانتفاضة قادرة على ابداع أساليب ثورية جديدة كان أحدها فك الارتباط القانونى والادارى مع المملكة الاردنية حتى تعود القضية الى أصحابها ، وينتهى الخيار الاردنى التى راهن عليه حزب العمل . وينقشع اللبس عن ازدواجية التمثيل وازدواجية الهوية ، ويبدأ الخيار

الفلسطينى والتمثيل الواحد والهوية الفلسطينية ، شعبا وقيادة ، دولة وعاصمة .

٦ — وكانت احدى ثمرات الانتفاضة بداية التفكير الجدى فى الوقت المناسب للاعلان عن الدولة الفلسطينية المستقلة . فقد استطاعت الانتفاضة أن تبنى مؤسسات الدولة من القاعدة الى القمة : الوحدات المنتجة ، التنظيمات الجماهيرية ، أجهزة الاعلام ، اللجان الشعبية ، القيادة الموحدة ... الخ . لطالما كثرت النداءات من قبل لاقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ، ولم تجد الا آذانا صماء . ولكن بعد الانتفاضة ظهر بناء الدولة ومؤسساتها الشعبية والدستورية ، ولم ينقصها الا الاعلان والاعتراف الدولى . فالمضمون يسبق الشكل ويفرضه ، والشكل وحده لايعطى مضمونا . وأخذت قرارات القمة خاصته مقررات مؤتمر فاس مضمونها بعد أن كانت مجرد قرارات مثل سابقتها . واستطاعت المنظمة أن تطور ميثاقها من دولة فلسطينية ديمقراطية علمانية يعيش على أرضها كل من يشاء بصرف النظر عن دينه وجنسه ولغته الى دولة فلسطينية فى الاراضى المحتلة عاصمتها القدس وطبقا لقرار التقسيم فى الامم المتحدة عام ١٩٤٨ والذى أقر شرعيا ودوليا بانشاء دولة فلسطين المستقلة على أرضها .

٧ — لقد هزت الانتفاضة المجتمع الاسرائيلى ، وأخذ النظام العنصرى على غرة . فقد استعد العدو بالسلاح ، وانتظر المعركة على أرض الغير . ولكن الانتفاضة هذه المرة أتته من الداخل كحركة شعبية غير مسلحة فحاصرت النظام ، ووضعته فى مأزق تاريخى أمام شعبه المهاجر القادم من وراء البحار تحقيقا لاسطورة الميعاد التى تحطمت

على أرض الواقع • وبالتالى قويت الحركات الداعية الى السلام وازدادت مراجعات الصهيونية لنفسها ، وعلت الاضوات المنادية بحقوق شعب فلسطين من داخل الاراضى المحتلة قبل ١٩٤٨ ، وزادت الجماعات الرافضة للنظام العنصرى للصهيونية ، ودبت فى الجليل الاعلى روح المقاومة والنضال ، وعادت الى أذهانهم ذكريات فلسطين العربية قبل قيام دولة الاحتلال •

٨ ـ أثرت الانتفاضة على الساحة العربية • فوحدت العرب بعد أن فرقتهم الحروب الاقليمية والنزاعات الطائفية ومعارك الحدود والتخوين المتبادل بين الانظمة عبر أجهزة الاعلام • لم يستطع أى نظام عربى وأد الجنين الجديد بل اجتمع العرب على حمايته • فقد يكون هو المخلص لهم من أحزانهم وكروبهم • توقفت حرب الخليج ، هذا النزيف الداخلى فى جسد الامة ، وقاربت الحرب الاهلية اللبنانية على النهاية ، وبدأت التجمعات الاقليمية العربية فى الظهور فى المغرب العربى بعد ظهورها فى المشرق العربى ولجان التنسيق فى قلب العالم العربى بين مصر والاردن والسودان والمغرب • وتعود مصر الآن تدريجيا الى مكانها الطبيعى فى قلب الامة العربية كى تنهى أسوء عقدين فى تاريخها الحديث • وتمسكت الشعوب العربية بأمل جديد بعد أن اضناها اليأس، وعمها العجز •

٩ ـ وأصبح الرأى العام العالمى أكثر قبولا لحقوق شعب فلسطين أكثر من أى وقت مضى بعد أن شاهد العالم كله تكسير أصابع الفلسطينيين وأذراعهم ، وتشييع جماهير شعب فلسطين شهداءهم ورفع أعلام فلسطين على أعمدة النور وأسطح المنازل ، وحوار النساء

مع جنود الاحتلال ، ورمى الاطفال بالحجارة ، وخروج الشيوخ حفاة من المخيمات مع الابناء وكأنهم يبعثون من جديد ، ودفاع الامهات عن الاطفال ضد ضرب جنود الاحتلال • والغرب لا يعرف الا لغة الواقع ، ولا يسمع الا لاقوال المنتصر • وبالرغم من تصور أجهزة الاعـلام العربية خشية من تحركات الجماهير وأن تعم الانتفاضة العواصـم العربية وأن تتحول المنطقة كلها الى انتفاضات متكررة فلقد حاصرت الانتفاضة أجهزة الاعلام العربية واضطرتها حياء الى أن تلحق ، ولو الى حد قليل ، بأجهزة الاعلام الغربية تنقل عنها أخبار الانتفاضة •

وكما كانت معركة الكرامـة اثـر هزيمة ١٩٦٧ ميـلادا للمقاومة الفلسطينية فان الانتفاضـة بعد عشرين عاما ميـلاد جـديد للدولة الفلسطينية •.

الدين والثورة فى الثورة العرابية

ان مهمة هذا البحث دحض الفرية التى تجعل من عرابى درويشا جاهلا بالدين خارجا على الشريعة ، وأن دروشته سبب هزيمتـــه أمام جيوش الاحتلال •

أولا : مقـــدمة :

الدين لدى الشعوب التاريخية فى مصر والهند والصين وفارس أو فيما يسمى حاليـا بدول القارات الثلاث ، أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية هو مصدر قيمها ، ومنبع فكرها ، وأصل تراثها ، وموجـــه سلوكها ، تلجأ اليـــه ساعة الشدة ، وتتجه نحوه فى اللحظات الحاسمة من تاريخها • وهو أيضـــا عامل فى تقدمها أو تأخرها طبقـــا للوظيفة التى يؤديها فيها ، وطبقا لاستعمال مختلف الطبقات الاجتماعيـــة له • تثور به الجماهير ، وتتحكم به الســـلطة ، تواجـــه به الشـــعوب فى مقاومتها المحتل الاجنبى ، ويستغله المحتل الاجنبى من خـــلال السلطة الدينية طلبا لطاعة الجماهير وانصياع الامة •

لقد دخل شـــعب مصر فى الاســـلام لانه رأى فيه تحريرا له من تسلط الرومان واحتلال الاجنبى • ثم ارتبط لاسلام بتاريخها وحياتها وقوت يومها وعادتها وتقاليدها حتى استعمله السلطان والخليفة والوالى

---

* كتاب الموقف العربى ، الثورة العرابية ، مائة عام ، ١٨٨١ — ١٩٨١ ١٤٠١هـ — ١٩٨١م •

تأييدا لسلطته وطلبا لطاعته ، يلقى عليه علماء الازهر الرداء فى أغلب الاحيان ونادرا ما يخلعونه عنه • وقد قام غالبية علماء الامة بالدور الاول ، الدين تأييدا للسلطة وتثبتا للوضع القائم ، وقامت الاقلية بالدور الثانى ، الدين فى مواجهة السلطة وثورة على الوضع القائم •

ومنذ بداية النهضة الحديثة فى مصر منذ محمد على كان الدين مصدر التيارات الثلاثة الرئيسية فيها : الاول ، الاصلاح الدينى الذى بدأه الافغانى حيث كان الدين ثورة ضد الاستعمار الخارجى والتخلف الداخلى فى مظاهره المختلفة من طغيان وفقر وفتور • والثانى ، التيار العلمانى العلمى الذى بدأه شميل لولا أنه ظن العلم والعقل والحرية والدستور والمدنية والعمران والتقدم ضد الدين وليس لب الدين • والثالث ، التيار الليبرالى لتأسيس الدولة الحديثة والذى بدأه الطهطاوى حيث ظهر الدين دعامة الدولة الوطنية الحديثة بما فيها من زراعة وصناعة ، وبما تقوم عليه من حرية ودستور وتعليم ونهضة عمرانية شاملة •

وبعد أن تجمعت الدول الاوربية كلها لضرب مصر فى شخص محمد على حتى لا يقوم فى هذه المنطقة أى كيان سياسى واقتصادى مستقل عن الشرق والغرب على السواء وبزعامة مصر وحتى لاينهض الشرق من جديد فى مواجهة الغرب بعد أن تحدث للغرب فى تاريخه الحديث السيطرة على مقدرات العالم وثرواته ومركز قياداته فى الشرق، وبعد أن عجز السلطان فى تركيا عن الدفاع عن الامة الاسلامية فى مواجهة الصليبية الا وهو احتلال الشرق من جديد والممثل فى مصر — بدأت مغامرات الغرب على مصر منذ افتتاح قناة السويس وارهاق مصر

بالديون فى عصر اسماعيل ثم فرض الرقابة المـالية ثم تدخل الاجانب وقناصل الدول ثم خلع اسماعيل وتنصيب ابنه توفيق تمهيدا لاحتلال مصر كلها سواء وفت ديونها أم لم توفها ، سواء حمت الاجانب أم لم تحمهم ، سواء أوقفت اصلاحات الطوابى فى الاسكندرية أم استمرت فيها . فالاسطول الاجنبى قائم بمهمته فى ضرب الاسكندرية واحتلال مصر مقرر فى كلتا الحالتين ، وسواء حشد ناصر جيش مصر دفاعا عن سوريا أو لم يحشد فهو فى كلتا الحالتين فريسة للعدوان فى ١٩٦٧ ، وسواء عكر الحمل على الذئب الماء أم لم يعكر فالذئب آكله لا محالة .

وفى هذه الفترة بعد انكسار مصر بعهد محمد على وبداية وقوع مصر تحت سيطرة الدول الكبرى فى عصر اسماعيل ثم فى عهد ابنـــه توفيق بدأت مقـــدمات الثورة العرابية . وظهر الـــدين فى وظيفتيه الاساسيتين : دين الثورة ودين الخيانة ، دين الانبياء ودين الكهنة ، دين الشعوب ودين الحكام ، دين الوطنية ودين الاستعمار ، دين الفقراء ودين الاغنياء ، دين المقاومة ودين الاستسلام ، دين التحرر ودين الاستعباد . كان دين الثورة هو الدين فهمه عرابى وصحبه ، وزعمـــاء الثورة العرابية الســـبعة وبعض علماء الازهر ، وكان دين الخيانة هو دين السلطان والخديوى والانجليز وبعض مشايخ الازهر .

ولما أراد دين الخيانة تشويه دين الثورة اتهم عرابى وصحبه بالدروشة ، وانهم قاموا ليلة معركة التل الكبير بالذكر حتى الصباح ، فأصبح الجند متعبين ، فلم يســـتطيعوا مقاومة الانجليز أهل اليقظة والدراية ، وأصـــحاب العـــلم والمعرفة دون ذكر لخيانة على يوسف الشهير بخنفس واعطائه خطة جيش مصر الوطنى بخط يـــد عرابى الى

جيوش الاحتلال • واذا صح أن عرابى قد استدعى عددا من رجال الطرق الصوفية أو أنهم هم الذين جاءوا اليه فأرسلهم الى الفرق يستحثونها ويستنهضونها على القتال حماسة لله وللدين والوطن أو أنه قرأ الادعية مع بعض رجال الدين فى خيمته فان ذلك لا يعنى أنه ترك الجهاد واعتمد على النصر من عند الله دون أن يعد العدة لذلك ويأخذ بالاسباب • فالدين يعطى الجند روحهم ويشحذ هممهم ويقوى روحهم المعنوية بالاغانى والاناشيد الوطنية والموسيقى العسكرية • وقد أقيمت للحملة الانجليزية أيضا الصلوات فى كنائس انجلترا وباركها كبير الاساقفة مع عدد من رجال الدين ولم يتهمها أحد بالدروشة أو الاتكال على الله • كما أتهم أنه خلط بين الدين والسياسة أو أنه عصى السلطان مولاه كما يعصى العبد سيده كما أفتى السلطان وقرر الخديوى بناء على طلب الانجليز •

ان مهمة هذا البحث هى دحض هذه الفرية التى تجعل من عرابى درويشا جاهلا بالدين عاصيا للخليفة خارجا على الشريعة ، وأن دروشته سبب هزيمته أمام جيوش الاحتلال ، وبيان أن الدين كان منبع الثورة ومنطلقها وأن الثورة غاية الدين وهدفه النهائى •

ثانيا : الدين بداية الثورة ومنطلقها :

كانت ثورة عرابى تنبع من الدين وتحكمها الشريعة • وكان الدين بداية الثورة ومنطلقها ، ومفجر شرارتها الاولى • ويظهر الدين كبذرة للثورة فى ثقافة عرابى وتربيته الدينية واستشهاده بالقرآن والحديث أو بالتاريخ الاسلامى وبمواطن البطولة والفداء فيه • كما يظهر فى التزامه بالولاء للخلافة الاسلامية ولوحدة الامة الاسلامية بالرغم من

عيوبها ودفاعه عن الجامعة الاسلامية • كما يظهر أخيرا فى دور مشايخ الازهر فى الثورة سواء من ثار على الطغيان والاحتلال مع عرابى باسم الدين أو من اعتدل وأخذ موقفا وسطا ثم تراجع باسم الاصلاح أو من خان واستسلم وأفتى بالعصيان باسم الانجليز •

١ ـ الثقافة والتربية الدينية :

يمتد نسب عرابى الى الحسين سيد الشهداء من خلال السيد صالح البلاسى (نسبة الى بلاس من بطائح العراق) حتى الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق ابن الامام محمد الباقر ابن الامام على الزاهر زين العابدين ابن الامام الحسين سبط رسول الله وابن الامام على كما يذكر عرابى فى مذكراته(١) • وكان عرابى يفخر بذلك قائلا ليعلم أنى عرابى شريف الارومة ، مصرى الوطن والنشأة والتربية، وهناك نشأتى ونسبى الشريف متصل بسيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم • وبالرغم من أنه لا انساب فى الاسلام الا أن النسب يعطى احساسا للثائر بأصل ثورته خاصة الذى ينتسب لآل البيت وما فيه من ذكرى للشهداء ونماذج البطولة والفداء التى جسدها الامام الحسين سيد الشهداء •

وكان أبوه شيخ قرية رزنة أو أحد مشايخها ، ويذكر عرابى أيضا

---

(١) مذكرات عرابى : كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية احمد عرابى فى عامى ١٢٩٨ — ١٢٩٩ الهجريتين وفى ١٨٨١ — ١٨٨٢ الميلاديتين بقلم زعيم الثورة العرابية احمد عرابى ، الجزء الاول ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٧ — ٨ ، ص ١٠ •

فى مذكراته أنه كان شيخا جليلا رئيسا لعشيرته ، عالما نقيا تقيا موصوفا بالعفة والامانة • رتب درسا فى الفقه فى المسجد للعامة بعد عصر كل يوم وبعد صلاة العشاء ليتفقه الناس فى الدين ولتصح عبادتهم •

تعلم عرابى القرآن الشريف وبعض العلوم الدينية فى المكتب الذى انشأه والده ثم فى الجامع الازهر ثم العلوم العسكرية فيما بعـد • أختاره سعيد باشا ياورا له فى زيارته الى المدينة المنورة • ولما انتدب الى الحجاز لاشرافه على قلاع البحر الاحمر أنشأ مكتبا لتعليم الاطفال القراءة والكتابة والقرآن الكريم •

وكان متصفا بالايمان الشديد بالله وبتأييده للمؤمنين الصابرين • فبعد القبض على عرابى وزميليه اثر العريضة الموجهة الى رياض بمطالب الضباط الوطنيين انزعج على فهمى على نفسه وأولاده الصـغار وكاد أن يرمى نفسه من النيل فشجعه عرابى متمثلا قول الشافعى :

ولـرب نازلة يضيق بها الفتى

ذرعـــا وعند الله منهـا المخرج

ضـــاقت فلمـا استحكمت حلقـاتها

فـرجت وكـان يظنـها لا تفـرج

كما تمثـل بأبيـات أخرى للسيدة زينب • وما هى الا لحظـة حتى جاء العساكر والضباط من أنصار الحركة الوطنية وأفرجوا عنه •

وكان شديد التقـوى والايمان • فبعد تأليف وزارة شريف أثر مظاهرة عابدين وطلب الوزارة من عرابى السفر الى رأس الوادى سار عرابى بطريق الحسينية حتى بلغ مسجد الحسين ووقف الآلاى مقابلا

للمسجد تعظيما واجلالا لسبط الرسول • ودخل عرابى المقام مع الضباط وأمر بوضع بيرق الآلاى على الضريح الشريف • كما أنه فى خضم المعركة مع الانجليز كان يبغى تأمين الحجاج الى الحجاز عبر السويس والحفاظ على المحمل الشريف وكسوة الكعبة •

ونظرا لثقافته الدينية فقد كان عرابى يفسر الحوادث التى يمر بها تفسيرا دينيا ويحكم عليها بمنظور العقيدة والشريعة • فكان يرى أن كل شر حل بمن آذوه من الشراكسة مثل خسرو باشا وعثمان رفقى ، انتقام من الله ، ولكنه كان يرفض القتل غيلة والقصاص دون حكم شرعى • ولقد نهر عرابى وهو ناظر للجهادية عبد الله فكرى عندما سأل عن قتل الخديوى قائلا له أننا لا نقتل أحدا بغير حكم شرعى • وفى رسالة بلغت الى جلادستون تصويرا لآراء عرابى على أنها ليست تكرارا للعبادات المتداولة فى أوربا الحديثة ولكنها تقوم على أساس معرفة بالتاريخ والتقاليد الحرة للفكر العربى ، تلك التقاليد الموروثة عن الاسلام •

وكان فى حياته الخاصة حتى فى أحلك لحظاته فى سجنه وفى منفاه وبعد عودته متمسكا بايمانه وبصلاته • لم يجدوا فى السجن معه الا تميمة لحفظ أبنائه من الصرع • وكانت مسبحته لا تفارقه • يدعو الله لزملائه أن يلهمهم الشجاعة • يرفع يديه لله شاكرا ومصليا له • وكان أول ما فعله عرابى بعد سماع الحكم عليه بالنفى وعودته الى سجنه أن صله لله شاكرا وأطال سجوده • ولما علم أن مكان نفيه جزيرة سرنديب فرح واستبشر • وقد حدث عرابى بلنت عما يذكره التاريخ القديم من قصة هبوط آدم وكيف أنه حل بهذه الجزيرة فصارت تعرف

جنة آدم • كما ذهبت حواء الى الحجاز فصارت تعرف بجنة حواء • وكان يقول « انى أخرج من مصر بستان الدنيا لاذهب الى سرنديب جنة آدم » • ولما توفى عبد العال حلمى رأى عرابى من كراماته اجتماع سراب الطير فوق نعشه تسير بسير الجنازة حتى ووری التراب !

وفى سرنديب ، عاش بين المسلمين العرب أو الهنود وكان محط أنظارهم • يزور أضرحتهم مثل ضريح السيد شهاب الدين ، ويؤم مساجدهم ، وهم يحتفون به باستيراد الطرابيش ، وبطلق مدفع بجوار المسجد عندما يصلى فيه يوم الجمعة من كل أسبوع • يفتتح مدارسهم كما افتتح مدرسة ميردانة الاسلامية التى بناها المسلمون على نفقتهم •

وبعد عودته من المنفى ، شكر الله ، وسارت المركب « باسم الله مجريها ومرساها » وقبل أرض الكنانة ، كنانة الله العزيز الحكيم ، وصلى والهج بأنواع الدعاء الى الله سبحانه وشكر له عودته سالما بعد مرور تسعة عشر عاما مكرها ذاق فيهما الفراق وألم الغربة • وكان يصلى الجمعة فى جامع الرماح بالناصرية أو بالسيدة زينب أو بالحسين وهو بلحيته البيضاء يشع من وجهه علامات الايمان والورع والمسبحة لا تفارقه • وكان يرى مصادرة أملاكه وأمواله لا تتفق مع العدالة ولا مع حكم الشرع ويكرر حديث « مال المسلم على المسلم حرام » • كان يتلو القرآن فى أواخر أيامه ، ويحرص على أن يؤدى أبناؤه الصلوات فى أوقاتها • وكان يؤمهم ، ويحرم على الذكور منهم التحلى بالذهب ، ويحفظهم القرآن ، ويحبذ لهم الاحتشام والجد • غضب لان أحد أبنائه حلق لحيته ولم يرض عنه حتى أطلقها • وقد تبرأ عليه

أحد أبنائه « نهج البلاغة » وهو غلام • وقد صـــدر مذكراته كمـــا يفعل أئمة الاعـــلام ومشايخ الاسلام بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله قائلا « الحمد لله الناشر فى الخلق فضله ، الباسـط فيهم بالجود يده ، نحمده فى جميع أموره ، ونستعين به على رعـــاية حقوقه ونشهد أن لا اله غيره ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بأمره صـــادعا ، وبذكره ناطقا ، فأدى أمينا ، ومضى رشيدا ، وخلف فينـــا راية الحق ، من تقدمها مرق ، ومن تخلف عنها زهق ، من لزمها لحق • أحمده تعالى الذى جعل الحمد ثمنا لنعمائه ، ومعاذا من بلائه ، وسبيلا الى جنانه ، وسببا لزيادة احسانه ، والصلاة على رسوله نبى الرحمة ، وسراج الامة ، وامام الائمة ، المنتخب من طينة الكرم ، وسلالة المجـــد الاقدم ، وعلى آل بيتـــه مصابيح الظلم ، وعصم الامم ، ومنائر الدين الواضحة ، مثاقيل الفضل الراجحة ، صلاة تكون داء لفضلهم ، ومكافأة لعملهم ، وجزاء لطيب فرعهم وأصلهم ما أنار فجر وهدى نجم » •

٢ ــ الخلافة الاسلامية أو الجامعة الاسلامية :

وصفت الدول الاوربية الدول العثمانية بأنها الرجل المريض الذى لا يأس من شفائه حتى يموت وتقطع أوصاله فتستولى كل دولة أوربية على جزء من الغنيمة • وقد تم ذلك والرجل المريض مازال حيـــا يرزق • فاقتطعت تونس والجزائر والمغرب والهند وآن الاوان لانقطاع مصر والشام والحجاز • وكانت آسيا الشرقية قد تم اقتطاعها من قبل على يد هولندا والبرتغـــال منذ سقوط غرناطة ١٤٩٢ • ولقـــد تبعنا نحن هذا الوصف للدولة العثمانية ولم نحاول اعـــادة كتابة تاريخهـــا من منظور اسلامى ووطنى • فقد كانت الدولة العثمانية بالرغم من كل عيوبها

رمزا للوحدة الاسلامية ، تقف فى مواجهة مطامع الدول الاوربية رمزا للتحدى واثباتا للهوية الاسلايمة ضد التغريب والتميع فى الآخـر • تتعلق بها قلوب المسلمين فى مصر والهند ، وتحافظ على فلسطين ضـد بدايات الغزو الصهيونى •

وقد حاول عرابى مالم ننتبه اليه حتى الان أن يقوم بثورة وطنية فى مصر وفى نفس الوقت المحافظة على الوحدة الاسلامية سـواء سميت الخلافة الاسلامية أو الجامعة الاسلامية أو الجامعة الشرقية وهى الاسماء الجديدة التى ورثتها مصر تحت تعاليم السيد جمـال الدين الافغانى •

رفض عرابى كل من خرجوا على « الدولة العلية » مثل خسرو باشا وحتى ابراهيم باشا فى تلك االفتنة الدهماء التى دكدكت سياج الاسلام وكسرت شوكة الدولة العلية الحامية لجميع الموحدين • صحيح أن عرابى يذكر نفسه عربيا وأنه من أبناء العرب والامـة العـربية ولكنه يصف ذلك كواقع ونشأة وليس كمبـدأ وعقيدة • يرى عرابى أن الدولة العلية خير ملاذ للدفاع عن المسلمين ضد أطماع الدول الاوربية • لقد أوجس خيفة على مصائر البلاد ومطامع انجلترا لالتهام وادى النيل كما فعلت فرنسا بتونس بدعوى التوازن الذى تدعيه مع أوربا • فعرض مخـاوفه على أمير المؤمنين ليحيط علما بما كان جاريا فى مصر • وبعد مذكرة فرنسا وانجلترا بحجة حماية السلطان والخديوى ضد الحركة الوطنية رأى عرابى الاتجاه الى السلطان والتمسك بمبدأ الجامعـة الاسلامية حماية للامة • ويقول بلنت أن الناس كلهم قد اتجهوا الى السلطان كمنقذ لهم، وأصبحوا ينظرون الى عرابى على أنه عضد السلطان

فى مصر والحصن الحصين الذى تمتحن فيه الامال بعد أن يأسوا كل اليأس من توفيق • ولم يكن هذا الاعتماد مجرد خطة سياسية بل كان عقيدة للحركة الوطنية فى مصر منذ عرابى حتى مصطفى كامل وحزب مصر الفتاة • يقول بلنت أن عرابى كان يعتمد على السلطان • فقد وجد المصريون أنفسهم لاول مرة مترابطين • وقد ألتى الشيخ محمد عبده ومن معه فى زمرة الحزب الوطنى االذى سبقهم بخطوات • وشعر الناس جميعا حتى الشراكسة بالاشمئزاز من التدخل الاجنبى • وأن أشـــد الناس نفوذا مثل الشيخ الهجرسى كانوا يرون عرابى على حق فى اعتماده على السلطان • ولهذا كسب عرابى كسبا عظيما • ودار الكلام دائما عن الجامعة الاسلامية • وكان عرابى يرى أن الدفاع عن المصريين هـــو فى نفســـه دفاع عن السلطان ضـــد أطماع الدول الاجنبية • وبالتالى فان وحدة المسلمين خير ضمان لوقوفهم أمام عـــدوى المشترك • لذلك كان عرابى يظهر الطاعة والولاء باستمرار لامير المؤمنين حامى حمى الديار • وكانت بينهما المراسلات من خلال المشايخ ذوى الحظوة عنـــد السلطان • وكان دائم التكرار على أنه لم يشق عصا الطاعة كما يدعى الاوربيون بل طالب بالاصلاح باسم الذات الشاهانية حتى يعلم الجميع أن للبلاد سلطانا شرعيا هو صـــاحب السيادة العظمى على البـــلاد المصرية وأن الخديوى هو نائبه فقط بعد أن كانوا لا يعرفون لهم حاكما شرعيا غير الخديوى • وكان جنود عرابى يهتفون فى رأس الوادى يعيش السلطان • فقـــد كان عرابى يعتبره رئيسا دينيا شرعيـــا له وللامـــة المصرية • وكان السلطان يعتبره هو المدافع عن مصر فى مواجهة الدول المسيحية • وكان عرابى فى دفاعه عن البلاد منفذا لاوامر الخليفة أمام دينـــه • ولقـــد تحدث طلبـــه بك أمام الوفـــد العثمانى باسم عرابى

مؤكدا على هذا المعنى وبأنهم « معترفون بسيادة مولانا السلطان الاعظم خاضعون لاميرنا الخديوى • وكما أن الدولة العليــة ترى مصر قلب الدولة وكذلك نرى الدولة محل سطوتنا ومركز آمالنا ودار الخــلافة الاسلامية • واننا نرجو أن تجتمع كلمة المسلمين فى ســائر الاقطــار وتتحد قلوب المؤمنين لتكون يدا واحدة فى وقاية دولتنا من جميع النوازل أعاذها الله منها • ولاشك فى أن أخواننا المسلمين يجدون فى بث الاتحاد بينهــم وجمع الكلمة عــلى تأييد ملكنا وسلطاننا المعظم خــلد الله سلطانه » (٢) •

ولقــد حاول اعداء الحركة الوطنية الايقاع بين السلطان وعرابى فأرسال ظلعت باشا الشركسى الى القسطنطينية ليقول أن مصر فى حالة ثورة ، وأن هناك اقتراحا لانشاء امبراطــورية عربية ، وان أحمــد عرابى والحكومة البريطانية قد اتفقــا بينهما على هذا الامر • فأتصل عرابى بالعالم الورع الشيخ محمد ظافر كاتم سر السلطان ومشيره الدينى واخبره بحقيقة الامر • فاقتنع السلطان وطالبه بالدفاع عن البلاد بــكل ثمن ضد الاحتلال والا كان نصيب مصر نصيب تونس ، وأنه لا يعنيه من يكون حاكم مصر اسماعيل أو حليم أو توفيق • وكتب محمد ظــافر « حيث أن حفظ الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منا فيجب على كل مصرى السعى بمزيد من الاهتمام وراء تثبت سلطتنا لمنع خــروج مصر ووقوعها فى قبضة الاجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس فى أيدى الفرنساويين ، فنحن نضع ثقتنا فيكم يا ولدى لاستعمال قوتكــم وعمل كل ما فى الامكان لمنع حدوث شىء مثل ذلك • فكن على حذر دائما ،

---

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ •

ولا تغض النظر طرفة عين عن هذه النقطة المهمة ، ولا تتركوا أيـة طريقة أو وسيلة من وسائل الاحتياطات والطـرق المتميزة فى عصرنا هذا ، واضعا نصب عينيكم دائما الغرض الذى ترمى اليه الا وهـو الدفاع عن ملتكم وبلادكم » (٣) •

ومع ذلك ، حافظ عرابى على حرية الحركة على أرض مصر وعلى استقلال البلاد فى اطار الوحدة الاسلامية • لقـد أسـاء الاتراك حكم مصر واضطهدوا أنصار الحركة الدستورية والمنادين بالحرية فى بلادهم • لذلك لايجب على القسطنطينية أن تتدخل فى شئون مصر • هناك فرق بين الحكومة العثمانية وبين السـلطة الدينية للسـلطان • فهو كأمير للمؤمنين تجب لـه الطاعة والاجلال اذا عدل • يقول عرابى :

« نحن جميعا أبنـاء السلطان ونعيش معا كما تعيش أسرة فى بيت • ولكن كما هو الحال فى الاسرة لكل منا نحن أهالى الاقطـار الاسلامية حجرة مستقلة يترك لنـا أمـر تنظيمها حسب ارادتنا حتى لايسمح للسلطان نفسه بالتدخل فى ذلك • ولقد اكتسبت مصر هـذا الوضع بمقتضى ما منحته الفرمانات ، وسنحرص على أن تحتفظ به • ونحن اذا طالبنا بأكثر من ذلك فانا نركب متن الشطط وربمـا فقدنا حريتنا فقدانا تاما » (٤) •

---

(٣) محمود الخفيف : احمـد عرابى ، الزعيم المفترى عليه ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة سنة ١٩٨١ ص ٢٢٨ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٤ .

٣ ـ دين الثـورة والمقـاومة :

كان الدين عند عرابى ثورة ضـد الظلم ومقاومة للاجنبى وجهـادا ضد اعداء الامة ، اعداء الحرية والاستقلال فى الداخل والخارج . وكان يمثل ذلك الفهم الثورى للدين مع عرابى خطيب الثورة السيد عبد الله النديم ، والشيخ عليش ، والشيخ حسن العدوى وغيرهم من علمـاء الازهر الشرفاء . وكانوا كلهم تحت أثر أفكار السيد جمال الدين الافغانى .

ففى كتاب عرابى لجلادستون يقول « نحن الجند الان فى وضع كالذى كان فيه أولئك العرب الذين أجابوا الخليفة عمر حين سألهم فى شيخوخته عما اذا كانوا راضين عن حكمه ، وعما اذا كـان فيـه قد استقام على طريق العدالة . قالوا يا ابن الخطاب : أنك استقمت على الطريق حقـا ولهذا احببناك ولكنك لسـت تعلم اننا كنا قريبين منك ، وكنا على أهبة لو أنك سلكت سبيلا معوجـة لنردك الى الطـريق السوى بسيوفنا » . كان الدين لديه هو المعارضة عن طريق الامـر بالمعروف والنهى عن المنـكر أسوة بالصحابة . لقـد قامت الحكومات الاسلامية على المبادىء وليس على الاشخاص ك، فيقول الخليفة الاول :

« يأيها الناس ، أنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى » . ويقول لهم الخليفة الثانى « من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه » . فيرد عليه أعرابى « لو رأينا فيـك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » ، فيقول الرسول « ان النـاس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » لذلك كان الدين عند عرابى ثورة على الظلم . وعلى هذا الاساس فهم

ثورة المهــدى فى السودان عندما سئل عنــه وهو فى المنفى هل هــو المنتظر عند المسلمين فأجاب بأن كل داع الى الخير والصــلاح هــو مهدى • لقد خشت انجلترا من ثورة المهدى على ستين مليــونا من المسلمين فى الهند أن تجمع شتاتهم • ويرى عرابى أن مجــرد وجـــود قائد انجليزى على جيش يكون من صالح المهدى فانه يحكــم بكفـــر المصريين الذين يقاتلون المسلمين تحت قيــادة مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هــذه القيــادة • واذا استولى على اســلحة هذا الجيش وذخيرته فانه يصبح قويا يخشى جانبه • لقد اقترحت انجلترا تعيين عرابى أميرا على السودان تابعا للتاج المصرى للسيطرة على ثورة المهدى ولكن هلكت حملة هس مما عطل الاقتراح • كما اقترحت أيضا تعيين عرابى سفيرا مؤقتا الى المهدى لرفع الحصار عن غوردون على أن يعزل توفيق ويعين أمير غيره يستطيع الاتفاق مع المهدى ، وأن النية متجهــة الى اعادة اسماعيل بشرط أن يكون عرابى رئيس وزرائه باعتباره زعيم مصر المختار • ولكن عرابى رفض العرض ، وآثر الاستمرار فى المنفى ، ورفض العودة الى الحكم تحت رياسة اسماعيل الذى لا تتفق أراؤه مع آراء الحركة الوطنية • ثم وئد الاقتراح بعــد مقتل غــوردن بالخرطوم •

وقد سار بعض مشايخ الازهر فى طريق الثورة • وكان فى مقدمتهم الشيخ عليش والشيخ حسن العدوى • فقد أفتى الشيخ عليش بأنـــه لا يصح أن يكون توفيق حاكما للمسلمين بعد أن باع مصر للاجـــانب باتباع ما يشير به عليــه القنصلان • ولذلك وجب عزله • وان مصر تؤيد عرابى • كما أفتى الشيخ حسن العدوى بشرعية عصيان الخديوى • فقال أنه بأمر الله ورسوله لن تطاع أوامر الخديوى • وان الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة • وقد أيده الشيخ عليش أيضا • ويقول

عرابى أنه فى الاجتماع المشهود الذى تم فى وزارة الداخليـــة أثر توجيه الانذار الانجليزى والذى حضره ممثلو الامة جميعـــا أنه تلتى فى هذا الاجتماع فتوى شرعية من المشايخ حسن العدوى ومحمد عليش ومحمد أبو العلا الخلفاوى مؤداها أن الخديوى بانحيازه الى العدو المحارب الى بلاده يعد مارقا عن الدين وبعدم الاعتراف بعزل الخديوى لعرابى • وهذه الفتوى بمثابة خلع توفيق من منصبه • لذلك أصدر عرابى بعدها قـــرارا حربيا بعـــدم طاعة الخديوى أو تنفيذ أوامره « حيث أن الخــــديوى خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون الحنيف » • وبالتالى تم اعلان الحرب المقدسة ضد الانجليز بنـــاء على فتوى مشايخ الثورة • صمم عرابى على المقاومة وفقا لقانون الله وقانون الانسان اذ يقول « أنـــه عقد هو نفسه العزم فى مجلس موقر على مقاومتها ، وأن قـــانون الانسان وأن كلمة الله لينهيان عن هذه الاعمـــال الهادمة للشرف ، ولا يمكن أن يكون مثل هذا الرجل مسلما ولا أن يحكم فريقـــا من المسلمين » • رفض عرابى التسليم قائلا « والله لا نسلم البلاد لاحـــد وفيها ذو روح يتنفس ، والله يؤيد بنصره من يشاء » • كما صمم عرابى على المقاومة الى آخر رمق من حياته » • اننا اذا متنا جميعا فسوف يدخلون بلدا خربة ، وسيكون لنا مجد الاستشهاد فى سبيل وطننا • وقد وجدت فى أوراق عرابى فتوى موقعا عليها من كبار العلماء مؤداها أن الخديوى بقبول اللائحة (٥) قد انحرف عن الشرع أو صورة سؤال استفتاء من العلماء عن جواز عزل الخديوى • وقد أورد فيها العلماء

---

(٥) سقوط وزارة البارودى ، وابعاد عرابى الى اوروبا وعلى فهمى وعبد العال حملى الى داخل البلاد المصرية . وقد رفضها مجلس النواب .

آية « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أوليـــاء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولى منكم فانه منهم » • لذلك لم يأبه عرابى بقرار العصيان الذى استصدره الانجليز من السلطان قائلا « لقد اجمعت الامة كلها على ضرورة وقف توفيق باشا لخروجه على الشرع الحنيف والقانون المنيف ، وطلبت الاستمرار فى أعمال الدفاع عن الوطن بقرار رفع الى جلالة السلطان • أبعد هذا نكون عصاة ؟ أننا كنا ندافع عن وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والانسان • وكل من يقول غير هذا كائنا من كان فهو عبد الهوى والمال • وأضيف الى ذلك أن علماء الاسلام والمسلمين فى كل بلاد العالم يسلمون أنا لم نتعد حدود ماأنزله الله فى كتابه•وهم يستنكرون مانلقى من سوء المعاملة لانه يتنافى مع العدل » • ولقد أرسل عرابى برقية الى توفيق بعد مذبحة الاسكندرية ينتهى منها بقوله « فلهذه الاسباب يا مولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الانجليز بوجه الحق والشرع ••• والامر لمن له الامر ••• ان الذين يخونون وطنهم لا يكون جزاؤهم العقـــاب وفق قوانين الحـــرب فحسب بل سيلعنون فى الآخرة » • ويقول عرابى فى مذكرته الى محاميه برودلى « وكما أن الخديوى توجه الى الاسكندرية بعد خروج الاهالى والعساكر منها تحت الحرس الانجليزى فاما أن يكون أسيرا وأما أن يكون انحاز الى الجيش المحارب لبلاده • وفى كلتا الحالتين لا يجوز ترك البلاد بلا حاكم حسب أحكام الشرع الشريف الاسلامى • اذ أن فى الحالة الاولى وهى الاسر لا يجوز أن يكون أسيرا وحاكما ينظر فى مصالح البلاد كما أنه لا يجوز ترك البلاد فوضى بلا حاكم ينظر فى مصالح أهلها • وفى الحالة الثانية وهى الانحياز فكتاب الله يحكم عليه بخروجه عن جماعة المسلمين وبذلك

لا يصح أن يكون حاكما عليهم » • (٦) ويقول فى نهاية المذكرة « ان هذا الشخص لا تجيز له شريعة قومه أن يكون أميرا عليهم أبدا » •

ولم يستسلم عرابى كما يروج المغرضون أنصار الخديوى والانجليز كما لم يضعف مشايخ الثورة ، ويدافع عرابى عن مهمة الاستسلام بقوله « واذا تقطعت جميع الاسباب فكيف أسلم نفسى ؟ ألم تكن أرض الله واسعة فأهاجر فيها ؟ أو لم أكن أتوجه الى لندرة فأحتمى فيها ؟ أن فى ذلك تذكرة لمن يتذكر • فالحق والحق أقول أنى لست بعاص وانما قمت وقامت البلاد أى الامة المصرية فى طلب تحرير بلادها مع غاية الشرف وحفظ الناموس لا لغاية شخصية كما يفترى المبطلون بل أنى مكاف بحفظ البلاد من طرف الحضرة السلطانية حيث تبين عظمة اخلاصى وسوء مقاصد الخديوى ••• ثم أنى صرت قائد الجيش فى المدافعة عن البلاد بوجه الشرع والقانون وأمر الخديوى والمجلس أولا وقرار الامة ثانيا وليس بعد ذلك دليل ولا برهان » •

كما تثبت الشيخ حسن العدوى وقد شارف على الثمانين فى المحاكمة عندما سأله رئيسها اسماعيل أيوب الم يوقع بخاتمة على قرار يقضى بأن سمو الخديوى توفيق باشا يستحق العزل ؟ استعاد الشيخ حمية الشباب واتكا على المنضدة وبسط يده ونظر فى وجهه وقال « لم

---

(٦) مذكرة عرابى الى محاميه بعنوان « هذا تقريرى عن الحوادث التى حصلت فى مصر » من تاريخ يناير ١٨٨١ لغاية شهر اكتوبر ١٨٨٢ مقدم من طرف الى وكيلى الشرعى المستر برودلى ليدافع عنى امام المحكمة المصرية (مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن برقم ١٤١٣٩٤) •

أو الورقة ولكنك اذا أحضرت الى ورقة تحتوى على مثل هذا المعنى فانى أبادر بالتوقيع عليها وختمها بخاتمى فى حضورك الآن • اذا كنتم مسلمين تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا قد خان بلاده وذهب الى الانجليز لم يعد يصلح لان يحكمنا » •

وقد راع درويش باشا مندوب السلطان دور المشايخ فى الثورة ، وأظهر دهشته ونفوره مما رأى من تحمس الناس وجرأتهم وبخاصة علماء الازهر الذين أظهروا عطفهم الشديد على عرابى ومبادئه • وقد ذهب وفد كبير من العلماء الى درويش يحملون مكتوبا موقعا عليه منهم ومن عدد عظيم من الناس يطلبون فيه رفض الانذار الاجنبى وبخاصة ما جاء فيه عن أبعاد عرابى • واغلظ درويش فى مخاطبة الشيخ الذى تكلم باسم العلماء وهو الشيخ محمد خضير • وحسب درويش أنه بذلك أخاف العلماء • فقد اجتمع طلاب الازهر فى اليوم التالى بسبب ما علموا من اهانة علمائهم ، وتعددت الاجتماعات فى جهات من المدينة ، وبدأ الناس يظهرون حنقهم وسخطهم على الوفد التركى وبخاصة أن عددا من الاعيان أرسلوا اليه يحتجون على مسلكه نحو رجال الدين •

وأثناء المعركة انكب العلماء يقرأون البخارى فى الازهر والحسين ، ويدعون بالنصر لعساكر عرابى والهزيمة للانجليز • وكان أمام الخديوى الشيخ الصالح العالم الابيارى فى طليعة الملتهبين غيرة ووطنية فنشر قصيدة ابراهيم دريد فى غارة التتار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى المعتصم وهى عبارة عن دعاء وابتهال ، وقد أضاف اليها أبياتا من نظمه • فكان من الناس من يقرؤها ويتلوهما بعد قراءة البخارى • وطلب من محمد عبده نشرهما فى الجريدة الرسمية حتى يطلع

عليها الجيش اذ من المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب المسلمين ضد الكفار (٧) • وقد القيت الخطب الحماسية والاشعار الوطنية من مشايخ الثورة مثل الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الازهر ، والشيخ على المليجى ، والشيخ محمود ابراهيم خطيب أسيوط ، والشيخ محمد أبو الفضل خطيب المسجد الحنفى ، والشيخ حميده الدمنهورى ، والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر ، والشيخ محمد فتح الله ، والشيخ أحمد سيف البارى • فمن قصيدة الشيخ أحمد عبد الغنى فى مطلعها •

لعمـرك ليس ذا وقت التصـابى
ولا وقت السـماع على الشـراب
ولكن ذا زمـان الجـد وافى
وذا وقت الفتـوة والشـباب
ووقت فيـه الاسـتعداد فرض
لتنفيـذ الاوامـر من عـرابى

وقال الشيخ على المليجى فى خطبة له « قد مـرت بنا فى الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم وما ذاك الا لعـدم الحميـة الاسلامية فى حكامه الذين كانوا كالليل المظلم اذ كانوا منهمكين فى ميادين حظهم الدنيوى وعن الدين غافلين • وقد ظهرت الآن البشائر بعز المسلمين وسطوتهم حيث قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالاخذ فى أسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم باذلين الهمة فى التوصل الى مايبعد الامة عن التشويش ولما يكونون به آمنين اذ قد شرع رئيس

---

(٧) الامام محمد عبده : الكتابات السياسية ، حققها وقدم لها د. محمد عمارة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص ٤٦١ .

المجاهدين أحمد عرابى المؤيد بنصر من عند ربه فى الموافقة عن حوزة الامة ورد من كانوا فى تشويشها أول سبب وباع نفسه وجيشه للجهاد فى سبيل الله » • وقال الشيخ محمود ابراهيم فى خطبة له بأسيوط « أما بعد : فان الانجليز قد طاشت عقولهم وعميت بصائرهم فلم يحسنوا الضروريات • قاموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها ، وساقوا الينا من زيف المعارضات خسيسها ، وقابلوا تحيتنا بخداع ، وفتشوا اكنافنا لغدر اضمروه ليوم النزاع ، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الايمان وفينا لهم بعقد الذمة والامان فعاملناهم بالحسنى وجبرنا ما كان فيهم ضعفا ووهنا فلما صحت أبدانهم وعمرت أوطانهم فلم يقنعوا بذلك بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك ، فسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار اليه فى حديث « يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الامة أمر دينها » • فان البشائر دلت عليه ليمزق البغاة كل ممزق ، ويحيى المندوب والمفروض للدين الموفق ، وتموت البدع التى أسود القطر بظلماتها ، ويختفى بلاء الظالم بأرجائها، وحاش أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافرين ، جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا وجنده الظافرين » • وفى خطبة الشيخ محمد أبى الفضل التى القاها فى الجامع الحنفى بالقاهرة « قد تميز الغث من السمين ، واستبان أن الانجليز جاءوا محاربين يريدون — لا أمكنهم الله — سلب الاموال وهتك الحرم ، وقد جاءوا بمكر وخداع يصطادون بشباكهم الاوطان من غير قتال أو دفاع كما هو ديدنهم القبيح فى كل أقليم • فيتظ لذلك العقلاء والشجعان ، وذبوا عن الاعراض والاوطان »• وفى خطبة الشيخ حميدة الدمنهورى « أعدوا لاعدائكم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ماترهبون به عدو الله وعدوكم ، وكونوا لدين الله من المنتصرين تفوزوا برضى المولى اللطيف الخبير • وقوموا

لمحاربة أعداء الله وأعدائكم الطغاة البغاة ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بمما يعملون بصير • الجهاد فرض الآن علينا واجب لدخول الاعداء فى بلادنا محاربين • فمن أتى بواجب الجهاد أحرز فضله ، ومن تطوع خيرا فهو خير له • فالسعيد من سارع الى اغتنام الاجر من الله العلى الكبير » • ومن خطبة أخرى للشيخ محمد أبو الفضل ومصرنا هذه قد كادت أن تكون دار حرب لا دار سـلام ، فقد أهين فيها الوطنى وعظم اللئام حتى صاروا رؤساء الدواوين فطغوا وبغوا وحق عليهم المثل السائر : وعلى الباغى تدور الدوائر • فحكموا بالبنود والقوانين • فعظم البلاء واشتد وزاد الكرب واحتد ، وكان ماعلمتم من الحركات ، وكم لله فى الحركات من بركات • وقد نظم الشيخ أحمد سيف البارى قصيدة جاء فيها :

اذا ما رأية رفعت لمجـد　　　تلقاها عرابينـا يمينـا

ونظم الشيخ السيد المرصفى قصيدة أخرى جاء فيها فى مطلعها •

ياصاح قـم واشكر الهك واحمـد　　　فالدين منصور على يد أحمد

وقـال بعضهم معرضا بواسلى وسيمور قائد الحملة الانجليزية على الاسكندرية فى بيت السموءل •

وأنا لقـوم لانـرى القتـال سبة　　　اذا مارآه واسلى وسيمور (٨)

وقد شارك المفكرون والخطباء علماء الامة وشيوخها وعلى رأس

---

(٨) مذكرات عرابى : كشف الستار عن سر الاسرار ص ٢٠٣ — ٢٠٥ •

هؤلاء خطيب الثورة العرابية السيد عبد الله النديم (٩) . فقد سافر الى الاسكندرية قبل وصول الوفد التركى وخطب الناس خطبة كان لها عظيم الاثر فى اذكاء الروح الوطنية واثارة شعور الوطنيين على المذكرة المشتركة والسفن الاجنبية • كان يستنهض الهمم بأحاديثه وخطبه مستشهدا بالقرآن والحديث وتاريخ المسلمين بين فرق الجيش حيث سافر من كفر الدوار الى التل الكبير لاستقبال عرابى هناك •

وقد شارك الناس مشايخ الثورة وخطباءها وشعراءها • أصبح على لسان كل مصرى نداء « الله ينصرك يا عرابى » والتى أخذها برودلى شعارا للثورة العرابية • وكانوا ينهضون اذا ما مر عرابى أمامهم ووقفوا على جانبى الطريق مرددين هذا الشعار مضيفين اليه عدة ألقاب مثل رئيس الحزب الوطنى ، قائد الجيش الوطنى ، حامى حمى الديار المصرية •• الخ • لم تحفل الامة بعزل الخديوى لعرابى بل زادها تمسكا به • وكان الناس والفلاحون والبدو وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمدح عرابى • وفى أى احتجاج ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لعرابى جامعين التبرعات للاخوة المجاهدين اذا لم تكلف مقاومة الانجليز الخزانة العامة مليما واحدا بل كانت التكاليف كلها من تبرعات الاهالى والامراء الوطنيين • حتى أرملة سعيد أهدت عرابى خيمة زوجها مشفوعة بأصدق أمانيها أن يؤيده الله بنصره •

وكان النساء والصبية على خط السكة الحديدى يرددون

---

(٩) لم نشأ ذكر اقواله لانه موضوع دراسة خاصة مستقلة عن « الدين والثورة عند عبد الله النديم » .

أغنية أولها : ياMولانا ياعزيز ، اهلك عساكر الانجليز ثم يهتف أحد الشباب : الله ينصرك فتردد الجموع : ياعرابى •

وحتى اللحظة الاخيرة صمد مشايخ الثورة وقادتها • ويتضح ذلك فى سؤال أحمد طلعت مدير المطبوعات فى المحاكمات عن نشر جريدة الطائف التى يحررها النديم مقالات فى الطعن على الخديوى واجابته بأن ذلك كان تعبيرا عن القلق العام من مسلك الخديوى وانها عبرت عما يقوله الصبية فى الشوارع • وفى سؤاله اذا كان يقرر ما فى الصحيفة أجاب بأنه قد تقرر فى المجلس العام الذى انعقد بوزارة الداخلية والذى شهده العلماء والقواد والاعيان ان الخديوى خرج على الشرع المقدس • ولما كان أحمد طلعت مصريا فانه لم يكن فى وسعه الخروج على اجماع الناس ومعاقبة جريدة الطائف مخالفا ما فى نفسه من اعتقاد واجماع •

ولم يفت فى عضد مشايخ الثورة وعلمائها ما أصابهم من نفى وتشريد • فقد قضى بتجريد عدد من العلماء من رتبهم وشارات شرفهم وامتيازاتهم ومنهم الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ ابراهيم العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى ، والشيخ أحمد عبد الغنى • ومع ذلك ظلوا على اتصال بعرابى فكانوا يرسلون اليه الكتب فى المنفى • ولما انتهت مدة نفى الشيخ محمد خليل الهجرسى وهى خمس سنوات الى الحجاز وعرضت عليه الحكومة العودة الى وطنه رفض حتى يعود عرابى وحتى يموت توفيق أو ينزل من عرشه • وكان اذا سمع عن أحد من رجال الثورة الباقين انحرافا عن مبادئها كتب الى عرابى ليسقطه من حسابه مثل أمين الشمسى الذى كتب فيه الشيخ الهجرسى « أنه أسيف على ضياع بعض أمواله وتغير بعض أحواله بسبب هذه المسألة

ولا أسف له على الهم الاكبر من ضياع القطر وما حصل بأعظم رجـال الدين فى هذا الامر لان أمثاله فى خدمة الدنيا فقط • أسأل الله الكريم بجاه هذا النبى العظيم أن يردكم الرد الجميل مع الحظ والنصر والسعد الجزيل » • وظل الشيخ الهجرسى يزور عرابى بعد عودته من المنفـى مع شاعر النيل حافظ ابراهيم •،

٤ — دين الاعتـدال والتراجع :

وشارك فى الثورة العرابية أولا بعض مشايخ الازهر نظرا لما رأوه فى عرابى من اعتدال أولا وحرص على مصالح الامة • وكـان عرابى فى ذلك الوقت فى تصورهم ذا منهج اصلاحى مثل رياض باشا ودستوريا مثل شريف باشا حتى لقـد اكتسب عرابى ثناء القناصل عليه لاعتداله . ولكن ما أن أصر مجلس النواب على مناقشة الميزانية تثبيتا لسلطته ولحق الامة فالتنازل بداية لتنازلات أخرى حتى بدأ مشايخ الاعتدال فى التراجع •

وكان أكبر ممثل لدين الاعتدال والتراجع هو الشيخ محمد عبده بعد أن انضم الى الثورة العرابية ثم تراجع عنها • فكان له الاثر فى تخفيف لهجة الصحف بعد وزارة شريف وتراجع الوطنيين عن لائحة مجلس النواب (خلاف لائحة ١٨٦٦) وعـدم النظر فى الميزانية • ونشط فى معاونة شريف قائلا « لقد ظللنا ننتظر حريتنا مئات السنين أفيصعب علينا أن ننتظر بضعة أشهر أخرى » •

وقد أعلن شريف مبدأ حكومته القائم على الاعتراف بحقـوق السلطان والامتيازات التى حصلت عليها مصر ، والاعتراف بالخديوى حاكما دستوريا ، والتسليم بقاعدة المراقبة الثنائية ثم انكار كل اتجاه

ثورى ، ومنح الحرية الدينية والسياسية لجميع سكان البلاد ، والسير على قاعدة الحكومة المسئولة أمام مجلس نيابى •

وكان تأييده لوزارة رياض الاصلاحية من قبل نظرا لان رياض لم يكن يخالجه أدنى شك فى سكون المصريين الى الطاعة ! وبالرغم من أن الشيخ محمد عبده كان من تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى وكـــان داعيا للشورى وللحكم الدستورى الا أنه كان يرى أن مصر لم تتهيأ بعد لذاك • وكان يميل الى حكم رياض ويرأه المستبد العادل الذى ينهض به الشرق • ولم تكن الثورة من رأيه ، وكان قانعا بالحصول على الدستور فى ظروف خمس سنوات • فلم يوافق على عزل رياض • لذلك نقم على عرابى فيما بعد ، ونفر من العسكريين • وأن نشر التعليم أولا ليجعل الدستور يقوم على أساس سليم • وفى القصيدة التى نظمها فى السجن عن حادثة عزل رياض يقول الاستاذ الامام •

وانمــا الفــكر يغنى نفس صاحبه
عن الجيوش اذا صحت مبــاديه
وبينمــا انــا لاه فى محــــادثتــى
مــع المعــالى أقول الامــر مافيــه
قامت عصــابات جنــد فى مدينتنــا
لعــزل خير رئيس كنت راجيــه
ذاك الــذى أنعش الآمــال غــيرته
وخلص التطــر فارتاحت أهاليــه
قامــوا عليــه لامــر كــان ســيدهم
يخفيه فى نفســه واللــه مبــديه

كان الرئيس حليف العــدل منقبــة
وســيد القوم يهــوى الجور يأتيه
جروا مدافعهــم ، صــفوا عســاكرهم
نادوا بأجمعهم ســـــل ما ترجيــه
فنـــال ما نـــال وانقضت جموعهم
أما النظـــام فقــد دكت مبانيــه
ثعالب الشر هبت من مراقـــــدها
وأسدت من قـــوام العــدل باقيــه
تفلت الحـــــــكم من أيــــد مدبــرة
وصـــار فوضى شقيت الناس يجريه
مانوا أمانى تبكينـــى وتضحكنـــى
حـــرية ونظـــام الشـــورى عاليــه
حـديثهم صخب ، أسرارهــم لجــب
لا عتل ، لا فهم أين الفج تبغيـــه

فلما نشبت الثورة وهزم عرابى كان ما يهم محمد عبده هو براءته وبيان خلافه مع زعماء الثورة • فأنكر على عرابى زعامته وقدح فيها وبين أنـــه خائف تنقصه الشجاعة صاحب مطامع شخصية ، درويش ملتح . لقد استبعد الامام أن يكون عرابى من طلاب الدستور لذاته بل للمحافظة على نفسه بعد حادثة قصر النيل بعد أن كان عـــرابى هو الذى روج لمظاهرة عابدين وأذاع أخبارها فى الجريدة الرسمية • ويقول عنه « أما عرابى فلم يكن يخطر بباله ولا يهتف به فى منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو تغير رئيسها • فذلك مما كان يكبر على وهمه أن

يتعالى اليه • وانما الذى احاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخلاف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان من أمراء الجراكسة والمنافسة من عثمان باشا ! ويصور الاستاذ الامام عرابى وكأنه مهووس مصاب بعقدة الاضطهاد فيقول « هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابى تمثلت له جنايته فى صور أغوال فاغرة الافواه محددة الانياب ولزمه خيالها فى يقظته ومنامه • فهو فى فزع دائم يخيل له العزل والموت فى كل شيء يراه • يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى الا سيوفا مسلولة أو حبالا منصوبة ، ولا يسمع من هواجس نفسه الا صيحة واحدة : الخلاص ، الخلاص ، الهرب ، الهرب ! ولم يتمثل فى مخيلته مهرب أو فى له من طلبه تشكيل لمجلس النواب على الصورة التى قدرها له فى نفسه » • بل أن عرابى فى نظر الشيخ قد استعمل الجند لتحقيق اطماعه الخاصة قائلا « استحثه الحرص على ادراك المطلب أن يفضى به الى ضباط الجيش وأن يثير فى احلامهم الضعيفة تمثيل الامانى من العزة والسلطان والصعود الى أعلى مراقى المراتب والمناصب وأن كل ذلك لا ينال الا بمجلس النواب فلكى يأمن عرابى على وظيفته طالب بنفى عدوه ، فانتهى بالبلاد الى الخراب » • يقول الشيخ « ركب به الجبن طريقا عمياء ، يخبط فيها خبط العشواء ، ويسوقه الرعب ، ويقوده الوهم وضعف الحكومة يمده ، والرغائب الخرقاء تساعده الى أن أودت به وبالبلاد خطيئته » (١٠) • ويصور محمد عبده فى قصيدته عصيان عرابى وتخاذله قائلا :

---

(١٠) محمود الخفيف : احمد عرابى المفترى عليه ص ٦٥ .

وبينمــا الظــفر معقــود بوحدتهم
مــال الامير لامر كـــان ينويه

واســتدبر الجيش واستدعى لحضرته
زعيــم عســكره يبــلو مغــازيه

فقال أتــدم فلا حــرب ولا حـــرب
فليصرف الجيش فـــورا لاتبقيــه

غــرابه الريب وانهــارت عــزائمــه
اذا كان جيش العــدا بالثغر ماليه

وخالف الامــر واستعصى بقـــوته
وناصب الشر مولى القطر واليــه

ومحمد عبده بقصيدته هو المــروج لهذه الشائعات عن عــرابى « الدرويش » التى تلقــاها الاستعمار وذاعها من بعده اذ يقول :

وقائد الجند شـــهم فى مكالمة
اشــل قلبــا اذا الهيجــا تناديه

يستطلع المــرأى والتــدبير فى حلم
من المنامات جـــل الله هــاديه

مــا كــان احسَــنه شــيخا بزاويــة
يغشى النســاء بوعظ كان يمليــه

أمــا البــلاد فـــواغمى لحالتهــا
لم يبق فيها سوى أمــر وتنبيــه

وقـــائد الجنـــد وافانــا بلحيتــه
يسيل رعبــا وثوب العــار كاسيه

وسلم السيف واستجدى بغفلته
عفوا من الحنق المعزو خديويه
تخوف الذل فاستدعى مطيته
ركضا اليه فوافاه موافيه

وبناء على طلب عباس حلمى الثانى كتب الاستاذ الامام مذكراته عن عرابى وأهداها الى مليك مصر المعظم عباس حلمى باشا الافخم ويقول فى مقدمتها « هذا متام الذاكر لنعمتك ، العارف بقدر منتك ، العاجز عن الايفاء بحق شكرك ، التالى فى سره وجهره لآيات حمدك ، طوقتنى احسانا لم أتأمله اذ أمرتنى أمرا ما كنت أتخيله ، أمرت أن أكتب ماشهدت وما سمعت وما علمت وما اعتقدت فى الحوادث العرابية من عهد نشأتها الى عهد نهايتها .. » وقد كتبت هذه المقدمة أيام كانت صلة الامام بالخديوى طيبة فى أول الامر . فلما دب بينهما الخلاف أمسك عن اتمام تاريخ الثورة العرابية . وفى الاجزاء التى كتبها كان مرتفقا بتوفيق يتلمس له المعاذير . وبعد المنفى جمع بلنت بين عرابى ومحمد عبده بحديقة الشيخ عبيد وشهد اللقاء على فهمى . تعانق الزعيم والشيخ ولكن عرابى أغلظ للامام حين تشقق الحديث الى الثورة وحوادثها ولامه على مصانعة الخديوى فى بعض ما كتب .

وقد شارك على مبارك محمد عبده فى دين الاعتدال والتراجع فقد كان على مبارك أحد أعضاء الوفد الذى أرسلته الجمعية العمومية الى الاسكندرية عقب اجتماعها الاول . ولكن الخديوى عاد وأرسله ويقترح معه تأليف لجنة صلح خديعة منه لعرابى . وكان جزاؤه اسناد وزارة الاشغال اليه بعد اقاله وزارة راغب اثناء الحرب . أما

الاخرون مثل الشيخ الامبابى والشيخ درويش التركى وسلطان باشا وربما أديب أسحق (على ماذكر عرابى فى مذكراته) فانهم كانوا بين دين الاعتدال والتراجع ودين الخيانة والاستسلام والعجيب أن يدين محمد عبده سلطان باشا وهو المشارك معه فى نفس الدين ، دين الاعتــدال والتراجع ويذكر آية « يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياوليتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا » .

٥ — دين الخيانة والاستسلام :

وكان يمثل هذا الدين بعض مشايخ الازهــر مثل الشيخ العباسى والشيخ الامبابى والشيخ الابيــارى وبعض علمائه مثـــل الشيخ حمزة فتح الله ، وبلغ الذروة فى الفتوى التى استصدرها الانجليز من السلطان بعصيان عرابى .

كان من مطالب الجند فى مظاهرة عابدين عزل الشيخ العباسى فتم عزله ولكن بعد هزيمة عرابى أعادة توفيق شيخا للجامع الازهر بعــد اقالة الشيخ الامبابى علاوة على منصب الافتاء . مع أن الشيخ الامبابى بعد أن أرسل برقية الى بلنت ينبئه فيها بوحدة الامة عاد وتبرأ منها وأنكرها . لذلك استثنى درويش باشا رسول السلطان من غضبته على مشايخ الثورة الشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر والشيخ العباسى والشيخ البحراوى والشيخ السادات الذين آثروا الانحياز للخديوى . وقد تمارض الشيخ الامبابى شيخ الاسلام كيلا يخرج فى حضور درويش بين الخديوى والحزب الوطنى . وقد البسه درويش الحلــة العثمانية له ولبعض العلماء الذين لم يقفوا بجانب عرابى جزاء لهم .

وقد بلغ ذروة دين الخيانة والاستسلام عندما طلب الانجليز من السلطان اصدار فتوى لعصيان عرابى فيذهب بذلك ما جاءه من مكانة فى نفوس الناس من ناحية أنه المدافع عن حقوق أمير المؤمنين • وقد ظفر الانجليز بالفتوى المكونة من ثمانى نقـــاط ، وتنص الثامنة فيها على ، « أن معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الاشراف هى مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية » (١١) وفيها أيضا « وان تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابى باشا ورفاقه واعوانه يكون بصفة أنهم عصاة ، ويتعين على سكان الاقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الاعظم أن يطيعوا أوامر الخديوى المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة ، وكل من خالف هذه الاوامر يعرض نفسه لمسئولية عظيمة • وأرسلت منها مئات الالوف من النسخ الى الهند والافغان والحجاز والعراق والترك ومصر والمغرب الاقصى وجميع بلاد الاسلام بواسطة أبو سلطان باشا • وقد أحدثت هذه الفتوى بالعصيان فعلها فى التواد والجنود على الســـواء • فتذمر بعض أمراء العسكرية وقالوا بأنهم اذن عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد على باشا رأس العائلة الخديوية وابنه ابراهيم ، ومن مات منهم مات عاصيا لا اجر لـــه مثل الذين ماتوا من المصريين فى الدولة العلية •. فنصحهم عرابى بأن هذا المنشور مخالف لاحكام الدين الاسلامى لانهم يقاتلون أعداء المسلمين الذين يريدون الاستيلاء على البلاد الاسلامية وأن الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب عليهم وأن سلطان المسلمين لا يسمح بمثل هذا المنشور وانما هو دسيسة انجليزى تمكنوا من انفاذها بواسطة

---

(١١) احمد عرابى : كشف الستار ج ١ ص ١٨ .

الرشوة . ولو فرض صدور مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته أحكام الدين . الا أن تلك النصائح لم تؤثر فى الذين يجهلون أحكام الدين ، ولكنهم أظهروا قبول ما أوضحه عرابى لهم وأسروا الغدر والخيانة والحساب على الله (١٢) . وقد أثرت هذه الفتوى فى نفوس الجند الذين كانوا يعتقدون أن جهادهم كان وطنيا دينيا فى وقت واحد . فهم جند مصر وجند السلطان خليفة المسلمين الذى يعتدى الانكليز الكفرة على حقوقه . وبمجرد صدور الفتوى أبرق عرابى الى السلطان ليعبر عن ولائه له وللخلافة وأنه وقد حمل حملا على الحرب يمتلك كل ما يلزم لقهر أعدائه وذلك بفضل المساعدة المقدسة وما تفيض به مصر من خير وأنه لا يصدق ما يؤكده اعـداء وطنه ودينه من أنه سيجد فرقا عثمانية فى طريقة فان ذلك سيضعه أمام الضرورة القاسية التى تجعله يعامل أخوانه فى الدين معاملة الاعداء. والحقيقة أن السلطان كان راغبا عن هذا القرار لما يكون له من أسوأ الاثر فى العالم الاسلامى ولانه كان على يقين من أن عرابى أنما يدافع عن حقوته فى مصر . وأراد السلطان أن يظهر شيئا من الغضب فمنع ارسال عدد من البغال كانت انجلترا قد اشترتها لحملتها فى مصر . ولكن بعد اجتماع دوفرين به تراجع السلطان . ثم حاول السلطان عمـل قرار آخر يقوم على النصح لعرابى ومناشدته ولائه مناشدة أخوية فغضب دوفرين ، وصدر القرار ، وتنصلت انجلترا من مؤتمر الآستانة بحجة أن القرار لم يكن فى الصيغة المطلوبة . كما أصدر الخديوى بيانا للامة يبين فيها أن نيـة الامة الانكليزية ظاهرا وباطنا هو الاصلاح

---

(١٢) محمـود الخفيف : أحمـد عرابى ، الزعيم المفترى عليـه ص ٤٢٨ — ٢٤٩ .

وأنه لا غاية لها فى الاستيلاء على البلاد ولا على الفتك بأهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك مما يزيف العصـاة ـ حسب قول الخديوى ـ تنفيرا منهم العامة وتبغيضا لهم فى الامة الانكليزية على حسن مقاصدها ! ولا يزال « العاصون » على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال الى زيادة الخراب حتى اعتبرتهم السلطة السنية عصاة مخالفين للاحكام الشرعية . فمن أطاعه استوجب رضا الله ورضاه • ومن أبى وخالف وركب رأسه فقد عرض نفسه الى التهلكة التى نهى الله عنها وتحقق الخديوى أنه من العصية الباغية ، أمرهم كأمرهم ! •

وقد آثر مهندس الثورة العرابية وبانى استحكاماتها محمود فهمى الوقوع فى الاسر لشدة ما هاله من منشور السلطان بعصيان عرابى • وفى ليلة التل الكبير ، كان عرابى يؤدى صلاة الفجر عندما سمع صوت المدافع • وفى المعركة لم يكن هناك الا الاهالى المتطوعون مع الشيخ محمد عبد الجواد وأخيه الشيخ أحمد عبد الجواد • ولما امتنع الجند عن القتال بعد ما قرأوا منشور « الجوائب » بالعصيان ذكرهم عرابى بحماية الدين والعرض والشرف والوطن • ولكن ذلك لم يجد نفعا بـل تفرقوا فرارا • ومهما أراد منعهم من الفرار وحرضهم على الثبـات والصبر على قتال العدو وذكرهم بالشرف الاسلامى والعرض والوطن فانهم كانوا يلقون بأنفسهم فى الترعة !

ودخل توفيق العاصمة مع الانجليز ومعه سلطان باشا ورياض باشا وكبار المصريين من العلماء ورجال الدولة والاعيان • وتقـدم الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى من يدى الخديوى ودعا له بالتأييد والنصر مع ترديد الحاضرين لدعـائه • وأعطى السلطان النياشين للخونة التى كان مقررا أن تعطى لعرابى • وأول من حظى بالمثول

محمد سلطان باشا رئيس الحزب الوطنى السابق والذى لقب يوما بأبى المصريين فأصبح من أعوان الخديوى والانجليز وأخـذه جزاءه عملات ذهبية مزيفة محشوة بالرصاص . لقد كـان سلطان من قبـل يدعو الى الروية أى عـدم اسقاط الوزارة مثل محمد عبده بعـد أستحكام الازمة بين وزارة البارودى والخديوى أثر نزع رتبة عثمان رفقى ودعوة المجلس دون اذن من الخديـوى . ولكن يبدو أن ديـن الاعتدال والتراجع قد تحول الى دين الخيانة والاستسلام عند البعض كما تحول من قبل الى دين الثورة والمقاومة أثر تقدم انجلترا وفرنسا بمذكرة تتعهد بالسلطان والخديوى ضد الحركة الوطنية مما جعـل المعتدلين من الوطنيين ينضمون الى العسكريين .

ولكن الشيخ حمزة فتح الله هو الذى انبرى لتوثيق دين الخيانة والاستسلام مستشهدا بالقرآن والسنة ! فيقول عرابى « من الاقوال المأثورة ما روى عن النبى (ص) أنه قال : لاتعلموا أولاد السفلة العلم » وهو قول حكيم ، لانهم يتخذون العلم ذريعة لتضليل العـامة وآلة للتلبيس على الناس . ينصرون الباطل على الحق ابتغاء حطام يسير أو ابتسامة أمير ، أضلهم الله على علم فهم لايهتدون » . وهـو مقال الشيخ حمزة فتح الله الذى كان حائكا ثم تعلم ثم ترك العـلم وانقطع لفن الصحافة وأنشأ جريدة البرهان . وقد ذهب مع الخديوى الى الاسكندرية وتحـيز للانجليز ، وكتب مقالة مفتراة فى جـريدة « الاعتدال » متضمنة الاكاذيب والمفتريات قال فيها « ربنا لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا . عباد الله لستم تجهلون أننى طالماناديت فى جريدة البرهان بأن لا سبيل لنجاح الامة الاسلامية سوى أقامة الدين المبنى على مكارم الاخلاق . والذى من مقتضياته حسن المعاملة ، والرفق

بالذميين والمستأمنين والمعاهدين والمصلحين ، وهم الاقسام الاربعة التى أن جميع الاجانب فى البلاد الاسلامية لم تخرج عنها ومن مقتضياته أيضا ما يستطاع من القوة ومن رباط الخيل ، وأنه لا ريب فى أنه يدخل فى القوة المدافع وغيرها من أنواع العدد الحربية الجديدة المناسبة لكل زمان ومكان ، وكذا جمع مايتصور العقل أن فيه نكاية للخصم . غير أنه لسوء الحظ كانت تلك الآية الكريمة الآمرة باعداد ماذكر انما نزلت على خصوص الاجانب فعملوا بها دوننا ، ورفضناها نحن كغيرها من شعائر ديننا وحدود ربنا تبارك وتعالى حتى بلغ من تضلع البغاة الجهال من الفنون الحربية ، وخبرتهم بطرق النكاية للعدو أن يقابلوا الآلات الانجليزية الحديثة العهد المصنوعة منذ أشهر وأسابيع بآلات عتيقة مضى عليها من الاجيال ما أكلها به الصدأ . فأواه ثم أواه .. (ويعلق عرابى « ولكن هو الجهل حتى ينبح الكلب مولاه ») فلو أننا فرضنا المستحيل من كون هذه الحرب دينية والحالة هذه وانما بأمر الخليفة الاعظم أو نائبه الخديوى الاكرم توجب شرعا مخالفة أمرها بها لانها حينئذ عبارة عن المخاطرة بالبلاد والعباد . (ويعلق عرابى : يريد الشيخ تسليم البلاد للعدو بلا قتال) ويستمر الشيخ « وقد نهانا الله تعالى أن نلقى بأيدينا الى التهلكة . وكيف وهذه الحرب كما قدمنا شيطانية ناشئة عن حب الذات والمصلحة الشخصية ، وعن الجنون الذى أتى به الآن عرابى تخلصا من سوء العاقبة . وان كانت أفعاله كلها جنونا محضا من البداية للنهاية . على أن الحروب الدينية المرضية فى الحقيقة لله ورسوله لا تحتم نصر أربابها اذ لا يجب على الله تعالى شىء وتلك سنته عز وجل فى المرسلين والانبياء أن تكون الحرب بينهم وبين أعدائهم سجالا أى تارة لهم وتارة عليهم وان كانت العاقبة لهم بلا ريب . وذلك لتقتدى الامم بأعمالهم فيبنون المسببات على الاسباب لان للشرائع السماوية خصوصا الشريفة

المحمدية المطهرة تشوقا زائدا لذلك أى لابتناء المسببات على أسبابها حرصا على الامة أن تغلق باب الاسباب فيختل نظام هذا الوجود ويبطل العمران وأن كان الكل بيد الله وهو خلقكم وما تعملون • فأما الآن قد سد باب الخوارق والمعجزات اذ قد ختمت النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأما الكرامة فلم ينصر بها الحسين عليه السلام ولا غيره من البضعة المقدسة مع الاجماع على كونهم على الحق • ولعل عرابى يزعم أنه أكرم على الله من الحسين وحزبه ! ويا عجبا لهذا الجاهل كيف خاطر بدماء المسلمين واعراضهم وبلادهم (ويعلق عرابى : جهل الشيخ أن الحرب شرعية واجبة أقر بها مجلس عال تحت رئاسة الخديوى توفيق باشا ودرويش باشا المندوب السلطانى فلا لوم على الجاهلين) استنادا على خرافات المنام واضغاث الاحلام • فاستمال بذلك عقول الجهال ، وفتح باب الحرب مع الاجانب بعد شدة نهى الخليفة الاعظم ونائبه الخديوى الاكبر عنها ، ومع أنه ليس لديه من القوة سوى ماينشره من الاكاذيب • أنك يا عرابى لما وقعت فى يدك ويد جهالك الآلات الحربية وصرتم نفس القوة التى من شأنها أن تكون عونا للحكام على تثبيت النظام وردع الاشرار وليس للحكومة اذ ذاك قوة أخرى تكسر بها شوكتكم امتلات نفسك الخبيثة بالشرور ، فطمعت فى المستحيل وما ليس اليك سبيل ، واستعملت أنت وحزبك للحصول على ذلك الوسائل ولكنهم صاروا بعناية التوفيق كلما أوقدوا نارا لهذه الحرب أطفأها الله (ويعلق عرابى : اشرك الشيخ الضال وحرف الآية الكريمة لغير معناها) • باع دنياه وآخرته بثمن بخس • لا رعى الله الغنى من سبيل الخيانة والتزلف ، وحبذا الفقر مع الامانة والقناعة ، حتى اذا أغلقت فى وجوههم المطالب عمدوا الى وسيلة أخرى الا وهى اتهام الجراكسة الكرام ظلما وعدوانا بالمؤامرة على

الفتك بعرابى فصار هو الخصم والحكم واكراههم بانواع العـذاب على الاقرار بما نسب اليهم وبأن لهم فيه شركاءهم فلان وفلان لجملة من الاعيان والعائلة الكريمة الخديوية • بحيث أن سير الجهادية فى تحقيق هذه القضية كان يشبه سير الوحوش فى البرية لان تلك المؤامرة لو ثبتت على الجراكسة ولم تكن بقصد الفتك بعرابى بل كانت بقصد الفتك بامبراطور مثلا بالنسبة للامور الدنيوية أو نبى مرسل بالنسبة للامور الدينية لكان تحقيقها أخف من ذلك التحقيق ، وأراك يا عـرابى لو أصبت يوم ضرب الاسكندرية زورقا للانجليز فضلا عن سفينة مما زعمته أحزابك لكبرت نفسك عن دعوى النبوة فكنت تدعى الالوهية ولا تعدم من يؤمن بك من الجهال ! نعم أنك قد اكتسبت الشهرة الفاسدة بأعمالك غير أن لك فى ذلك أمثالا كثيرين منهم ابليس اللعين وعاقر الناقة الذى هو أشقى الاولين وابن ملجم أشقى الآخرين • فان كان فى شهرة هؤلاء شرف لهم فأنت أيضا كذلك(١٣) •

وكذلك تحيز للشيخ حمزة شاعر المتحيزين الى الاعداء وصنيعة المستبدين مصطفى باشا صبحى البوشناقى • قال فى مطلع قصيدته التى سماها « صدق المقال فى مثالب البغاة الجهال » :

تبين عقبـــــى غيـــه كـــل معتدى
وامسى العرابى وهو بالذل مرتـــدى

وكذلك فعل اثنان من مرتزقة الادباء : أديب اسحق اللبـــــانى

---

(١٣) احمد عرابى : كشف الستار جـ ١ ص ٢٠٥ — ٢١٠ .

طمعا فى الاستجداء وهو تلميذ الافغانى النجيب المدافع عن الوطنيـة والحرية والدستور • وقدرى بك الشامى الذى كان مع درويش باشا حتى لا يرجع الى بلاده خاوى الوفاض • وكذلك بشارة تقلا صاحب جريدة الاهرام الذى ظنه عرابى معه قبل الثورة فاذا به يزوره فى سجنه شامتا ويقول : « أى عرابى ماذا صنعت ؟ وماذا حل بك ؟ » • ولم يـرد عليه عرابى لانه ذو وجهين • وكذلك شاعر الامراء أحمد شوقى بقوله

صغار فى الذهاب وفى الآيـاب   أهذا كل شأنك يا عرابى ؟

ويرى عرابى أن الشعراء يتبعهم الغاوون • فقد كان بعض الشعراء وعلى رأسهم الشيخ على الليثى يؤيدون النهضة المصرية ويترنمون بها ويحثون الناس على نصرتها والتمسك بمساعدة الجيش المصرى • وقد جاء الشيخ على الليثى الى خط النار فى كفر الدوار وقام فى طائفة من العلماء ومشايخ الطرق يدعو الله بالنصر لعرابى وهم يؤمنون عليـه ويقول فى دعائه : اللهم أشدد وطأتك عليهم وأنزل بهم بأسك الـذى لا ترده عن القوم المجرمين • اللهم أنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من كل شىء تدير • ثم جاء الشيخ بعد هزيمة الجيش المصرى ودخـول الانجليز مصر يعتذر للخديوى عن نفسه وأمثاله بقصيدة قال فيهـا ستين بيتا وكلها مدح وتملق للخديوى توفيق منها :

من رآه يقـول توفيق مصـر
أبصر النـاس بالامـور وأعـدل

مالنـا كلنـا سـوى القـل منـا
قـد سـلكنا سـبيل غـاو مضـل

ياتــرى من يقــوم عنــا بعــذر
اذا أطعنــا الغـــواة فى كل محفـــل
يا عظيم الجنــاب ، يــا خير ملــك
ســعده قــد أبــاد من تقــول :

وقد نسج على منواله الشــيخ عبد الرحمن الابيــارى قاضى الاسكندرية والشيخ محمد بسيونى يقولون بأفواهم ما ليس فى قلوبهم حبا فى الحياة وخوفا من بطش الغالبين • وعبد الله باشا فكرى الذى فكر فى قتل الخديوى مرة تقدم بقصيدة يتنصل فيها من كل ما نسب اليه ويطلب رضاه منهــا :

مليكى ومولاى العــزيز وســيدى
ومن ارتجى آلاء معــروفة العمــرا
لــئن كــان أقــوام على تقـــولوا
بأمر فقــد جــاءوا بقــولهم نــكرا
حلفت بمــا بــين الحطيــم وزمزم
وبالبــاب والميزاب والكعبــة الغــرا
ولكن محتــوم المقــادير قــد جـــرى
بمــا الله فى أم الكتاب له أجرى (١٤)

فعفا عنه الخديوى وأرجع اليه معاشه وأطيانه • ولذلك كانت من

---

(١٤) احمد عرابى : كشف الستار ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

ضمن الاصلاحات التى اقترحت على عرابى (وقد كان ذلك لسوء الحظ من اللورد دوفرين) انتخاب مشايخ البلاد بمعرفة الاهالى من الذين اشتهروا بالعفاف وحسن المعاملة حيث أن كثيرا من المشايخ الموجودين طبعوا على سلب أموال الاهالى ليداوا بها الى الحكام فى سبيل ترقيتهم واعتبارهم .

ثالثا : الثورة نهاية الدين وغايته :

كما أن الدين هو بداية الثورة ومنطلقها فان الثورة أيضا هى نهاية الدين وغايته . فالدين يشعل الثورة ، والثورة تكون الصورة الجديدة للدين . الدين هو المنبع والثورة هى المصب . فالدين هو البداية والثورة هى النهاية .

وتكون العلاقة بين الدين والثورة أيضا علاقة منهجية . فبينما يكون الدين مستنبطا من النصوص الدينية من أعلى الى أدنى تكون الثورة مستقراة من الواقع من أدنى الى أعلى . وفى هذه الحالة يكون الدين هو الغرض العلمى الذى تحققه الثورة وتجد صدقه فى الواقع . ويخضع المنهج الاستنباطى الاولى لانتقاء النصوص طبقا للمصلحة الشخصية للمفسر أو يؤول النصوص المعارضة له . بينما يخضع المنهج الثانى لوضع المفسر واختياره احدى قوى الصراع دون الاخرى .

وقد ظهرت الثورة عند عرابى فى الوطنية ومقاومة الاجنبى الدخيل أو المحتل وفى الحرية والدستور والشورى والمجالس النيابية باسم الامة فلاحيها وجيشها وأعيانها ووجهائها . ولولا هذا الاختيار الوطنى لما أمكن للدين أن يتحول الى ثورة أو أن تكون الثورة المصب النهائى للدين .

١ — الوطنيـــة :

كان أهم ما يميز الثورة العرابية أنها ثورة وطنية وأن رجالها هم رجال الحزب الوطنى وأن عرابى قد أخذ لقب زعيم الحزب الوطنى . وقد لاحظ بلنت ذلك بقوله أنه لم يلاحظ فى حديث عرابى كما هو الحال عنـــد مدحت باشا حديثا عن الســكك الحديدية والترام والعمران بل حديثا عن النهضة القومية . وقد كانت الوطنية هى سبب حسن العلاقة بين عرابى وسعيد . فقد كان كلاهما يحب المصريين . وقـــد كانت خطبة سعيد فى أحد المحافل فى رأى عرابى أول حجارة فى الحزب الوطنى وشعاره « مصر للمصريين » . وقد قال سعيد فى هذه الخطبة ما يذكره عرابى على النحو الآتى « أيها الاخوان ، انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مستعبدا لغيره من أمم الارض . فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والاشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام . بعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالامويين والعباسيين والفاطميين من العـــرب ومن التـــرك والاكـــراد والشركس . وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائـــل هـــذا القرن فى زمن بونابرت . وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لان يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعـــة ويستغنى بنفسه عن الاجانب . وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل »(١٦) . عمل عرابى مع الحركة الوطنية التى كان محورها منزل الســـيد البكرى نقيب الاشراف . وقد كان رجالها من الناقمين على رياض ، يجتمعون فى أواخر عهد اسماعيل ثم اجتمعوا سرا بعـــد ذلك فى حلوان هربا

من العيون • وتألف منهم حزب سمى جمعية حلوان ثم صار يعرف بالحزب الوطنى • وكان من أبرز رجاله محمد سلطان الذى خان وسليمان أباظة مدير الشرقية وحسن الشريعى مدير المنيا ، ومحمد شريف واسماعيل راغب وعمر لطفى (الذى دبر حريق الاسكندرية بالتعاون مع الخديوى) • وقد نشروا فى أواخر ١٨٧٩ أول بيان سياسى طبعوا منه آلاف النسخ ووزعوه على الناس • وقد أوفد الحزب أديب اسحق الى أوربا ليدافع عن مبادىء الوطنيين • فأنشا فى باريس جريدة القاهرة بعد أن عطل له رياض مصر والتجارة ، مدافعا عن الدستور كقاعدة للحكم والمبادىء الحرة وعاملا على منع الاجانب من التدخل فى شئون البلاد سياسيا وماليا • أصبح عرابى محور هذه الحركة ، وكانت تهتف له فى ميدان محطة مصر وهو فى طريقه الى رأس الوادى بعد مظاهرة عابدين • وخطب عرابى فيهم قائلا « أنا أخوكم فى الوطنية ، وهأنذا واقف بين الاهل والخلان وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها » • وكان السيد حسن موسى العقاد قد نفى من قبل الى السودان لانتقاده قانون المقابلة • وكذلك تم تجريد الفريق شاهين باشا الوزير السابق من رتبه وألقابه لاتهامه بالاتصال بالوطنيين ، ونفى أحمد فتحى الى السودان للعريضة التى كتبها بالمطالب الوطنية • بدأ رجال الحزب الوطنى يخطبون ود عرابى ، وبدت الامة كلها ملتفة حوله • وقد بعث بلنت الى بطرس باشا وأبى يوسف ومحمود الفلكى والشيخ محمد عبده والشيخ الهجرسى وعبد الله النديم رسالة يقول فيها « هل الحزب الوطنى فى جانب عرابى الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعى ذلك • اذا اختلفتم ضمنتكم أوربا » • وقد تلقى بلنت برقية من الشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر ، شيخ

الاسلام بأن الخلاف قد سوى بين الوزارة والخديوى وأن الحـزب الوطنى راض عن عرابى ، وأن الامة والجيش متحدان •

وقد لخص عرابى المطالب الوطنية فى العريضة التى كتبها مـع الضباط (بعد عزل عثمان رفقى ناظر الجهادية الشركسى أحمد عبد الغفار وعبد العال حلمى ووضع شركسين مكانهما •• شاكر طمازة وخورشيد نعمان) وتقديمها الى رياض باشا شاكين تعصب عثمان رفقى لجنسه واجحافه بحقوق الوطنيين • فقد ظن الشراكسة انهم يملكون مصر كما ملكها المماليك من قبل • وفى هذه العريضة يطلب عرابى أربعة مطالب:

١ — عزل ناظر الجهادية وتعيين غيره من أبنـاء الوطن عمـلا بالقـوانين •

٢ — تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامـة تنفيذا للامر الخديوى الصادر عقب ارتقائه مسند الخديوية •

٣ — ابلاغ الجيش العامل ١٨٫٠٠٠ تطبيقا للفرمان السلطانى •

٤ — تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للعمل والمساواة بين جميع الموظفين بصرف النظر عن اختلاف الاجناس والمذاهب •

وهى نفس الاصلاحات التى ظل يطالب بها عرابى حتى قبل المنفى والتى حدث فيها بلنت وهى :

١ — ضرورة وجود مجلس نواب تام السلطة على أساس الانتخاب كما هو الحال فى الامم المتمدنة مسئولة أمام الوزراء ، وينعقد لمـدة محدودة لا تنقص عن خمس سنوات •

٢ — ضرورة المساواة بين المصريين فى المعاملة وفى الضرائب .

٣ — الغاء السخرة بحيث يؤجر الناس على ما يؤدون من أعمال لان حياة الفقير توقف على عمله اليومى .

٤ — الغاء الربا فى القرى .

٥ — وضع قانون عادل يطبق فى المحاكم ولا يعتدى عليه أحد .

٦ — أن تكون الوظائف فى الدولة للوطنيين جميعا على أساس الاهلية والاستعداد .

ويختتم عرابى حديثه مع بلنت انه اذا وافقت انجلترا على هذه المطالب فانه لا يبالى بالنفى أو بأى شىء آخر يخبؤه له القدر .

وقد كانت الحركة الوطنية المصرية بقيادة الحزب الوطنى وعلى رأسه عرابى موجهة ضد أعداء الامة المصرية الخديوى والانجليز وأوربا والاستعمار بوجه عام . فقد انحاز الخديوى الى الانجليز . وعندما سأله أحد الميرالات عن مصير الاسكندرية لو ضربها الانجليز فهز كتفه وقال ستين سنة ! ولما قال الضابط ان السكان سيحرقونها وطالبه بالتوسط لدى الاميرال ومخاطبة محافظ المدينة قال الخديوى : « فلتحرق المدينة جميعها ، ولا يبقى فيها طوبة على طوبة ، حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابى وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين ، وسيذوق الاوربيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب فى مواجهة الواطنيين » . ولقد دافع الخديوى عن الانجليز ، وأصدر بيانه مؤيدا فتوى السلطان بعصيان عرابى مبينا أن غرض الانجليز ليس

الاستيلاء على البلاد والفتك بأهلها لعداوة دينية كما يذيعــه العصاة تنفيرا منهم للعامة وتبغيضا لهم للامة الانجليزية على حسن مقاصدها .

وكانت أوربا كلها وفى مقدمتها انجلترا ضــد الحركة الوطنية . فقد اعتبرت انجلترا واقعــة التل الكبير انتصارا لاوربا . فلو أن الجيش الانجليزى هزم فيها لكــان ذلك كارثة على جميع الدول التى يتلقها التعصب الاسلامى كما قال جرانفيل . لقــد كــانت صــحف أوربا تسخر من ثورة مصر . وقد أصيبت الحركة الوطنية بخيبــة أمــل كبيرة فى أوربا التى طالما كانت نموذجا للحرية والشورى والتقدم . كيف يكون ذلك كله مضمونا داخل أوربا ويكون مرفوضا خارجها تتنكر له أوربا عندما تحاول غيرها من الشعوب اللحاق بها . وكمــا يقــول بيرون « لا تثق فى طلب الحرية بالفرنجة » . وتعبر مذكرة عــرابى الى محاميه عن خيبة الامل هذه أصدق تعبير . فقــد كــان حلم مصر الاعتماد على حكومة الانجليز وهى أمة عظيمة مشهورة بالعــدل ومحبة الانسانية ومحررة الرقاب من الاستعباد . فكانت مصر ســيئة البخت ، ولطالما دافعت عنها اطماع الطامعين . كانت مصر تعتقــد اعتقــادا جازما بأنه لايأخذ بيدها وينشلها من نير الاستبداد والاستعباد ويوصلها الى بحبوحة الحرية الا حكومة الانجليز . ويقــول عرابى فى مكــان آخر « الحرب العــوان ، ومــا أدراك ما الحــرب العوان ؟ هى حرب الانجليز الامة التى فيها نصراء الانســانية ، الامة المحامية عـــن المظلومين ، الامة المحررة لرقاب العباد المستعبدين ، الامة المحافظة على اتباع الحق والقوانين . مع من ؟ مع مصر ! البلاد التى لا ينــكر أحــد ما فيه أهلها من الاستعباد ، وماتجرعوه من غصص الاستبداد ، البلاد التى طالما سفكت دماء أهلها بغير وجــه شرعى ، وبغت وتفننت فى

أنـواع المظالم ، البـلاد التى لا يعتبـر حكامها شرعـا ولا قانونا ، البلاد التى عبدت حكامها من دون رب العالمين ، البلاد التى كـانت تظن أن لامنقذ لها من جب الظالمين ، ولا موصلها الى فضـاء الانسانية الا دولة انجلترا الشفوقة على النـوع الانسانى فخاب أهلها ، وبعد أن قربت أبناءها من فم ذلك الجب ، وظنوا أنهم ناجون اذ جاءهم الحرث الانجليزى فأوقع القبض على من خرج من الجب والقاه فى قراره لتنهشه الافاعى خلافا لما هو معهود فى رجال الانجليز من الشفقة والرأفة على النوع الانسانى » • كما استسلم عرابى فى النهاية بعـد المداولـة والتيقن بأن دولة الانجليز لا تريد الاستيلاء على مصر ! وبالتالى فـلا لزوم للدفاع اعتمادا على أن دولة انجلترا موصوفة بحب الانسانيـة والاعتـدال فى كل أمر ، وأنها متى تحققت الامـر ووقفت على أفكار أهل البلاد لا شـك أنها تسعى فيما يوجب تحريرهم وراحتهم وحفظهم، اعتمادا على شرف دولة الانجليز ، وحرصا على حفظ البلاد من الدمار • ويقول عرابى فى نهاية مذكرته لحاميه « سلمنا سيوفنا الى ذمة انجلترا وشرفها • فصوت أولادنا وصـوت الانسـانية يطالبـون انجلتـرا وكل انجليزى بحقوقنا ••• ولكن حرصا على البلاد ، وحقنا للدماء ، واعتمادا على شرف انجلترا وأنها لا تـريد الاستيلاء على البلاد المصرية قد أبطلنا المدافعة وسلمنا أنفسنا لذمتكم وشرفكم » • ويوجه نداء أخيرا قائلا : فيا حضرات المحامين عن ذوى الشرف ••• ويا حضرت نصراء الانسانية والمحامين عن الحق بأنفسهم وبأموالهم من غير أن تأخذه فيه لومة لائم ••• المحافظين على شرف الانسانية بانجلترا هـذه هـى الحوادث على قصد من الحق والانصاف بدون شك فيها ولا ريب ، وليس بعد الحق الا الضلال المبين •

وقد كانت الثورة العرابية تدرك أن مصر قلب الشرق وأن تحـــرر مصر هو تحرر للشرق .

وقد كان الشرقيون مرادفين للمصريين أو المسلمين كما كانت الجامعة الاسلامية والجامعة الشرقية عند الافغانى مترادفين . الشرق فى مواجهة الغرب نظرا للصورة المزرية التى كانت للشرق فى ذهن الاوربيين ممـــا يدل على عنصريتهم وعنجهيتهم وأنانيتهم واستعمارهم . فقد اتهم الانجليز شعوب الشرق باقسى التهم . كان الاوربيون جميعا ناقمين على الشرق ، مصر الحضارات ، وكان قادتهم مثل جلادستون يزعمون أنهم يريدون الاخذ بيد الشرقيين لينهضوا من سباتهم وتعليمهم مبـــادىء الحرية والشورى والحياة النيابية ! لان الشرقيين لا يصلحون أنفسهم بأنفسهم . وكان اللورد شالز بسفورد يقول « عجبا لعرابى ! لا ينهض مصلح من الشرق الا نادرا ! » . وقد كتب أحد معاونى مالت تقريرا يقول فيه : « أن الحاكم الشرقى اذا حرم كرباجه وحظر عليه أن يســـجن من يشاء عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية » . والحقيقة أن هذا الهدف التمدنى كان مجرد دعاية للغرب يخفى وراءه النية الحقيقة وهى الاستعمار والسيطرة علـــى مقدرات الشعوب غير الاوربية ومواردها وثرواتها . اذ يستمر هـــذا التقرير قائلا أن الطريق الذى سارت فيه الحركة (الوطنية) منـــذ عام جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة الى ما يسمونه لـــــه حرية فى حين أن ما اكتسبته هذه الحركة من قوة جديدة باسلام أزمـــة الامور الى طائفة من الخياليين النظريين جعل أثرها فى السلطة على وجه العموم أثر الماء نصبه على قطعة من السكر » . وكان جمبتا شديد العداء لمصر بل ومن أشد أعداء الاسلام قاطبة . وكان هذا اليهودى على

صلة برجال المـــال من الدائنين ٠ وكان يحيط به فى باريس وبفرز ونسون ونوبار يوحيان اليـــه بما يريان ٠ وكان بطبعه يميل الى القوة فى كل مايتعلق بالشرق والشرقيين ٠ وكانت سياسته قد صبغت بالصبغة الدينية وكراهيتة للمسلمين أن ينهضوا وتقوى بينهم أواصر الاخـــاء فيكونون بذلك حائلا بين فرنسا وأطماعها فى الشرق ٠ وقـــد استغل الاوربيـــون فى ذلك دينهم واستشراقهم وقساوستهم كوسائل لتحقيق أغراضهم ٠ وكان الادميرال سيمور قائد الحملة قد أبرق الى حكومته بأن عرابى يجمع السلاح ويعلن أن النبى يوحى اليه كل ليلة وأنه سوف يضع الاسطولين فى فخ وذلك بسد البوغار بالاحجار ٠

وفى الحملة الحبشية والكارثة التى وقع فيها جيش مصر ، اتهم لورنج القائد الامريكى بالخيانة اذ كان يتصل عن طريق أحد القساوسة بالاحباش ليطلعهم على كل شىء ٠ كما استدعت الادميرالية البريطانية أدوارد بالمر أستاذ اللغات الشرقية بجامعة كمبردج لاداء عمل الخيانه والاتصال بالاعراب لمعرفته باللغة العربية وبالمنطقة ٠ فقد كان من قبل عضوا فى جمعية اكتشاف فلسطين ٠ وكانت مهمته ضمان البدو شرقى القناة الى جانب الجيش البريطانى والاستفادة من قابليتهم للرشوة ٠ وقد أتى الى الاسكندرية وتشاور مع سيمور فذهب الى يافا متنكرا فى زى عربى ثم الى غزة ٠ واتصل بقبيلتى الطياحة والطرابين ٠ ثم ذهب الى يافا فى زورق بريطانى عليه علم بريطانى ثم أتى الى السويس متنكرا فى زى عربى وتظاهر أنه أحـــد تجار الابل ا واشترك مع الجنود البريطانيين فى السويس ٠ ثم ذهب الى الصحراء ليقطع اسلاك التلغراف واحراق الاعمدة لقطع وسائل الاتصال بين عرابى وتركيا ٠ ثم التقى بالكابتن جل الذى اعطاه ٢٠٫٠٠٠ جنيه لتوزيعها على البدو ٠.وكان قد

اتصل فى شرق القناة بأكبر مشايخ البدو سعود الطحاوى ومحمد البقلى وقد أخذ الاسمين من الخديوى • ثم لقى حتفه بعد أن استولى العربان على أموالهم وقتلوه هو وزميليه بالرصاص •

لذلك كان عبد الله النديم فى جريدة « الطائف » يهـاجم البهرج الزائف الذى أخذ يلمع فى مصر والذى سماه الاوربيون مدنية يكونون منه سلاحا للدس والقضاء على استقلال البلاد • الوطنية اذن هو الاساس الذى يرتكز عليه الدين • وقد أورد عرابى فى مذكراته أن هذه الحركة سوف يقيض لها الله من يفهمها حق من الجيل القادم • وقـد ضمنها ذكر جميع من فتحوا مصر وتغلبوا عليها منذ الفراعنة حتى الاحتلا البريطانى وكيف تخلصت منهم مصر جميعا • « فعلى الناشئة المصرية أن تجد وتجتهد وتعمل ليلا ونهـارا على استرداد مجـدها واستقلالها وحريتهـا المسـلوبة منهـا ، ومطالبة الانجليـز بالجـلاء حتى ينكشف عنهـا هذا البلاء • ثم اذا دعوا الامة المصرية الى التباعد من التمدن الغربى المزيف فلا نفعل المنكرات التى نهـى الله عنهـا ، ونأمـر بالمعـروف الـذى أمـر اللـه بـه • وأن نتـرك الفواحش ما ظهر منهـا وما بطن ، وأن نقيم شـعائر الدين الحنيف ونحيى مناسكه • فلا عز ولا سؤدد بغير الدين • وهو وحده يكفل لمن اتبعه باخلاص هناء الدنيا وثواب الآخرة • ثم أناشدهم أن يشـدوا أواصر الاخاء بين أبناء وطنهم ويخرجوا مافى قلوبهم من غل وضغينة ، ويعملوا يدا واحدة ورجلا واحدا لرفع شأن بلادهم واعزاز كلمـة دينهم • فاذا فعلتم كـل مـا ذكـرت وأرهنتـم أذانـكم للسـمع واصختم الى نصائح من حنكته التجـارب فعـرف من تقـلب الحدثـان الطريقة المثـلى والدواء النـاجح واسـتفاد من تضارب

الاحـوال أيـة عـدة يجب أن يتـذرع بهـا ويتخـذها مخبأ يقيه هوادى الزمان • هنالك يخرج الله أعداءكم ، ويولى عليكم خياركم والله على كل شى قدير » • وأوصى عرابى بنشر مذكراته حتـى يعلم الناس حقيقة أعماله وآرائه من خير لمصر وأن يطالبوا بحقوقهم حتى يمن الله عليهم (١٥) •

٢ — الحرية والدستور والمجلس النيابى :

كان اختيار عرابى ومطالبته بالدستور وبالمجالس النيابية دعامة ثانية مع الوطنية تعبر عن واقع الامة المصرية وتحميها من تأويل الدين لصالح الاستعباد والاستبداد الداخلى أو الخارجى • وقد كان الدفاع عن حرية المواطن واستقلال البلاد مبدأ دائما فى حياة عرابى قبـل الثورة وأثناء الثورة وبعد الثورة • لما طالع الكتاب الذى أهداه اليـه سعيد عن تاريخ نابليون مترجما الى العربية لم يكن ما يهمه هـو الجيش المدرب الذى فتح به نابليون مصر فى ثلاثين ألفا كما استنتج سعيد بل « حاجة البلاد الى حكومة شورية دستورية » أى الاساس الحضارى الذى يقوم عليه التقدم المادى • وكان معجبا ببيرون نصير الحرية بالرغم من أنه كان يدافع عن حرية اليونانيين لا عن حـرية المصريين ، فالحرية مبدأ واحد وشامل لا يعرف التجزئة • ومن هنا أتت كراهيته لاستبداد الشراكسة والمصريين على السواء • وكان عـرابى يتعجب من كثرة العجائب فى الحكومات المستبدة الظالمة ومنها عـدم مساواة المواطنين الذين يؤدون نفس العمل ولا يأخذون نفس الاجر ،

---

(١٥) لم ينس عرابى مصر وهو فى منفاه فى سرنديب فقد ارسل اليهـا انواعا من البن اليمنى لزراعتها وكذلك أحسن انواع المانجو والموز الاحمر والاصفر المضلع وانواع الحبهان والقرنفل والمغلا الطيبة الرائحة .

وهو ما يفسر ارتفاع مرتبات الجراكسة فى الجيش وانخفاض مرتبات الوطنيين . كانت الحرية مقرونة بالعدل فيقول عرابى ردا على خسرو الشركسى « وما بى والله من شراسة ولكنى جبلت على حب العــدل والانصاف وبغض الظلم والاجحاف » . وقد بلغت ذروة دفاع عرابى عن الحرية فى مظاهرة عابدين العسكرية ومطالبا بحقوق الامة : اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب . فلمــا قال الخديوى « كــل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا » قال عرابى : « لقد خلقنــا الله احرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا . فوالله الذى لا اله الا هو أننــا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » . لم يكن عرابى من أنصــار الملكية أو الخديوية بل من دعاة الشورى وحرية الرأى وحق الامة فى أقامة دستور ومجلس نيابى كامل السلطات . وقد كان ذلك معروفا عن عرابى فى أواخر عصر اسماعيل . فبعد مظاهرة الضباط فى فبراير ١٨٧٨ بزعامة البكباشى لطيف سليم عندما توجه هو ورفاقه الى وزارة المالية للمطالبة برواتبهم المتأخرة واعتدائهم على نوبار وحضور الخديوى لتفريق المتظاهرين ثم اتهام عرابى بتدبير ذلك قــرر عرابى ورفاته الاتحاد وخلع اسماعيل فتلك أفضل وسيلة لحل القضية ويوفر على البلاد ويلات أقلها حمل اسماعيل خمسة عشر مليونا من الجنيهــات معه فى منفاه بعد خلعه . لم يكن هناك وقتئذ من يقود هذه الحركة أو ينفذها . ولقد عم الفرح بعد خلع اسماعيل ، ولــو أمكن تنفيــذ تلك الحركة بالفعل لامكن التخلص من أسرة محمد على كلها ، فلم يكن فيها حاكم صالح الا سعيد . « وكنا نستطيع أن نعلن قيام جمهورية . وقد اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمد عبده أن يقتل اسماعيل

عند جسر قصر النيل ووافقه محمد عبده على ذلك » • وقد تضمن برنامج الحزب الوطنى ذلك نصا يقول « والمصريون يعلمون أن الصمت على حقوقهم لايخولهم الحرية فى بلاد ألف حكامها الاستبداد وكرهوا الحرية • فأن اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم الا سكوت المصريين • وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية فى هذه السنين الاخيرة نعقدوا خناصرهم على توسيع نطاق التهذيب • وهم يرجون أن يكون بواسطة مجلس شورى النواب — الذى انعقد الآن — وبواسطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة ، وبتعميم التعليم ونمو المعارف بين أفراد الامة (١٦) » •

٣ — الفلاحون هم شعب مصر :

عرابى فلاح قاد الحركة القومية ، وكان على معصمه وشم أزرق على عادة الفلاحين • وفى تلك الوقت كان لفظ فلاح قبل عرابى يعنى الجاهل الغبى الفقير القذر ، وكانت تهمة الضباط الشراكسة لجنود مصر ، وكانوا يسمونهم « فلاحين شغالة بالمتاطف » ! وكان الخديوى يسميهم « أولاد الكلب » الذى سيقع على رؤوسهم بقيادة عرابى خراب البلاد أى اهتزاز عرشه • يقول عرابى « وكانوا يطلقون علينا لفظ فلاحين اذلالا وتحقيرا وهم أهل البلاد ، هم الحزب الوطنى حقيقة » • ولكن فى الثورة العرابية ظهر الفلاحون على أنهم أصحاب البلاد والحزب الوطنى ، فاذا كان جمال الدين الافغانى قد أيقظ الغافلين فى المدن فان عرابى قد أيقظ أهل القرى • ولن تتحرك مصر الا اذا تحرك أهل القرى ؛ اتصل عرابى بعدد كبير من مشايخ القرى وأعيانها ، وكانوا يدعون الى

(١٦) الامام محمد عبده : الكتابات السياسية ص ١٦٩ .

تحرير الفلاح ، وأخذ الناس يذكرونه بقولهم « الوحيد » • وقد بدأت آراء عرابى عن نهضة مصر من خلال فلاحيها أيضا أثناء صلته بسعيد وعلى رأسها المساواة بين طبقات الامة وما يجب للفلاح من احترام باعتباره العنصر الغالب فى القومية المصرية • هذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى جعل لعرابى ميزة على مصلحى العصر • فقد كانت حركة الازهر ترمى الى اصلاح حال المسلمين عامة بغير تمييز بينما كانت حركة عرابى فى جوهرها قيامها على القومية والعنصر الوطنى الغـالب فيها وهم الفلاحون • لقد عارض عرابى أن يحفر الجنـود الرياح التوفيقى سخرة ، وكان الغاء السخرة الذى أدعاه كرومر لنفسه من المطالب الاساسية لدى عرابى ضمن مطالبه لاصلاح أحوال الفلاحين مثـل :

١ — ابطال السخرة التى أنزلها الاغنياء من الباشوات التـرك بالفلاحين •

٢ — ابطال احتكار هؤلاء الاغنياء مياه الرى عند زيادة النيل •

٣ — حماية الفلاحين من زبانية الربا من اليونانيين معتمدين على عيوب المحاكم المختلطة •

٤ — انشاء مصرف زراعى تحت اشراف الحكومة •

من حق مصر اذن تكوين حركة قومية مصرية من أبناء الفلاحين فهم مصدر كل سلطة لانهم عماد الثروة ودافعو الضرائب وهم أهل البلاد الحقيقيون •

٤ ــ الجيش الوطنــى :

اذا كان الفلاحون هم شعب مصر فان الجيش هم أبناء الفلاحين المدافعون عن حق مصر ، ومن ثم كان الجيش الوطنى هو ممثل الامــة والمدافع عن حقوق الشعب • وقد ظهر ذلك بوضوح فى الثورة العرابية ثم فى الثورة المصرية الاخيرة فى ١٩٥٢ • كان الوطنيون بزعامة شريف أولا ، وكان العسكريون بزعامة عرابى • ولكن بعد مظــاهرة عابدين العسكرية توحدت الامة شعبا وجيشا عندما ذهب عرابى الى الخديوى على رأس الجند يحمل اليه مطالب الامة والجيش معا وبالتالى أصبحت الثورة تجمع بين السيف والقلم ، والتقى الوطنيون بالعسكرين كأبناء أمة واحدة ، واتفقوا على المطالبة بالدستور كحركة قومية واحدة بلغت ذروتها فى يوم عابدين • يقول عرابى واثر « مخاوفنا على البلاد توجهنا الى الخديوى ، وذيلنا العريضة بامضائى وامضاء اخوانى على فهمى وعبد العال حلمى وأحمد عبد الغفار نيابة عن الجيش ، وأحمد أبــو مصطفى وأحمد الصباحى وعثمان فوزى وغيرهم من وجوه الامة بالنيابة عن جميع المصريين » • لقد عرض عرابى باسم الجيش والامة يــوم عابدين طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وضمان مستقبلها فى مظاهرة عادلة لابد منها لضمان حرية الامة وسعادتها • وقــال عرابى يؤمئذ : « جئتك يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والامة وكلها طلبــات عادلة ••• اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب ، وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها » • كما قال فى مواجهة القناصل « أن الامة قــد أنابت الجيش عنها ••• هذه هى الامة وما الجيش الا جزء منها » • وقال مخاطبا قنصل انجلترا « أعلم يا حضرة القنصل

أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد اليها الا لانهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هــم عبارة عن اخوانهم وأولادهم • فهو القوة التى ننفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة • وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر • انهم الاهالى الذين أنابونا عنهم فى طلب حقوقهم • وأعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ » • وعندما استفســر القنصل عن استعمال القوة أجاب عرابى : « ومن ذا الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا » • وعندما تساءل القنصل عن هذه القوة أجاب عرابى عما هو فاعل اذا لم تجب طلباته قال عرابى : « عند الاقتضاء يمكن أن نحشــد مليونا من العســاكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون اشــارتى » • ولما طلب القنصــل من عرابى عما هــو فاعــل اذا لــم تجب طلبــاته قــال عــرابى : « أقـــول كلمــة أخرى •• لا أقولها الا عند اليأس والقنوط » • وقف عرابى اذن بجيش مصر دفاعا عن حق شعب مصر ولم يتوان عن استعمال القوة اذا اقتضى الامر بل أنه كان صمم على قتل الخديوى اذا ما حاول الخديوى قتله • وقد عاب الاستعمار وأعوانه على عرابى تدخله فى شئون السياسة • وكان قد وعد شريف الا يفعل • ولكن الاستعمار أكل مصر كلها سواء تدخل عرابى فى السياسة أم لم يتدخل • وقد كان قلق الاستعمار المستمر من تدخل الجيش فى المسائل الوطنية ، وكان هم جلادستون هو مايترتب على ذلك من نتائج : وحدة الامة جيشا وشعبا فى مواجهة الاستعمار •

٥ ــ الوحــدة الوطنية :

فى اللحظــات الحاسمة من تاريخ البــلاد عندما يهددها الخطر

الخارجى خاصة تظهر الوحدة الوطنية فى شعب مصرممثلة فى وجهاء الامة والتجار والاعيان والنواب والمديرين والمشايخ ، وممثلة فى وحدة شعب مصر بصرف النظر عن الدين والعقيدة وتصبح الامة ويصبح الوطن محور التقاف الجميع ، ينتسبون اليه ويتحددون به ولاء وانتماء وهوية .

ولقد ذهبت الامة كلها وعلى رأسها عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى على رأس جمهور المصريين لالباس محمد على شارة الحكم ، الكرك والقفطان ، دون أن يرجعوا فى ذلك الى السلطان باعتبارهم ممثلين عن الامة . وقد تكرر نفس الشىء فى الثورة العرابية . فقد كان عرابى حامى حمى الامة من المظالم مؤيدا من العلماء وممثلى الامة . وقد ذهب عرابى الى شريف ليعرض عليه تأليف الوزارة ، وهدده بأنه سيطلب غيره قائلا : « ولا تظن أن ليس بالبلاد سواك . ففيها بعون الله العلماء والحكماء » . وكان للحركة الوطنية فى ذلك الوقت مركزان : مجلس شورى النواب بزعامة سلطان باشا ومركز أهلى هو بيت السيد البكرى نقيب الاشراف حيث كان يلتقى الاحرار من العلماء والنواب والاعيان وضباط الجيش الناقمين على الخديوى والساخطين على الدخلاء . فلقد اجتمع أحرار النواب والعلماء والاعيان والتجار فى بيت السيد البكرى وعزموا على التوجه للخديوى بما يسمى بالائحة الوطنية معترضين على مقترحات ريفرز ولسن بشأن اعلان افلاس مصر مقررين بأن ايراد مصر كفيل بسداد ديونها ، ويطالبون الخديوى بتقرير مبدأ مسئولية الوزارة أمام المجلس وتأليف وزارة وطنية تقوم مقام الوزارة الاوربية . وقد وقع عليها ستون من أعضاء المجلس ومثلهم من العلماء . كما اجتمع سلطان باشا الذى كان يمثل الاعيان مع شريف والوطنيين وعرابى وعلماء الازهر وزعماء حركة الاصلاح وزعماء النواب على ضرورة اسقاط وزارة

رياض وبحث موضوع الدستور • كما حدث اجتماع شعبى آخر فى دار سلطان باشا شهده كبار العلماء والنواب ومعه العرابيون وقاضى القضاة الشيخ عبد الرحمن نافذ والشيخ عبد الهادى الابيارى أمام المعية من أجل الاتفاق على رفض اللائحة والاصرار على رجـــوع عرابى ناظرا للجهادية • وقد مثل الجميع وحدة الامة بطبقاتها المختلفة • واطمأن السلطان على أثر زيارة نظامى باشـــا لشيخ الجامع الازهر ونقيب الاشراف وبعض كبار العلماء وثقاتهم على الجيش وولائـــه للامـــة وللسلطان بالرغم من غياب عرابى فى رأس الوادى • وكان عرابى يتصور الامة أسرة واحدة تربطها روابط الابوة والبنوة والاخوة والقرابة • ويقول فى مذكراته الى محامية « كنت محبوبا عند جميع الشعب المصرى، محبا لخير العموم ، موثوقا بأمانتى وشرفى ، وانه ليس لى غاية شخصية كما يزعم المبطلون بل غايتى الوحيدة هى تحرير بلادى ورفاهية أهلها وتمتعهم بخيرها فى ظل حكومة شورية عادلة تعطى الحقوق لاربابها بدون فرق بين الاهلين والاجنبيين حتى يكون جميع سكان مصر كانواحد بدون فرق بين تعدد المذاهب والاعتقادات اذ الـــكل انســـان تجمعنا جامعـــة الانســـانية » •

وبالتالى تجلت الوحدة الوطنية فى مصر بوجه خاص بين طوائفهـــا الثلاث ، وكان زعماؤها يوقعـــون على المطالب الوطنية ويحضرون اجتماعات ممثلى الامة • فقد وقع شيخ الازهر والبطريك والحاخام على العريضة الموجهة الى الخديوى بالاعتراض على اللائحة التى تعلن افلاس مصر • كما ذهب المفتى الاكبر الشيخ العباسى وشديد بطرس أحد كبار نواب الاقباط مع عرابى لعرض الوزارة على شريف بعـــد استقالة رياض • كما قام الى الخديوى وفد من رؤساء الاديان : علماء

الاسلام وبطريك الاقباط وحاخام اليهود مطالبين باعادة عرابى وزملائه •
وعندما ظهرت بوادر اعتداء الاسطول الانجليزى قرر المجلس العرفى دعوة جمعية عامة تضم رؤساء الاديان والعلماء ووجوه الامة • فحضر أربعمائة عضو فى مقدمتهم رؤساء الاديان : علماء الازهر فى مقدمتهم شيخ الاسلام الامبابى وقاضى قضاة مصر والمفتى والشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد عليش والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى وشهده بطريق الاقباط ووكلاء البطريكخانات وحاخام اليهود •
وقد آزر عرابى جميع رؤساء الاديان ، وكان المسلمون والاقباط والاسرائيليون يتنافسون فى نجدته • فهى حرب المصريين ضد الانجليز • كان الفلاحون والبدو يتسابقون الى الحرب مشوقين الى قتال الانجليز ، وشمل الحماس الاقباط ، ويشجعهم على ذلك رؤساؤهم •
وفى ذلك قال محمد عبده :

والمسلمون وكل القبط فى نهج
مع اليهود كأن لا دين يأويه
نادوا بأجمعهم هذه مواطننا
وطارق السوء فيها لانخليه

وقد ذكر بلنت فى وصف تلك الوحدة الوطنية أن عرابى كان متجها نحو الانسانية كلها بغير تفرقة من جنس أو عقيدة • لم يكن فيه شىء من التعصب اذ كان التعصب معناه التفرقة الدينية ، وكان على استعداد مستمر للتعاون من أجل قضية الحرية مع اليهود والنصارى أو الكفرة • وكان الحزب الوطنى حزبا سياسيا يجمع طوائف الامة بصرف النظر عن الدين •

والغريب أن حجة الانجليز لاحتلال مصر وبداية مذبحة الاسكندرية كانت للدفاع عن المسيحيين ضد اضهاد المسلمين ، وحماية للاوربيين ضد اضطهاد الوطنيين ! كانت الحجة فى مذبحة الاسكندرية كما يدعى مالت وبعد رجوع عرابى الى الوزارة أن القوم يعدونه ايذانا باخراج المسيحيين من مصر وارتجاع الارض التـــى يمتلكهـــا الاوربيون أو يرتهنونها . كما يعدونه ايذانا بالغاء الدين العام ويحذر من وقوع أى تصادم فى أى وقت بين المسلمين والمسيحيين ! والحقيقة أن الذين بدأوا المذبحة هـــم الاوربيون أنفسهم بتدبير من الخديوى ومحافظة الانجليز والقناصل . فقد كان الخفراء يشاركون فى الفتنة ويقتلون المسيحيين عمدا فى حين لا يفعل الوطنيون ذلك . وكان الاوربيون على لسان كرومر يروجون لمثل هذه الطائفية ويلقون تبعتها على الوطنيين فى حين أن زعماء الثورة العربية مثل أحمد باشا المنشاوى قد آوى فى بيته نحو ثلاثين من الاوربيين والمسيحيين فى فتنـــة طنطا فى حمايته ورعايته حتى انتهت الحرب . وقد تعهد عرابى باعتباره ناظرا للجهادية بصيانة الاموال والارواح وحفظ سكان البلاد على اختـــلاف طبقاتهـــم ومعتقداتهم وتبعيتهم . وزار عرابى الشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر وطلب منه أن يذيع فى الناس نداء يحثهم فيه على الهدوء والسكينة ويطلب اليهم وفقا لتعاليم الدين الاسلامى الا يعتدوا على أموال اليهود والنصـــارى ولا على أرواحهم . طالب عرابى بالمحافظة على الاوربيين فهم دين فى عنق المسلمين . ويقول عرابى فى مذكراته لمحامية « الاوربيون أخواننـــا فى الانسانية حتى ولو كـــان انجليزيا اذ أنه لا يعد محاربا الا الذين بأيديهم السلاح فى ميدان الحرب . ومن أراد منهم التوجه الى بلاده فعلينا حفظه وصيانته كما نحافظ على أنفسنا وأولادنا الى أن يبلغ مأمنه حسب أحكام الشرع الحنيف » . ولما سمع عرابى أن العربان قد قتلوا

رجلا قبطيا وزوجته وتركا طفلا صغيرا رضيعا كتب الى المديرية فى الحال بالقبض على القتلة والمحافظة على حياة الرضيع • ولم يزل عرابى يتذكر صورة الطفل الرضيع ، ولم تفارقه حتى آخر يوم فى عمره • بل لقد كتب عرابى رسالة الى بلنت فى هذا الموضوع سماها « اماطة الباطل عن وجه الحق المبين » يدحض ظلم الشراكسة وفى نفس الوقت يصفهم بأنهم اخوان للمصريين فى الدين وبحكم الانسانية والشرع الشريف الاسلامى الذى يحرم بيعهم واسترقاقهم • كان عرابى يعتبر نفسه بحق زعيم الامة المصرية قائلا : « وكنت أنا القائد لتلك الامة العظيمة لرفع الامة المصرية من هاوية الذل والهوان الى أوج السعادة والرفاهية بدون سفك قطرة دم واحدة مع وجوب المساواة بين العموم بدون مراعاة الجنسية وبصرف النظر عن اختلاف المذاهب والملل والنحل الدينية » وقد رقى عرابى الضباط الاقباط المستحقين ورقى بطرس باشا الى أعلى رتبة نظرا لان الاقباط فى مصر كانوا مهانين مثل اخوتهم المسلمين سواء بسواء •

كان الدين فى الثورة العرابية بداية الثورة ومنطلقها ، كما كانت الثورة نهاية الدين وغايته • وبالتالى ظهر الاسلام كثورة وظهرت الثورة وكأنها هى الاسلام الوحيد • فالدين بلا ثورة خيانة • والثورة بلا دين لا تبقى ولا تستمر فى شعب مصر •

الثورة الإيرانية والثورة العربية

ان أعظم تحية بمناسبة الذكرى السنوية العاشرة لرحيل الزعيم المناضل جمال عبد الناصر هو عزاؤه فى الثورة الايرانية التى هى فى واقع الامر تجديد لشباب الثورة العربية واحياء لمشروعها واقالة لها من عثراتها • فالثورة الايرانية تفجير للناصرية من جديد منبثقة عن الاسلام ومجندة للجماهير تحت زعامة رجال الدين ، وبالتالى فهى ناصرية جديدة تعيد صياغة المشروع القومى الذى صاغة عبد الناصر دون أساليبه • والعلاقة بين الثورة الوطنية التى قادها مصدق فى أوائل الخمسينات والثورة الاسلامية التى قادها الخمينى فى أوائل الستينات والثورة المصرية علاقة تعاون وتآزر وجبهة أمام عدو مشترك هو الاستعمار والصهيونية • وان نجاح الثورة الاسلامية أخيرا على يد الخمينى فى أواخر السبعينات لهو العزاء لانتكاسات الثورة المصرية بعد اختفاء القيادة الثورية التى مثلها ناصر فى أوائل السبيعينات •

أولا : عقل الثورة :

وبعد انتصار أروع ثورة شعبية فى تاريخ الاسلام الحديث ، بعد

---

(١) كتب هذا المقال فى مايو ١٩٧٩ بعد انتصار الثورة الايرانية بشهرين ، ثم ارسل لمجلة « قضايا عربية » التى ارسلته بدورها الى مجلة « الكاتب الفلسطينى » . ولكنه لم ينشر حتى الآن . ومازال يحمل الطابع الرومانسى للثورة الاولى .

انتصار الاسلام فى نشأته الاولى ، وتكوين الامة الاسلامية فى دولة شملت العالم القديم كله ، ثورة ايران العظمى التى جددت آمـال المسلمين ، وحققت مطالب الافغانى فى قلب الملوك والطغاة والامـراء الفاسدين ، وأذناب الاستعمار ، والتحرر من السيطرة الاجنبية على مقدرات البلاد ، هذه الثورة التى جاوزت الثورة الفرنسية والثـورة البلشفية وجميع ثورات التحرر فى هذا القرن فى العالم الثالث ، وقفت الثورة العربية منها حتى الآن موقف المتفرج الذى يشاهد حدثا لايهمه فى شىء بالرغم من أنها تجديد لشباب الثورة العربية ، وعود لصياغة المشروع القومى للامة العربية الذى بلوره ناصر ، والخمينى ناصر جديد، أو موقف المتعاطف العاجز الذى لايستطيع المناصرة أو حتى التعبير عن التأييد والمساندة فى وقت تعلن فيه الثورة الايرانية على الاقل مناقضتها للصهيونية وضرورة تحرير الاراضى المحتلة ليس فقط بعد هزيمـة حزيران ١٩٦٧ ولكن أيضا تلك التى ضاعت قبل مأساة ١٩٤٨ . « اليوم ايران ، وغدا فلسطين » ، وفى الوقت الذى بلغت فيه الامانى العربيـة لجميع الانظمة تحرير الاراضى المحتلة بعد هزيمة حزيران ، وتحقيق الامانى المشروعة لشعب فلسطين وحقه فى تقرير مصيره ، وتكوين دولته المستقلة ، وكأن الاراضى المحتلة منذ ١٩٤٨ ليست أرضى عربية ، وكأن حقوق شعب فلسطين هى مجرد تكوين دولة مجاورة لدولة اسرائيل . وفى مقابل ذلك يتم الاعتراف باسرائيل ، وقبول الصهيونية على قـدم المساواة مع الاسلام والعروبة ، وكأن حلم جيلنا فى معاداته للصهيونية على أنها حركة عنصرية توسعية استيطانية كان وهما ، وكأن عمرنا قد ضاع ضحية خداع كبير ، خداع القول والمزايدة ، أو موقف الحكومات المؤيدة بالبلاغات الرسمية ، وأحيانا بالزيارات المتأخرة . وكان أقصاها

زيارة رئيس المقاومة الفلسطينية للخمينى ، وقبلة على جبينه ، ومكتبا للمقاومة ، وتعاونا وثيقا بعد الثورة كما كان الحال قبلها لتدريب الفدائيين • ولكن مازالت الحكومات الثورية العربية متحرجة من تجاوز مرحلة التأييد الرسمى • فما زال اختفاء الامام موسى الصدر حجر عثرة بين تلاحم الثورة الايرانية والثورة الليبية • وما زال العراق متخوفا من أى تحرك لجماهير الشيعة فيه بعد انتصارهم الساحق فى ايران بقيادة الائمة • وتخشى سوريا من التأييد الفعلى بعد اصطدامها بالثورة الفلسطينية على أراضى لبنان ، وعجزها عن صد الاعتداءات الاسرائيلية فى الجنوب أو صمتها عن تحرير الجولان • والثورة الجزائرية صامتة بعد رحيل بومدين ، تشغلها حروب الصحراء ومعارك الحدود مع جيرانها العرب • واليمنان يقتتلان شمالا وجنوبا • والباقى تخلى عن الثورة العربية كلية ، وبالتالى نظر الى الثورة الايرانية بعين الريبة والحذر ، تخوفا من امتداداتها فى الجزيرة العربية أو فى مصر على أيدى فقهاء السنة أو الجماعات الدينية النشطة • وقامت مصر وحدها بالهجوم على الثورة الايرانية وعلى زعيمها ، فالطرفان النقيضان لايلتقيان • وأخيرا خرجت الثورة العربية عن صمتها عن طريق أجهزة الاعلام التى نقلت ماتقوله وكالات الانباء الغربية التى ليس لها أية مصلحة فى تقرير الحقائق والتى تعمد الى تشويه وجه الثورة الايرانية ، باستثناء بعض رجال الاعلام بمبادرتهم الخاصة الذين حاولوا اعطاء الثورة الايرانية حقها اما بالكتابة عنها عن بعد أو بعد معايشة الثورة عن قرب ، وبعض الكتابات الموضوعية الاجتماعية دون ربط بين الثورتين الايرانية والعربية ، بالاضافة الى بعض الاحاديث المترجمة الى العربية على لسان قادة الثورة الايرانية فى المجلات العربية

وعن نشاط أئمة الشيعة والمقاومة الفلسطينية فى لبنان فى نشر أعمال زعيم الثورة الامام الخمينى مثل « موقف الامام الخمينى تجاه اسرائيل » ، واعداد طبعة ثانية له ، تزيد من نصوصه بعد ١٩٧٤ حتى انتصار الثورة الايرانية ، وكذلك « دروس فى الجهاد والرفض » ، واعداد طبعة ثانية له بعنوان « دروس فى الجهاد » بعد أن أصبحت كلمة الرفض تغضب الجميع . كما نشرت مجلة « صوت الخليج » « الحكومة الاسلامية » فى طبعة جديدة (٢) ، وقام علماء النجف الاشرف بطبع « تحرير الوسيلة » فى جزءين ، وملخص له « من هنا المنطلق » ، وكذلك « جهاد النفس أو الجهاد الاكبر » (٣) . ولكن مازال أئمة الشيعة العرب سواء فى الكويت أو فى العراق أو فى لبنان ، وهم حلقة الوصل بين الثورة الايرانية والثورة العربية لم يجندوا أنفسهم لتلاحم الثورتين ، وكأنهم يبخلون على الثورة العربية بتجديد شبابها ، وكأن معرفتهم باللغة الفارسية ميزة لهم وحدهم على الجماهير العربية دون أن يشاركونها فيها .

ولكن بقى السؤال : أين مثقفو العرب ، ومنظرو الثورة العربية ؟ أين مفكرو القومية العربية ودعاة حركة التحرر العربى ؟ أين فلاسفة البعث والناصرية والنظرية الثالثة ؟ أين العقل العربى الذى نظر للثورة العربية على مدى ربع قرن وهو يرى صيغة جديدة تجدد شباب الثورة

---

(٢) قام كاتب هذا المقال باعداد طبعة عربية مع تقديم لكتاب « الحكومة الاسلامية فى مصر » فى سبتمبر ١٩٧٩ .

(٣) قام كاتب هذا المقال ايضا باعداد طبعة عربية لهذا الكتاب « جهاد النفس أو الجهاد الاكبر » فى مصر فى يونيو ١٩٨٠ .

العربية دون أن تعود اليه حيويته ويزدهر من جديد منطقه ؟ لقد آن الاوان للعقل العربى وللعقل الايرانى أن يتلاحمان من خلال الثورة العربية والثورة الايرانية • فالثورة واحدة ، وعقل الثورة واحد ، وتنوع التجارب واختلاف الاوضاع اثراء للعقل والثورة معـــا •

والاخطر من ذلك الانفصال بين عقل الثورتين هو تشوية أجهـــزة الاعلام فى مصر للثورة الايرانية حتى ينفر الناس منهـــا ويعادونها وبالتالى تقـــل مخاطرها كبؤرة جذب جديدة للجماهير العربية التى مازال قسم كبير منهـــا يتحسر على انحســـار الثورة عنه بل تحولها الى ثورة مضادة يجد نفسه فيها ؛ فيحن الى الناصرية ، ويتوحد معها من جديد ، وينسى مواقفه النقدية منها • فقد صورت أجهزة الاعـــلام الثورة الايرانية كالآتى :

١ ــ أنها ثورة عقائد الشيعة الخاطئة التى رفضها أهل الســـنة وكفرتهم فيها وعلى رأسها عصمة الائمة بل وألوهيتهم حتى تنفـــر جماهير أهل السنة من الثورة الايرانية • فالعقيدة الخاطئة لابـــد وأن تنتج منها ثورة خاطئة • مع أن هذا التشوية ذاته مردود عليه فى عقائد السنة ، وهو أن العقائد الظنية على مستوى النظر اذا ماتولد عنهـــا نفع يقينى على مستوى العمل فان المحك هو العمل وليس النظر ، حالها مثل أخبار الآحاد التى تكون ظنية فى النظر يقينية فى العمل ، أى لاتكون أساسا للعقيدة بل تكون معيارا للسلوك • ولحسن الحظ فجماهير أهل السنة لا علم لها بالتاريخ ولا بالتراث ولا بالعقائد • وماقيل عن عصمته الائمة وادعائهم النبوة والالوهية لم يحدث أثره المرجو ، وظلت جماهير أهل السنة بوجدانها مع ثورة ايران الاسلامية الكبرى وان لم تستطع

فى مجموعها ادراك الهدف من هذا التشوية نظرا لتزييف وعيها القومى من خلال أجهزة الاعلام •

٢ — انها ثأر شخصى بين الشاه والائمة على ماهو معروف فى تاريخ الاسلام الحديث • هناك ثأر بين حكام ايران وأئمة الشيعة ، يحاول كل فريق اغتيال الفريق الآخر منذ جمال الدين الافغانى ومحاولة أنصاره اغتيال الشاه حتى اغتيال الشاه للسيد مصطفى ابن آية الله الخمينى فى العراق • وبالرغم من أن الاخذ بالثأر وارد فى حياتنا العامة ولا يحتاج الى اقناع الجماهير به الا أن الثورة الايرانية لم تهتـــز فى وجدان الجماهير وذلك لان الاخذ بالثأر لديهم واقع معاش وتجربة شخصية ، يعانيها قريب المقتول ، وليس فكرة أو قانونا مجردا أو صوتا تاريخيا يتحكم فى مصائر الشعوب ، ويسبب اندلاع الثورات وانتصارها •

٣ — انها مجرد حقد شخصى بين الشاه والائمة بعد أن أستولى الشاه على أراضيهم ووزعها على الفلاحين المعدمين ، وبعد أن أستولى الشاه على أملاكهم ، وحاول تحديد مصادر أموالهم وحرمانهم من ريع الخمس حسب الفقه الجعفرى حتى يبدو الشاه أكثر حرصا على مصالح الامة وأكثر عدالة فى التوزيع ، وأكثر دفاعا عن الفلاحين المعدمين ضـــد اقطاع رجال الدين ، وتحديدا لثرواتهم ، وتطبيقا لقانون الكسب غـــير المشروع أو لقانون من أين لك هذا الذى مازال يلهب خيال الطبقـــات الكادحة فى مصر ، ويخفف من حدة ثورتها على الاغنياء والمترفين بمجرد ذكره فى الصحف ، وتوزيع استمارات مصادر الدخل ، وتحديد موعـــد أقصى لتسليمها والا وقع الاغنياء تحت عقاب الدولة العادلة ! ولحسن

الحظ لم يحدث التشوية المقصود وذلك لان صورة رجال الدين فى مصر هى صورة فقراء الازهر وعلماء الريف فى حين أن الحكام والامراء هم أصحاب الارض والملاك .

٤ — ان الثورة الايرانية هى انتصار رجعية الائمة على تقدمية الشاه فيما يتعلق بحقوق المرأة الايرانية والحجاب وتعدد الزوجات وفيما يتعلق ببناء الدولة الحديثة وتأسيسها على التاريخ القومى وفصل الدين عن السياسة . فى حين أن الائمة رجعيون يريدون للمرأة الحجاب ، ويريدون للرجل الابقاء على تعدد الزوجات ، يتدخلون فى شئون الدولة ، ويريدون التنكر لتاريخ البلاد الوطنى من أجل اقامة حكم دينى فى البلاد . ولكن هذا التشوية لم يحدث أثرة السلبى لان جماهير أهل السنة محافظة ولاترى حرجا فى الحجاب أو فى تعدد الزوجات . كما أنها لاتفصل بين الدين والسياسة ، ومازالت مشاعرها اسلامية أكثر منها قومية ، ورؤيتها فشل الحركات القومية الاخيرة وهزائمها المتتالية وكأنها لم تعش ثوراتها الاخيرة الا على السطح فى حين أن الاعماق ظلت اسلامية ، رصيدا لاية حركة اسلامية جامعة .

٥ — بعد أن لم يفلح هذا التشويه اليمينى للثورة الايرانية قيل انها اذن ماركسية كما قال الشاه من قبل واصفا قادتها بأنهم مسلمون ماركسيون ، تهدف الى تطبيق الماركسية فى ايران . ولما كانت الماركسية عدوة للاسلام ، وناكرة للاديان ، شيوعية ملحدة فانه تجب مقاومتها باسم الدين . ولكن لحسن الحظ أيضا لم يحدث التشويه المطلوب وذلك لان الجماهير سمعت نداء « الله اكبر ، قاصم الجبارين » الذى كان يصدر به الامام الخمينى نداءاته لشعب ايران المسلم ، كما رأت تهاوى

نظام الشاه الذى يقوم على الظلم والطغيان ، ويمارس أبشع أنواع التعذيب والهوان على يد الصناديد أو الخالدين ورجال الشرطة السرية • والواقع فى النهاية أصدق من القول ، والمشاهدة أوقع من السماع •

٦ — انها ثورة دموية تقوم على العنف والقتل وسفك الدماء ، وهذا مما يأباه الاسلام ، دين المحبة والتسامح ! ولكن لحسن الحظ أن الجماهير كانت تسمع أيضا عن سفك الشاه للدماء ، وعن المجازر التى أقامها لشعب ايران المسلم ، وعن المذابح التى راح ضحيتها فى يوم واحد مثل ١٥ خرداد (حزيران) ١٩٦٣ مايقرب من عشرين ألف شهيد ، وعن الفظائع التى ارتكبها رجال الجيش والشرطة ضـــد المسجونين السياسيين وفظائع التعذيب البدنى ، ورش مئات المواطنين من الطلبـــة والعلماء بالاسلحة الرشاشة • فأين كان دعاة المحبة والتسامح فى ذلك الوقت ؟

٧ — انها ثورة مضادة لحقوق الانسان ، يتم فيها سجن المواطنين بالمئات دون توافر شروط الاعتقال الضرورية التى نصت عليها حقـــوق الانسان والتى تتم فيها المحاكمات من اللجان الثورية الاسلامية دون توافر الحد الادنى من حقوق الدفاع • ولكن الجماهير التى أيضا عانت من الطغاة والمستبدين والتى مازالت الشريعة الاسلامية فى وجدانها ترى أن جزاء القتل هو القتل ، وأن رجال الشاه قـــد قتلوا بالآلاف من المواطنين الابرياء ، وأن جريمة الافساد فى الارض هو القتل فى الاسلام بل الصلب وقطع الايدى والارجل من خلاف • وقد حضر بقايا الاموات، ومشوهوا التعذيب كشهود ، كما اعترف رؤساء الشرطة السرية ، وتعرف

المشوهون عليهم • ولماذا تظهر الرحمة فى دين الله الآن بعد أن كانت غائبة أيام حكم الشاه ؟

٨ — قيل أخيرا ان الثورة الايرانية قد انضمت الى جبهة الرفض العربية ، وأنها قطعت علاقاتها مع مصر ، وتدعو الجماهير الاسلامية لقلب النظام ، وتحاصر مصر فى المؤتمرات الاسلامية • وتقطع عنها البترول • ولكن الجماهير المسلمة تعلم أنه لايجوز شرعا الصلح مع بنى اسرائيل بنصوص القرآن الصريحة التى تحرم الموالاة لهم (٤) • كما أنه لايجوز الصلاة فى الارض المغصوبة • فلا أصبحت السيادة المصرية كاملة على سيناء ، ولا تحررت الاراضى المحتلة بعد هزيمة حزيران ، وتم الاعتراف نهائيا باستيلاء الصهيونية على أراضى فلسطين سنة ١٩٤٨ • بل وتم قبول الصهيونية كعقيدة نعترف بها ، ونهىء الاجيال القادمة على التسليم بها • ان الخروج على اجماع الامة الاسلامية جزاؤه الاخراج من الجماعة ، ويكون حكمه حكم الارتداد على الدين •

لقد آن الاوان للمفكرين العرب ومنظرى ثوراتهم أن يقوموا بواجبهم تجاه الثورة الايرانية ، ومحو هذا التشويه المتعمد فى أجهزة الاعلام ، وأن يدخلوا عقل الثورة الايرانية • كما أن من واجب علماء الدين لدينا أن يقوموا بمهمة أصعب من تهمة المثقفين الثوريين العرب وهى اعادة النظر فيما كتب عن الشيعة والامامية فى كتبنا القديمة فى

---

(٤) انظر العدد الاول من مجلة « اليسار الاسلامى » ، « هل يجوز شرعا الصلح مع بنى اسرائيل ؟ » لكاتب هذا المقال ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٨٠ •

علم أصول الدين ، وفى كتب الفرق التى كتبها أهل السنة اذ أن من شروط النقل والرواية الا ينقل الراوى أقوال الخصوم حتى لايشوهها عمدا . أن مانقلته كتبنا القديمة عن الشيعة مثل القول بالتجسيم أو تأليه الائمة أو ادعائهم للنبوة أو القول بالعصمة والتقية والرجعة تجب مراجعته ووضعه فى سياقه التاريخى ووضع حد له لانه لم يعد معاصرا أو يلزم المعاصرين بشىء . وفى مقالات أهل السنة أشنع وأفظع . فقبل أن نأمر الناس بالبر علينا ألا ننسى أنفسنا ، وقبل أن نطالب الآخر باخراج القشة من عينه علينا أولا أن نخرجها من عيوننا . ولقد بدأ الشيخ شلتوت رحمه الله ذلك عندما أفتى بجواز الاخذ باجتهادات الفقة الجعفرى . كما بدأه الامام القمى بمحاولته فتح الحوار من جديد بين اتجاهى الامة الرئيسيين الباقيين فى التاريخ : الشيعة والسنة . بل ان علينا رد الاعتبار للشيعة ولائمتهم . فقد كان الصراع بين السنة والشيعة صراع قوى غير متكافىء ، قوة الدولة السنية المغتصبة على يد معاوية وابنه يزيد وقوة المعارضة الشرعية التى قادها آل البيت بقيادة على والحسين وباقى الائمة . ولكن للاسف انحسم الصراع لصالح القوة عى حساب الشرعية . ولم تنجح محاولة الخروج المستمرة التى قادها آل ابيت ، بل كان جزاءهم القتل والتشريد . وأصدر مالك فتوى بجواز امامة المفضول مع وجود الافضل ، فأصبحت القوة شرعية ، وانتهت الشرعية الى المقاومة السرية ، فظهرت الامامية كايديولوجية للمعارضة يقودها الائمة ضد الدولة السنية القائمة التى اعتمدت على فتاوى رجال الدين لديها بعد أن أغدقت عليهم العطاء عن رضى بالرشوة ، وأرهبت وعذبت ونفت وطردت من لم يرض منهم ،

ومع ذلك ظلت ثورة الحسين واستشهاده فى كربلاء نقطة تحول فى تاريخ المسلمين جميعا : شيعة وسنة • وسيظل الامام الحسين سيد الشهداء عند الجميع ، وفيـه يلتقى السـنة والشيعة من جديد لمقاومة الظلم والطغيان والتشبث بالشرعية الاسلامية •

كما أن مهمة مثقفينا العرب مراجعة تصوراتنا القومية العربية بعد أن أحطناها بالغموض أحيانا وجعلناها قائمة على التاريخ والدين واللغة فى أحسن الفروض أو على العرف فى أسوء الفروض • ولما كانت النعرات القومية قد قامت فى الغرب فى القرن الماضى على العرق فان أسـوء الفروض لدينا هو الذى ساد عقليتنا الشعبية • وفى الوقت الذى قامت فيه الثورة الاسلامية فى ايران ضد النعرات الايرانية التى كان يغذيها الشاه ، حفيد رستم واسفنديار ، وخليفة دارا وقورش ، وبعد احتفاله بمرور ألفين وخمسمائة عام على ميلاد الامبراطورية الايرانية • وتشييد نصبه التذكارى على مداخل العاصمة ليراه كل زائر أجنبى هابط الى ايران يكون دور مثقفينا الثوريين هى اعادة النظر فى صياغاتنا القومية والتطرف العرقى • فبين الثورة الايرانية والثورة العربية حاليا تلاحم فى المصير والهدف ، واتفاق فى المصالح ، وأمامهما مخاطر مشتركة • والحقيقة أنهما ثورة واحدة ذات جناحين • وان صدى المشرق الاسلامى فى ايران ليبلغ مداه فى المغرب الاسلامى ، وصداه فى تركيا ليس بأقـل منه فى السودان • وبالتالى يستطيع عقل الثورة أن يفوت على الاستعمار أغراضـه بتفتيت نهضـة الاسلام الجديدة وتقسيمها بين الشـعوب الاسـلامية الكبرى : الايرانيـون والاتـراك والعرب والبربر اليوم ،

والباكستانيون والاندونيسيون والصينيون والفلبينيون والاذربجانيون غدا .

ثانيا : الثورة الايرانية ومدلولاتها بالنسبة للثورة العربية :

ان عقل الثورتين يبين لنا أن الثورة الايرانية يمكنها أن تكون نموذجا للثورة العربية وهى فى حالة تعثرها الاخير ، كما يمكن للثورة العربية أن تستخلص دروسا من الثورة الايرانية تقيلها من عثراتها وأهمها :

١ — قامت الثورة الايرانية على أساس جبهة عريضة تضم كافة القوى الوطنية الدينية واليسارية بكافة فصائلها والليبرالية الوطنية فى برنامج واحد يقوم على اسقاط نظام الشاه والقضاء على الطغيان والاستبداد السياسى ، واعادة توزيع الثروة فى البلاد ، واقامة جيش شعبى لخدمة الاهداف القومية ، والخروج من سياسة الاحلاف ، ولعب دور الشرطى الامريكى فى الخليج ، ورفضها أن تكون خنجرا موجها الى ظهر الثورة العربية وعميلا مباشر لاسرائيل . وبالتالى قام الشعب كله وراء الجبهة الوطنية والقيادة الواحدة فى اتجاه الثورة ورفض الدعوات الاصلاحية لاقامة حكومة دستورية وطنية فى اطار النظام الشاهنشاهى وكانت الزعامة الدينية الممثلة فى شخص الخمينى هى أكثر الزعامات قدرة على تحريك الجبهة الوطنية وأشدها حسما وصراحة بالنسبة لنظام الشاه ، وبالتالى أصبح الخمينى زعيما للشعب الايرانى بجميع اتجاهاته السياسية . ولكن لسوء الحظ جاءت ثوراتنا العربية دون القيام بمثل هذه الجبهة بل ممثلة لتيار واحد هم الضباط الاحرار فى مصر بل ودخولهم فى صدام مباشر مع كافة القوى الوطنية الاخرى

الاسلامية الممثلة فى الاخوان المسلمين والتقدمية الممثلة فى الاحزاب الشيوعية ، والوطنية التقليدية الممثلة فى حزب الوفد . وظلت الثورة تضرب مرة هذا الاتجاه ومرة ذلك الاتجـاه حتى دخلت فى صراعـات متتالية أفقدتها ركائزها الشعبية . واضطرت بعد ذلك الى الاعتماد المستمر على قوات الجيش فى أحسن الاحوال وعلى المخابرات وقـوات الشرطة فى أسوء الاحول . وفشلت المحاولات المتعددة لبناء تنظيـم سياسى لانه لم يكن يمثل أى تيار وطنى فملاه الانتهازيون ، وأداره البيروقراطيون ، ومازال الامر حتى الآن . تصطدم ثوراتنا بالاتجاهات الوطنية فيها وتقضى عليها دون أن تجد لها البديل بالرغم مما يقال عن جماهير ثورة ٢٣ يوليو أو جيل اكتوبر . وقد حدث نفس الشىء فى الثورات العربية الاخرى عندما قامت بتيار سياسى واحد هو التيـار البعثى أو حتى بأحد أجنحته مع معارضته الاحزاب الاخرى وأجنحة البعث الاخرى لدرجة التخوين المتبادل أو الاحـلاف المؤقتة بـين الماركسيين والبعثيين ثم الاتهامات المتبادلة التى يعقبها الطرد من التحالف ثم السجن والاعتقال لاحد الاطراف . استحالت المعارضة فى نظمنا الثورية وسادها جميعا الرأى الواحد ، رأى الزعيم أو القائد أو الرئيس أو على أكثر تقدير رأى جناح الحزب أو رأى الحزب . فأصبح الوطنى واحدا والباقى خونة عملاء ، والبرىء واحد والكل متهمون مدانون ، والقادر واحد والكل عاجزون أهل كلام . ثم تصفى كل ثورة رجالها حتى لايبقى منها أحد ، ويكون رجال الثورة خارج البلاد أكثر من رجال الثورة داخل البلاد ، فيعملن الثورة من الخارج أو يندرجون فى الحياة العامة وينسون الثورة . تأخذ الثورة العربية اذن الدرس من الثورة الايرانية فيما يتعلق بضرورة انشاء جبهة وطنية تضم كل الوطنيين ،

وتشمل كافة الاتجاهات الثورية ، ويكون لها جميعا الحق فى التعبير على قدم المساواة ، وتكون الممارسة الثورية هى وسيلة صهر هذه الاتجاهات وابرز زعامتها الاكثر بصيرة بقوى الشعب وبمسار الثورة • ولقد قامت الثورات جميعا بالجبهة الوطنية فى كوبا وفيتنام • بل أن الضباط الاحرار قبل اندلاع الثورة كانوا على اتصال مستمر بكافة القوى الوطنية من اليمين الى اليسار • ولكن بعد وقوع الثورة يتم الاستئثار بالحكم والصراع على السلطة حتى تدور الثورة على عتبيها فتعمل عكس ماقامت لاجله بالاعتماد على القوى الخارجية بما فيها قوى الاحتلال وأعداء الثورة •

٢ — لم تنشب ثورة ايران فى أواخر ١٩٧٨ وانتصرت فى أوائل ١٩٧٩ على مايبدو الامر من الخارج ولكنها بدأت منذ انقلاب الجيش ضد حكومة مصدق الوطنية التى أممت البترول ، وفر على أثرها الشاه • ولما بدأ الجيش باضطهاد الوطنيين وعودة الشاه والتنكيل بهم نظم الوطنيون حركات سرية تحت الارض لمقاومة الشاه والاستمرار فى النضال حتى كانت التيار السياسى الوحيد فى البلاد الذى التف الشعب حوله • فاذا ماحان الوقت انفجر هذا البركان الكامن الى سطح الارض، واندلعت الثورة تحرك الجموع على مدى سنتين ، وبلغت ذروتها فى الستة أشهر الاخيرة قبل انتصار الثورة • ويدل ذلك على أن النضال المستمر له صور عديدة فان استحال العلنى أمكن السرى دون التوقف • فاذا ماتم اكتشاف خلية نشأت خلايا أخرى ، واذا ما سقط شهيد أو أغتيل مناضل تقدم الشهداء والمناضلون بدلا عنه • بل أن الثورة مازالت مستمرة بعد انتصارها • ولم يتوقف البركان الثائر على سطح

الارض حتى تصفية عملاء نظام الشاه ورؤساء الشرطة السرية ، وبقدر قوة السر تصبح قوة العلن ، وبقدر قوة المياه الجوفية تظهر قـــوة المياه المتدفقة • ولكن يبدو أنه فى ثوراتنا العربية فى بدايتها حدث ذلك فقط فى الجيش • فقد كانت تنظيمات الضباط الاحرار سرية قبل اندلاع الثورة • كانت هناك تنظيمات سرية أيضا عند الاخوان فى الجهاز السرى وعند الشيوعيين ولكنها كانت تنتمى لحزب أو لطائفة مثل الجيش والجماعة الدينية والشيوعيون ، وبالتالى لم تكن لهـا قاعدة شعبية عريضة • وكانت قصيرة المدى ، سرعان مايتم كشفها ، ويقبض على قياداتها ، وحل خلاياها فلا تتحرك جماهير الشعب لمساندتها وكأن الامر لا يعنيها أمام غرباء عنها • وكانت متنافسة فيما بينها ، كل منها يعمل لمذهبه الخاص قبل أن يعمل للصالح العام • كانت منعزلة عن بعضها لبعض ، يصــل التنافس والانعزال الى حـد العداوة والبغضاء • فاستفردت السلطة بكل منها على حدة ، وقضت على جميع التنظيمـات لسرية ، الواحدة تلو الاخرى حتى قضى عليها جميعا • ثم غابت معظم التنظيمات فى الآونة الاخيرة باستثناء بعض الافراد القلائل من الشبان أو الادباء أو الرافضين لاتكاد تشعر الجماهير بهم ، وهم كلهم تحت أعين السلطة ورقابتها • فما أسهل من تقديمهم للمحاكمات أو اتهامهم بأنهم على رأس قلاقل وقتية فى الجامعات أو فى المصانع أو الطرقات • ان العمل السرى لاينشأ عن مجموعة من الافراد تتقابل فيمـا بينها فى خلايا للدراسة أو للحفظ أو لسماع آخر التقارير ثم جذب بعض الافــراد اليها ، الواحد تلو الآخر ، فهذا الاسلوب أقرب الى غرز الحشيش منه الى العمل السرى • بل هـو تحرك جماهيرى واســع تختفى قياداته وتنظيماته • فالبداية لحركة الجماهير وليس لمبادرات الافراد • وعمــل

الافراد خارج البلاد ان لم تصحبه حركة جماهيرية داخل البلاد فانهم يكونون أيضا دوائر اعلامية منعزلة يسهل اتهاما بالعمالة والعمل ضد مصلحة البلاد وأمنها • ويكون السؤال هو : كيف تتحرك الجماهير وكيف يوقظ وعيها الوطنى فى مواجهة تزييفه وخداعه حتى يمكن لقياداته أن تنتظم نفسها فى حركة سرية ؟

٣ — قامت الثورة الايرانية بحركة جماهيرية فى الشارع الايرانى• صحيح أن المثقفين فى ايران كان لهم الدور الاكبر فى بلورة الثورة وتقويتها ولكن المثقفين كانوا طليعة الشعب الايرانى كله تحت قيادة الزعامة الدينية • فالشعب الايرانى هو الذى انتصر فى النهاية على الجيش والشرطة • وان حركة الشارع الايرانى التى كان مركزها السوق والمسجد هى التى جعلت الثورة مستمرة فى مرحلتها الاخيرة أكثر من ستة أشهر • الشارع الايرانى هو الذى نظم الاضرابات والمظاهرات ، وهو الذى حرك الائمة ، وهو الذى تصدى لقوات الجيش والشرطة ، وهو الذى حاصر قصور الشاه ، وهو الذى سيطر على مظاهر الحياة فى ايران • ومازال الشارع الايرانى هو الضامن الاول لاستمرار الثورة •

أما ثوراتنا العربية فقد أتت معبرة ولا شك عن آمال الامة العربية فى القضاء على الاقطاع والملكية والاستعمار ، وتكوين جيش وطنى قومى ، وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وأقامة حياة ديموقراطية سليمة • والتقت الجماهير العربية حولها ، وأولت القيادة الثورية الجديدة ثقتها • ولكن سرعان ما اصطدمت الثورة بالشارع العربى • ففى مصر اصطدمت الثورة بالجماهير التى أيدت نجيب والذى كان يمثل الزعامة الاولى

الثورية والذى ارتبطت باسمه الثورة فى أذهان الناس . ثم اصطدمت بمجموع المثقفين فى مارس ١٩٥٤ وبجميع طوائفهم الذين وفضوا التضحية بالحرية وبالدستور فى سبيل النظام العسكرى بالرغم مما أصدره من قوانين ثورية مثل قانون الاصلاح الزراعى ، وتحويل مصر من ملكية الى جمهورية . كما اصطدمت بعد الهزيمة بالجماهير التى ثارت على أحكام الطيران ، هذه الجماهير التى كانت تعانى من مرارة الهزيمة واهمال القادة . وكان من الطبيعى بعد اختفاء القيادة الثورية فى مصر أن تصطدم الثورة المضادة بالجماهير الشعبية فى ثورة ١٨ / ١٩ يناير ١٩٧٧ التى عبرت من خلالها عن رفض المجتمع الطبقى ، وطالبت بحق الفقراء فى أموال الاغنياء ، ورفضت مظاهر الزور والبهتان فى أجهزة الاعلام . وبالرغم من الولاء العاطفى للجماهير كلها للزعامة الثورية المثلة فى ناصر الا أن الحشد التلقائى دون حزب أو تنظيم يكون عصبا له سرعان ما ينتهى بانتهاء الزعامة الثورية التى كانت الضمان الوحيد لوجوده . صحيح أن الزعامة الثورية أدركت بعد الهزيمة خطورة الموقف وضرورة اقامة تنظيم طليعى يكون عصب الجماهير ومحركها ولكن بعد فوات الاوان . اذ اختفت القيادة الثورية وحلت محلها الثورة المضادة التى اعتبرت هذا التنظيم مركزا من مراكز القوى وقضت عليها ، وأصبح ولاء الجماهير الظاهرى للسلطة تحكمه أجهزة الاعلام التى استطاعت تزييف الوعى القومى وتغييبه تماما لدرجة الخيانة القومية فى وعى كل مواطن دون أن يشعر بها ، واحساسه بالقضية الوطنية على أنها لقمة العيش ، وبالاستقلال الوطنى للبلاد على أنه منحة عشرة أيام ، وبالكرامة الوطنية على أنها زيادة فى الدخول وحرية الكسب ، وكأن الوطنية تباع وتشترى فى سوق العمالة . لاحل للثورات العربية الآن الا بنهضة الشارع العربى كما

نهض الشارع الايرانى ، وباشتراك الجماهير العربية فى أخذ قراراتها المصيرية التى تحدد مسار تاريخها ، وكأننا أخذنا من النظم الشمولية أسوء ما فيها وهو غياب الحرية والديموقراطية وتركنا أحسن ما فيها وهى العدالة الاجتماعية ، وأخذنا من النظم الرأسمالية أسوأ مافيها وهى اللا مساواة ، وتركنا أفضل مافيها وهى حرية المواطن وديموقراطية الحكم •

٤ — قامت الثورة الايرانية بزعامة رجال الدين وعلى رأسهم الامام الخمينى • ولعب المسجد دور الخلية السرية أو الحزب العلنى • وكان الائمة فى المساجد يلتون الخطب الدينية التى تتعرض لنظـام الشاه وطغيانه واجهزته فى التعذيب والتنكيل بالمواطنين • وقد كـان ولاء المواطنين لهم وليس للحكومة • يقوم رجال الدين بفض الخصوم والمنازعات ، ويصدرون الفتاوى ، ويجمعون الخمس ، ويسيطرون على مشاعر الناس • فكانوا مؤهلين بطبيقتهم للزعامة • وقد ساعد تاريخ الشيعة فى ايران على وجود الائمة كزعماء للمعارضة للنظم السياسية القائمة • فبعد ثورة الحسين بن على واستشهاده فى كربلاء ، وخروج الائمة تباعا لاعادة الشرعية ضد تسلط يزيد بنى معاوية ، واغتصاب الحكم على يد الاموين ، وبعد استشهاد المئات واستتباب الامن لدولة الظلم والطغيان تحولت المعارضة الى حركة مقاومة سرية تحت الارض واختفاء الامام مؤقتا حتى يعود عندما تكون الدولة حبلى بالثورة ، فتتفجر الثورة ويعود الامام ليملا الارض عدلا كما ملئت جورا • وظلت الجماهير ملتفة حول الائمة منتظرة عودة الامام المخلص • وقد كان الائمة الموجودون مستقلين عن الدولة فى معاشهم وبالتالى لـم تستطع الدولة ارغامهم على اصدار فتاوى لتأييدها الا عن طـــريق

البطش والارهاب • ولكن الائمة الاحرار استطاعوا الوقوف أمـــام ارهاب الدولة بالتفاف الجماهير حولهم ، وبالتالى أصبحوا مهيئين أكثر من غيرهم لقيادة الثورة • هناك بعض الائمة الذين ساروا فى ركــاب الدولة ، والبعض الآخر الذى آثر الصمت والسكوت ، ولكن المتعاون عاقبته الثورة ، والصامت وجد نفسه محاصرا بين ثورة الائمة وثورة الجماهير ، فانضم الى الثورة وكما قال الامام الخمينى « قاد الامام الشعب ثم قاد الشعب رجال الدين » •

أما ثوراتنا العربية فقد قادها الضباط الاحرار الذين ذهبــوا الى رجال الدين فى أول الثورة مطالبين تأييدهم ، مستثيرين تاريخ مصر بتعاون عرابى ورفاقه مع مشايخ الازهر ، وقبل ذلك فى تعاون المماليك مع مشايخ الازهر ضد نابليون • صحيح أن الثورات كانت تخــرج من الأزهر ، ولكن صحيح أيضا أنه فى ربع القرن الاخير وربما منــذ نشأة الدولة الاموية على اللا شرعية ومنذ الحكم الفاطمى فى مصر حتى عصر المماليك أن تحول رجال الدين الى موظفين فى الدولة يأتمرون بأمر السلطان ، يبرون قراراته ، ويصدرون الفتاوى على هــواه • كــان البعض يرفض وكان جزاؤه السجن والتعذيب أو التعذيب والنفى أو القتل بالتهم الملفقة • وكلما أتينا الى تاريخنا الحديث وجدنا الدين أقرب الى تبرير قرارات السلطة السياسية حتــى انتهى الامــر الى استعماله تماما • بل وسعى رجال الدين الى التبرير من تلقاء أنفســهم طمعا فى منصب أو رغبة فى رئاسة • فخرج الملك السابق فاروق من نسل النبى عن طريق سليمان باشا الفرنساوى ! وكان الاسلام مرة ملكيــا ومرة جمهوريا طبقا لنوعية النظام السياسى القائم • وكان مرة رأسماليا ومرة اشتراكيا طبقا للنظام الاقتصادى المتبع • والغريب أن نفس رجال

الدين الذين أصدروا بعد قرارات مؤتمر الخرطوم فى أواخر ١٩٦٧ فتوى بأنه لا صلح ولا مفاوضة ولا اعتراف باسرائيل هـــم الذين أصدروا بعد معاهدة السلام بين مصر واسرائيل بيانا يعلنون فيـــه تأييد الاسلام لمعاهدة الصلح مستشهدين بالقرآن والسنة وبتـــاريخ الاسلام ! وبالرغم من صورة رجل الدين فى الذهن الشعبى أنه يقـــول غير ما يعمل ويخشى السلطان ، ويبيع ذمته بثمن بخس الا أن صورة البعض الآخر صورة كريمة من خلال مواقفه العملية تجعلهم مؤهلين للزعامة الشعبية مثل الائمة الشهداء حسن البنا ، وعبد القادر عودة ، وسيد قطب • والامل الآن فى اليسار الدينى أن يفرز زعماءه الدينيين • لقد كان فى الامكان ذلك لو قدر للاخوان المسلمين أن تعمل فى صفوف الطلاب الازهريين وأساتذتهم • ولكن مازال الامل معقودا على الزعامة الدينية واستقلالها الفقهى وهو منصوص عليه فى الشريعة • فلا يجوز عزل قاضى القضاة الذى يجوز له عزل السلطان ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وجواز خلع الامام اذا ما نقض البيعة ، وسلطة أهل الحل والعقد الى آخـر ماسـطره الفقهاء فى موضـوع « السياسة الشرعية » •

٥ — قامت الثورة الايرانية وكان عصبها هم المثقفـون • وكانت جامعة طهران قلب الثورة • ثم التف الشعب حول المثقفين،وسار الشارع وراء الجامعة • والطلاب هم رصيد الثورة فى العالم كلـه خاصة فى المجتمعات النامية والمتقدمة • وهـم بدايات أصـوات المعارضة فى المجتمعات الاشتراكية ، وأيضا الاساتذة الاحرار فى جامعة طهران وعلى رأسهم المفكر الفيلسوف الشهيد على شريعتى الذى تنتشر صوره وأعماله فى كل انحاء ايران على الحوائط والارصفة • ومازال المثقفون يحاولون صياغة نظرية ثورية وتحويلها الى دولة من خلال السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلى رأسهم الحسن بنى صدر •

أما ثوراتنا العربية فقد بدأت بصدامها مع المثقفين منذ أزمة مارس ١٩٥٤ حين حرص المثقفون على الحرية والديموقراطية والدستور والحياة النيابية • فحدث الصدام بين الجامعة والثورة حتى قضت الثورة على استقلال الجامعة ، وفصلت الاساتذة الاحرار ، وأغرقت الطلاب فى الامتحانات بعد اعتقال الاخوان والشيوعيين منهم • ثم التف بعض المثقفين حول الثورة تأييدا لبعض منجزاتها الوطنية مثل تأميم قناة السويس وما تلاها من العدوان الثلاثى وقيام الجمهورية العربية المتحدة فى ١٩٥٨ ، وصدور قرارات يوليو الاشتراكية فى ١٩٦١ • ولكن سرعان ماصطدمت الثورة من جديد بالمثقفين اليساريين فى ١٩٥٩ • فسجن البعض وهرب البعض الآخر حتى أتى موضوع أهل الخبرة وأهل الثقة أى المثقفون والضباط الاحرار • وكان الاختيار لاهل الثقة على أهل الخبرة وكأن المثقف لديه علم دون ولاء فى حين أن الضابط لديه ولاء دون علم ، وكأن المهم الولاء لا العلم ! ولما كانت الثورة فى حاجة الى أعلام فقد تعاون بعض المثقفين معها كجهاز اعلامى له مهمة تبرير قرارات السلطة • فنشأت الثقافة الرسمية مختلطة بالاعلام • وتكون فريق من المبررين من اليمين الى اليسار مادامت القيادة ثورية تبغى البناء الاشتراكى وتعادى الاستعمار • ولكن كان تبرير الاخطاء لايقل عن تبرير الصواب • وغاب روح النقد والتطوير • وكلما قامت الجامعة للتعبير عن أحد المطالب الوطنية خاصة بعد الهزيمة أتهم الطلاب بأنهم كانوا ضحية العملاء المندسين من الخارج وكأن الطلاب غير قادرين على التحرك الا بفعل العمالة • وكانت القيادة فى ذلك الوقت ، وقد ضعفت ثوريتها ، قد حاولت اقناع الطلاب بأن الخبز هو الحرية ، وأنه مادام الخبز متوافرا فلم المطالبة بالحرية ؟ فلما أتت الثورة

المضادة أصبح المثقفون كلهم شيوعيين ماديين ملحدين كافرين وعمـلاء للاتحاد السوفيتى . كما أصبح اتحاد طلاب الجمهورية كذلك مثل كـل الاتحادات الطلابية فى الخارج . توقفت الحياة فى الحرم الجامعى ، وتوقف نشاط الاسر والجمعيات والمنتديات الطلابية الا من رحـلات للسمر أو جماعات دينية تدعو الناس الى الخير والحب والتسامح وتعكف على العبادة أو التفلسف دون السياسة وأمور البلاد . وكانت النتيجة القضاء على الجامعة علما وسياسة ، وانزواء الطلاب ، وتهرأ الاساتذة ، وامتداد الخيانة القومية الى الشارع ذاته ، واعلان القيادة السياسية الخيانة كسياسة للدولة .

٦ — وقد ساهم فى الثورة الايرانية المثقفون خارج البلاد الذين هربوا من السجون والمعتقلات داخل البلاد أو الذين أتموا دراساتهم وآثروا البقاء فى الخارج لاشعال الثورة ، وقد بدأ الرأى العام العالمى من خلالهم التعرف على الاوضاع داخل ايران ورؤية صور المذابح ، ومعرفة أسماء الشهداء ، وقراءة فظائع الشرطة السرية . وامتلات حوائط العواصم الاوربية بالشعارات المندده بنظام الشاه ، وجاءت الوفـود الطلابية الايرانية الى معظم الجامعات الاوربية والامريكية تعـرض القضية . قاموا بالمظاهرات أثناء زيارات الشـاه المتعـددة للدول الاوربية ، واعتصموا ، واحتلوا السفارات ، ومارسوا شتى أنواع المقاومة بالكتابة فى الصحف حتى أصبحت فظائع الشرطة السرية على كل لسان فى الغرب ، ويكون أول سؤال يوجه الى الشاه فى أى مؤتمر صحفى . ولا غرو أن رؤساء اتحادات الطلاب الايرانية فى الخارج كانوا من أعضاء مجلس الثورة الاسلامى بعد انتصار الثورة ، وكـانوا

من منظرى الثورة ، والمتحدثين باسمها ، وأعضاء فى أول حكومة بعد الثورة •

وابان ثوراتنا العربية ، هاجر عدد من المثقفين خارج البلاد خاصة بعد قدوم قيادة الثورة المضادة • وقاموا بحملاتهم من الخارج فى الاذاعات الخارجية الموجهة أو فى الصحف أو اصدار صحف جديدة أو مجلات يستحيل أرسالها داخل البلاد ، فلا تحدث النتيجة المرجوة • ويضطرون لقبول مساعدات مالية من أنظمة عربية أخرى مما يجعلهم عرضة للاتهام المباشر بالتعاون مع الانظمة المعارضة • والبعض الآخر منهم آثروا الاندماج فى الحياة العامة ، واستثمار نشاطهم فى المال والتجارة ، والاكتفاء باجترار ذكريات النضال والثورة • ومنهم من آثر تحويل الثورة الى علم أو استراتيجية حضارية جديدة والتبشير بالثورة كنهضة للشعوب تقوم على استقلال الارادة الوطنية • ولكنهم جميعا لم يكسبوا الرأى العام الاجنبى لصالحهم ، ومازال النظام القائم هو الذى يكسب الانصار لدى رجل الشارع خاصة من قيادة مولعة بأجهزة الاعلام والمقابلات الصحفية والمؤتمرات العالمية والرحلات المسرحية المذاعة على الهواء أمام ملايين من البشر •

ثالثا : مخاطر أمام الثورة الايرانية :

بعد هذه الدروس المستفادة من الثورة الايرانية بالنسبة الى الثورة العربية فان من واجب الثورة العربية خاصة عندما كانت فى عنفوانها أن تنبه على بعض المخاطر التى تهدد الثورة الايرانية ، فعقل الثورة واحد ، وتراكم الخبرات الثورية لنفس الجماهير العربية

والايرانية يساعد على قتل الثورة وتنظيرها • ويمكن ايجاز هذه المخاطر فى الآتى :

١ — لما كانت الجبهة الوطنية هى من أبرز عناصر نجاح الثورة الايرانية فان تفتت هذه الجبهة هو مقتلها ونهايتها • لقد اتحدت الاتجاهات الثورية كلها : الدين الثورى ، والايديولوجية الثورية ، والوطنية الثورية من أجل أسقاط نظام الشاه ، ونجحت فى تحقيق هذا الهدف المشترك الاول • ولكن فى مرحلة بناء الدولة قد تختلف الآراء حول بناء الدولة وصياغة الدستور ، وشكل الحكم ، وصورة الزعامة ، وتكوين الاحزاب • قد تختلف الاتجاهات الثورية فيما بينها فى الوقت اللازم لتحويل الثورة الى دولة فيريد الدين الثورى تطبيق الشريعة الاسلامية فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع والاحوال الشخصية والعلاقات الدولية • وتريد الايديولوجية الثورية تكوين جيش الشعب، وتطبيق الاشتراكية ، والتحالف مع المعسكر الاشتراكى ، ومعاداة الرأسمالية الغربية • وتريد الوطنية الثورية الاخذ بالليبرالية الثورية ، ومسئولية الحكومة أمام المجلس النيابى ، وتحويل الثورة الى دولة • وكفالة حرية التعبير لكافة الاتجاهات • والخوف من أن يحاول كل اتجاه فرض رأيه على الاتجاهات الاخرى • فاما أن ينجح بالقوة فيصفى باقى الاتجاهات ، وهو ليس بمستبعد ، واما أن ينعزل ويخرج من الجبهة ، ويكون معارضة خارج الثورة سرية أم علينة حتى تنعزل معظم الاتجاهات ، ويبقى اتجاه واحد هو السائد فيغيب الحوار الداخلى ، وتتفتت الجبهة الوطنية ، وتضعف السلطة الثورية لكثرة معارضيها فيحدث الانقلاب • وواضح أن الجامعة على يسار الثورة ، وأن الشارع الايرانى على يمنيها ، وأن الزعامة الدينية تحاول الحفاظ

على وحدة القوى الثورية . ولكن هذه الزعامة نفسها تتراوح بين يمين الثورة مثل عدد من الائمة وبين يسارها الليبالى (طالقانى) . ولكن الزعامة الثورية بقيادة الخمينى هى الضامن الوحيد حتى الآن لاستمرار وحدة الثورة من خلال وحدة الزعامة ووحدة الجبهة الوطنية . الخوف كل الخوف من تقليدية اليمين ، وطفولية اليسار ، وسكون الوسط أو تحيزه الى أحد الفريقين . ان الحفاظ على الوحدة الوطنية لكافة فصائل الثورة واتجاهاتها لهو الضامن لاستمرارها ، تلك الوحدة التى لم تستطع الثورة العربية المحافظة عليها ، فانتهت الثورة الى الرأى الواحد ، وسارت فى الاتجاه الواحد اما يمينا أو يسارا أو وسطا أو الى استعمال الوحدة الوطنية كوسيلة لايقاف التغــير الاجتماعى والمحافظة على المكاسب الثورية فى غياب مكاسب ثورية أكبر .

٢ — بعد انتصار الثورة الساحق وسقوط الشاه ونظامه التسلطى بدأت عملية تحويل الثورة الى دولة . وكانت أول خطوة لذلك هو البحث عن فكر أو نظرية . فالثورة اسلامية . لكن ماذا يعنى الاســلام ؟ صحيح أنه ثورة ضد التسلط والطغيان والافساد فى الارض والتعذيب والقتل والاغتيال ، وثورة ضد الاستعمار والرأسمالية وضياع الذاتية والهوية . ولكن ماهى نظرية الثورة فى الملكية وفى وسائل الانتاج وفى الاجور وفى الاسعار ... الخ ؟ ماهو الشكل السياسى للدولة الاسلامية وماهى نوعية النظم والمؤسسات ؟ ماهو الدســتور وماهى القوانين ؟ لقد وجدت الثورة نفسها منتصرة ولديها وجدان الشعب وتأليه الزعامة « الله ، والقرآن ، وخمينى » . ولكن عواطف الشعب « وكاريسمية » القيادة لاتعطى فكرا . فكر الثورة هو الانتقال من وجدان الشعب نحو الزعامة ، والانتقال من الزعامة نحو الشعب فى نقطة متوسطة هـــو

عقل الثورة وفكرها • فالدولة تحتاج الى فكر وقوانين كما تحتاج الثورة الى وجدان وفورة • هناك محاولات الحسن بنى صدر لاقامة اقتصاد « توحيدى » ، وكتابات على شريعتى ، ومؤلفات بازر كان وطالقانى ولكنها مازالت لا تكون فكر الثورة • ويعطى الائمة ، وعلى رأسهم الخمينى ، الفقة الجعفرى التقليدى الذى يشمل أحكام العبادات والمعاملات مع التركيز على أهمية الاجتهاد دون التقليد ، وعلى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى بعض المسائل المستحدثة مثل البنوك والفوائد وأشكال البيوع المحرمة ومقاومة الاستعمار والصهيونية كما يفعل الامام الخمينى فى « تحرير الوسيلة » وفى ملخصه « من هنا المنطلق » • ولكن الفقة وحده ليس فكرا ، فالقانون يقوم على الفكر ولايمكن تطبيقه آليا دون نظرية فى القانون أى دون أساس نظرى ووضعى له • والقانون فى نهاية الامر تعبير عن وضع سياسى واقتصادى وليس مجرد تطبيق الشريعة تحت أى ظروف ودون اعتبار لتكوين المجتمع وللمرحلة التاريخية التى يمر بها •

وبالاضافة الى ضرورة وجود الفكر كحلقة متوسطة بين وجدان الشعب وارادة القيادة لابد من وجود المؤسسات : المجلس النيابى ، القضاء ، الجيش ، الشرطة ، الصحافة • وأن الثورة بعد انتصارها لايمكنها أن تمارس سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية فى آن واحد الا كمرحلة انتقال قبل بناء الدولة • ولكن اذا استمرت هذه المرحلة طويلا فانه يخشى على الثورة من قيادتها وارادتها الثورية ، كما يخشى على الثورة من الشعب وفصائله المسلحة • فيحدث تنازع فى السلطات بين القيادة والشعب نظرا لوجود سلطتين : سلطة القمة وسلطة القاعدة ، ودون أن يحكمها قانون أو تعبر عنهما مؤسسة

دستورية • ولايكفى وجود دولة رمزية أى حكومة ووزراء دون سلطات ودون مسئولية • كما أن من أخطر الامور ممارسة الثورة سلطاتها الثلاث دون أن تكون مسئولة أمام مجلس تشريعى أو قضائى بحيث لاتكون الثورة بعد انتصارها حاكما ومحكوما فى نفس الوقت • الدولة اذن هى الوريثة للثورة ، وبالتالى تخف قبضة فصائل الشعب المسلحة عن المرافق العامة وحراستها ، وتحل محلها قوى الشرطة حتى تعود للدولة هيبتها بعد أن هدمتها الثورة •

٣ — كما أنه لابد من الاسراع بوجود فكر للثورة كحلقة متوسطة بين الارادة الثورية للقيادة والوجدان الثورى للشعب • لابد من الانتقال من فكر الثورة الى تحقيق الثورة بالفعل أى الانتقال من النظرية الثوريه الى الممارسة الثورية • وان التحدى الحقيقى لاية ثورة ليس هـــو انتصارها وتصفية أنصار النظام السابق بل مواجهة المشاكل الحقيقية فى مرحلة مابعد انتصار الثورة وعلى رأسها مشاكل التخلف ، وفى مقدمتها مشكلة الفقر • فبالرغم من انتصار الثورة مازال جنوب طهران الفقير يمثل تناقضا صارخا مع شمال طهران الغنى • ومـــازال الشحاذون والعجائز والاطفال المشلولون على الارصفة نائمين • وفى قم ، المدينة المقدسة ، يفترش الفقراء رجالا ، ونساء ، وأطفالا الارصفة بجوار حوائط الروضة الشريفة ، مسجد السيدة فاطمة بنت موسى بنى جعفر ، ويتساءل الانسان : أيهما أكرم عند الله : كل هذا الذهب والفضة والبلور فى القبة الشريفة ، وكل هذا الاموال والصدقات على القبر الشريف أم اطعام الفقراء ، والبأس العرايا ، وايواء من لامسكن لهم ؟ والتخلف ليس هو الفقر وحده بل كل ما يسبب الفقر من قوالب ذهنية ومكونات نفسية ، وما يسبب البؤس بوجه عام • فالرجال والسيدات يبكون

ويتمسحون ويتبركون بمتابض النحاس وبأسوار الحديد للقبر الشريف ، ويطهرون أنفسهم من انفعالاتهم وبؤسهم ببركة آل البيت ، فيخرجون سعداء وكأن مشاكلهم قد حلت فى حين أن وضعهم الاجتماعى لم يتغير ، والبناء الاجتماعى كله باق كما هو عليه ، يفرز الفقر ، ويولد البؤس . وكأن الثورة الايرانية لن تنتصر على التخلف الا بعد ثورة محمد بن الوهاب على زيارة قبور الاولياء ومنازل الصالحين . والامر بالمثل فى التبرك بلمس الائمة للباس والمأكل والمشرب ، وتقبيل أياديهم ، والركوع أمامهم ، والطاعة لهم . وبعض الائمة مازالوا يعطون الاولوية للمذهب على العقيدة ، وللامامية على التوحيد . مازالت مشكلة البطالة فى ايران، حوالى ثلاثة ملايين عامل يرون الكويت كما رأى الاوربيون العالم الجديد للبحث عن الذهب الاسود . مازالت مشكلة تصريف المياه تتم فى القنوات المفتوحة بجوار الارصفة حيث تزدهر فيها الاشجار الباسقات ! مازالت مشاكل سوء التغذية لجماهير الشعب ، وتحويل الثــورة فى الحياة اليومية فى سلوك الجماهير فى الاسواق وفى الحياة العامة . ان التحدى الحقيقى لاية ثورة ليس هو الوجدان الثورى أو الارادة الثورية أو الفكر الثورى بل الواقع الثورى . وان كل النظريات الثورية عن الجوع لن تمنع طفلا من أن يموت جوعا . صحيح أن الثورة فى بدايتها . ولكن لماذا لاتكون البداية هز البناء الاجتماعى مثل هز النظام السياسى بقوانين الاصلاح الزراعى ، وتحديد الملكية ، ورفع الحــد الادنى للاجور ، ووضع حد أعلى للكسب ، وتوزيع أراضى الشاه على المعدمين ، وملكية المصانع للعمال ، وتأميم النفط .. الخ .

٤ ــ مازالت الزعامة الدينية الثورية بايران هى التى بيدها مفاتيح الثورة ، ومقاليد الامور ، ومازالت هى التى تسير سياسة البلاد .

فالعاصمة هى قم وليس طهران ، واصدار القرارات بيـد الخمينـى وليس بيد الحكومة • وهو الذى يقابل الزعماء والوفود أولا قبل أن ينفذ مايتم الاتفاق عليه مع الحكومة • وهذا طبيعى نظـر الغيـاب مؤسسات الدولة ودستورها الذى مازال فى سبيل الصياغة النهائية ، وطبيعى أيضا من زعامة قوية لولا صلابتها ما انتصرت الثورة ، يدين لها الجميع بالولاء ، وتحوز ثقة الشعب كله واحترام جميع قياداته • ولحسن الحظ فانها قيادة مستنيرة ، قادرة على تغيير مواقعها طبقـا لحركة الجماهير ومطالب فئات الشعب • « فالشادور » الايرانى لم يعد شرطا ضروريا لاثبات الفضيلة بل هو رمز الثورة الايرانية ، وكفاح المرأة ، واثبات لاصالة الثورة الوطنية ضد تغريب الشاه للمجتمع وضياع معالمه القومية • والاستقلال الذاتى للمجموعات الشعبية : الاكراد ، والتركمان ، والعرب داخل نطاق الامة الاسلامية تثبت الزعامة الثورية مادام مطلبا شعبيا تؤكده الشريعة ويثبته ميثاق المدينـة • والممارسة السياسية اليومية هو الكفيل بتغيير القيادة الثورية معهـا • وكثـيرا ما تغيرت المنطلقات الاولى للثورات عن نهاياتها بعد طول ممارساتها ومجابهاتها للواقع والناس •

ولكن فى مواطن أخرى تتصلب القيادة الثورية عن حق مثـل تصفية رجال الشاه ورؤساء الشرطة السرية وكل من قـام بالقتـل والتعذيب • يحاكم كل هؤلاء بتهمة الافسـاد فى الارض وعقوبتها فى الاسلام القتل أو الصلب أو تقطيع الارجل والايدى من خلاف على ماهـو معـروف لـدى الفقهـاء • ويتـم احضـار الشـهود أو من وقـع عليهم التعـذيب فيتعرفـون على القتـلة ، وجـزاء القـاتل هـو القتـل • النفس بالنفس ، وفى القصاص حيـاة ، والمحاكمات ليست سرية لان القتـل والتعـذيب يعلمـه كـل النـاس

داخل ايران وخارجه أثناء حكم الشاه وبلا تهم أو محاكمات بل لمجرد معارضته • والدماء على جدران المدرسة الفيضنية خير شاهد • وقتــل عشرين ألف تحت جنازير الدبابات يوم ١٥ خرداد (٥ حزيزان) ١٩٦٣ هو يوم الشهداء فى ايران الذى يعلمه الجميع • فأى علنية أكثر من هذا ؟ ولماذا الهوادة فى دين الله ؟ وأين كان انصار حقوق الانسان ودعاة الرحمة والعفو أثناء حكم الشاه ؟ انه لافرق فى الاســلام بين الامر بالقتل ومنفذ القتل • انما المهم أن تدرك القيادة أن جرائم الافراد لها صلة بالبناء الاجتماعى والنظام السياسى • صحيح أن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا ولكن لايكون من قتل كمن عذب • وقد يأتى يوم يتم فيه العفو العام حتى لا يتحول العقاب الى ثأر شــخصى وحتى تبدأ أيران مرحلة جديدة من كفاحها الثورى ثم تبدأ محاكمة الشـــاه نفسه رأس الحية ، وهنا تكون المحاكمة السياسية للنظــام السابق كله (٥) • ان اغتيال الزعامات الثورية مازال أيضا أحد مخاطر الثورة الايرانية • فزعامه الخمينى فريدة فى نوعها ، وزعامة الائمة أيضــا مازالت عصب الثورة ومحركها • ويخشى على الزعامات تصفيتهـــا من اليمين أو من اليسار أو ممن يريدون أخذ ثأرهم بأيدهم أو من عملاء النظام السابق أو من اعداء الثورة وعملاء الاستعمار والصهيونية بالداخل • كما أن انتقال الزعامة الثورية للاجيال القادمة مازال أيضا أحد المخاطر • فالزعامة الفريدة مثل زعامة الخمينى لاتتكرر • وتعميمها فدى الائمة يفقدها طابعها « الكاريسمى » ويغـــرى فصـــائل الشعب

---

(٥) كتب هذا المقال قبل وفاة الشـاه .

واتجاهاته المسلمة بالانقضاض عليها . انما الاسراع فى بناء مؤسسات الدولة ، وبناء الحزب الجمهورى الاسلامى هو الضامن لتحويل الزعامة الفريدة الى تاريخ ثورى مستمر .

٥ — قامت الثورة الايرانية منذ بدايتها على بعد اسلامى وليس فقط على بعد ايرانى . فهى ثورة اسلامية فى ايران . ليست ثورة ايران ثورة داخل حدود ايران وحده بل ثورة اسلامية تنطلق خارج حدود ايران ، وتصبح مركز جذب لجميع الشعوب الاسلامية التى تعانى من نظم التسلط والطغيان الشبيهة بنظم الشاه . وقد حدث ذلك بالفعل أن قويت عزيمة المسلمين الثوريين فى أفغانستان ، وبدأت شعوب باكستان وبنجالادش ينظرون الى هذا النموذج الاسلامى الجديد الذى الهب مشاعر المسلمين واستقطبهم ، وأعطى صورة جديدة للحكم الاسلامى يقوم على ثورية رجال الدين وحركة الجماهير وتحديث الاسلام فى مواجهة الاستعمار والرأسمالية والصهيونية والثورة المضادة . وأصبحت صور الخمينى ان لم تكن على حوائط المدن العربية فهى على الاقل فى قلوب العرب جميعا . يكفى الثورة الايرانية أنها أحيت آمال المسلمين فى استعادة القدس وتحرير فلسطين . ودفعت المجتمعات الاوربية فى الشرق والغرب على السواء الى التساؤل عن نهضة الاسلام ومستقبل العالم معه . ولكن يخشى أن تهدأ الثورة ، وأن يخف المد الثورى بطبيعة تباطؤ الدافع الحيوى فى الزمان . يخشى أن تواجه الثورة الاسلامية فى ايران مشاكلها الداخلية العويصة فتنشغل بالداخل أكثر من الخارج خاصة وأن القوى الرجعية العربية والاستعمارية الغربية بل والكتلة الاشتراكية كلها تود حصارها حتى لاينفذ اشعاعها الى المسلمين فى كل مكان ، فتتغير النظم تباعا ، ويبدأ

العالم عصرا جديدا ، عصر الثورة الاسلامية كما عاش فى القـرن الماضى وأوائل هذا القرن عصر الثورات الاوربية • ويبدو أن تاريخ الثورات دائما يتبع هذا التطور من داخل الثورة الى خارج حدودها ثم الى داخلها من جديد • فقد خرجت الثورة الفرنسية خارج حدودهـا ثم رجعت من جديد بعد هزيمة نابليون الى حدودها الطبيعية • وبدت ثورة الجزائر أيام بن بلا منتشرة خارج حدودها ثم انقلبت الى داخلها عند بومدين وربما الى الداخل أكثر فأكثر عند خليفته • وانتشرت الناصرية خارج حدود مصر ، والآن تعود مصر الى الانغلاق بعد انحسار الثورة عنها • ولكن تأمن الثورة الاسلامية فى ايران من هذا الخطر بالتأكيـد على هويتها الاسلامية • وما ايران الاوطن للاسلام كغيرة من الاوطان تحتاج كلها الى ثورة كى تتحرر شعوبها ، وتعود الى سابقتها الاولى داخل الامة الاسلامية الواحدة وتكون حينئذ يقظة الاسلام من جديد •

٦ ـ حتما لن يتخلى أعداء الثورة الاسلامية فى ايران عن معاداتها خاصة أعداؤها التقليديون : أولا الاستعمار الغربى الذى هددت الثورة مصالحه النفطية ونظمه الرأسمالية • ثانيا : الصهيونية العالمية التى أصبح لا مأوى لها فى ايران فأضافت الثورة الايرانية رصيدا لا ينضب للثورة الفلسطينية • ثالثا : النظام الشاهنشاهى السابق الذى مازال أنصاره والذين استفادوا منه متربصين بالثورة دفاعا عن مصـالحهم القديمة وسلطتهم المفقودة أو أخذا بالثأر من عقاب الله لهم • رابعا : المعسكر الشرقى الذى قد يرى فى الثورة الاسلامية فى ايران يقظـة الاسلام الثورى ووقوفه منافسا للثورة الاشتراكية على قدم المساواة وجذب الشعوب الاسلامية نحوه اذ أنه يضم الاسلام والثورة فى حين ضمت الثورة الاشتراكية الثورة فحسب • لن تتخلى وكالة المخابرات المركزية عن سلطاتها المفقود على أرض ايران بعـد أن أخطـأت فى

حساباتها القديمة وجهلت قوة الاسلام وحركة الشعوب ودور الائمة • ولن تترك شركات النفط والسلاح والشركات الاستثمارية الكبرى الثورة الاسلامية فى ايران بعد أن قطعت عليها مصادر النهب والسلب لثروات البلاد • ولن تترك الاحلاف العسكرية الغربية أو الشرقية الثورة فى هدوء تبنى المجتمع الجديد ، وتعيد تنظيم الحركة الثورية الاسلامية ، وتسترد حقوق المسلمين التى ضاعت منذ الحروب الصليبية حتى الآن • ولن تسمح بتصدع أجنحة دفاعاتها فى المشرق بالنسبة للغرب وفى المغرب بالنسبة للشرق • ولن تقبل الوقوف أمام أطماعها فى آسيا وأفريقيا • بل وقد تتحالف ضدها الكتلتان ويتكالب عليها النظامان السائدان لان كليهما يرى فى الثورة الاسلامية فى ايران بديلا ثالثا تتوق الشعوب الاسلامية لوضعه كما تحاول الشعوب فى آسيا وأفريقيا ودول عدم الانحياز والعالم الثالث كله العثور عليه تأكيدا لهويتها ، وتدعيما لاستقلالها • انما يحرس الثورة الاسلامية فى ايران صلابة زعامتها . ويقظة جماهيرها ، ومساندة الشعوب الاسلامية لها • وبصرف النظر عن نوعية نظام الحكم فيها وربما أيضا حركة التاريخ التى تعيد البعث فى وسط العالم أمام بوادر انهيار النظامين القائمين كما كان الحال أولا فى انتشار الاسلام فى الجزيرة العربية أمام نهايات الامبراطورتين الفارسية والرومانية ، يتنبأ المفكرون الغربيون أنفسهم ببداية النهاية بالنسبة الى الحضارة الغربية ، وتتحول الثورة الاشتراكية الى دول متحاربة لكل منها أطماعها فى السيطرة والسيادة ، وينهض الاسلام من جديد ، وتدب اليقظة فى جماهير المسلمين ، وتبرز الزعامة الثورية الاسلامية فى ايران لتخشاها أنظمة الحكم فى شتى أنحاء العالم الاسلامى • وربما يكون بداية القرن الخامس عشر الهجرى عام الفتح الجديد •

الدين والحركات الدينية فى حوض البحر المتوسط

سيظل يتجاذب المجتمعات النامية طريقان : طريق التصوف وطريق الثورة . ففى هذه المجتمعات التقليدية المرتبطة بتراثها ، وهو فى الغالب تراث دينى ، يكون الدين لدى شعوبها مصدر قيمها ، وموجه سلوكها ، وأداتها لتفسير العالم وفهمها للاحداث ، وادراكها لذواتها . وفى لحظات التغير الاجتماعى التى تمر بها هذه المجتمعات يظهر الدين اما كعامل لايقاف التغير ولتثبيت الوضع القائم أو كعامل لدفع التغير واقامة وضع أفضل . يظهر الدين اما لصالح الاقلية المسيطرة المتعاونة مع الاقطاع والرأسمالية والرجعية والاستعمار أو لصالح الاغلبية المقهورة من أجل العدالة الاجتماعية والحريه والتقدم . وقد ظهرت هذه الحقيقة فى معظم الاوراق المقدمة الى مؤتمر أمستردام عن « الدين والحركات الدينية فى حوض البحر الابيض المتوسط » الذى دعت اليه جامعة أمستردام والجامعة الحرة فى ديسمبر كانون الاول الماضى . ففى القسم الجنوبى عن « الاسلام » قدمت اثنتا عشرة ورقة نصفها عن الحركات الصوفية ونصفها الآخر عن الحركات الثورية . وفى القسم الشمالى عن « اليهودية والمسيحية » قدمت أيضا اثنتا عشرة ورقة نصفها عن الكهنوت والشعائر والطقوس (اليمين الدينى) ونصفها الآخر عن الحركات الدينية المعارضة للكهنوت (اليسار الدينى) .

نشر هذا التقرير عن ندوة « الدين والحركات الدينية فى حوض البحر المتوسط » الذى عقد فى جامعة امستردام ، ديسمبر / كانون الاول ١٩٧٩ فى مجلة المستقبل العربى ١٩٧٩ .

وما يهمنا نحن فى وطننا العـربى وعالمنا الاسلامى هـو مدى انتشار حلقات البحث والمؤتمرات الدولية حول الدين والثورة نظـرا للاحداث التى تمر فى منطقتنا من استعمال الدين كأساس ايديولوجى لتدعيم الثورة المضـادة من أجل التعاون مع الاستعمار ، والدخـول فى الاحلاف العسـكرية ، والاعتراف باسرائيل ، وتأييد الاقتصـاد الحـر ، وتدعيم النظم القائمة ، واستعماله أيضا حولنا فى آسيا كدافع ثورى مناهض للاسـتعمار والتسلط • فالعالم كله اليوم يتحدث عن مستقبل المنطقة ونكون موضـوعا لحديثه ، ونحن غافلون عما يدور حولنا ، والسؤال الآن : متى نتحول نحن كموضوع دراسة الى دارسين لموضوع وهى ذواتنا ؟

كانت مصر دائما محـور الحديث وموضع اهتمام الباحثين لان ما يحدث فيها أو ما يتوقع الحدوث سيكون له أثر بالغ على المنطقـة بأكملها • وكانت ايران فى الماوراء الجغرافى لمصر ، وكان وضـع الاسلام فى مصر ويقظة الاسـلام فى ايران هما المحوران الرئيسيان فى المنطقة • فمصر مركز الثقل فى العـالم العربى الاسلامى ، وايران مركز الثقل فى العالم الاسلامى الاسيوى •

أولا : من التصوف الى الثورة :

دارت كل أبحاث التسم الجنوبى فى حوض البحر الابيض المتوسط على محورين أساسيين : التصـوف والثورة • وبينهما الاسـتعمار والتخلف • وأول ما يسترعى الانتباه هـو غياب الاسس النظريـة للدراسات المقدمة وحيرة الباحثين وترددهم بين نماذج ثلاثة : الاول دوركايم والوضعية التقليديـة التى ورثتها الدراسـات الاستشراقية

القديمة والانثروبولوجية المعاصرة ، والتى تعتبر الدين مجرد وقـائع اجتماعية • والثانى ماركس والماركسية التقليدية التى تعتبر الدين أفيونا للشعوب طبقا لنصف العبارة الاولى « الدين أفيون الشعب وصرخـة المضطهدين » ودون ذكر للنصف الثانى الذى منه خرجت ماركسيات القرن العشرين ودراساتها عن الدين والثـورة فى أفريقيا (شـمالى وجنوب أفريقيا) ، وآسيا (الصين وفيتنام) ، وأمريكا الجنوبيـة (حركة الرهبان الثوريين) • والثالث فيبر واعتباره الدين هى الزعامة الكاريسمية وظواهر الالهام والاولياء والجن والبركة حتى يرد الاعتبار لما جعله ماركس مجرد تعبير عن الاوضاع الاجتماعية • وقد ضـاع الاسـلام فى هذه المسيرة النظرية ولم يجد له نظـرية نوعية خاصة به تفسره كدين وكحركة ثورية أو مضادة للثورة فى تاريخنا الحديث • احتـار الاسلام بين هذه النماذج الثلاثة • فليس الاسلام هو ما يحدث فى تونس أو الجزائر أو المغرب أو مصر من دينية وسـلوك جماعى • وهو ليس كل ما يحدث فى العالم الاسلامى من مظاهر التخلف ، وليس كل ما يوجد عنـد المسلمين • وقد وقع فى هـذا الخطأ الاستشراق القديم الذى سادته الوضعية فى القرن الماضى • ولم تستطع أن تتخلص منه الانثروبولوجيا الحالية التى ورثت الوضعية الاجتماعية القديمة التى خلطت بين الواقع والفكر ، وبين المـادة والروح • وقد ورثت الدراسات الانثروبولوجية أهداف الاستشراق القديم ومناهجه التى تحقق لهـا هذه الاهداف وهو جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الشعوب غير الاوربية ، عاداتها وتقاليدها ، ودياناتها ، وأخلاقهـا ، وقيمها ، وسلوكها • فيتوجه الباحثون نحو دراسة الحركات التى تؤثر فى الجماهير مثل الطرق الصوفية وعلماء الدين • ويتوجه فريق آخـر يهتم بالدراسات المستقبلية نحو دراسة حركات المعارضة لمعرفة اتجاهات

المنطقة ونوعية نظم الحكم فى المستقبل • ومازال الخلط فى جميع الدراسات بين الاسس الاقتصادية والاجتماعية والوصف التاريخى من ناحية ، وبين البواعث والعقائد والافكار من ناحية أخرى •

وقد ظهر ذلك بوضوح فى بحث كاتى سلات عن « جزر قرقينيا » فى تونس • وقد كانت تونس باستمرار مثار اهتمام للغرب • فهى أكثر انفتاحا عليه بعكس الجزائر والعراق والسعودية على اختلاف نظمها • وما أسهل أن يتحول الوصف التاريخى الخالص الى وصف دال • فاذا كانت الصفوة التى تتحكم فى مثـــل هذا المجتمع التقليدى هى الصفوة الدينية المتمثلة فى امام المسجد ، ومعلم القرية ، وحارس الضريح ، والقبالة ، والحاج ، والشافى ••• الخ ؛ والصفوة المهنية التجـــارية المتمثلة فى موظفى الحكومة فان ذلك يعنى تعاون السلطات الدينيـــة والاقتصادية والسياسية على الحفاظ على الطـــابع التقليدى للمجتمع نظرا لتشابك مصالحها • واذا كانت الصفوة الدينية تعطى تفســـيرا حرفيا شعائريا للدين فما أسهل أن يساعد هذا التفسير الصـــورى على استتباب الوضع القائم وتسهيل حركة رجال الاعمال ورجال السياسة •

ولم تكن هناك دراسات ماركسية مع أنها شائعة فى الغرب • ولا يخلو مؤتمر علمى من نموذج منها • ولكن الذى ساد هـــو النموذج الثالث ، نموذج ماكس فيبر فى دراسة تيرنر « نحو نموذج اقتصـــادى لدين الزعامة » • فالدين لا يرد الى الاسس الاقتصادية والاجتماعية كما أراد ماركس بل ظاهرة مرتبطة بظهـــور الزعيم ، النبى أو الولى أو القديس ، أو الملهم ، أو العراف ، أو الكاهن ، أو الصوفى ، أو الزاهد ، أو العابد •• الخ • وهو نمط مثالى للدين مثل « أخلاق العمل » التى تحدد النظم الاجتماعية الاقتصادية ، وتجعل البروتستانتية مسؤولة عن

النظام الرأسمالى ، والهدف من ذلك ابعاد الناس عن التحليلات الماركسية والابقاء على الطابع الصوفى الالهامى للدين لصلاحيته للنظم الرأسمالية حيث تجد فى هذا الدين تعويضا روحيا عن الحياة المادية . تتظاهر به الطبقات الغنية ، وتجد فيه الطبقات الفقيرة العزاء والسلوى . والاسلام لا يدخل فى هذا النمط لانه ليس مركزا على النبى أو العراف أو القديس أو الولى بل على نوعية خاصة وهو أنه فكرة ، فكرة التعالى أو المفارقة وهى التى سماها علماء العقائد التوحيد أو التنزيه . فالاسلام يحرك الجماهير عن طريق الافكار ، وهى العقائد على مستوى النظرية والبواعث والسلوك مثل المسؤولية الفردية ، والعمل . والرسالة ، وليس دينا بمعنى السحر والخرافة ، والاسطورة ، والقرابين ، وهو المعنى المعروف فى قواميس تاريخ الاديان . فاذا ما لاحظ الباحث تحول الاسلام فى التاريخ الى حركة اجتماعية سمى ذلك تحويل الاسلام الى دين عربى وطنى حربى ، واعتبر الجهاد حركة اقطاعية للسيادة على العالم ولاخذ مكان الصدارة فيه . وفسر التوحيد على أنه سيطرة الرجاء على النساء والبنين ! ومع ذلك يتستر بالصلة بين الاسلام والمساواة ، ويعترف بأن الاسلام لا ينفى العالم كما تفعل البوذية والمسيحية بل يثبت العالم ويجعل الانسان مسؤولا عن كل ما يحدث فيه .

ولم تنقطع النظريات الانثروبولوجية الجديدة فى تفسير الاسلام كحركة اجتماعية وفهم صفاته المميزة له مثل قدرته على التأقلم والتغير ، والتوحد مع المعطيات المحلية ، والتعدد فى اطار الشمول . كما لم تنفع النظريات النفسية فى اعتبار المتدينين مرضى الشعب أو النظريات الفلسفية وما فيها من صراع بين الاتجاهات العملية النفعية والاتجاهات

الصــورية الرمزية . وظل الاسلام فى حاجة الى اطار نظرى خاص وهو التحدى الاعظم أمام علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الوطنيين من أجل توسيع مادة البحث وتغيير الاطر النظرية فى العلوم الانسانية العربية بحيث تعتمد على أكبر قدر ممكن من المعطيات العلمية .

ولقد أثبتت عديد من الدراسات حول الطرق الصوفية تعــاون الصوفية مع الاستعمار نظرا لوجود مصالح مشتركة بينهمــا وهى السيطرة على الجماهير الجاهلة الفقيرة واستغلالها لصالح الاقطــاع الداخلى أو الاستنزاف الخارجى . فقــد تعاون شيخ الطريقة المدنية بتونس مع الاستعمار حتى عينه الاستعمار رئيسا للطريقة وأعطاه قلادة الشرف . فهى طريقة غير سياسية تفصل الدين عن السياسـة على عكس العلماء الذين كانوا ينادون باستقلال البلاد . أقطع الاستعمار الشــيخ الاراضى كمــا أيــد الشــيخ الاســتعمار لانــه يضــمن الامن والاســتقرار فى البــلاد وينــشر الدين بتأييــده الطــرق لانه يضمن الامن والاستقرار فى البلاد وينشر الدين بتأييده الطــرق الصوفية . فالمواطنون ، فى رأى الشيخ ، غير مؤهلين لحكم البــلاد بأنفسهم ولا يستطيعون صلاح الدين كما يفعل الاستعمار . الوطنيون كفــار يهددون الشعب وقادته الدينيين ! وهنا تبدو أهمية السنوسية والمهدية اللتين جمعتا بين التصوف والثورة وحولتا الدين الى ثورة ضد الاستعمار من أجل التحرر الوطنى .

وقد عارض الصوفية المصلحين الدينيين ونشب صراع بينهما لان الاصــلاح الدينى يبغى تنوير الجماهير الاسلامية حتى تستطيع مواجهة التخلف الداخلى والاستعمار الخارجى ، والصــوفية تعيش على هذين المصدرين . بل قــد توجه الاصلاح نحو الطرق الصوفية ذاتها لتنقيتها من الخرافات والبدع ولتوجيهها لصالح الامة وتنقية أخلاقها ، وارجاع

التصوف الى عهده الاول • كما عارض الصوفية كل الاتجاهات العلمانية للتحديث واعتبروها كفرا وزندقة وخروجا على الدين لانها تدعو الناس الى العقل والتحرر مما يسبب زلزلة السلطة الدينية لمشايخ الطرق •

ومع ذلك استعمل الوطنيون الدين من أجل تثبيت حركات الاستقلال وتدعيم المقاومة ضد الاحتلال • فبدأوا بتفسير العقيدة الاسلامية تفسيرا وطنيا تحت أثر الافغانى وتلاميذه فى مصر والاثر المباشر لمصطفى كامل • كما استعمل حزب الدستور الجديد الاسلام من أجل مقاومة الاستعمار ، ووظف الاعياد الدينية لمقاومة الاجانب واذكاء الروح الوطنية واعتبار ترك الجنسية الوطنية وتغييرها الى الجنسية الفرنسية كفرا والحادا ، والاعتماد على « الله أكبر » وتوجيه الشعار ضد سيطرة الاستعمار ، كما رفع حزب الدستور الجديد « الجهاد » فى مواجهة الاحتلال الاجنبى حتى تناقص أثر مشايخ الطرق الصوفية ، وأصبح الوطنيون هم الزعماء الجدد • ولكن بعد نجاح حزب الدستور الجديد فى استعمال الدين كوسيلة للنضال ، وبعد الحصول على الاستقلال فقد الدين مقوماته ، وتم استبعاده من أيدويولوجية الحزب • وقد استعملت الحكومة الافكار الاصلاحية من أجل القضاء على الدين التقليدى حتى يسهل بعد ذلك التحديث العلمانى • ومع ذلك لم تستجب الجماهير للافكار الاصلاحية ، وظلت الزاويه عامرة بالناس على عكس مراكز حزب الدستور الجديد ومراكز الحزب الشيوعى • مما يدل على أن الدين مازال هو الوسيلة الوحيدة للتنمية ، ليس فقط كوسيلة برجماتية لتحقيق أهداف عاجلة من أجل استبعاد الدين كلية وفصله عن الدولة وسيادة الدولية عليه بل كأيديولوجية تثوير للجماهير حتى تظل حافظة لهوتها واستمراريتها فى التاريخ •

ويحدث أحيانا صراع لدى الباحث الاوربى بين حبه للتصوف الذى يعطيه دفعة روحية تنقصه فى مجتمعه المادى وبين التزامه بمصالح الشعوب التى يحبها ، ويدرسها ، ويعيش مع أفرادها ، ويتعامل مع أصدقائه فيها • فأحيانا يكون التصوف أفيونا للشعب وأحيانا يكون حالة روحية طاهرة ، ولا مانع أن يكون الزاهد مليونيرا ، فالزهد عمل القلب وليس عمل الجوارح ، وحياة روحية باطنية وليست حياة مادية خارجية • (مناقشة الباحث مع الشيخ عبد الحليم محمود) • والسؤال اذن : كيف جمع المليونير الزاهد ملايينه وقلبه غير معلق بالمادة « والكسب » أو الربح ؟ وهل الملايين تأتى طوعا للزاهد وهو لا يستطيع لهـا دفعا ؟

ومن الواضح فى البحث أن وظيفة الطرق الصوفية هى السيطرة على الشعب لانها موضع ثقته ، والدفاع عن النظام • فهم أهل الدين والتقوى والصلاح الذين يسمع أمرهم ، وتقبل مشورتهم • فقد كانت الطريقة الحامدية الشاذلية متعاونة مع الاقطاع الريفى المسيطرة على الجماهير الجاهلة لصالح بريطانيا أو القصر أو البورجوازية الكبيرة • وقد انتشرت الطريقة فى الاحياء الفقيرة فى المدن خاصة فى القاهرة • وكانت تدعو الناس ، من ضمن ما كانت تدعو اليه ، الى التواضع لانه ثروة الفقير والى تحريم مجالسة الاغنياء لانها مقساة للقلوب ، والى مساعدة الفقراء والتعاطف معهم ماديا ومعنويا قدر الامكان • وهنا يبدو الدين أفيونا للشعب بمدح الفقر والفقراء وذم الغنى والاغنياء • وقد استعملت الثورة المصرية كلما أعوزتها الحاجة الى سند شعبى سواء فى أول الثورة أو فى نهايتها الطرق الصوفية لتجنيد الجماهير من أجل الطاعة والولاء والمساندة والتأييد • ولكن

هجوم الاخوان المسلمين على الطرق الصـوفية قلل من تأثيرها على الشـعب •

ويبدو الصراع بين التصوف والثورة أحيانا فى صـورة تعارض بين الاسلام الشعبى والاسلام الصورى • الاول يمثله الصوفية والثانى يمثله الفقهاء ، الاول خاص ببيئة معينة والثانى عام وشامل لكل الاماكن والعصور • وقد أيد الاستعمار الاسـلام الصورى نظرا لتركيزه على الشعائر والطقوس التى لا يخشى منها الاستعمار شـيئا كما فعل فى خروميريا (جنوب غرب تونس) • وقد نشأ صراع بين الاسـلام الشعبى والاسلام الصورى ، صراعا من أجل البقاء ، كل منهما يود تمثيل الاسلام والسيطرة على الجماهير • وكلاهما فى النهاية يؤيد الاستعمار ، والاستعمار يستعملهما معـا ، ويختار أحيانا أيهما أكثر فعالية وتأثيرا على الناس ، واذا كان الاسلام الشعبى دين الاغلبية فان الاسـلام الصـورى دين الاقلية تستعمله من أجل الصعود الاجتماعى • الاسلام الشعبى منتشر فى الريف والاسلام الصورى منتشر فى الحضر كوسيلة للطبقات المتوسطة حتى ينالوا احترام الناس بتطبيق مظاهر الشريعة الخارجية • هم طبقة الافندية ، الياقات البيضاء ، الذين يستخدمهم الاستعمار أيضـا لتبرير قراراته نظـرا لثقة الشعب فيهم ، وللسيطرة من خلالهم على الجماهير • وقد فشل التحديث أيضا عندما عارض الدين الشعبى فى حين تحول هذا الدين الى شـعور فلاحى بالارض وبالزراعة • ويكون السؤال : أيهما أفضل ؟ الوقوف أمام الدين الشعبى ومعارضته من الخارج أم تحويله الى تراث شعبى يحفظ للناس أرضهم وزرعهم ونتيجة عملهم ؟

وفى نفس الموضوع قدم باحث اسرائيلى مهاجر من ألمانيا دراسة عن « حجيج القبائل لقبور الاولياء فى جنوب سيناء » ليس القصد منه دراسة انثروبولوجية على ظاهرة التوسط بين الانسان والله عن طريق زيارة الاضرحة ، وليس المقصود منه تشـويه الاسلام بأنه دين القبائل الرعوية فى حين أن اليهودية وحدها دين التوحيد • وكأن الباحث لم يسمع مطلقا عن محمد بن عبد الوهاب ودعوته أو عن موقف الفقهـاء وعلى رأسهم ابن تيمية عن « أولياء الشيطان » • ولكن القصد منـه هو ادخال سيناء ضمن نطاق البحث الاسرائيلى وكأن موضوعات الدين اليهودى قـد اختفت • فسيناء ليست فقط موضع البحث عن البترول والتنقيب عن الثروات المعدنية من فوسفات ومنجنيز بل هى أيضـا موضع البحث فى العلوم الاجتماعية ، وتاريخ الاديان • وأن الرباط الروحى بين اسرائيل وسيناء أقوى وأعمق من الرباط المادى والاقتصادى• ويوغل الباحث فى التفصيلات ، شبرا شبرا من الارض ، وجيلا جيلا من الرعاة ، وقبيلة قبيلة من المجموعات السكانية ، وكأنهم جـزء من الشعب اليهودى يعرفونه حق المعرفة بينما نجهله نحن تماما • فأصبح عدوى فى الارض غريمى فى البحث • واذا كان الاولياء وسـطاء بين القبائل والله فان القبائل تريد الوصـايا السياسية ولا تعرف الاستقلال والمباشرة ، واليهود هم خير وسطاء ! •

وفى بحث آخر عن « الوضع الحالى للطرق الصوفية فى يوغوسلافيا » يظهر موضـوع التصوف فى البلاد الاشـتراكية • ويكون السـؤال الرئيسى : كيف ازدهرت الطرق الصوفية فى مجتمعات اشتراكية يتم فيها القضـاء على الاغتراب الاجتماعى وأساسه فى الاغتراب الدينى ؟ ومع أن الباحث يكتفى برصـد ظاهرة انتشار الطرق الصوفية وازدياد

أعضائها مثقلا بحثه بعشرات المراجع والمقالات الا أن التحليل النفسى الأجتماعى للجماهير يؤكد بقاء الاســلام كتراث نفسى عند المجاهير دون أن تحدث له عملية تطوير • فالتحديث الماركسي مثل التحديث العلمانى يفصل تراث الناس ومأثوراتهم الشــعبية ويعتبرها مجـرد فولكور أو تاريخ متحفى دون أن يكون له أى دور فى صياغة أيديولوجية ثورية تعتمــد على الثقافة الوطنية • فالجماهير « التراثية » لا تكتفى بتحقيق مبادىء الحرية والمســاواة والعدالة الاجتماعية ولكنها تود أيضــا أن يكون هذا التحقيق تطبيقا عمليا لقيمها وعقائدها الموروثة حتى لا تفقــد وحدتها فى التاريخ • وهى غير قادرة حتى على فهم هــذه الافكار ان لم تكن قراءة فى تراثها القديم من أجل اكتشــاف مكنوناته واعادة فهمها له بما يتفق مــع مطالب عصرها • فالاســلام عقيدة ووطنية وجنسية عند المســلمين فى يوغوسلافيا ومن الصعب صهرهم فى دولة وطنية قومية علمانية • فاذا ما تقوقع الاسلام فى قلب الناس وتراجع أمام العلمانية والافكار التقدمية فانه سرعان ما يظهر فى الفرق الصوفية كعواطف ومواجيد • ومادام لا يوجد له مصب فى العالم الخارجى فانه يجد ذلك فى العالم الداخلى أولا ثم فى العالم العلوى ثانيا • ولما كان الاســلام ثورة ثم تأتى الثورة الاشتراكيــة فتحاصره من الخــارج فانه ينتظر الفرصة أن تكسر ثورته هذا الحصار فيصبح جميع المسلمين بيوغوسلافيا ناصريين بعد ظهور عبد الناصر • فاذا ما اختفى عبد الناصر تبدأ مشاكلهم ، واذا ما انحسر المد الثورى عن الوطن العربى تقوقعوا من جديد وغرقوا فى الطرق الصــوفية • ولا يجدى مفكرو الدولة المسلمون الماركسيون شيئا لانهم يستعملون الاســلام لتبرير الماركسية وبالتالى لا يجدون آذانا صاغية لهم كما حدث أيضــا فى مصر لدى مفكرى الدولة الذين استعملوا الاســلام

لتبرير الاشتراكية كنظام للدولة دون تحويل الاسلام من الداخل الى نظرية اشتراكية تحقق المساواة والعدالة والحرية الاجتماعية . لم يظهر لدى المسلمين بيوغوسلافيا فكر اسلامى تقدمى مستقل ولم يتحول الاسلام الى ايديولوجية تقدمية اشتراكية . لم يساهم المسلمون باعتبارهم كذلك فى حل مشاكل العصر وفى مقاومة النازية ، وفى اصهار القوميات ، وفى صياغة عدم الانحياز ، ولكنهم ارتبطوا روحيا بخراسان ، مصدر الاسلام ومنبعه فى آسيا من خلال تركيا حيث لا تفصلهم البحار ، بل هو مد أرضى واحد .

وقد ركزت بعض الابحاث على التحديث السلفى وحاول البعض اعطاء خصائص نوعية للاسلام مثل استمراريته عبر القرون وعدم حدوث تغير جذرى فيه كما حدث فى المسيحية بالرغم من انهيار المجتمعات الاسلامية ، واحتواء الاسلام على أقل قدر ممكن من الاساطير والشعائر والرموز القديمة والعقائد ، وعدم الفصل بين الدين والسياسة ودور الاسلام كأيديولوجية ثورية ضد الاستعمار وهو ما ظهر فى حركات الاصلاح الدينى التى خرجت كلها من ثنايا السلفية التى جمعت بين الدين والوطنية والنهضة ، وفشل مناهج التحديث الغربية فى مصر وتركيا لان تطوير المجتمعات الدينية لا يتم الا من خلال الدين ، وهو تراثها القومى .

ولكن تمت دراسة الحركة التحديثية السلفية بالمقارنة مع مثيلاتها فى المسيحية واليهودية والتى حاولت الوصول الى حد أدنى لتعريف الدين فى ثلاثة مبادىء . الاول ، هناك عالم آخر ولكننا لا نعرف الكثير عن تكوينه وصفاته . الثانى ، يمكن للانسان الدخول فى علاقة

مع هذا العالم الآخر من خلال الصلاة (أو القرابين) ولكن ينحصر أثر هــذه العلاقة على المستوى النفسى ولا يتعداه الى المســتوى الاعجازى الخارق للعادة . الثالث ، تقوى هــذه الشعائر من وحدة جماعة المؤمنين وترابطهم وليست مجـرد رموز للعالم الآخر تفسر على نحــو مجازى . والحقيقة أن الحركة السلفية لم تصل بعد الى هــذا الحد من العقلانية كما وصل اليه المعتزلة القدماء . فالسلفيــة ظلت أشعرية نصية حرفية تشبيهية .

ويبدو أن الباحث قد وحد بين السلفية والليبرالية بالرغم من تعريفه السلفية بأنهــا فهم الكتب المقدسة فهما حرفيا وليس فهمــا رمزيا أو تاريخيا أو على أنها أمثلة لمفاهيم أخلاقية مجردة أو شعائرية لا تتطلب تطبيقها بالضرورة فى العصر الحاضر ؛ وبهذا المعنى تكون السلفية عكس الليبرالية . والحقيقة أن السلفية لا تعنى فقط حرفية التفسير بل تلجأ أيضــا الى المضمون الاجتماعى والسياسى كمــا وضــح فى حركة الاصلاح الدينى دون أن يعنى ذلك تغير المضمون فى التــاريخ والقضاء على المعنى المستقل للنص الدينى . ويعزو الباحث نشأة الاتجاهات الليبرالية الى ثقافة الشباب العالمية مع أنها نشــأت نشأة طبيعية من داخل الحضــارة الاسلامية سواء عند المعتزلة القدماء أو عند الطهطاوى ولطفى السيد وطه حسين من المحدثين . واذا كانت الليبرالية المعاصرة مازالت نسبية لانها مازالت تشق طريقهــا من بين ثنايا الاشعرية التى دامت أكثر من ألف عــام . ويتشاءم الباحث فيما يتعلق بمستقبل حركات التحديث وامكانية مواجهتها للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية وحلها حلا جذريا . وفى هــذه الحالة أيضا لن تتخلى الجماهير عن الاسلام كلية وتيأس منه وتتجــه الى الايديولوجيات

الجذرية كما يرجو الباحث بل ستزيد من عقلانيتها وجذريتها من داخل الاسـلام وتدفع بحركات الاصلاح خطوة أخرى الى الامام حتى تتحول العقيدة الى أيديولوجية ثورية للجماهير تكون حاملا لمتطلباتها الاجتماعية والسياسية •

وقدمت دراستان عن الدين والثورة فى الحرب اللبنانية • الاولى عن حركة « المرابطين » بزعامة ابراهيم قليلات ، والثانية عن وصف الحرب الاهلية اللبنانية بأنها حرب دينية طائفية وهى فى حقيقة الامر حرب اجتماعية • فقد ظهرت الصلة بين الدين والثورة فى الحـرب الاهلية فى لبنان على نحوين : الاول ثورة اجتماعية وطنية ووحـدة عربية ونضـال مشترك من أجل تحرير الاراضى المغتصبة فى فلسطين ، والثانى طائفية وتعـاون مع الغرب وانعزالية عن الوطن العربى وتعاون مع اسرائيل • الاولى ثورة لصالح الاغلبية ، والثانية ثورة مضادة لصالح الاقلية • البداية أولا فى الموقف السياسى ثم يأتى الدين بعـد ذلك كدعامة وتبرير له ، البداية هو الوطن ثم يأتى الدين كتنظير أيديولوجى للموقف من الوطن • فالخلاف سياسى فى جوهره ، والسياسة تعبير عن أوضاع اجتماعية واقتصادية وتاريخية •

وبالرغم من أن الدراسة تركز على الجانب السياسى لحـركة المرابطين أكثر من تركيزها على الجانب الدينى ولا توضـح كيفية تحول الدين الى أيديولوجية وطنية الا أن تاريخ الحركة وسلوكها يشير الى بعض هـذه العناصر • فقد نشأت الحركة ابان الحرب الاهلية اللبنانية فى ١٩٥٨ ابان المد الثورى العربى بفضـل الوحدة مع سوريا وثورة يوليو (تموز) فى العراق وهز العرش الهاشمى • وتبنت مبادىء الحرية

والاشتراكية والوحدة من الناصرية ، ورفضت الاقطاع السنى من ناحية والانعزالية الطائفية من ناحية أخرى ، وتبنت الاشتراكية العربية ، وميزت بين الرأسمالية المستغلة والرأسمالية غير المستغلة ، وأخذت عبد الناصر بطلا قوميا ، فهو صاحب السيرة الفريدة ، والسيرة المتكاملة ، وهو بعد ذلك الشهيد • وفى مكتب قليلات وفوق رأسه توجد صورة عبد الناصر وبعض الآيات القرآنية • وبالرغم من أن الدين جزء من الامة العربية الا أنه رباط روحى يجمع بينها • وهو رباط لا يتعارض مع ارتباط الامة باللغة ، والحضارة ، والتاريخ ، والتراث ، والمصالح المشتركة • فالوطن العربى سابق على الاسلام • ولكن يظل السؤال لدى الباحث وهو كيفية الانتقال الى العلمانية ومتى ارتبطت الجماهير السنية التقدمية بالحركة • ويظهر قليلات فى صورة مع المفتى ، الا اذا ظهرت العلمانية من داخل الاسلام على أنها جوهره ، وليست من خارجه على أنها تغريب • وقد ركز البحث الثانى على الطابع الاجتماعى للحرب الاهلية اللبنانية ، فالحرب بين قوتين اجتماعيين • الاقلية المسيطرة الغنية ، والاغلبية المقهورة الفقيرة ثم استغلال الدين أكثر كتعمية وغطاء وستار على الوضع الاجتماعى • ليست الحرب بين المسيحيين والمسلمين بل بين الاغنياء والفقراء • فى حين أن المسيحية فى أمريكا اللاتينية على أيدى الرهبان الشبان استطاعت أن توحد نفسها مع مطالب الاغلبية فى مقاومة الاستعمار والرأسمالية والرجعية • وبالتالى تكون شعارات المرابطين « لا للطائفية ونعم للعلمانية » أو « لا للطائفية ونعم للامة » أكثر تعبيرا عن مطالب الجماهير اللبنانية •

وتتناول الابحاث الاخيرة الاسلام باعتباره أيديولوجية سياسية

ســـواء فيما يتعلق بالمغرب أو بالوطن العربى ككل حيث يظهر الاسلام كوسيلة للاعتراض • ولكن يغلب على الدراسة الاولى طابع التحليل الاجتماعى والاقتصادى لبلاد المغرب خاصة فيما يتعلق بالصلة بين الارض والدولة كما تظهر فيه بعض تحليلات الاستشراق عن دور العلماء فى حركات التغير الاجتماعى نظرا لوجود مثل هـذا الدور فى الغرب لرجال الدين والكنيسة • وتفتقر الدراسة التى تحليل نظـرى خالص بالرغم من الاشارات المستمرة الى الحركة السـلفية فى مصر وامتدادها فى المغرب عند عبد الحميد بن باديس والبشـير الابراهيمى وجمعية العلماء • فقد كان للعقيدة الاسلامية دور فعال فى حركـة التحرير الوطنى الجزائرية وفى ثورة الريف فى المغرب وفى ثورة عمـر المختار بليبيا ضد الاستعمار الايطالى ولكن يظل النموذج الاسلامى ، التحرر عن طريق العقائد بعد تحويلها الى أيديولوجية ثورية ، خـارج عن نطاق التنظير الشامل •

وقد حاول بحث « الاسلام كوسيلة للاعتراض » سد هذا النقص فى التنظير للاسلام الثورى والانتقال من الاسلام الثورى المعاصر الى نظرية الاسلام الثورية • عرض الباحث أولا لمستويات الاعتراض مثل الجهاد ضـد الاستعمار ومقاومة الاحتلال ، ومقاومة القـرآن للايديولوجيات المعارضة مثل الكفر ، وثورة الصوفية ضد مظاهر البذخ والترف والحياة الدنيوية ، ووقوف الاسلام فى مواجهة العلمانية وحركات التحديث من الخارج • ثم يعطى الباحث ثانيا أمثلة من الحركات الدينية ذات الطابع الاعتراضى الواضح ، فمنها من استعمل الاســلام استعمالا وظيفيا خالصا لتجنيد الجمـاهير للاحتجاج على التدخل والسـيطرة الاجنبية مثل الجهاد ضـد الاستعمار ، وتوحيد الامة الاسلامية بناء

على دعوة الافغانى ، ومعارضة الاستعمار الانجليزى والفرنسى ، وبداية الحركة الوطنية الفرنسية ضد الغزو الصهيونى ، ودفاع الاسلام عن ذاته ضد اتهامات المبشرين والمستشرقين بأنه سبب التخلف . وهناك صور مباشرة للاحتجاج الدينى داخل الاسلام ذاته كحضارة دينية وعلى رأسها الحركات الاصلاحية سواء فى التاريخ القديم أو الحديث مثل الحنابلة ، والاثنا عشرية ، والاسماعيلية ، والخوارج ، والوهابية ، والمهدية ، والسلفية فى مصر ، والاخوان المسلمون . وهناك صور أخرى غير مباشرة للدفاع عن الشريعة والفلسفة والعقائد ضد الغزو الفكرى الخارجى . وينتهى الباحث الى أن الاحتجاج الدينى بناء مميز للاسلام كدين ، فهو دين الرفض وليس دين التسليم ، دين يضع الاسلام فى مواجهة الجاهلية على ما تقول الحركات الدينية المعاصرة . ويحاول الباحث تصنيف حركات المعارضة الدينية الى أربعة مستويات : الاول ، الاعتراض الفعلى ومقاومة الاستعمار والمطالبة بالاستقلال من أجل اقامة الدولة الاسلامية . الثانى ، صياغة أيديولوجية للاعتراض ضد التمايز الطبقى والظلم الاجتماعى باللجوء الى مثل القرآن فى المساواة والعدالة الاجتماعية . الثالث ، مقاومة حضارية ضد الحضارات الغازية للدفاع عن الاسلام كتراث قومى وثقافة وطنية . الرابع ، رفض الايديولوجيات المستغربة دفاعا عن الاصالة . ثم يضع الباحث أربع امكانيات لمستقبل الاسلام كوسيلة للاعتراض : الاولى ، الامكانية الخالقة وهو احداث تغيير من أجل خلق شىء جديد أكثر مطابقة للمعايير والمثل الاسلامية . الثانية ، الامكانية الخلقية وهو نقد أخلاقى يقوم على المثل والمعايير التى يؤمن بها المسلمون اسميا ولا يطبقونها فى حياتهم العملية وبرهنة على افلاس النظم والمعايير الاخرى . الثالثة ، امكانية

الاعتراض وهو رفض طاعة أية قوة لا تستند الى معايير الشعب ومثله والمعارضة العلنية لهذه القوة والمطالبة بتحقيق هذه المعايير والمثل كبديل عنها . والرابعة ، الامكانية الاخروية وهو رفض كل ما هو قائم من أجل قيام نظام آخر ان لم يتحقق فى هذا العالم فانه يظل هدفا أقصى تغرق فيه الجماعات الدينية ويستشهدون فى سبيله .

وبالرغم من أن هذه الدراسة عن « الاسلام كوسيلة للاعتراض » تمثل أكثر الابحاث دقة وتنظيرا الا أنه يعيبها اعتبار التصوف ثورة وهو فى الحقيقة ثورة سلبية أو ثورة مضادة نحو الداخل بعد اليأس من الثورة فى الخارج . كما أن الاسلام لم يستخدم فى المعركة ضد الصهيونية الا فى أوائل الحركة الوطنية الفلسطينية ، فالمعركة سياسية وليست دينية . هذا بالاضافة الى تداخل مستويات التحليل فحركات التحديث مرتبطة بحركات الاصلاح الدينى ونتيجة لها .

وكان البحث الاخير « نشأة الاتجاهات المحافظة والحركات الاسلامية المعاصرة » محاولة لتفسير الردة الثورية فى وطننا العربى وخروج المحافظة الدينية على السطح واستعمالها من أجل تدعيم النظم القائمة . ولم يعتمد البحث على الاحصائيات أو الوقائع التاريخية بل اعتمد على تحليل التجارب النفسية والاجتماعية لرجل الشارع مستعملا المنهج الفينومينولوجى المباشر وتحليل التجارب المشتركة بين الباحث ورجل الشارع . وقد أرجع الباحث ظاهرة المحافظة الدينية الى ثلاثة عوامل : الاول ، فشل مناهج التحديث المعاصرة فى تحقيق ما كانت تهدف اليه من تحرر وطنى وعدالة اجتماعية وثورات شعبية . فقد زاد احتلال الارض ، وتوسعت الصهيونية ، واتسعت المسافة

بين الاغنياء والفقراء ، وامتنعت الجماهير عن المشاركة فى الثورات القائمة وانزوت على نفسها تحمل همها ، وتنعى حظها • فقد انتهت الليبرالية الى حكم ملكى ، حزبى فاسد ، اقطاعى رأسمالى ، موال للغرب بالرغم من محلولاتها لتحقيق اقتصـــاد وطنى واستقلال سياسى• كان التعليم للاقلية وكانت الامية منتشرة • وبالرغم من بعض مظاهر حرية التعبير تم اغتيال زعماء المعارضة واضطهاد جماعاتها • كما فشلت اشتراكية الدولة نظرا للفرق الشاســـع بين الشعار والتطبيق ، وظهور الطبقات المتوسطة ، وغياب حزب شعبى يدافع عن مصالح الجماهير ، ثم استعمال الدين أخيرا كوسيلة لتدعيم الثورة المضادة بعد غياب القيادة الثورية وتكفير كل طرق المعارضة • كما تواجه الماركســية الحاكمة بعض الصعوبات فى اقناع الجماهير وتخاطر باحداث انفصام فى تاريخ الشعب بين ماضيه وحاضره وتساوم الاستقلال الوطنى وحرية القرار السياسى • كما فشل النظام القبلى باسم الاســـلام فى اقناع الشعوب وانتهى الى العشائرية والاقطاع والموالاة للغرب • لم يعد يبق أمام الجماهير الا تراثها الدينى الطويل تستمد منه قيمها • ولما كان هذا التراث تقليديا ظهرت المحافظة الدينية •

والعامل الثانى هو تحدى الغرب وتحويل مركب النقص منـــه الى مركب عظمة كما حدث أخيرا فى الثورة الاسلامية فى ايران • فطالما هاجم الغرب تراث الشعوب غير الاوربية ، وجعله مسؤولا عن تخلفها ، ونال من دينها وأنبيائها ، وحكم على عقليتها بالسحر والتناقض • وبعد أن نالت هـــذه الشعوب استقلالها ، وأحيت تراثها الوطنى ، واكتشفت أزمة القيم فى الحضارة الغربية حدث لديها اعتزاز بتراثها الذى حاول الاستعمار القضـــاء عليه للقضاء على الهوية القومية • ولما كانت هذه

الشعوب ما زالت تمر بفترة الانتقال من عصر الى عصر ظهرت المحافظة الدينية كتعبير عن الرصيد التاريخى الذى تحافظ عليه الشعوب والتى مازالت فى مرحلة الاصلاح الدينى ولم تنتقل الى مرحلة النهضة .

والعامل الثالث هو اكتشاف قدرات الشعوب الخاضعة على الابداع والحركة كما حدث فى تاريخها القديم ، وان الخلف ليسوا بأقل من السلف ، وان ما يبغونه من عقلانية وطبيعية وحرية وديمقراطية ومساواة وعدالة اجتماعية يمكن تأصيله فى الرصيد التاريخى لهـذه الشعوب . وان هذه الثروات الجديدة لا تكفى لصنع مستقبل جديد أو وضع نظام عالمى جديد ان لم يصاحبه اكتشاف امكانات ابداعية جديدة وصياغة هـذا النظام العالمى الجديد أمام نظامين عالميين يتنازعان العـالم ، وكلاهما يمر بأزمات طاحنة . فلما لجأت هذه الشعوب لتحقيق ذلك وجدت المحافظة التقليدية التى لم يتم تثويرها بعد . ويكون السؤال : متى تتحول العقيدة الدينية الى أيديولوجية ثورية للجماهير ؟

ثانيا : من الكهنوت الى السياسة :

أما البحوث المقدمة فى القسم الشمالى عن المسيحية واليهودية فانها أيضا ضمت اثنى عشر بحثا ، نصفها حول الشعائر والطقوس والرؤى الصوفية والنصف الآخر حول السياسة والمشاكل الاجتماعية . وكان السؤال أيضا هو كيفية الانتقال من الكهنوت والتصوف الى السياسة والاجتماع . وقد غلبت «دراسة الحالة » على معظم الابحاث . وحظت مالطة وأسبانيا باهتمام معظم الباحثين .

وقد أثبت أحد البحوث انتشار التشخيص الدينى فى مالطة . وتضخيم الاحتفالات والمواكب الدينية وفى مقدمتها الصـعود فى طريق

الآلام تشبها بالسيد المسيح ، وبصرف النظر عن التجسيم والتشخيص فى الاديان وكون ذلك مرحلة أقل فى تطور الدين من التنزيه والتجريد فان السؤال الذى لم يطرحه الباحث بعد أن اكتفى بالجانب الفولكلورى للظاهرة هو : ما دلالة هذه الظاهرة من الناحية السياسية ؟ والحقيقة أن الاتجاه الاشتراكى فى مالطة الذى يمثله دوم منتوف يبدو أنه لم يلمس قلوب الناس ولم يغير من عقائدهم الموروثة شيئا . لذلك خرج التراث الدينى فى صورته التقليدية ليعبر عن استمرار التاريخ واتصال الزمان وانقطاع من حجج التحديث الاشتراكية العلمانية عن تراث الامة وتاريخها . لم تحدث عملية تطوير لتراث الشعب حتى يكون حاملا للمطالب الاشتراكية ، وظل الناس مؤمنين فى الجانب الروحى واشتراكيين فى الجانب الاجتماعى . وكلما ازدهرت الاشتراكية اتسعت ظاهرة المواكب والاحتفالات الدينية . أما لدى الطبقات الفقيرة فمازالت هذه الظاهرة تمثل أفيونا للشعب ، وتطهرهم من عذاب الدنيا عن طريق المشاركة فى آلام السيد المسيح ، بدل أن يتحول العذاب الى رفض سياسى ومطالبة الى تغيير الوضع القائم بحيث يحقق مطالب الفقراء . وقد تعبر هذه الظاهرة لدى جميع طوائف الشعب عن جانب فنى مسرحى مأساوى تقوم بدور المسرح الدنيوى وتكون مناسبة للتعبير عن الطوائف الانسانية من براءة وادانة ودفاع وعقاب . ولكنها فى الحقيقة تعبر عن العواطف الدينية الدفينة التى لم تتحول الى نضال ثورى . فقد تمت الثورة على أيدى الاشتراكيين العلمانيين .

ومن أطرف الدراسات المقدمة الدراسة عن « قداس المافيا » لوصف الشعائر والطقوس الدنيوية لدى المافيا فى صقلية وجنوب

ايطاليا ، ولما كان القداس فى نشأته رومانيا فقد عاد لدى المافيا الى أصله الدنيوى • فيجلس أعضاء المافيا حول المائدة كما هو الحال فى العشاء الاخير حول الرئيس ويقومون بنفس الترانيم والاناشيد ، ويحملون الادوات كما يحمل الرهبان الصلبان ، ويأخذون الخبز المقدس مثلما يفعل المؤمنون فى التناول • ويدل ذلك على أن أى عمل ضخم فى حاجة الى طقوس شعائر اذا ما تم فى مجتمعات متخلفة ترى الرمز فعلا •

وبالاضافة الى موضوع الشعائر والطقوس يبرز موضوع الرؤية الدينية وظهور السيدة العذراء لبعض المؤمنين • ويبين البحث المقدم عن «الرؤى الدينية والحرب الباردة فى جنوب أوربا » الصلة بين هذه الرؤى والظروف السياسية • معظم الذين تظهر لهم السيدة مريم العذراء والطفل على يديها من الفقراء الصبية والاناث فى الريف • مما يدل على تدين الفقراء وجهل الصبية ، وروحانية الاناث ، وأمية الريف • وصورة الظهور صورة الحنان والعطف والامومة وهى الصورة التى تشبع لدى الطبقات المحرومة حرمانها • يقوم الدين باعطاء نماذج حضارية للجماهير ويكون بالنسبة لها مصدرا للصور الفنية تعبر من خلالها عن أوضاعها النفسية والاجتماعية • ولكن الاهم من ذلك كله هو الظروف السياسية التى تحدث فيها هذه الظواهر • فطبقا للاحصائيات كثرت هذه الرؤى فى سنوات الحرب الباردة ما بين ٤٧ — ١٩٤٩ • وفى أثناء الحرب الكورية فى أوائل الخمسينات • تشعر الناس بأزمات ومصائب ولا تجد لها حلا الا فى ظهور السيدة العذراء تخفيفا للهم • وقد استغلت الكنيسة هذه الرؤى لاثبات أن الله مع المؤمنين ضد الكفار الشيوعيين ، وأن النصر سيكون للايمان على الالحاد •

كما استغل التجار هــذه الرؤى لرواج السياحة وتجــارة الايقونات والذكريات • وقد حدث نفس الشيء بظهور عذراء الزيتون اثر هزيمة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ تعويضا عن الهزيمة ولجوءا الى الايمان كدعامة للنصر •

وعلى عادة الاوربيين فى ادخال الجنس وتحرير المرأة فى كل مؤتمر دولى أو منتدى ثقافى يعرض بحث « التقسيم الجنسى للعمل الدينى فى حوض البحر الابيض المتوسط » يجمع فيه بين الدراسات الاثنوجرافية والانثروبولوجية من عمل النساء فى الحقول كما تبدو فى الرســوم من ناحية والعقائد اللاهوتية خاصــة فيما يتعلق بمريم العذراء من ناحية أخرى • هذه الازدواجية فى المنهــج هى التى جعلت البحث مذبذبا بين العلم والدين • والاخطر من ذلــك هو توجيه المــادة العلمية بحيث تثبت صحة بعض العقائد الدينية وبالتالى انتقاء أية مادة علمية بصرف النظــر عن صحتها مادامت تؤيد العقائد الدينية فى حين أن التراث العلمى الدينى الاوربى ســار فى الاتجاه المضاد وهو اثبات صحــة العقائد الدينية بالرجوع الى المادة العلمية •

واستعمل الباحث لتلك التحليلات المقارنة لوضــع المرأة وصلتها بالعمل فى الاسلام والمسيحية من أجل اثبات أنه فى الاســلام يتدين الرجل بينما لا تتدين المرأة ، فى حين أنه فى المســيحية تتدين المرأة ، بينما لا يتدين الرجل • ويكون الهدف هو أنه اذا تطورت المجتمعات الاســلامية سيتحول الرجل الى علمانية خالصة كما هو الحــال فى الغرب ، وتصبح المرأة الوثنية فى الاسلام متدينة كزميلتها فى الغرب ! وبصرف النظر عن صدق هــذه الاحكام العامة المطلقة فى كل زمان ومكان

وفى كل مراحل التاريخ ، فان كل الاحكام الجزئية التى يطلقها الباحث على الاســلام تخلط بين الوقائع والماهيات وتنتقل من الوصف الجزئى لمجتمعات تاريخية الى أحكــام عامة وشاملة على الاسلام ذاته كدين • كما أن هذه الاحكام الجزئية ذاتها خاطئة تقــوم على دراسات جزئية لبعض مظاهر التخلف فى المجتمعات الاسلامية الحــالية • فمثلا يذكر الباحث أن النساء فى الاسلام تبقى فى البيوت يوم الجمعة للطهى حتى يرجع الرجال بعــد الصلاة ، وان الرجال أكثر ايمانا من النســـاء ، وان فاطمة وعائشة وخديجة يمثلن عقيدة خاصة فيما يتعلق بالمرأة ويتخذن المسلمات كنموذج للتعبد ، وأن النساء فى الاسلام أقرب الى السحر والخرافة منهن الى العقل المنطق ، وان الامــة الاسلامية تتكون من الرجال وحدهم دون النســاء ، وان النساء مدنسات نظــرا للعادة الشهرية • كل هذه الاخطاء وقع فيها الاستشراق القديم والتى تروجها الدراسات الشعبية لاثارة الحقد والضغائن وتشــويه حضارات الغير عن عمد •

ويبين بحث آخر فى أخلاق الجنس عن « الخراف والماعز ، خرق ميثاق الشرف » عن الصلة بين الدين والاخلاق ، وأثر الاخلاق الشعبية على ســلوك الناس • فالرجل الذى تخونه زوجته يسمى « المقرن » فى حوض البحر الابيض المتوسط وسواء الساحل الشمالى أو الجنوبى• وفى الجاهلية كانت توضع القرون على منازل البغاء • فالشرف مرتبط بالجسد ونقص الشرف مرتبط بالعدوان على الجسد • والماعز تســمح بالمنافسة عليها ويتوالى عليها عدد من الجديان • فى حين أن الاســكندر موصوف فى القرآن بأنه ذو القرنين دليل على الشجاعة والشرف ممــا يثير سؤال الرمز المتعارض فى الدين الشعبى ودين الوحى •

وتتناول معظم الابحاث موضوع الانتقـــال من الكهـــنوت الى السياسة ومن العقائد الى الايديولوجية ، ومن الدين الى الثورة • ففى بحث « الشماس ، الوضع المتغير لشماس الابرشية فى مالطة » يبين الباحث تغير وضع القسيس من مجرد خادم لله الى خادم للشعب • فقد كان الوضع القديم للقسيس هو التمييز بين المؤمن المنتسب الى الكنيســـة وبين الغريب عضـــو الحزب السياسى • ويمكن لهذا الاخير أن يحرم من صلاة الجنازة • وبعد ذلك استطاع القساوسة الحصول على قدر أكبر من الاستقلال من مؤسسائهم • وكانوا يؤمنون ببعض الافكار التى لا يرضى عنها هؤلاء الرؤساء ولكنها تقربهم الى الشـــعب وتجعلهم أكثر قدرة على فهم مشـــاكل الناس الاجتماعية والاوضـــاع السياسية والاقتصادية • فاذا ما أدان الرؤساء الاشتراكية بأنها خطأ دافع عنهـــا القساوسة الشبان ، واذا ما أدان الرؤساء العمل السياسى تشترك فيـــه القساوسة الشبان • لقد اعتبرت الكنيسة دائما العلمانية مصدر خطر عليها فى حين اقترب القســـاوسة الشبان من العلمانيين لمعالجة مشاكلهم باسم الايمـــان • وكان لا يسمح للقسيس أن يكـــون ممثلا للشعب ثم حصل القسيس على هـــذا الحق بتبنيه الافكـــار الاشتراكية ودفاعه عن مصالح الناس • لم يترك القسيس مجالا فى الحياة الا ودخل فيـــه حتى الغناء والرقص والحب والزواج • وهكذا أصبح القسيس انسانا ، ودخل الدين فى معارك الحياة •

وتركز عديد من الدراسات على الحركة المناهضـــة للكهنوت فى اسبانيا والبرتغال ، والانتقال من الملكية الى الجمهورية ومن الاتجاهات المحافظة الى الاتجاهات التقدمية • فقد ارتبط التقـــدم فى أوربا ، وعلى ما هـــو معروف فى فلسفة التنوير فى القرن الثامن عشر فى فرنسا ،

بمناهضة الكنيسة ورجال الدين ورفض كل سلطة لتفسير الكتاب المقدس أو لصياغة قواعد الايمان أو لتحقيق الخلاص • وقد حدث ذلك مؤخرا فى اسبانيا والبرتغال فى هذا القرن نظرا لسطوة الكنيسة وبقايا محاكم التفتيش • ونازعت هذه الحركة سلطات الكنيسة فى الصلوات الجماعية، ومواعيد الصلاة ، وحقوق المؤمنين فى الطقوس الدينية ، وفى ملكية الكنيسة ، وفى حق رجال الدين فى الزواج العلنى بدلا من الزواج السرى أو ادارة مساكنهم بربات البيوت •

أما بحث « الدين والدين المضاد ، نشأة وسقوط الفوضوية الالفية » فانه يصف أيضا أحد هذه الحركات المضادة للكهنوت وهى الفوضوية الالفية • والفوضوية أكبر رد فعل على تسلط الكهنوت ورفض التسلط المطلق ، وتبنى الحرية المطلقة • أما الالفية فهى هذه النزعة الدينية التى تقوم على الخلاص كل ألف سنة • وبالرغم من ظهور أمثال هذه الحركات فى جنوب أسبانيا ، فى الاندلس ، الا أن أثر الاسلام فى نشأتها ونشأة الحركات الجمهورية والنزعات الاجتماعية لم يتم تقصيه لان الباحث يدين هذه الحركات مدافعا عن القانون والنظام • وقد قامت حركة الفوضوية الالفية على مفهومين رئيسيين : الحرية والمساواة ، الحرية ضد تسلط الكهنوت ، والمساواة ضد التفاوت الطبقى وظلم الاقطاع • وبالتالى ارتبطت الحركات المعارضة للكهنوت بحركات الاصلاح الاجتماعى ، ونشأة الاتجاهات الاشتراكية والنظم الجمهورية كما اتضح أخيرا فى الحرب الاهلية الاسبانية • ويبين بحث آخر عن « الدين والسياسة ، الجماعات الدينية والطبقة » الفرق بين الدين الشامل والدين الشعبى ، الاول دين الكنيسة والثانى دين الاولياء ، الاول دين ملاك الاراضى والثانى دين عمال التراحيل

والاجراء الزراعيين ومن لا أرض لهم • ومن هنـا تكون الصلة بين الدين والطبقة • وتتحد الطبقة بملكية الارض فى المجتمعات الزراعية ، فالصراع بين الدينيين هو فى جوهره صراع طبقى • قامت الجماعات الدينية تدعو الى الدين الثانى ضـد جماعة الكهنوت • وفى كلتا الحالتين يؤدى الدين وظيفة الترابط الاجتماعى بين أعضاء الجماعة ويعبر عن مصالحها • وبعد دراسة حالة معينة فى مدينة أندلسية يلاحظ الباحث تغير العلاقات بين الكنيسة والمجتمع والدولة • تناقصت سلطة الكهنوت وفقد القسيس لوظيفته الاجتماعية التى كان يؤديها لمجموع الشعب • ووحدت الكنيسة مصالحها مع مصالح الاقلية المالكة ، ولم يبق للكنيسة الا الاحوال الشخصية • ثم خرجت الاتجاهات الوطنيـة من الدين الشعبى بينما ظل دين الكنيسة مواليا للقوى والاحلاف الاجنبية •

وقد عرض بحث « ايديولوجية الديمقراطية المسيحية فى فتـرة الحرب الباردة » الى الصراع الايديولوجى بين الدين والماركسية وكيف استغلت الاحزاب الديمقراطية المسيحية الدين لتخويف النـاس من الماركسية وتكفيرها لها • فالديمقراطية المسيحية أيديولوجية محافظة تريد الابقاء على الوضع القائم فى حين أن الماركسية أيديولوجية ثورية تريد تغيير الوضع القائم • واستغلت الايديولوجية الاولى الدين لايقاف المد الثورى للايديولوجيات الثانية فى مجتمعات متدينة توجد فيهـا الرئاسة الدينية للعالم المسيحى • وتشبث الديمقراطية المسيحية بطقوس العماد ، والمشاركة الاولى ، والزواج ، والصلاة الجنائزية ، وبطريق الآلام ، ومباركة المنزل • وتعتمد فى الدعـاية على الصليب ، رمـز المسيحية ، والدرع لحماية المجتمع من مخاطر الكفر والالحاد الشيوعى • ودعت الناس الى أن الاختيار بينها وبين الشيوعية هو الاختيار بين

الخير والشر ، بين القانون والفوضى ، بين الاسرة والشيوع ، وهـو ما يحدث الآن لدينا للتخويف من حركات التقدم والتغير الاجتماعى .

وقدم بحثان عن اليهودية وصلتها بالحركات الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية . الاول عن « الجماعات الدينية فى اليهودية الارثوذكسية » وهى جماعات الدراسة والتحصيل (الحلقة) أو جماعات الذكر والتعبد (الهجدة) . وهو الصراع الدائم والمستمر فى اليهودية بين فقهـاء القانون والصوفية . ومن أبرز الجماعات الصوفية «الخاسدين» فى صراعها مع فقهاء القانون (متناجديم) . ويعرض البحث بالتفصيل نظـرية بعل شيم توف عن العلاقة بين الروح والمادة وتصنيف هذه المجتمعات منذ بدايتها فى القرن الماضى حتى الآن . ويبين أن الارثوذكسية هى الصـورة المتوسطة بين التيارين المتعارضين والتى تجمع بين القانون والتصوف فى جماعات الدراسة ، وجماعات الحياة المشتركة ، وفى جماعة المعبـد .

أما البحث الثانى عن « اليهودية والدين والمال فى فترة جنيزة القاهرة » فانه يحاول بيان العلاقة بين اليهودية والمسيحية والاسـلام فى العصر الوسيط الاوربى . فيعرض لمسـائل ثلاث : الصلة بين الدين والاخلاق ، والتنظيم الاجتماعى اليهودى ، والتنظيم السياسى للعصر الوسيط . حرمت اليهودية وكذلك حرم الاسلام الربا ، واعتبرتـه شراء . وقدمت فى ذلك الحجج النقلية والعقائدية . وكان النظـام الاجتماعى يسمح بحرية الانتقال بين أطراف العالم الاسلامى ممـا سهل حرية التجارة والتعامل . وكان النظام السياسى أيضا يسمح لكل طائفة وملة بحرية تطبيق شريعتهـا ، تحميها الدولة الاسـلامية .

هذه الحرية الاجتماعية والسياسية هى الدافع على ازدهار المعاملات المالية للطوائف اليهودية فى العصر الوسيط • ويعطى البحث كله نموذجا للدراسات المعاصرة لتحديد الصلة بين العقائد الدينية والنظم الاقتصادية وتلك التى ساهم فيها فيبر ببحثه عن « البروتستانتية وروح الرأسمالية » وبحث توينى « الدين والرأسمالية » •

هل هناك معوقات فكرية وأيديولوجية للوحدة العربية ؟

اولا : الموضوع والمنهج :

١ ــ ان الحديث فى صيغة الايجاب عن « المعوقات الفكرية والايديولوجية للوحدة العربية » يوحى بوجود مثل هذه المعوقات بالفعل • وتكون مهمة الوحدوى حينئذ محاولة تجاوزها قدر المستطاع أو التخفيف منها قدر الامكان • أما صيغة التساؤل « هل هناك معوقات فكرية وأيديولوجية للوحدة العربية ؟ » انما تثير اشكالا قد يكون موجودا بالفعل وقد يكون وهما ناتجا عن سوء فهم أو سوء تأويل • ان صيغة الايجاب والتقرير تكشف عن حكم مسبق بوجود مثل هذه المعوقات فى حين أن صيغة التساؤل تكشف عن مجرد امكانية وجودها • وبعد البحث والنظر قد تكون الاجابة ايجابا أم سلبا •

٢ ــ قد يكون مايسمى بالمعوقات الفكرية والايديولوجية للوحدة العربية نتيجة شعورية أولا شعورية لسوء فهم أو تأويل للمنطلقات النظرية للايديولوجيات السائدة نتيجة لارث تاريخى طويل من سيادة المحافظة الدينة عند البعض أو نقل المذاهب الغربية عند البعض الآخر • وكلاهما نتيجة موقف واحد هو التقليد ، تقليد القدماء أو تقليد المحدثين،

---

* تعليق على بحثى د. رضوان السيد ، د. دلال البزرى فى ندوة الوحدة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، جامعة صنعاء ، ٥ ــ ٨ سبتمبر ١٩٨٨ .

تحجر الانا أو التبعية للاخر • فالوصف التاريخى لهذه المعوقات يضعها فى اطارها الظرفى ، ويسقط عنها طابع الشرعية De Jure بعد أن يحولها الى واقــع تاريخى صرف De Facto ويمكن للمنهج التحليلى للماضى البعيد Macro—analysis أن يحدد معالم هذا التواصــل التاريخى والكشف عن الجذور التاريخية لهذه المعوقات •

٣ — وقد يكون مايسمى بالمعوقات الفكرية والايديولوجية للوحدة العربية مجرد تعبير عنالتاريخ العربى المعاصر ، وظروف تفكك دولة الخلافة ، وظهور القومية العربية كرد فعل على القومية الطورانيــة ، وتمسك العرب ببديل عن دولة الخلافة وجدوه فى القومية العربية • وقد ساعدت القوى الاستعمارية على هذا التفتيت بدخول العرب بجــانب بريطانيا فى الحرب ضد تركيا على أمل تحقيق الوعــد فى الاستقلال والوحدة • وكانت النتيجة المعروفة للجميع • الاحتلال والتجزئة • ويمكن للمنهج التحليلى للماضى القريب Micro—analysis أن يصف هذه المرحلة منذ الحرب العالمية الاولى حتى الآن •

ثالثا : الايديولوجيات الخمس :

١ — هنــاك أيديولوجيات خمس يظن أنهــا المعوقات الفكرية والايديولوجية للوحدة العربية • ثلاثة صغار : الطــائفة اللبنانية ، والقومية السورية ، والفرعونية المصرية • واثنتان كبيرتان : الوحــدة الاسلامية والاممية الماركسية (١) • ويمكن فهم الثلاثة الصغار الاولى

---

(١) هذا هو مضمون بحث د. رضوان السيد : المعوقات الفكرية والايديولوجية للوحدة العربية (الوحدة العربية : نظرة فى ايديولوجيات النقائض والبدائل) .

بالتحليل التاريخى للماضى البعيد كرواسب تاريخية فى الوعى العربى المعاصر • كما يمكن تحليل الايديولوجيتين الكبيرتين بالتحليل التاريخى للماضى القريب الذى مازال حيا فاعلا ، ومازال يشكل وعينا القومى • أما الصراع بين الاخوان والثورة أى بين الايديولوجية الاسلامية والناصرية بمضمونها القومى الاشتراكى فانه يمكن تحليلة كحالة خاصة للصراع بين أيديولوجيتين معاصرتين باستعمال المنهج الاجتماعى السياسى وتحليل التجارب المعاشة عند من انصهر فى أتون هذا الصراع (٢) •

٢ — فالايديولوجية الاولى ، الطائفية اللبنانية ، والتى تريد الحرص على الخصوصية اللبنانية « ان لبنان لايعرف بغير ذاته » واقع تاريخى منذ الحروب الصليبية حتى الآن وكما يعرف الجميع • ولكن السؤال هو : هل يعنى ذلك سيطرة احدى الطوائف على الطوائف الآخرى بدعوة الاغلبية فى مقابل الاقلية على افتراض صحة الاحصاء ؟ ومن ثم تسقط حجة الإنعزالية التى ترفض سيطرة المحيط العربى الضخم على الخصوصية اللبنانية • انما يتم تأكيد الخصوصية اللبنانية فى اطار التعدية الدينية والثقافية التى تتفق مع المنظور الوحدوى لافرق فى ذلك بين وحدة عربية أو وحدة اسلامية • كلاهما يقر بمبدأ التعددية واللامركزية • العرب أمة تشمل فى داخلها عديد من الطوائف • والاسلام أمة تضم فى داخلها عديد من الديانات • انما تنشأ المشكلة من جعل

---

(٢) هذا هو مضمون بحث د. دلال البزرى : المعوقات الفكرية والايديولوجية للوحدة العربية (الاخوان المسلمون والوحدة : من حسن البنا الى سيد قطب) ، (هل تيسر امر الوحدة ام اعيق ؟)

الخصوصية اللبنانية على النقيض من المحيط الثقافى العربى الواسع وليس أحد مكوناته سواء تم ذلك عن سوء فهم لها أوكستار بحمى مصالح الطائفة المسيطرة • هنا تظهر الانعزالية ليس باعتبارها موقفا نظريا أو عائقا فكريا أو أيديولوجيا بل مجرد حفاظ على مصالح الطوائف الاخرى • وما الفكر والايديولوجية فى البلاد النامية الاسلاح فى مواجهة الخصوم ومجرد غطاء شرعى ظاهرى يخفى المصالح الفعلية •

تاريخى لا يمكن انكاره • فسوريا الكبرى وريث حضارات الشام ومنطلق
تاريخى لا يمكن انكاره • فسوريا الكبرى وريث حضارات لاشام ومنطلق
العروبة الاول • ولكن بانتشار الاسلام دخلت القومية السورية فى محيط ثقافى عربى أوسع يشمل الحجاز ومصر والمغرب بل ومناطق شاسعة أخرى فى آسيا وأفريقيا منذ انتقال عاصمة الخلافة من الحجاز الى الشام فى العصر الاموى • ان وضع سوريا المتميز فى قلب المحيط العربى وتاريخها الطويل وتجانسها الثقافى جعلها أقوى البدائل بعد سقوط دولة الخلافة • ومع ذلك فقد أصبحت بعد انتشار الاسلام بؤرة ثقافية منذ عصر الترجمة حتى عصر الابداع • ولايمكن تجاهل هذا الموروث الثقافى الواحد الذى امتد على المنطقة العربية كلها وحول الاطراف • وبالتالى تظل الدعوة العلمانية غربية النشأة وعلى النقيض من الخصوصية القومية أو القطرية التى تقوم الدعوات الانعزالية عليها •

٤٤ ـ والايديولوجية الثالثة ، الفرعونية المصرية ، هى أيضا واقع تاريخى تحول بعد ذلك الى مشروع ثقافى أوسع بعد فتح مصر •

وأصبحت مصر مركز دائرة أوسع من فينيقيا فى الشمال والسودان فى الجنوب وبلاد الحيثيين فى الغرب • وقامت بدورها فى الفتح امتدادا الى الشمال الافريقى كله « جندها خير أجناد الارض ، وشعبها مرابط الى يوم القيامة » • ونجحت فى صد الغزو الصليبى وفى حفظ التراث الاسلامى • واستقر ذلك كله فى الوعى القومى وتحول الى منطقة اللاشعور • ولكن فى الفكر السياسى المعاصر وكأداة للصراع ضد الاستعمار ، وتأسيس الدولة القطرية بعد انهيار دولة الخلافة بزر مفهوم الامة المصرية وتأصلت جذورة فى الفرعونية القديمة فى وقت كان المد الاسلامى فيه قابعا فى اللاشعور وظهور المد الوطنى ثم العربى فى الشعور • وكما حمل نصارى الشام لواء الخصوصية تحت وهم انقاذ الاقلية من الاغلبية حمل اقباط مصر نفس اللواء تحت نفس الوهم وتحت أثر التغريب ومفاهيم الدولة الوطنية Nation—State • ولكن سرعان ماتبدد هذا الوهم اذا ما أعيدت مصر الى مكانها الطبيعى ودورها التاريخى فى مركز العروبة والاسلام •

٥ — والايديولوجية الرابعة ، الاممية الماركسية ، فانها مجرد تقليد للاممية العالمية وتجاهل للخصوصيات الحضارية والمراحل التاريخية والموروث الثقافى لدى كل شعب • ولايمكن انتزاع التاريخ ونقل أمة من مسارها التاريخى الى مسار تاريخى آخر • وقد لايكون مفهوم الطبقة هو الغالب على كل ثقافة وطنية • بل قد يكون مفهوم الوحدة الوطنية أكثر تعبيرا عن الواقع السياسى وامكانية التغير الاجتماعى من الصراع الطبقى خاصة فى مواجهة المستعمر الاجنبى • واذا كانت الماركسية ايديولوجية علمية فانها بانكارها الخصوصيات القومية تتحول الى ايديولوجية طوباوية • ويظل الواقع التاريخى والاجتماعى

والسياسى أبلغ واصدق من الرؤى النظرية المجردة الصرفة . بل ان الاممية نفسها لم تتحق داخل النظم الاشتراكية ذاتها ، وتحطمت على حدود القوميات والخصوصيات الوطنية .

٦ — والايديولوجية الخامسة ، الوحدة الاسلامية ، تعرب الى الاعلان عن مبدأ واقرار واقع فى نفس الوقت . فالاسلام ليس عقيدة فقط بل تاريخ وحضارة وتراث وعلم وفن . وان الوحدة العربية لهـا امتداداتها واشعاعاتها فى الوحدة الاسـلامية ، دائرتان متداخلتان مشتركتان فى نفس المركز (حسن البنا) . انما ينشأ الصراع بينهمـا فى حالة خاصة عندما يتم الصراع بينهما على السلطة واحساس القومية العربية أن الاسلام منافس لها على السلطة بما له من شرعية تاريخية ورصيد لدى الجماهير (سيد قطب) . وطالما كانت النخبة الحاكمة فى الاقطار العربية تنقصها شرعية الحكم نظرا لانها أما ملكية وراثية أو انقلابات عسكرية لم تأت عن طريق انتخاب ديموقراطى حر أو عقد اجتماعى يفسر نشأة السلطة السياسية ويشرع لها ، وطالما كانت علمانية تتنكر للموروث الثقافى التاريخى الوطنى والذى يكون فيه الموروث الدينى أحد مكوناته الرئيسية ستظل الوحدة الاسلامية أحـد الاستقطابات الرئيسية للجماهير ترى فى العقيدة وطنا ، وفى الايمان دولة ، وفى الدين أمة ، وفى الماضى مستقبلا .

٧ — وبصرف النظر عن هذه الايديولوجيات الخمس والى أى حد هى معوقات فكرية أو أيديولوجية للوحدة العربية ، حقيقة أم وهما، ماهو الطريق الى هذه الوحدة ؟ هناك ثلاثة مداخل متباينة . ويدل عدم قيام الوحدة بالفعل على محدودية كل منها ونسبيته . هذه المداخل هى :

(أ) الابداعية اللاتاريخية ، وهى تعطى الأولوية للثابت على المتحـول (الاكثرية الشعبية) أو للمتحول على الثابت (الاقليـة المضطهدة) ، وبالتالى تصعب الحركة الثورية نظر الغياب فاعلية الامـة أو يضحى بالتاريخ كله لصالح أصولية نصية ، والحقيقة أن هذا المدخل يفصل الوعى السياسى عن الوعى التاريخى ، ولا ابداع بلا تاريخ (٣) ،

(ب) التسويغية الكيانية ، وهى تنكر وجود الوعى القومى العربى بسبب الصراعات على الهوية ، ومع ذلك فالموجود المتاح هو المشروع الممكن ، وهذا نوع من اقرار واقع دون تشريع وكأن حجة الواقـع هى حجة المبدأ ، وهذا أيضا ترك للامر على ماهو عليه وكأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، يجعل الواقع نظرية دون تأصيل نظرى مسبق وكأن القومية العربية أساس الوحدة العربية ، شر أو خير لابد منه (٤) ،

(حـ) العلمانية التحديثية ، وهـى تفصل الدين عن الدولة ، والاسـلام عن العروبة ضـد استبداد الدولة وارهـاب الجماعات

---

(٣) فى رأى د. رضوان السيد هـذا هو موقف ادونيس (الثابت والمتحول) ، وحسين مروة (النزعات المادية) والطيب تيزينى (من التراث الى الثورة) ، وحسين قاسم العزيز (البابكية) ، واحمد علبى (ابن المقفع وثورة الزنج) .

(٤) فى رأى نفس الباحث هذا هو موقف غسان سلامة (الجامعة والتكتلات العربية ، الحرب اللبنانية) ، وايليا حريق (نشوء نظام الدولة فى الوطن العربى) .

الإسلامية • وهو المدخل الشائع لدى الوحدويين العرب (٥) • والحقيقة أنه أيضا مأزق الحركة الوحدوية الراهنة وحصارها بين علمانية النخبة واسلامية الجماهير (٦) •

ثالثا : الصراع بين الاخوان والثورة :

١ — وهذه دراسة حالة خاصة لوصف التاريخ الحديث للثورة العربية فى مصر وسوريا والعراق ولبنان وتونس وبدرجة أقل فى الجزائر والاردن والكويت مع التركيز بوجه خاص على مصر كدراسة حالة • فمن حيث المبدأ ، الاسلام والعروبة دائرتان متداخلتان مشتركتان فى مركز واحد ، الاولى أى الاسلام أوسع من الثانية أى العروبة ورصيدها خارج حدودها ، والثانية أى العروبة خطوة مرحلية لتحقيق الاولى أى الاسلام ومنطلقها من قلبها (حسن البنا) • فاذا ماحدث الصدام بين الدائرتين انفصل المركز الواحد ، وانقسم الى مركزين • فتتقاطع الدائرتان وتتصادمان ، كل مركز يريد احتواء محيط الآخر ، فلا وجود الا لقلب واحد مهما تعددت الاطراف (سيد قطب) • وهذا ماحدث بالفعل فيما يسمى بأزمة مارس ١٩٥٤ فى مصر عندما نشب الصراع بين الاخوان والثورة ، وانتصرت الثورة ، وانزوى

---

(٥) فى رأى نفس الباحث هذا هو لب مشروع استشراف مستقبل الوطن العربى (مستقبل الامة العربية ، التحديات ... والخيارات) الذى اشرف عليه مركز دراسات الوحدة العربية .

(٦) طارق البشرى : الخلف بين النخبة والجماهير ازاء العلاقة بين القومية العربية والاسلام فى « القومية العربية والاسلام » بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٨١ حتى ٢٧٥ — ٣٦٠ •

الاخوان • طورت الثورة نفسها منذ التأميم فى ١٩٥٦ • والوحدة مع سوريا فى ١٩٥٨ ، وقوانين يوليو الاشتراكية فى ١٩٦١ ، ومعركة الحلف الاسلامى فى ١٩٦٥ ، وفى أعادة بناء الجيش وحرب الاستنزاف فى ١٩٦٩ • وتم ذلك بصورة علنية فوق الارض ، وفى ممارسات سياسية فى مواجهة التحديات المصيرية ، واكتساب تجارب عن طريق المحاولة والخطأ • وتطور الاخوان سرا داخل جدران السجون لمراجعة انفسهم وموقفهم من العلمانية وتعذيبهم مرة باسم الليبرالية قبل الثورة ومرة باسم القومية والاشتراكية بعد الثورة • وخرج فكر اسلامى جديد غاضب ثائر ، جسده « معالم فى الطريق » ، يضع تعارضا وتناقضا لاصلح بينهما بين الاسلام والجاهلية ، الايمان والكفر ، حاكمية الله وطاغوت البشر ، الحق والباطل ، النور والظلمة ، يعبر عن نفسه السجين أكثر مما يعبر عن الواقع السياسى والممارسات العملية فى مواجهة تحديات العصر • وبعد ١٩٧٠ ، وانقلاب الثورة المصرية على نفسها ، وخروج الثورة المضادة من بطن الثورة ثم استعمال هذا الفكر الاسلامى السجين بعد اطلاق سراحه واستعماله لضرب الثورة وانجازاتها نشأ الاتفاق الوقتى فى المصالح بين الثورة المضادة فى السبعنيات وبين العداء للناصرية كما مثله الفكر الاسلامى بين جدران السجون • ولكن فى اواخر السبعنيات ، بعد زيارة القدس ، والصلح مع اسرائيل ، والارتماء فى احضان الغرب ، والتبعية للولايات المتحدة ، وصدور القوانين المقيدة للحريات ، والانعزال عن المحيط العربى ، نشأ صراع جديد فى المصالح بين الثورة المضادة والجماعات الاسلامية التى جسدت الفكر الاسلامى السجين ، وحدث انفجار اكتوبر ١٩٨١ ، ومازال الموقف حاملا

بامكانيات انفجارات أخـرى (٧) •

٢ — ومع ذلك ، هناك دوائر أربع متداخلة يقربها الاخوان والثورة لا تصادم بينها الا حين يقع الصراع على السلطة : القطرية (المصرية) ، والقومية (العربيـة) ، والعقيدية (الاسـلامية) ، والانسـانية (العالمية) • ولا فرق فى هذا بين الاخوان (حسن البنا) أو الثـورة (جمال عبد الناصر فى نظرية الدوائر الثلاث فى فلسفة الثورة) • وقـد توجد حلقات متوسطة بين كل حلقتين وهى التكتلات الاقليميـة مثل وحدة مصر والسودان بين القطرية والعربية ، والوحدة الشرقية بين العربية والاسلامية ، والوحدة التاريخية بين المناطق التى انحسر عنهـا الاسلام بعد ازدهار (الاندلس ، صقلية ، البلقان ، جنـوب ايطاليا ، جزائر بحر الروم) بين الاسلامية والعالمية • فالوحدة تبدأ من القطرية حتى العالمية • وما الوحدة العربية أو الاسلامية الا احدى المراحل المتوسطة •

---

(٧) انظر فى ذلك مجموعتنا « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » فى ثمانية اجزاء :

١ — الدين والثقافة الوطنية .
٢ — الدين والتحرر الثقافى .
٣ — الدين والنضال الوطنى .
٤ — الدين والتنمية القومية .
٥ — الحركات الاسلامية المعاصرة .
٦ — الاصولية الاسلامية .
٧ — اليمين واليسار فى الفكر الدينى .
٨ — اليسار الاسلامى والوحدة الوطنية ، مدبولى ، القاهرة ١٩٨٨ .

٣ — والحقيقة أن كل هذه الاطروحات النظرية بصرف النظر عن الاختلافات بينها انما تشترك فى شىء واحد وهو أولوية النظر على العمل أو أسبقية النظرية على الممارسة وكأن الوحدة العربية تتم طبقا لوحدة النظرية ، القومية أو الاسلامية . انما تتم الوحدة العربية بداية بالتنسيق بين الدول الاقليمية ابتداء من فتح الحدود ، والغاء تأشيرات الدخول ، وحرية الاستيراد والتصدير ، ورفع القيود عن انتقال الكتب والمجلات والصحف اليومية . فحرية الفكر تسبق حرية الانظمة . وقد قامت الوحدة الاوربية كهوية قبل أن تتم كوحدة سياسية . فاذا ما تم التفاعل والانتقال وتبادل المصالح يمكن بعد ذلك الانتقال من المستوى الثقافى الاجتماعى الاقتصادى الى المستوى السياسى . لقد كان حجر العثرة باستمرار أمام الوحدة العربية ومحاولات اقامتها فى تاريخنا الحديث هو أنها تبدأ من القمة وليس من القاعدة : رئيس واحد ، وعلم واحد ، ونشيد واحد ، ومجلس واحد ، ومقعد واحد فى الامم المتحدة ، وجيش واحد ، والتفرق ضارب فى الاعماق فى الولاءات القطرية والانتماءات الحزبية وتعارض المصالح بين الفئات الاجتماعية والصراع على السلطة بين القوى السياسية والاختلاف على الزعامة بين الحكام .

٤ — أن الوحدات الاقليمية قد تكون هى الممكن الذى يسهل تحقيقه فى عصر التفتت والتشرذم والتجزئة لايقاف الحروب الطائفية ومعارك الحدود ، وتخفيف حدة التوتر بين الاقطار العربية المتجاورة . وقد كان ذلك نهج معظم الوحدويين من قبل اسلاميين (الافغانى) أو قوميين (ناصر) ابتداء من وحدة وادى النيل ، وحدة مصر والشام ، وحدة الشام والعراق ، وحدة المغرب العربى ، وحدة الجزيرة العربية .

يكفى شبكة الاتصالات السلكية واللاسلكية ، وشبكة الطرق والمواصلات كما هو الحال فى أوربا الموحدة ، وحق المواطن العربى فى الانتقـال والعمل وممارسة حقوقه كمواطن عربى فى أى قطر عربى • ان لجـان التنسيق بين قطرين لاقامة صناعة مشتركة وزراعة مشتركة خطـوة تتجاوز الصراعات الاقليمية ومعارك الحدود الفاصلة • واذا كـان للانفتاح الاقتصادى ميزة فانه يكون بين الاقطار العربية فيما بينهـا وليس بين قطر عربى والدول الغربية الرأسمالية الكبرى •

٥ ـ ويمكن للجمعيات والاتحادات والنقابات العربية القيام بالدور المؤثر الفعال لخلق الوحدة من القاعدة الى القمة وليس من القمة الى القاعدة مثل : اتحاد المحامين العرب ، اتحاد الاطباء العرب ، اتحـاد المهندسين العرب ، اتحاد المؤرخين العرب ، اتحاد العمال العـرب ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، الجمعية الفلسفية العربية ••• الخ • وذلك لخلق تيار عام وحدوى داخل كل نشاط علمى أو ثقافى أو اجتماعى أو مهنى • وكلما كان كل اتحاد منتخبا انتخابا شعبيا حرا كان الاتحاد العام أكثر فاعلية وأكثر قدرة على تحريك الجماهير العربية • فالبداية بالجزء وليس بالكل ، بالمادة وليس بالصورة ، بالمضمون وليس بالشكل • وقد تمت الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية بل وارهاصات الوحـدة العربية فى أوائل هذا القرن على هذا النحو • وفى حالة الخصام بين الحكومات يتم التمييز بين مصـالح الشعوب الدائمـة والاختلافات السياسية الوقتية بين الحكام • ففى حالة الاختلاف بين وجهات النظر لا تقطع علاقات ، ولا تغلق حدود ، ولا يوقف مواطنون ، ولا يطرد رعايا ، ولا تحاك مؤامرات • فصلة الارحام واجب مطلق لا يقطعهـا الخلاف بين الاشقاء • والا ففيم الابقاء على المقدسات لو تم تدنيس كل شىء فى فورة غضب سرعان ما تهدأ كى تبدأ القبلات والاحضان •

٦ — لما كانت أولى تحديات العصر بالنسبة الى جيلنا هو تحرير الارض والذى له الاولوية المطلقة على باقى التحديات الاخرى مثل الحرية فى مواجهة القهر الداخلى ، والعدالة الاجتماعية فى مواجهة الفروق الشاسعة بين الاغنياء والفقراء،والوحدة ضد التجزئة،والتقدم فىمواجهة التخلف ، والهوية فى مقابل الاغتراب ، وتجنيد الجماهير فى متـــابل سلبيتها ولامبالاتها فان هـــذه القضية ، تحرير الارض ، قادرة على توحيد الامة نظرا لاتفاق جميع الدول القطرية عليها • فهى المكون الرئيسى لمشروع التحرر العربى • وان تحقيق هدف مشترك هو فى حد ذاته احدى مراحل تحقيق الوحدة • ويمكن السماح باكبر قدر ممكن من تعدد الاطر النظرية والمداخل الايديولوجية والاتفاق على برنامج عمل وطنى موحد يقوم على هذه القضايا السبع وفى مقدمتها تحرير فلسطين •

٧ — ان المعوقات الفكرية والايديولوجية للوحدة العربية فى حقيقة الامر مجرد نقص فى الوعى الثورى ، ونسيان لمكونات الوعى التاريخى ، وعدم ادراك للواقع الحالى والتجارب المعاشة لجيلنا الذى أصـــبح أسير تاريخه الحديث وصراعاته وخاضعا لاحزانه لا ينسى ثأره وكأن التراكم التاريخى الوحيد الممكن هو تراكم سلبى للغضب والانتقـــام • ان ما يسمى بالمعوقات الفكرية والايديولوجية هو فى حقيقة الامر تراكم سلبى اما من الماضى البعيد أو من الماضى القريب أو من تجاربنا المعاشة• يكفى لتبديدها تحويلها من اللاشعور الى الشعور مع مزيد من النقاء الثورى ورؤية محكمة للوحدة الوطنية وتحويل معـــارك المثقفين الى جبهتها الفعلية فى واقع مشترك وأمام خطر داهم لا يستثنى أحدا أو تيارا أو حزبا • ان اعادة بناء الثقافة الوطنية خاصة مكونها الرئيسى وهو الموروث الدينى القديم من أجل التخلى عن رواسب التفرقة واعادة بناء وجداننا المعاصر على عناصر الوحدة تصبح مهمة عاجلة للمثقفين الوحدويين جميعا على اختلاف منطلقاتهم النظرية(٨) •

---

(٨) وهذا هو الهدف النهائى من مشروعنا « التراث والتجديد » .

تعقيبات ومراجعات

● التمايز والتكامل بين القومية العربية والاسلام[1] :

١ ــ بحث يتميز بالحيوية والاعتدال والمحايدة والعلمية . ليس الهدف منه الدعاية لتيار معين أو التحزب والتعصب لطائفة ، ولا يقوم على أحكام مسبقة ، ويتميز بمنهج تاريخى واضح يصف الوقائع كما يهدف الى تحقيق المصالح الوطنية فى الامة العربية عامة بين التيارين الرئيسيين فيها وداخل لبنان خاصة .

٢ ــ يغلب على البحث أحيانا تيار القومية العربية ولكن بحجج علمية رصينة دون أية رنة دعائية أو محاولة للتستر وراءها أو اشباع النفس منها تعويضا عن احساس بالدونية . ولكن هذه الحجج نفسها والتى يأتى أغلبها من أبحاث د. عمارة يمكن الرد عليها . فالوهابية والسنوسية والمهدية حركات اصلاحية اسلامية تتم داخل الاقطار الاسلامية الناطقة بالعربية من الهند وتركيا واندونيسيا والملايو . الوهابية تيار أهل سنة ينتسب الى أحمد بن حنبل وابن القيم وابن تيمية . وتبنيها لشرط القرشية هو موقف أهل السنة والاشاعرة ولا يعنى تبنى القومية العربية . كما أن معارك السنوسية ضد الاستعمار

---

(١) هذا تعقيب على دراسة الاستاذ منح الصلح بعنوان « التمايز والتكامل بين القومية العربية والاسلام » القى فى ندوة « القومية العربية والاسلام » ببيروت . ديسمبر ١٩٨٠ ونشر فى ابحاث الندوة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ .

الاسلامى انما تتم باسم الاسلام ورفع الظلم والاضطهاد وليس باسم العروبة . وقتال الترك فى المهدية يدل أيضا على قتال الظلم والبغى ، وهو مطلب اسلامى .

٣ — لذلك يكون السؤال : هل الاعتزاز بالاســلام الثورى ، وبالاسلام كحركة تحرر ، يقــوم على اقتناع أساسى أم انه محاولة للتوفيق بينه وبين القومية العربية بمضمونها الثورى التحــررى فى مقابل الاســلام اليمينى المحافظ ؟ هل أصبح الاسلام الثورى ، بعد الثورة الاسلامية العظمى فى ايران ، موجة جديدة يمكن أن يراجــع الفكر القومى نفسه من خلالها ؟ واذا كانت الثورة الاسلامية قادرة على تحقيق أهداف القومية العربية بمضمونها الثورى التحررى فما الداعى للابقاء على هذه الازدوجية فى الفكر والسلوك ؟ ولماذا تتحرج الثورة العربية الآن من مناصرة الثورة الاسلامية فى ايران ولا تتورع من أن تناصبها العداء ليس فقط دفاعا عن الانظمة العربية أو دفعا للقومية الايرانية بل من موقف ايديولوجى خالص بالرغم من بعض الانتقادات الموضوعية فى ممارسات الثورة الايرانية ؟ وكيف يمكن الرد حاليا على التيار الاسلامى بجناحيه المحافظ والتقدمى الذى يرى فى شــمول الاسلام وتجاوزه لحدود القوميات مانعا من الانتساب الايديولوجى للقومية العربية ؟

٤ — وماذا يكون موقف القومية العربية من الثورة الاســلامية العامة التى لاترتبط بالقومية العربية كما هو الحال فى المد الاسلامى فى الجمهوريات الاسلامية داخل الاتحاد السوفيتى ، وباكستان ، والملايو ، وأندونيسيا ، والفلبين ؟ أليست أشمل وأعم ؟ ولماذا لا يمكن تجــاوز القوميات الى وحدة المذهب وشموله كما هو الحال فى الايديولوجيات

المعاصرة من رأسمالية واشتراكية ، وحدة المعسكر الاشتراكى ووحدة النظام الرأسمالى ؟ بل ان القومية العربية نفسها وجدت نفسها فى تحالف متين مع حركة التحرر فى افريقيا وآسيا ، واصبحت رمزا اساسيا فى حركة تضامن شعوب آسيا وافريقيا ، ومكونا رئيسيا لدول عدم الانحياز ، وثورة مركزية فى العالم الثالث مما يدل على امكانية تجاوز الحدود القومية الى ماهو اعم واشمل ، والامة الاسلامية لها وجود تاريخى ووجدانى وفعلى •

٥ — قد يغلب على البحث طابع التوفيق بين التيارين الرئيسيين فى فكرنا القومى : الاسلام والقومية كرد فعل على تعارضهما وعلى وقوع الاسلام فى المحافظة دفاعا عن مصالح اليمين ، ووقوع الاسلام فى التغريب على ايدى اليسار الغربى العربى وجعلها علمانية مقطوعة الصلة بالتراث القومى للجماهير العربية • ومن ثم كان الاسلام الثورى ، والقومية المرتكزة والمتحدة به شيئا واحدا • والحقيقة ان مجموع خطأين لا يكون صوابا ، وان التوحيد بين التيارين حقيقة جوهرية اساسية تتجاوز ردود الافعال ومحاولات التوفيق •

٦ — وهنا يكون السؤال الرئيسى : هل العلاقة بين الاسلام والقومية علاقة تمايز وتكامل أم علاقة تأسيس بمعنى أن يتأسس الاسلام على العروبة وأن تقوم العروبة على الاسلام خاصة فى محور اللغة وما ينتج عن اللغة من ثقافة وحضارة • فقد كان الوعى العربى قبل الاسلام مؤسسا لليهودية والمسيحية والحنيفية والشخصية العربية ، وظل كذلك بعد الاسلام • فالعروبة هى الوعاء الحضارى والثقافى للاسلام • ومن هنا ظهر التشابه بين اليهودية

العربية ، والمسيحية العربية والاسلام • فالديانات الثلاث تصدر عن وعاء ثقافى واحد جسدته الحنيفية ، دين ابراهيم •

والبحث فى حقيقته مساهمة ايجابية على مستوى الأمانة العلمية ، والمسئولية القومية معا يجد مخرجا لازمة الفكر القومى من علمانية وتغريب ولازمة الفكر الدينى من محافظة ورجعية ، وان كان فى حاجة أكثر الى مزيد من التأصيل النظرى لهذا المؤشر الجديد الذى تتوق اليه الجماهير العربية ويحلم به طلائعها من المثقفين •

ويمكن تحديد العلاقة بين القومية العربية والاسلام ليس على أساس انها علاقة تمايز وتكامل فقط بل على أنها علاقة تمايز وتجاوز • ولا تقوم هذه العلاقة الجديدة طبقا لما يتم حاليا من مراجعة فى الفكر القومى او تزمتا وتحزبا للاسلام بل بناء على رؤية للواقع وللتاريخ واستقراء لتاريخ العرب والامة الاسلامية الحديث • ويمكن تحديد هذه العلاقة الجديدة على النحو الآتى :

أولا : الظروف التاريخية لدولة الخلافة

١ — بدأ أنهيار الحضارة الاسلامية منذ القرن الخامس الهجرى، منذ هجوم الغزالى على العلوم العقلية ودعوته الى التصوف ، ثم انتصار الاشعرية على المعتزلة ومحنتهم • ولم تستمر محاولة ابن رشد فى رد الاعتبار للعقل • وجاء ابن خلدون اخيرا ليؤرخ لقيام الحضارة العربية وانهيارها معلنا بذلك نهاية مرحلة • ورثت الدولة العثمانية الف عام من الاشعرية والتصوف وبالتالى تخلفت المجتمعات الاسلامية وفى مقدمتها دولة الخلافة • وكان من مظاهر هذا التخلف العصبية القومية وعدم قدرة دولة الخلافة على مزج القوميات وأصهارها وتعريبها ،

واستعمال السيف بدلا عن ذلك • فبدأت فى محاربة القوميات مثل الارمن والاكراد حفاظا على وحـدة الامة • وتم تصحيح الخطأ وهـو النعرة القومية بخطأ آخر وهو الاضطهاد • فلولا هذا التخلف وهذه العصبية وهذا الاضطهاد لما نشأت الحركات القومية فى دولة الخلافة • بـل لوجدت فى الامة الاسلامية تثبيتا للهويات القومية لغـة ، وعادات ، وتقاليد ، داخل الامة الاسلامية الموحدة • بل اصبح التركى نموذج التعصب والقسوة ، لايعرف الا الحريم والسيف •

٢ — كانت محاربة العرب للاتـراك فى الثورات الاسـلامية الاصلاحية مثل المهدية فى السودان ليست لانهم اتراك فى مقابل العـرب أو لانهم عرب فى مقابل الاتراك بل محاربة الظلم والفساد والقسـوة والتخلف والسيطرة والطغيان باسم الاسلام • فلو كانت دولة الخلافة دولة اسلامية تعطى القومية حقها فى لغتها وعاداتها وشرائعها التـى لاتتعارض مع شريعة الاسلام لما نشأ هذا العـداء للاتراك باسـم الدين • وقد كان « ميثاق المدينة » ايام الرسول نموذجا للامة الاسلامية التى تصنع على قدم المساواة ، اليهود والنصارى والمجوس داخل الامة الاسلامية والاعتراف بكل منها كأمة مستقلة لها حرية العبادة والحياة ، وعلى المسلمين واجب الدفاع والحماية •

٣ — كانت هناك حركات اصلاحية اسلامية (الافغانى مثلا) تبغى القضاء على مظاهر التخلف فى دولة الخلافة حـين يقـوى المسلمون ويستطيعون مقاومة الاستعمار فى الخارج والتسلط والطغيان والفساد فى الداخل • وقد لاقت هذه الحركات الاصلاحية قبولا عنـد العـرب خاصة ، وكان لها انصارها فى الدولة العثمانية ذاتها • بل انها هى التى كانت وراء معظم حركات الاستقلال الوطنى فى الامة العربية (الحزب

الوطنى فى مصر مثلا) •بل كان الافغانى هو واضع شعار «مصر المصريين» شعار الحزب الوطنى باسم الاسلام • وهو الداعى لوحدة وادى النيل باسم الاسلام ، ووحدة شمال افريقيا باسم الاسلام ، واستقلال ايران باسم الاسلام • هذه الحركات الاصلاحية هى رد الفعل الطبيعى على مظاهر الانهيار فى دولة الخلافة • ولو قدر لها الاستمرار والنجاح لما ظهرت مشكلة القوميات داخل الدولة العثمانية • وقد غادت هـــذه الحركات القومية الطورانية والعلمانية الممثلة فى جمعية « تركيا الفتاة » أو جماعة « الاتحاد والترقى » التى كانت القومية العربية ومصر الفتاة ردا عليهـــا •

٤ ـ كان نجاح الثورة الكمالية فى تركيا الحديثة نجاحا نسبيا بعد ان وقعت فى « التغريب » والقضاء على الهوية الاسلامية ، والعلمانية، والانقطاع التاريخى ، ودخلت الاحلاف العسكرية الغربية ، وتوالت عليها الانقلابات العسكرية ، وعمها اضطهاد التيارات المعارضة الاسلامية منها والتقدمية ، وتفضيل الغرب اعداءها القدامى عليها (اليونان مثلا) فى قضية قبرص وفصلها عن الامة الاسلامية ، وايقاع التناقض بينها وبين الامة العربية،وافتعال خلافات الحدود (لواءات قطنة والاسكندرونة مثلا) ، واخيرا الاعتراف باسرائيل • وقد تم كل ذلك باسم القومية التركية •

وفى خضم هذا التخلف يكاد ينسى الجميع مآثـــر دولة الخلافة ومنهـــا :

(أ) الحفاظ على وحدة الامة الاسلامية بالرغم مما فيها من صراع للقوميات ، وهو الصراع الذى لم تخل منه حتى الثورات التقدمية

الكبرى مثل الثـورة البولشفية فى روسـيا القيصرية أو الدول ذات القوميات المتعددة مثل الهند •

(ب) استمرار الفتوحات الاسلامية داخل الغرب ذاته وفى اوروبا الشرقية ، وقـوة جيش الدولة وعظمة قوادهـا وشجاعة محاربيها ، وقدراتها الادارية والتنظيمية لهذه الرقعة الفسيحة •

(جـ) الاستمرار فى تحدى الغرب الصليبى ، والوقوف أمام اطماع الاستعمار واستمرار الحياة فى الرجل المريض مئات السنين •

(د) الحفاظ على فلسطين قلب الامة الاسلامية ، ورفض بيعهـا أو استيطان الصهيونية بها •

(هـ) الحفاظ على اطراف العالم الاسلامى فى اندونيسيا والملايـو والفلبين والهند وافريقيا وربطه بعاصمة الخلافة استانبول قبل أن تتآكل الاطراف بعد القضاء على المركز •

(و) الحفاظ على التراث الاسلامى تدوينا وتسجيلا وفهرسـة وتبويبا حتى أصبحت دولة الخلافة حتى بعد انهيارها مع الهند ، مركزا للاشعاع الحضارى الاسلامى وكما حدث بعد ضياع الاندلس من قبل •

ثانيا : مصادر الفكرة القومية

١ ــ هذه الظروف التاريخية التى مرت بها الدولة العثمانية والتى تشير الى تخلف الف عام ادت الى ظهور القومية الطورانية كأحد الحلول فى مقابل العثمانية والحركات الاصلاحية • وكانت القومية الطورانية أيضا أحد مظاهر التخلف الحضـارى واثرا من آزار التغريب ، وعصبية

لاتقل خطورة على الامة من العصبية العثمانية • وبالتالى ارادت القومية الطورانية درأ خطر ، خطر التخلف العثمانى ، بخطأ آخر ، وهو القومية الطورانية • ثم جاءت القومية العربية كرد فعل على القومية الطورانية لتصحح الخطأين السابقين بخطأ ثالث بدل ان تحارب مظاهر التخلف العثمانى ورد فعل القومية الطورانية عليه • القومية العربية اذن رد فعل تاريخى على ظروف تاريخية خالصة وليست فكرة شرعية مبدئية أى انها ظاهرة De Facto وليست De Jure على مايقول فقهاء القانون •

٢ ــ تأييد بريطانيا العرب ضد الاتراك فيما يسمى بالثورة العربية الكبرى لم تكن حبا للعرب بدليل خديعتهم بعد ذلك ، بل كرها للعثمانيين وقضاء على دولتهم بايــدى غيرها طبقــا لمبــدأ الاستعمار المعــروف « فرق تسد » ، وتقليص الدولة العثمانية داخل حدود القومية الطورانية حتى يسهل ابتلاع الاجزاء ، وتقسيم الدول العربية بين القوى الكبرى ثم ابتلاع القومية الطورانية ذاتها داخل التغريب والعلمانية • فايــد العرب البريطانيين ضــد دولة الخلافة ، وأستبدلوا طغيــان الغرباء بطغيان الاقرباء •

٣ ــ نشر الغرب للفكرة القومية عن طريق الارساليات والمدارس الاجنبية خاصة فى الشام ولبنان وتعليم ابناء العرب وترتبيتهم على الفكرة القومية سلخا لهم عن الامة الاسلامية التى يكون فيها العــرب ايضا أمة ، بل والامة الرئيسية نظرا للغة وقربها من منبع الحضارة وتمثيلها لرافدها الاول • وقد قام المبشرون بتلك المهمة بدعوى تعليم الحداثة والمدنية ودرأ التخلف والتحرر من القديم •

٤ — وقوع الاخوة نصارى الشام فى هذه الحيلة وتبنيهم الدعوة القومية ، فقد كانوا أكثر الطوائف فى الامة عرضة للاثر الاجنبى والتغريب والخلط بين الدين المسيحى والحضارة الغربية ، وشعورهم بمدى القرب فى الدين بينهم وبين الغرب مما استتبع الغرب ايضا فى الحضارة ومظاهرة المدنية • وربما سهلت على ذلك اوضاع نفسية باحساسهم بالاقلية وسط الاغلبية ، وان كان هذا الوضع يكون احيانا دفاعا على نشاط الاقلية وحماسها وظهورها فى مركز الصدارة مثل الطوائف اليهودية داخل المجتمعات الاوروبية ومثل الاقباط فى مصر •

٥ — نظرا لتخلف العرب ايضا حينذاك وسيادة النظام القبلى فى الجزيرة العربية فقد طمع مشايخ القبائل فى ان يتحولوا الى ملوك وامراء ، فرحين بمظاهر الملك ، وحبا فى مزيد من السيطرة على بقاع الارض ، والتحول من الترحل الى الاستقرار ، ومن صحراء الجزيرة الى ربوع الشام • ففرحوا بالوعود ، وتنصيبهم ملوكا ، فعادوا الاتراك الذين يمنعونهم السلطة والترأس والسيطرة •واخذت بريطانيا بعد ما يسمى بالثورة العربية فى تنصيب هذا ملكا ، وذاك اميرا ، هذا على سوريا ، وابن عمه على العراق ، وثالثا على الحجاز ، واصبحوا جميعا العوبة فى يد بريطانيا ، يقومون باضطهاد الوطنيين من القوميين العرب أو الاصلاحيين أو التقدميين بوجه عام • فاستبدلت الشعوب العربية طغيانا بطغيان ، طغيان أمراء العرب بطغيان حكام الترك • بل ازداد البلاء عندما تحول امراء العرب الى واجهات تحكم بريطانيا من ورائها فى حين استطاع الحكام الاتراك الوقوف فى مواجهة الاستعمار واطماعه•

٦ — كانت الفكرة القومية هى الفكرة السائدة فى القرن التاسع

عشر الاوربى وظهرت كحل عادل للامبراطوريات المجرية والنمساوية والجرمانية والانجلوسكسونية بعد ان حاولت كل قومية قهر القوميات الاخرى • ولما كان الفكر القومى الغربى يعنى القوة والسيطرة فقد حملها الاستعمار خارجه كى يسيطر بها على الشعوب غير الاوربية • ولما كان كثير من المفكرين العرب ورواد النهضة الاوائل قد تعلموا فى الغرب وعاشوا فيه فقد حملوا الفكرة القومية السائدة كما حملوا الافكار الاخرى مثل الحرية والعدالة والديمقراطية والاشتراكية وروجوا لهـا جميعا فى الامة العربية • ونظرا للاغتراب الثقافى لم يع المثقفون العرب ظروف نشأة القومية فى الغرب ومحليتها وظنوا انها فكرة عامة وشاملة صالحة لكل الشعوب فى كل صور التاريخ وفى كل الحضارات •

٧ — ونظرا لخفوت الحركات الاصلاحية بعد ان هبطت من الافغانى الى محمد عبده الى النصف ثم هبطت من محمد عبده الى رشيد رضا الى نصف آخر وسيادة السلفية ، ونظـرا الى ازدياد التغريب ، وامتداد الثقافة الغربية فى الثقافة المعاصرة للامة العربية فقد بدأ الحل القومى يبدو اسهل واكثر يسرا وقربا من محاولة الاصـلاح من جديد ، ومن أعادة النظر فى المسائل من اسسها ، واغفال ان مايحدث فى فلسطين من تقسيم هو مايحدث فى الهند من تقسيم ، وان الاستعمار واحد فى مواجهة الامة العربية والامة الاسلامية • وظهر مفكرون عرب يؤصلون الفكرة القومية ولم يظهر امامهم مفكرون اصلاحيون يعيدون للاصلاح حيويته ويجددون مفاهيمه حتى ابتعدت الامة الاسلامية شيئا فشيئا فى الهند وباكستان وبخارى وسمرقند وايران وتركيا ووقعت كلها تحت سيطرة الغير ، وهو الغرب • وارادت الامة العربية ان تقاوم

وحدها فابتلعها الاستعمار ايضا حتى على الرغم من الصحوة الاخيرة فى السنوات العربية الثانية فى جيلنا بريادة الناصرية .

ثالثا : مآسى تاريخ العرب الحديث

بعد ان تبنى العرب الفكرة القومية ظهرت بعض المآسى فى تاريخهم الحديث منها :

١ — خديعة الانجليز الكبرى فى بداية الحرب العالمية الاولى ، بوعد العرب بالاستقلال عن الاتراك اذا ماهم عاونوا الانجليز ، اعداء الاتراك ، ضد تركيا . وقد وقع العرب فى الشرك ، وثاروا على دولة الخلافة ، وايدوا بريطانيا عدوة المسلمين ، ورمز الاستعمار الاول . وبعد انتهاء الحرب ، وهزيمة تركيا ، وقع العرب تحت سيطرة بريطانيا، وتم توزيع اراضيهم بين القوى الكبرى .

٢ — دخول العرب فى حروب لاشأن لهم بها ، مثل الحربين العالميتين الاولى والثانية . بعد ان اصبحوا فى ركاب الغرب ، وجزءا من مصالحه ومناطق نفوذه . وزاد ارتباطهم بالغرب ، ووقعوا فى الاحلاف العسكرية، وزادت سيطرة الاستعمار على كل انحاء الوطن العربى فى شمال افريقيا ومصر والعراق وسوريا وفلسطين .

٣ — تفتيت العرب والقضاء على وحدتهم ، وتقسيم الامة ومحاصرتها بحدود مصطنعة وخلق مناطق حدودية مثارا للنزاع والخلاف بين كل دولتين عربيتين متجاورتين حتى يستمر النزاع بين الاخوة الاشقاء . ومحاربة كل محاولة للوحدة العربية ، ومناهضة القومية العربية اذا ما هدد مضمونها الثورى مصالح الاستعمار فى المنطقة كما حدث للناصرية .

٤ — ضياع فلسطين ، وتسليم بريطانيا فلسطين للصهيونية ، وهى التى ناصرها العرب فى حربين عالميتين ، وقد كانت التيارات الاسلامية اولى حركات المقاومة دفاعا عن فلسطين ومازالت حتى الان هى الباقية والاكثر تأثيرا وجماهيرية ٠

٥ — توالت الدعوات القومية فى الامة العربية لتفتيتها : الفينيقية، الفرعونية ، الاشورية ، الكردية ٠ كما ظهرت الدعوات الطائفية لتحقيق نفس الغرض : المارونية ، والقبطية ، والدرزية ، والعلوية ، والشيعة والسنة ٠ ولم يستطع الفكر القومى العربى احتواء هـذه الدعوات العنصرية والطائفية حتى الآن وكما هو واضح فى لبنان ٠

٦ — تخلف العرب ، ونسبية تحديث مجتمعاتهم ٠ ومظاهر التخلف كثيرة ، من تسلط فى الحكم ، وامية ، ونقص فى العمران ، وعدم استثمار لموارد البلاد ، وسيطرة القبلية والعشائرية ، وبالتالى لم يكن الفكر القومى أكثر قدرة على تحقيق التقدم من دولة الخلافة ٠

٧ — نكوص العرب عما بدأوه فى القرن الماضى ٠ فقد بدأت بواكير النهضة العربية والعرب مازالوا فى كنف الاتراك ٠ وظهرت تياراتهم الرئيسية من اصلاحية وليبرالية وعملية فى دولة الخلافة ٠ وكان العرب روادا للنهضة ورسلا للحرية والعدالة ٠ ولكن مابدأوه فى القــرن الماضى عاد ونكص فى هذا القرن ٠ فانتهى الاصلاح الى سلفية ، والحرية الى تسلط ، والعدالة الى تفاوت طبقى ٠ واصبحت نهضتنا الحديثه لاتبدأ الا لكى تنتهى ، عمر قصير فى مقابل النهضة الاسلامية الاولى التــى عاشت ثمانية قرون ٠

٨ — لم تعد الامة العربية عنصر تهديد للغرب كما كانت الامــة

الاسلامية المتمثلة فى دولة الخلافة بعد ان استطاع الاستعمار الغربى تفتيت الامة الكبرى ثم تفتيت الامة الصغرى واحتواء الجميع ، وبالتالى ضاع من الامة عنصر التحدى والاحساس بالرسالة ، وضرورة الانتشار والتبليغ .

٩ — انتهاء محاولات الثورات العربية التالية فى مقاومة الاستعمار ، والدعوة الى الوحدة العربية ، واقامة نظم اشتراكية تقدمية ترسى قواعد الحرية والعدالة الاجتماعية والى تخليص الامة العربية من بقايا الاحتلال . وقد انتكصت الناصرية كما انتكصت دولة محمد على من قبل . وتم القضاء على كبرى محاولات الاستقلال الوطنى فى المنطقة العربية .

١٠ — وقوع الامة العربية فى الانحياز الى الغير ، البعض منها الى الشرق ، والبعض الآخر الى الغرب ، وفريق ثالث الى صالحه الخاص والعزلة عن الدنيا . فأصبحت المنطقة العربية امتدادا لنفوذ القوى الكبرى مع اختلاف فى الدرجة . ولم تشفع محاولات عدم الانحياز الاخيرة عن الانحياز الفعلى لهذا المعسكر او ذاك .

١١ — الهجوم على الثورة الاسلامية (ايران) ، واضطهاد التيارات الاسلامية (الاخوان المسلمين) ، ووقوع النظم الثورية العربية فى حبائل الغرب وشراك الاستعمار للقضاء على الثورة الاسلامية التى تود تجديد الناصرية على أسس تراثية وشعبية وتعيد الاستقلال الوطنى للمنطقة فى مواجهة الاستعمار والصهيونية .

١٢ — ضياع حرية الشعوب العربية ، حرية القول والتعبير ، وأصبحت انظمتها فى غالبيتها تقوم على انقلابات عسكرية ، يسودها الرأى الواحد والحزب الواحد . وكل رأى آخر كافر خارج ملحد زنديق

عميل للاجنبى • وبالتالى لم تفترق الثورات العربية التقدمية عن التخلف كثيرا •

١٣ — ظهور الرأسمالية العربية بعد اكتشاف النفط ، وتكدس عائداته فى ايدى القلة المترفه امام جماهير معدمة تموت بالقحط أو الفيضان ، بها أكبر نسبة دخول للعالم وفى نفس الوقت يضرب بها المثل فى الفقر وسوء التغذية • تودع الاموال فى البنوك الاجنبية لتنمية الغرب الصناعى والامة العربية احوج اليها منه •

١٤ — اشتداد المحافظة العربية ، وانتشار الاتجاهات المحافظة ، واستعمال الدين كوسيلة للدفاع عن النظم المحافظة القائمة ، فلم تشهد الامة العربية فى تاريخها مثل هذه الردة تحت راية الثورة العربية التقدمية واثر نكوصها حتى أصبح الفكر الليبرالى أو الاصلاحى أو العلمى ذاته الذى بدأناه منذ القرن الماضى كفرا والحادا ، وكأن التقدمية لم تكن الا شعارات جوفاء تخفى تحتها محافظة أصلية تاريخية متواصلة •

رابعــا : امكانيات الثورة الاسلامية

وفى مقابل حدود القومية يمكن ابراز تجاوز الثورة الاسلامية لها على النحو الآتى :

١ — تجاوز حدود القوميات العتيقة ، ورتق الفتق ، وتوحيد الفئات ، واصهار القوميات والنزعات الطائفية داخل الوحدة الاسلامية الشاملة فى عصر التكتلات الكبرى • وقد تجاوز الغرب ذاته حدود القوميات العتيقة الى جانب المعسكرات والنظم والاهداف والمذاهب الرأسمالية والاشتراكية • كما تجاوزت الشعوب الاوروبية حدود

أوطانها فى الدول المتحررة حديثا ، أو دول آسيا وافريقيا ، أو دول عدم الانحياز ، أو دول القارات الثلاث ، أو الشعوب الفقيرة ، أو العالم الثالث ، أو العالم الرابع •

٢ — لم تعد الثورة قصرا على القومية العربية بل تجاوزتها الثورة الاسلامية التى اصبحت مرادفة هى ايضا للثورات الوطنية كما حدث فى الثورة الجزائرية حيث كان الاسلام رافدها الاول والثورات الاسلامية الحديثة : المهدية ، والسنوسية ، وثورة الريف ، وكما حدث فى ثورة عرابى ، والثورات التى اشعلها الافغانى ، وكما حدث فى الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران ، وكما يحدث الآن فى الفلبين •

٣ — لم يعد الدين افيونا للشعب أو محافظة ورجعية ، أو تدعيما للنظم القائمة بل ثورة تقدمية شعبية فى صالح الجماهير المعدمة كما هو الحال فى امريكا اللاتينية • وثورة الرهبان الشبان ، دفاعا عن الفلاحين اصحاب الارض ، وكما حدث اخيرا فى ثورة البوذيين فى فيتنام اثناء العدوان الامريكى ، وكما حدث ايضا فى الديانات الافريقية اثناء حروب التحرير الوطنية ، وبالتالى انضمام الثورة الاسلامية الى ثورة الاديان فى كل مكان كما كانت عليه أيام الانبياء •

٤ — العودة الى مقاومة الاستعمار ، وتحدى الغرب الذى اذل الشعوب غير الاوروبية منذ الحروب الصليبية والى الآن ، والوقوف فى مواجهة عنصريته الدفينة العرقية الحضارية ، حضارة فى مواجهة أخرى ، واقالة الثورات العربية من عثراتها بتجديد دمائها واعادة الحياة الى روافدها المقطوعة • ويشعر الاستعمار ذاتها ان الخطر الداهم الذى يهدده هو استيقاظ العملاق الاسلامى •

٥ ــ الوقوف فى وجه الصهيونية بعد ان تناكصت الثورات العربية عن القيام بدورها الاول وبعد ان ازدادت الصهيونية توسعا وانتشارا بعد انتصار الثورات العربية الاخيرة • الثورة الاسلامية هى القادرة بأفكارها عن تحرير اراضى المسلمين أو الشهادة عدم التنازل عن المبادىء بدعوى المصالحة أو الواقعية أو العلمانية أو التعايش •

٦ ــ تجنيد الشعوب الاسلامية ، وتحويل الملايين الى جند بعد أن عجزت الثورات العربية عن تجنيد الجماهير العربية وراءها ووقـوف معظمها موقف التفرج أو الحياد • وقد اسقطت الجماهير الاسلامية الثائرة من الشوارع أعتى نظام تسلطى عرفه التاريخ فى ايران •

٧ ــ حل قضية القوميات والنزعات الطائفية فى الامة العربية بتحقيق ميثاق المدينة الذى يعترف لكل قومية باستقلالها داخل اطـار الامة الاسلامية الواعدة وبالتالى القضاء على مشروع الاستعمار لبلقنة العالم وتحويله الى حروب طائفية ودوليات دينية تكون اسرائيل فيـه الدولة اليهودية الكبرى •

٨ ــ القضاء على التغريب والانحياز الى الشرق أو الى الغرب وذلك عن طريق الاسلام باعتباره هوية قومية وايديولوجية سياسية تحمى الامـة من التشيع والتمذهب والفرقة والاسـتغراب والبدايـة بالنظريات الجاهزة من حضارات الغرب أو الشرق ، والبداية بحضـارة الامة ، وتاريخها ، وتراثها ، وفكرها •

٩ ــ تكوين دولة الفقراء والمحرومين والمعذبين فى الارض ، ورد الاعتبار للاغلبية الصامتة ، لجماهير الامة الاسلامية وعوامها الذين

أثرت الثورات العربية على حسابهم وباسمهم • فالدولة الاسلامية هى دولة المساكين والجياع •

١٠ — تكوين دولة المستضعفين فى الارض والمستعبدين للاقوياء حتى يكون الجميع احرارا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وحتى لايتسلط انسان على انسان ، ويكونون جميعا متساوين فى التوحيد ، يحتكمون لقانون واحد بعد ان اصبحت الحرية مجرد شعار بلا مضمون •

١١ — احياء الاطراف فى الامة الاسلامية وعودتها الى القلب بعد عودة الحياة اليه ، فالمسلمون فى اواسط آسيا وفى الملايو والفلبين وتايلاند وبورما وفى افريقيا وفى امريكا الشمالية وفى شرق أوربا مازالوا بوجدانهم مع قلب الامة الاسلامية فى الوطن العربى ، ثقة يمكن استثمارها ، وواجبا يتحتم القيام به • فما زالت القاهرة ودمشق وفاس ومكة والمدينة وبغداد فى قلوب الملايين خارج الامة العربية ، رصيد لها يمكن استثماره •

١٢ — والثورة الاسلامية هى الاكثر عمقا فى قلوب الناس ، تموت فى سبيل لا اله الا الله لتنال الشهادة أكثر من استعدادها للموت فى سبيل القومية • ومن الحكمة الاعتماد على أعماق الناس وليس على مستوياتهم المسطحة •

١٣ — تحقق الثورة الاسلامية الاستمرار التاريخى والتواصل الحضارى للشعوب فى التاريخ • فهى أكثر امتداد فى جذور التاريخ من القومية لارتباطها بالفكر والمبدأ • فتنتقل القبائل من مكان الى مكان

فى حين يبقى الفكر فى كل مكان ، وتندثر الشعوب والقوميات فى الزمان فى حين يبقى الفكر فى كل زمان .

١٤ — وبالتالى يمكن للثورة الاسلامية ان تقدم مشروعا تتجاوز به المشروع القومى تكون الامة الاسلامية فيه ، وقلبها الامة العربية ، مركز الثقل فى العالم ، قلب ينبض وحوله جسم تدب فيه الحياة من جديد حتى تنهض الامة وتعيد سيرتها الاولى فى عالم بدأ الحوار يدب فيه بجناحيه المهيضين شرقا وغربا . وتعطى الامة نموذجا لانسانيةجديدة وتقدم فكرا لايعرف حدود الاجناس والقوميات ، وتكون من جديد وريثة الحضارة الانسانية التى ساهمت فى صنعها .

وعلى هذا النحو تكون العلاقة بين القومية والاسلام ليست فقط علاقة تمايز وتكامل بل علاقة تمايز وتجاوز ، وقد يكون التجاوز أحـــد مظاهر الاكتمال .

● الاسلام والمسيحية العربية والقومية العربية والعلمانية (٢) .

يمكن جمع الملاحظات كلها فى محاور أربعة :

١ — الموضوع والمنهج والاسلوب .

(أ) موضوع البحث غير محكم وربط بين موضوعات أربعة يصعب أحكام تحليلها معا . ويتم علاج كل موضوع بطريقة مختلفة ، فالاسلام

---

(٢) مناقشة بحث جوزيف مغيزل : الاسلام والمسيحية العربية والقومية العربية والعلمانية .

دين العرب وليس دين غيرهم فى حين أن المسيحية دين العرب ودين الغرب . والقومية العربية دين الجميع ، فيها خروج عن الاسلام وتأكيد للمسيحية العربية . أما العلمانية ، أثر من آثار الغرب ، فهى التى يصب فيها الجميع . وهكذا يتـم الجمع بين موضوعات تاريخيـة ودينية وسياسية بطريقة غير منزهة عن الغرض والهوى .

(ب) لم يخضع البحث لقواعد المنهج العلمى أو اتباع أى منهج علمى محدد . لم يتبع المنهج التاريخى أو المقارن أو وصف الافكار . بل يغلب على البحث الطرقة الانتقائية من حوادث التاريخ لتأييد غرض الباحث الذى حدده مسبقا دون انتظار لنتائج البحث ، بالاضافة الى أن البحث يقوم على خلط بين التاريخ والفكر خاصة فيما يتعلق بالاسلام. اذ يفرق الاسلام بين مايحدث فى التاريخ وبين الاسلام كمبدأ ؛ على عكس المسيحية التى توحد بين نفسها وبين تاريخها . واستعراض تاريخ مفاهيم أربعة على مدى أربعة عشر قرنا أو يزيد مما يفوق قدرة باحث بعينه فى بحث محدد . لذلك خرجت كثير من الموضوعات على الموضوع الرئيسى مثل حديثه عن التشريع الجنائى ، ووضع المرأة ؛ والصيام فى الاســـلام .

(جـ) ويقوم البحث على أفكار مسبقة يغلب عليها التحامل على الحضارة الاسلامية والدفاع عن الحضارة المسيحية ؛ والاعجاب المتناهى بالغرب وتقليد حلوله فى العلمانية ، واعتباره مهد الحرية والمســـاواة والرفاهية . كما لا يخلو من موقف طائفى متعصب على عادة مشاهير الآباء الذين درسوا الحضارة الاسلامية . وينقد الاسلام من خارجه وليس من داخله ، وكأن الباحث أحد المصلحين الكبار . والباحث يعترف بأنه لبنانى مارونى .

(د) وقد كتب البحث باسلوب خطابى دعائى وكأنه خطبة فى اجتماع شعبى أو موعظة فى احدى دور العبادة مثل « أنه وضع محتــرم جدا ، ولائق جدا » أو مجموعة التساؤلات والنداءات الجماهيرية عن مآسى العرب • ولا يعنى ذلك الاقلال من الحماس ولكن فرق بين حماس الخطابة ودقة العلماء •

٢ ــ الاحكام المتحاملة على الحضارة الاسلامية •

(أ) ان جميع الاحكام السلبية التى اطلقها الباحث على الحضارة الاسلامية وما أكثرها من أول البحث الى آخره انما ترجع الى تخلف المجتمع وليس الى الاسلام ذاته مثل التسلط ، واستعمال الدين لتبرير التسلط ، والجهل وحرق المخطوطات وقلة المدارس ، وعدم التسوية بين المسيحيين والمسلمين ومظاهر التفرقة فى اللباس ، ومنع حرية العبادة فكل ذلك ضد الاســلام •

(ب) الهجوم الشديد على الدولة العثمانية ، هجوم شاسع ، يؤخذ عادة حجة على الاسلام ذاته وليس وصفــا لتخلف المجتمعات الاسلامية وغيرها ومنها المجتمع العربى • بل يعزو الباحث الاصلاحات التى تمت فى الدولة العثمانية الى انتشار أفكار الثورة الفرنسية وليس الى جهود المصلحين المسلمين ، ولا يكاد يذكر عن الاسلام شيئا كأحــد الاتجاهات فى الدولة العثمانية مثل الطورانية والعثمانية ، والاتجاه العربى ، ولا يكاد الباحث يذكر أية فضيلة للدولة العثمانية مثل الحفاظ على وحدة الامة ، والحفاظ على الهند من الاستعمار الغربى ورفض بيع فلسطين أن استقرار الصهيونية فيها •

(ج) يسقط الباحث كثيرا من الاحكام الغربية على الحضارة

الاسلامية مثل ضرورة الفصل بين الدين والدولة بعد أن خلط المسلمون بينهما ، فى حين أصبح من المعروف عند جميع الباحثين ومنهم المستشرقون أن الاسلام لا يفرق بين الدين والدولة لانه دين ودنيا ، عقيدة وشريعة. وان وضع عبارة أن دين الدولة هو الاسلام لا يعنى أى تطبيق للشريعة الاسلامية فى الدول العربية ، بل نفاق وتستر وتملق لحس الجماهير الدينى . وقانون الاحوال الشخصية مطبق فى كل المجتمعات ، سواء بها هذه العبارة فى دستورها أم لا .

(د) ربط الباحث الاسلام بالجزيرة العربية وجعله مرتبطا بها مما قد يعطى حجة للصهيونية بربط اليهودية بفلسطين ، ويقضى على شمول الاسلام ، ويجعله دينا عربيا ، للعرب فحسب . والعروبة عند الباحث تعنى قومية تقوم على العرق والشعب والتاريخ فى حين أن العروبة فى الاسلام تعنى اللغة . كما أن الباحث كثيرا مايسقط من مفهوم القومية اليوم ويعنى بها التعصب على التاريخ الاسلامى القديم . فالفكر ليس فيه عربى أو فارسى أو هندى . وأخشى أن يكون ذلك اسقاط من الجاهلية على الاسلام . كما أن الباحث يؤول نهضة الاسلام اليوم على أنهـا نهضة للعرب ، فى حين أن الحركة كمـا تمثلت فى الثورتين الايرانية والافغانية قد تمت خارج العالم العربى ، وكذلك انتشار الاسلام فى أوروبا وأمريكا .

(هـ) يجعل الباحث الحضـارة الاسلامية وكأنها قد قامت بفضل الترجمات عن الثقافات الاجنبية وخاصـة اليونانية ، ولولا هـذه الترجمات لمـا قامت الحضـارة الاسلامية ، فى حين أن علم أصول الدين وعلم أصول الفقه وعلوم التصـوف والعلوم النقلية كلها قد قامت قبل عصر الترجمة ، القرن الثانى الهجرى . بل ان الفلسفة ذاتها التى كثيرا

ما يشار اليها على أنهــا هى التى ينطبق عليها هــذا الحكم قد تمثلت الفلسفة اليونانية واحتوتها فى اطار التصور الفلسفى العــام للكون • فقد كانت شروح الفارابى وابن سينا وابن رشد أحد مظــاهر هذا الاحتواء • ويؤكد الباحث أنه لولا نصــارى الشام وما قاموا به من ترجمات لما كانت الحضــارة الاسلامية ، معطيا كل الفضل للنصــارى ولليونان ، فى حين أن النصارى قد قاموا بذلك بدافع اسلامى ، وهو التعرف على ثقافات الغير وعدم العزلة عنها ورفضها رفضا مسبقا •

(و) توجد بعض الاحكام العلمية الخاطئة مثل « منــذ النصف الثانى من العصر الاموى نشأت المذاهب الكلامية كالارجاء والاعتزال ثم مذاهب الشيعة والخــوارج » فى حين أن المــذاهب الكلاميــة نشــأت منذ الفتنة والحديث عن الايمان والعمل والامامة • أو الحكم على ابن الفارض وابن عربى وابن خلدون بأنهم أبدعوا بفضــل اطلاعهم على التراث الاجنبى فى حين أن التصوف الاســلامى وفلسفة التاريخ عند ابن خلدون اسلاميان أصيلان لا أثر للتراث الاجنبى فيهمــا • وكذلك القول بأنه « بين وفاة ابن رشد وظهور ابن خلدون ، قرن ونصف قرن ليس فيها فلسفة عامة ولا علم مبتكر » فى حين أن علم الكــلام الفلسفى تأسس فى هــذه الفترة عند الرازى (٦٠٦ هـ) والآمــــدى (٦٣١) والبيضــاوى (٨٦٥ هـ) والايجى (٧٥٦ هـ) والتفتازانى (٧٩١ هـ) • كما أن الباحث يتجاوز بأحكامه الحضارة الاسلامية الى القرآن والحديث نفسهما معلنــا أنهما مملوءان بالعناصر اليهوديــة والمسيحية موحيا بأنهما مستقيان منهما فى حين أن القرآن يتحدث عن الديانــات التــى عرفتهــا الجــزيرة العربيــة قبــل الاســـلام • ويسمى الازهر معهدا أسوة بالمعاهد الدينية فى الغرب •

٣ ـ الاحكام المتحيزة للمسيحيين العرب .

(أ) يذكر الباحث القبائل المسيحية العربية فى شمال الجزيرة العربية فى الشام وكأن المسيحية هى الدين العربى السابق على الاسلام فى حين أن المسيحية واليهودية كانتا هامشيتين فى الجزيرة العربية على حين كان الحنفاء فى قلب الجزيرة فى مكة خاصة ينالون احترام العرب جميعا . والاسلام ان هو الا استمرار للحنيفية . كما يذكر أيضا أن المسيحيين كانوا هم الرواد الاوائل للحضارة الغربية فى عصر النهضة وحملة العلم العربى ويذكر أيضا أسماء المعلمين الاوائل . والحقيقة أن هؤلاء كانوا يتعلمون فى الغرب ويعلمون فى الغرب ، وكانوا يبشرون بمآثر الحضارة الغربية عند العرب أو يعلمون الغرب العلم العربى على طريقة المستشرقين .

(ب) يجعل الباحث وضع المسيحيين أيام الحكم العربى (الدولة الاموية) والحكم العثمانى على نفس المستوى وكأن اضطهادهم داخل الحكم الاسلامى قضية مبدأ أو عقيدة . ويصف مظاهر هذه التفرقة الطائفية بأن المسيحيين كانوا هامشيين فى الحياة الوطنية ، وجواز زواج المسلم من مسيحية وتحريم زواج المسلمة من مسيحى ، وتمييز المسيحى فى المجتمع الاسلامى بلباس معين ، وتحريم تعليم لغتهم وتاريخ بلادهم ودينهم وانكار حقهم فى تكوين أمة . وكل ذلك أحكام تجافى الصواب . فلم ير المسيحيون أو اليهود عصر ازدهار حضارى الا فى ظل الحكم الاسلامى . وتاريخ الاندلس معروف للجميع . وللمسيحيين مكان الصدارة فى الثقافة والتجارة ويكونون احدى شرائح الطبقات العليا المتميزة فى الوطن العربى . وكانوا روادا للحركة الوطنية المصرية والثورة التقدمية العربية . وزواج المسلم من مسيحية

وليس العكس جزء من الشريعة الاسلامية وحكمته فى ضرورة طاعة الزوجة للزوج • ولا أظن أن هناك قيودا على تحريم لغات المسيحيين أو دينهم أو تاريخهم • واذا كان المسلمون أمــة فان المسيحيين لهم ملكوت السموات ولا يضيرهم ذلك فى شيء •

(جـ) ان الاصلاحات التى يذكرها الباحث لاحوال المسيحيين تحت الحكم العثمانى تدل على ارتباط أوضـــاع المسيحيين بالنظام السياسى وليس بالوضــع الدينى ، وأن اضطهاد المسلمين من قوميات أخــرى غير تركية (الارمن مثلا) كان لا يقل عن بعض مظاهر اضطهاد المسيحيين العرب ، وبالتالى لا يمكن للباحث أن يأخذ مظــاهر التخلف والتسلط المتغيرة كنظام سياسى ويجعلها ثابتة وكأنها مبدأ أو عقيدة فى النظام الاســلامى •

(د) ربما حمل المسيحيون العرب راية القومية العربية فى الشام وبثها فى مصر • فقد كانت مصر منذ القرن الماضى محط المفكرين والادباء والصحفيين والفنانين الشوام ، حماية لانفسهم من الغالبية الاسلامية ، أو تحت تأثير القومية الغربية وبدافع من علمانية الغــرب للقضــــاء على حيوية الدين الاســـلامى فى قلوب المسلمين تحت شعار « الدين لله والوطن للجميع » منذ شبلى شميل وفرح أنطون • والحقيقة أن الاسلام كان درعا للمنطقة كلها ضد مخاطر الاستعمار منذ الحــروب الصليبية حتى الثورة الايرانية •

٤ ــ الاحكام الموالية للغرب •

(أ) الغرب عند الباحث هو مهد الحضارة ومبعث المدنيــة ،

ومصدر أفكار الحرية والمساواة والرفاهية مما يبين أثر التغريب على الباحث ، وكأن آثار الاستعمار الغربي ليست في الاذهان ، وكأن الغرب اعتنق هذه الافكار داخل حدوده وخارجها معـا • واعتبـر الحضارة الاسلامية أحد روافد تقدم الغرب فهو المصب النهائي لتقدم الانسانية • تعلمنا على يديه ، ونشأت فينا مظاهر عقدة النقص واحساسنا بالدونية أمامه • أحكامه علينا المنصفة منها ترضينا ، فهـو الحكم المنصف العادل • ويدل على ذلك وضـع الباحث التاريخ الاسلامي ضمن التاريخ الميـلادي •

(ب) هذا الاعجاب الشديد بالغرب جعل الباحث ينسى مظاهر التخلف فيـه من عنصرية واجحاف بحقوق المرأة خاصة في أمريكـا ، وفقر ، وسـيطرة ، وحروب ، ورشوة ، واستغلال ، وانحلال ، ومادية ، بشهادة الغرب نفسه ، وكأننا ملكيون أكثر من الملك •

(جـ) يقع الباحث في أسطورة الثقافة العالمية التي تتجاوز الثقافات المحلية • والحقيقة أن هذا مجـرد وهم • فالثقافة العالمية انما تعني الثقافة الغربية وتصديرها لدى باقي الشـعوب غير الاوربية امعانا في التغريب والسيطرة • فالثقافات لا تكون الا خاصة تعبر عن روح الشعوب وتاريخها وتراثها الوطني •

(د) العلمانية هي أحد مظاهر التغريب • وقد قامت الثـورة الجزائرية وحركة التحرر الفيتنامي وحركة تحرير أفريقيا والثـورة الايرانية على أساس ديني • بل أن حركة اللاهوت الاسود في أمريكا الشمالية والرهبان الشبان الثوار في أمريكا اللاتينية لبرهان على أن التقدم والثورة لا يحدثان في شعوب العالم الثالث بعيدا عن الدين •

ومن الطبيعى أن يدخل الدين فى السياســة ولكن المهم لصالح من : الاقلية أم الاغلبية ؟ الاغنيــاء أم الفقــراء ؟ والحقيقة أن ما يطلب به الباحث فى النهاية دولة للجميع دون تمييز أو تفرقة هــو مطلب اسلامى خالص . فالامة فى الاســلام تتكون من جميع الطوائف ، ولكل حقها ولغتها ودينها وشريعتها ، وهى متساوية فى الحقوق فيمــا بينهــا .

● ريح الشرق : روح التكامل الحضــارى بين القومية العربيــة والاسلام فى صياغة عالم جديد(٣) .

١ — لابد لى هنا من أن آخذ موقف الدفاع عن صديقى د. أنور عبد الملك . ومع أننا من منطلقين دينيين مختلفين الا أن كلانا ينتسب الى جمال الدين الافغانى الذى استطاع أن يكون أستاذا لاديب اسحق ومحمد عبده لدرجة التنافس بينهما على أيهما أقرب الى قلب الاستاذ . والحقيقة أن الدوائر المتداخلة ليست نظرية بل وصف لواقع الامــة . والجرأة على صياغة مصطلحات جديدة مثل غرب السويس وشرقه أو الحرب الاستعمارية الاوروبية تدل على تصورات جديدة وأصــالة فى اعادة صياغة الواقع بعيدا عن مقولات الغرب الشائعة التى صاغها هو تعبيرا عن مركزيته وعنصريته الدفينة .

لقد كان الافغانى هو واضع شعار مصر للمصريين ، ومؤسس الحزب الوطنى فى مصر ، كما أنه كان داعية لوحــدة وادى النيل ،

---

(٣) مناقشة بحث د . انور عبد الملك : ريح الشرق : روح التكامل الحضارى بين القومية العربية والاسلام فى صياغة عالم جديد .

والوحدة العربية ، والجامعة الاسلامية ، والجامعة الشرقية • وكل ذلك وصف لواقع • فمصر هى مركز الثقل فى الوطن العربى • وكلنا نشهد ذلك بعد احتجاب مصر وتفتت الوطن العربى وانقلاب بعضه على بعض • والوطن العربى مركز الثقل فى العالم الاسلامى ، والعروبة رصيد ضخم لدى الشعوب الاسلامية • والعالم الاسلامى فى آسيا وأفريقيا أساس الثقل فى الشرق ، هذه الدوائر المتداخلة لا تتم عن أية اقليمية مصرية أو اعطاء للشرق أكثر مما يستحق • فقد كانت منطقتنا فى علاقة مستمرة بالشرق منذ ظهور الاسلام • فقد انتشر الاسلام شرقا الى خراسان واذربيجان كما انتشر غربا فى مصر والمغرب العربى • وأتته هجمات التتار والمغول من الشرق كما أتته الغزوات الاستعمارية من الغرب • ولكن نظرا لانشغالنا بنضالنا ضد الغرب فقد نسينا ارتباطنا بالجناح الشرقى •

ليست القضية امكانيات فعلية أو سياسات منهارة فى مصر تخرجها عن كونها مركز الثقل أو فى الصين تفقدها دورها الآسيوى بل القضية هى وضع استراتيجية حضارية جديدة واكتشاف مكونات وعينا القومى ، فالسياسة قبل أن تكون ممارسات وقرارات وانقلابات وعثرات هى خيال سياسى ، وصور فى مقابل صور ، ولا يقل « شعر السياسة » أهمية عن « علم السياسة » •

٢ — واجابة على التساؤلات الاربعة التى طرحها د• اسماعيل سراج الدين فانها ترتبط بالرسالة الثالثة التى يوجهها د• أنور عبد الملك فى نهاية بحثه عن ضرورة التجديد والتطوير واعادة بناء التراث طبقا لحاجات العصر • فأهل الذمة فى الاسلام أمة مثل المسلمين لهم شرائعهم ولغاتهم وعاداتهم وثقافتهم ، يرتبطون مع الامة الاسلامية

بميثاق دفاع . فهم فى ذمة المسلمين . وميثاق أهل المدينة نموذج على ذلك . بالاضافة الى أن مصالح الامة الآن تتجسد فى ثلاث : تحرير الارض ، واعادة توزيع الثروة للقضاء على هذا التفاوت الصارخ بين الاغنياء والفقراء ، والقضاء على كل مظاهر التخلف . وهى حاجات تضم عناصر الامة جميعا ولا خلاف عليها . فالواقع هو السبيل لتوحيد الامة بصرف النظر عن ثقافات كل أمة داخل الامة الواحدة .

أما موضوع الاقليات فانه تعبير غربى يوحى بأن الاغلبية مصدر اضطهاد للاقلية ، ولكن الاسلام يقدم نفس التصور للقوميات ، فهى كلها متساوية من حيث الحقوق والواجبات . ولكل منها حقها فى لغتها وعاداتها وتقاليدها وحياتها المشتركة . والكل يحكمه قانون واحد هو الشريعة الاسلامية مع مراعاة اختلاف التطبيق حسب الزمان والمكان .

أما بالنسبة لحقوق الفرد وحقوق الجماعة ، فحق الجماعة على الفرد طاعة الشريعة والالتزام بها . وحق الفرد على الجماعة الالتزام بتطبيق الشريعة ورعاية مصالح الامة . فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . واجب الفرد الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وواجب الفقيه الحسبة ، والجهر بالقول ، والمعارضة .

أما بالنسبة للمرأة فهى ليست موضوعا مستقلا فلها الحقوق والواجبات الشرعية نفسها ، ولها حق التعليم وعليها واجب المشاركة فى بناء الامة . تحتفظ بشخصيتها المعنوية بعد الزواج ، ولها حق الاعالة والكفاية المادية لها وللاولاد ، تعدد الزوجات استثناء عن القاعدة طبقا لضرورات بينها الشرع ، والطلاق لا يجوز الا لعلة يقره القاضى ، وميراثها يضم الى الزوج بعد الزواج ، تؤم الصلاة للنساء ،

وتحج مع محرم للصحبة والحماية ، وشهادتها مرهونة بعلة النسيان فاذا انقضت العلة بطل الحكم اذا كان اليقين ثابتا فى التذكر ، ومظاهر التخلف عامة فى مجتمعاتنا قد تعم الرجال أكثر مما تعم النساء •

● الجامعة العربية والجامعة الاسلامية (٤) •

١ — بحث حماسى يثير القلب والعاطفة ، ومع ذلك فانه يقع فى تناقض أساسى وهو الآتى : يبين الباحث أن القومية العربية كانت رد فعل على حركة التتريك والقومية الطورانية التى سادت فى الدولة العثمانية وبالتالى فهى رد فعل على فعل • فهى اذن مجرد عرض تاريخى وليس جوهرا فى حين أن البحث كله يدافع عن القومية العربية باعتبارها جوهرا ثابتا فى التاريخ •

٢ — فى هذا الجماس للقومية العربية يعيد الباحث تأويل التاريخ الاسلامى كله على أنه تاريخ عربى ، ويتحول الاسلام الى عروبة • فالقرشية لا تعنى العروبة بل تعتمد على حديث النبى « الائمة من قريش » • والخلاف حول القرشية سابق على تهديد العجمة للدولة العربية ورفض المعتزلة لهذا الشرط لاسباب فكرية وليس من أجل الحفاظ على العروبة • كما أن رفض الخوارج له سابق فى الزمان على رفض المعتزلة • بل أن الباحث فى عرضه الشفاهى جعل الدولة الاسلامية الاولى دولة عربية فى حين أن تعريب الدواوين لم يحدث الا متأخرا • وجعل الباحث الاسلام مجرد راية تنطلق العروبة تحته

---

(٤) مناقشة بحث د . محمد عمارة : الجامعة العربية والجامعة الاسلامية .

لوراثة الفرس الذين فشلوا فى القضاء على الروم • ويعقد الشبه بين الفرس والترك • فكما قام العرب لتدمير الفرس قاموا الآن لتدمير الترك ، وكأن الفرس الوثنيين والاتراك المسلمين على نفس المستوى •

كما فسر الباحث الحركات الاصلاحية السلفية وجعلها حركات عربية • فالمهدية والسنوسية والوهابية ليست حركات عربية بل اسلامية • يطالب المهدى بقتال الاتراك لانهم حكام مسلمون ظلمة • وباسم الاسلام يطالبهم بذلك وليس باسم العروبة •

٣ — يتصور الباحث الجامعة العربية على أنها وحدة سياسية وينكر هذه الوحدة على الجامعة الاسلامية ، فيعطى الاولى ما يسلبه عن الثانية دفاعا عن الدولة القومية مثل د• خلف الله •

٤ — دعوة الاخوان الى الحكم بما أنزل الله أو الحاكمية لا تعنى الحكم باسم الحق الالهى كما هو الحال عند الشيعة بل تعنى حاكمية الشريعة •

٥ — وفى ذات الوقت الذى يدافع فيه الباحث هذا الدفاع المستميت عن القومية العربية ، والذى من أجله يغفل حقائق التاريخ ، فانه يبين مثالب العروبة الخالصة مثل القومية العرقية ، والعلمانية ، والتغريب •

٦ — ويكون الهدف اذن هو اقالة الفكر القومى من عثراته عن طريق تطعيمه بالفكر الاسلامى حتى يصبح الفكر القومى أكثر قبولا واستمرارا وثباتا وتأصيلا • وبالتالى يكون السؤال : ولماذا تصحيح الخطأ بالصواب دون اثبات الصواب مباشرة ؟

● نحو صيغة جديدة للعلاقة بين القومية العربية والاسلام (٥) .

١ — يغلب على البحث أحيانا ، خاصة فى آخره ، بعض التوجيهات السياسية ، وهو ما يتعارض مع روح البحث العلمى التقريرى .

٢ — يعقد البحث مقارنة ومشابهة بين الجامعة الاسلامية والحركة الصهيونية باستثناء قضية الارض والعنصرية . والمقارنة غير صحيحة فالجامعة الاسلامية قائمة فى رقعة واسعة مترامية الاطراف وليست تجميعا من الشتات . وهى حركة تحرر ضد الاستعمار وليست صنيعة الاستعمار . وهى تصور موضوعى للامة الاسلامية وليست تصورا رومانسيا ، يخرج من الكتاب والسنة وليس من تأويل خاص التوراة ، وتصدر عن الحضارة الاسلامية وليس عن الحضارة الغربية .

٣ — يرى البحث أن انفصال العرب عن الترك انفصال صحيح قائلا « فكان تأييد الانفصال اذن بالنسبة الى هؤلاء موقفا اسلاميا مستنيرا » وانفصال الامة وتقطع أوصالها لا يكون موقفا مستنيرا . كانت الاتجاهات الاصلاحية داخل دولة الخلافة هى الاتجاهات الاسلامية المستنيرة ، والواقع لا يتحول الى مبدأ ، والضرورة لا تصبح شرعية .

٤ — يطالب البحث فى النهاية بالمعايشة والتوفيق بين العروبة والاسلام ، باقصاء علمانية العروبة وبتحديث الاسلام . وهو مطلب يتحقق ليس عن طريق التوفيق والتعايش والمصالحة ، ولكن من داخل

---

(٥) مناقشة بحث د . احمد كمال أبو المجد : نحو صيغة جديدة للعلاقة بين القومية العربية والاسلام .

الاسلام ذاته : أسباب النزول التى تعنى أولوية الواقع على النص ، والناسخ الذى يعنى التطور والتغير وتكييف النص حسب الواقع والقدرة • هذا بالاضافة الى عقلانية المعتزلة ، وجرأة ابن رشد فى الطبيعة ، ونهج الاصوليين الذى يبحث عن العلل المادية المباشرة للاحكام واعتبار المصلحة أساس التشريع ، وأيضا التصوف الذى يجعل الالوهية والعالم شيئا واحدا ، والتحليل التاريخى لابن خلدون ، وحصيلة الحركات الاصلاحية الحديثة فى مواجهة الاستعمار والتخلف والتسلط والفقر • وبالتالى يكون تجديد التراث هو الوسيلة عن طريق اعادة الاختيار بين البدائل الموجودة عند القدماء من أجل تحقيق مطالب العصر فى العقل والعلم والحرية والديمقراطية والتقدم • فالعلمانية تأتى من تجديد التراث ، وليس من خارجه تقليدا للغرب •

● الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب(٦) •

البحث رائق وصاف ، موضوعى ونزيه ، ولكن لى تعليقين :

أ — بالرغم من أن البحث يعطى مادة علمية دقيقة عن الموضوع ويصف تاريخ التعريب وانتشار اللغة العربية باسم الاسلام والهجرة خارج الجزيرة واعتبار العودة اليها من الكبائر وتعريب الريف والمدن ، فان صلة هذه المادة بموضوع القومية العربية والاسلام ، موضوع الندوة لم يظهر • وكان يمكن أخذ دلالات فعلية من التاريخ تساعدنا نحن عن فهم الصلة بين القومية والاسلام •

---

(٦) مناقشة بحث د. عبد العزيز الدورى : الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب .

٢ — كان يمكن لهـذه الدلالة أن تظهر ابتداء من الفقرة الاخيرة فى البحث عندما حدد الباحث العوامل التى ساعدت على وقف حركة التعريب فى ثلاثة عوامل : الاول ، تجمع العرب فى المدن وعدم انتشارهم فى الريف ، وبالتالى تكون مهمتنا نحن ليس البقـاء فى القاهرة ودمشق وبغداد والرباط ، ولكن الانتشـار فى أواسط آسيا وجنوب السودان لاستكمال عملية التعريب • والثانى ، وجود تراث ثقافى حضـارى فى البلاد المفتوحة أنشأ وعيا تايخيا لدى الشعوب ، وبالتالى تكـون مهمتنا هى الاطـلاع على هذه الثقافات — كما فعل البيرونى مع الهند ، والغزالى وابن سينا مع فارس — وتمثلها واحتوائها داخل الحضـارة الاسلامية • والثالث ، وجود لغة أدبية عند الشعوب جعلها لغة مستعملة دون العربية ، وبالتالى تكون مهمتها هى تعلم هذه اللغات الاسلامية وانتشارها حتى لا نكون مكا نحن عليه الآن ضحايا للغرب ، نتعلم الانجليزية والفرنسية والالمانية ولا ندرس الفارسية أو التركية •

٣ — لدينا نحن العرب رصيد ضخم لدى الشعوب الاسلامية غير العربية ، فالعروبة لهم شىء مقدس يتبركون به ، والعربية لغة القرآن والعلوم والثقافة الاسلامية ، ولغة الحضارة والرقى ، يتكلمها المسلمون فى الفلبين وأواسط آسيا فى ايران وأفغانستان وباكستان والهند وتركيا فى العـلوم ، وان كانت تنقصهم الممارسة فى الاسواق والحياة العامة • وهو رصيد ضخم يمكن للفكر القومى استثماره دون ضياعه بالانغلاق فى حدود القومية •

● موقف القوى الخارجية فى مواجهة العروبة والاسلام : نظرة تاريخية(٧) •

البحث علمى تاريخى رصين يقوم على موقف اسلامى وطنى ، يجمع بين الدقة والمسئولية • ولكنه يوحد بين العروبة والاسلام عن طريق الجمع بين الخصوص والعموم • لذلك تتردد باستمرار هذه العبارة الشائعة « فى العالم العربى خصوصا والعالم الاسلامى عموما » • والحقيقة أن الهجمة الاستعمارية على الامة الاسلامية لم تفرق بين العموم والخصوص ، وكان استعمار اسبانيا والبرتغال لاندونيسيا والفلبين واستعمار بريطانيا للهند وأفغانستان لا يقل ضراوة عن استعمار بريطانيا وفرنسا للوطن العربى • وكان الالتفاف حول أطراف العالم الاسلامى من البحار لا يقل ضراوة عن ضرب القلب من البر فى فلسطين • وبهذه الطريقة يمكن للباحث الهندى أن يصف تاريخ الاستعمار قائلا أيضا الهند خاصة والعالم الاسلامى عامة ، وكذلك للباحث الاندونيسى عندما يقول أندونيسيا خاصة والعالم الاسلامى عامة •• وهكذا • والحقيقة أن الهجمة على العالم الاسلامى انما كانت بنفس القوة ولنفس الاسباب دون تمييز بين عموم وخصوص •

ولا يعيب الورقة النظرة الشاملة ولا يعيبها غاب المراجع ، فالشمول نظرة علمية ، والتاريخ ننتقى منه ما نشاء وفقا لاهداف الباحث مع الدولة العثمانية أو ضدها • فاذا كانت ورقة د• أنور

---

(٧) مناقشة بحث منير شفيق : موقف القوى الخارجية وتحركها فى مواجهة العروبة والاسلام : نظرة تاريخية •

عبد الملك بها « شعر السياسة » فهذه الوقة بها « وجدان السياسة » تضع قضية الغرب واللاغرب فى سياقها التاريخى الحضارى • والتحدى الاسلامى الحضارى هو التحدى للغرب لان الاسلام هو القادر على اعطاء هوية للشعوب غير الاوروبية أكثر من حضارات لا أوربية أخرى فى أفريقيا وآسيا نظرا لطبيعته فى « اثبات العالم » وليس نفيه •

● نظرة القوى الخارجية وتحركها فى مواجهة القومية العربية والاسلام : نظرة معاصرة(٨) •

١ — البحث يقوم على تحليل علمى رصين هادىء من أستاذ متخصص فى العلوم العسكرية والسياسية ويقوم على خبرة وممارسة طويلة فى عصر مواجهة الناصرية للاستعمار • فهو وثيقة تاريخية علمية وطنية • ولكن أحيانا وفى كل صفحة تقريبا يذكر الوطن العربى والاسلامى كمترادفين ، وهو الشائع والاغلب ، وأحيانا أخرى يذكر العالم العربى بمفرده ، أو العالم الاسلامى بمفرده وهو الاقل شيوعا مما يدل على أن العالمين فى وجداننا المعاصر اما مترادفان أو متداخلان تداخل الجزء فى الكل • وبالنسبة للاستعمار فأنه لا يفرق بين هذه العوالم لانها بالنسبة اليه مناطق غير أوربية هدفه السيطرة عليها واستغلال مواردها • وبالتالى تكون نظرية الدوائر المتداخلة المشهورة فى « فلسفة الثورة » التى أعاد صياغتها الدكتور أنور عبد الملك أفضل صياغة حتى الآن للصلة بين القومية الرعبية والاسلام ، وتحل فى وجداننا المعاصر هذا الاشتباه بين الترادف والتزاوج •

---

(٨) مناقشة بحث أمين هويدى : موقف القوى الخارجية وتحركها فى مواجهة القومية العربية والاسلام : نظرة معاصرة .

٢ ــ يذكر البحث فى الصفحات الاولى مادة لاثبات « الصــدمة الحضارية » • وبالرغم مما لذلك من أهمية لايقاظ الوعى بالمستقبل الا أنه قد يخيف ويعطى الانســان الاحساس بالعجز والدونية وهو ما يريده الغرب من الايحاء الى الشعوب غير الغربية باليأس من اللحاق بالغرب •

٣ ــ تنبؤ الغــرب باندثــار القوميات من أجل القضــاء على الخصوصيات القومية لصالح وحدة التكنولوجيا ووسائل العلم الحديثة حتى يكون للغرب باستمرار اليد العليا ، وهو المسيطر على آخر انجازات التكنولوجيا الحديثة ، كذلك الانتقال من القرية العالمية الى المدنــة العــالمية •

٤ ــ انتباه الغرب الىتحطم القومية العربية فى جوهرها وهــو الاسلام ، أى حضارة الامة وروحها وتاريخها وهويتها •

● التكوين التاريخى لمفاهيم الامة ، القومية ، الدولة ، والعلاقة بينهما(٩) •

١ ــ حدد الاصوليون القدماء معانى اللفظ بثلاث : المعنى اللغوى أو الاشتقاقى ، والمعنى الاصطلاحى ، والمعنى العرفى • وقد ركز الباحث على المعنى الاول فقط دون المعنيين الاخريين • فى حين أن الامة مثلا ، فى المعنى الاصطلاحى ، تعنى أن المسلمين أمة وأن النصارى أمــة وأن اليهود وأن المجوس أمة ، فهناك الامــة الكبرى التى تتألف من

---

(٩) مناقشة بحث د . محمد احمد خلف الله : التكوين التاريخى لمفاهيم الامة ، القومية ، الدولة ، والعلاقة فيما بينهما .

تحالف الامم برباط قانونى • لكل أمة حقها فى حرية العبادة (ممارسة لغتها وعاداتها وتقاليدها) ولها حق الحماية على الامة الكبرى • أمـا المعنى العرفى فانه كثيرا ما يكون مستعملا وشائعا ، وأحيانا يجب المعنى اللغوى نظرا لغلبة الاستعمال • وبالتالى كان من الصعب استبعاد المعانى الشائعة للمصطلاحات الاربع عند الباحثين •

٢ — لا يعنى الحكم فى آيات الحكم من القرآن فقط فض الخصومة من المنازعات بل يعنى الحكم أيضا بالمعنى السياسى • بل حتى على التسليم جدلا بأن لفظ الحكم لا يعنى الا هذا المعنى فانه اذا وقعت الخصومة فى الحكم السياسى فانه يجب الحكم بما أنزل الله ، أى تطبيق الشريعة فى حياة الناس ومنهـا الدولة • كما يصر الباحث على أن تكوين الدولة الاسلامية فى الجزيرة العربية أيام الرسول انما تم كنبوة وكرسالة ولس كدولة سياسية • وللعجب أنه يقصر السـلطة السياسية على الدولة القومية ، أى القومية العربية ، ويستبعدها عن الامـة الاسلامية والتى تقصر الرابطة فيها على الدين أو التضامن • ومن ثم يكون هناك صراع على السلطة بين الفكر القومى والفكـر الاسلامى فى ذهن المفكر القومى ، فانه يأخذها لنفسه ويسلبها من غيره •

● مستقبل العلاقة بين القومية العربية والاسلام(١٠) •

١ — يحاول البحث التوفيق بين القومية العربية والاسلام بتسمية

---

(١٠) مناقشة بحث د . احمد صدقى الدجانى : مستقبل العلاقة بين القومية العربية والاسلام .

الحضارة الاسلامية الحضارة العربية الاسلامية وهذه قضية علمية لا شأن لها بانتماءاتنا السياسية والعقائدية واختياراتنا المذهبية • فالحضارة مكتوبة باللغة العربية وغير العربية ، وساهم فيها عرب وغير عرب ، وساهم فيها العرب بعد أن تحولوا الى الاسلام ، فلم يكن لهم قبلة الا الشعر والتجارة والرعى • والخوف أن نتابع المستشرقين فيما أرادوه عندما تحدثوا عن الحضارة الفارسية ، والحضارة الهندية ، والحضارة التركية تجزئة للحضارة الاسلامية وتقطيعها لاوصالها •

٢ — مازال كثير من الباحثين يضنون على الامة الاسلامية بالوحدة السياسية فى حين أنهم يثبتونها للامة العربية ، وللعرب عند المسلمين رصيد ضخم لا يمكن تجاهله وانكاره والانعزال عنه وتركه • وربما لان الفكر القومى يدافع عن نفسه ويريد أخذ السلطة ، وبالتالى فانه يبدأ بالهجوم على الامة الاسلامية لنزع السلطة السياسية عنها • فهناك نوع من « الصراع على السلطة » داخل الفكر القومى ، لانه يشعر بأنه مهدد بالفكر الاسلامى •

● دور الاسلام والعربية (لغة وثقافة) فى تكوين مقومات القومية العربية وفى بعث الوعى القومى العربى(١١) •

١ — من حيث المنهج والاسلوب ، يغلب على البحث الأسلوب المعيارى الذى يبدأ بالوجوب والانبغاء ، وليس الواقع وما هو كائن(١١) •

---

(١١) مناقشة بحث د . عبد القادر زبادية : دور الاسلام والعربية (لغة وثقافة) فى تكوين مقومات القومية العربية وفى بعث الوعى القومى العربى .

وبالتالى غلب عليه أسداء النصح والوعظ كما غلبت بعض العبارات الانشائية العامة مثل « فهناك حكومات من العالم الثالث تسلك غــير سبيل الحكمة والرشاد » •

٢ — فى الجزء الاخير من البحث عن القومية العربية وعلاقتهــا الخارجية هناك خلط بين القومية العربية وسياسات الدول العربية • هذه السياسات متغيرة تخضع للمصالح المتبادلة فى حين أن القومية العربية مكون تاريخى ثابت • واذا كانت القومية العربية فى صراع مع المعسكر العربى نظرا للتناقض بين التحرر والاستعمار فانها قد لا تكون أقل صراعا مع المعسكر الاشتراكى ، اذا ما حاول أن يغلب مصالح الدولة على مقتضيات الثورة ، واذا ما نقض مبادىء الاستقلال الوطنى وحق تقرير المصير لكل الشعوب • ومثال أفغانستان وأريتريا ليس ببعيد •

الايديولوجية الصهيونية

بالرغم من الصراع المحتدم بيننا وبين العدو الصهيونى الا أن الكتابات عن الصهيونية مازالت قليلة بالنسبة الى حجم الصراع باستثناء المجهودات الضخمة التى يقوم بها مركز الابحاث الفلسطينية . فى حين كثرت الدراسات فى الغرب خاصة فى الولايات المتحدة الامريكية حول الصهيونية وجذورها فى العصر التوراتى حتى تبلورها كأيديولوجية سياسية فى القرن الماضى والمراجعات حولها والنقد الذاتى من داخلها بعد تأسيس الدولة الصهيونية وحروبها المستمرة وتضخم المشاكل فيها وطرح السؤال الاول من جديد : هل خلق دولة صهيونية حل للمشكلة اليهودية ؟ وهل يمكن اقامة دولة يهودية بلا صهيونية ؟ وهل مكن حل مشكلة الشعب اليهودى وخلق مشكلة أخرى ، شعب فلسطين ؟

لذلك أتى هذا الكتاب الضخم المكون من جزئين ليملا فراغا فى المكتبة العربية تجاه قضية العرب الكبرى وفى صراعهم الاول مع العدو الصهيونى ، ويعطى مادة غزيرة للقارىء العربى هو بالفعل فى حاجة اليها . ويتكون الكتاب من مقدمة واثنى عشر فصلا وملحق

(*) د . عبد الوهاب محمد المسيرى : الايديولوجية الصيهونية ، دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة ، جزءان سلسلة عالم المعرفة ٦٠ — ٦١، صفر ربيع الاول ١٤٠٣ هـ — ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٢ م الكويت . وقد كتب بناء على طلب قسم الاجتماع بجامعة الامارات العربية المتحدة فى الفصل الدراسى الثانى ١٩٨٥ .

فى المنهج وحواشى ومراجـع عديدة تبلغ فى حد ذاتها فصلا . ونبدأ بالعرض ثم نتلو ذلك بالمناقشة .

وتضع المقدمة منذ البداية موقف الباحث بين العلم والالتزام بين الحياد والمسؤولية . فالكتـابة من باحث عربى ، مثقف تقدمى بالضرورة ، فى موضوع يخص المأساة الاولى لجيله يصعب فيه التجرد العلمى التام والموضوعية الحرفية الصرفة . فالعواطف مشـحونة ، والدماء تسيل كل يوم . ويعترف الباحث صراحة فى المقدمة وبكل شجاعة بصعوبة الحياد الاكاديمى ، وبضرورة التوجه برسالة الى القارىء . والحقيقة أنه لا تناقض بين البحث العلمى والالتزام القومى ، فالعلوم الاجتماعية هى أساسا علوم قومية .

ويتناول الفصل الاول جذور المسألة اليهودية قبل العصور الحديثة وارتباط اليهود بالمجتمع التجارى القائم على الربا ، كما يتناول حيـاة الجيتو وأثرها على التكوين النفسى اليهودى ، وينتهى بعرض أهم عناصر الدين اليهودى وفى مقدمتها عقيدة الخلاص وظهور المخلص « الماشيح » الذى حولته الصهيونية السياسية من شخص الى دولة .

وتناول الفصل الثانى حركة التنوير « أسكالا » ويركز على أسبابها الاقتصادية والاجتماعية التى كانت سببا فى نشأتها مثل ازديـاد التجارة وتغير أشكال الانتـاج الصناعى ، والثورة العلمية والرياضية ، وظهور الطباعة ، وتخلخل النظـام الطبقى فى المجتمعات الاوربيـة واتساع الافق الجغرافى والفكرى للانسان الاوربى .

ويتعرض الفصل الثالث الى الردة عن التنوير وهزيمة العقـل اليهودى ، والعودة الى الخصوصية اليهودية القائمة على العرق والاختيار

الالهى بدلا من النزعة الانسانية العقلانية الاخلاقية . وتمتد الـردة الى النواحى الاقتصادية والسياسية ورفض الدعوة الى التمثل والاندماج بدعوى تجنب مخاطر الذوبان والدفاع عن الخصوصية .

ويحلل الفصـل الخامس ارتباط الفكرة الصهيونية بالاسـتعمار الغربى وكيف انها نشأت ابان المد الاستعمارى الاوربى فى القـرن الماضى ، ويصف السمات الرئيسية لهذا الاستعمار الجديد وهى أنه استعمار استيطانى ، عميل مرة لفرنسا ثم لانجلترا ثم للولايات المتحدة وفى نفس الوقت منفصل عن الاستعمار الاوربى ، يستقل عنه ويعتمد عليه فى نفس الوقت . وهو استعمار توسعى يبتلع الارض ويقتلع السـكان . وتقدم الصهيونية حججا عديدة تبررها هـذه السمات منها عبء اليهودى الابيض ، وعبء اليهودى الخالص ، وعبء اليهودى الاشتراكى . وهى كلها حجج تدل على النزعة العنصرية البيضاء التى تقوم على السيادة والهيمنة .

ويحدد الفصل السادس بنية الايديولوجية الصهيونية عن طريق تعديد مدارسها واتجاهاتها ، ويبين العناصر الدائمة والحركة فيها مثل رفض الدين اليهودى واستغلاله سياسيا والاعتماد على الغيبيـات والاساطير .

ويحلل الفصل السابع نماذج من الغيبيات العلمانية أى العقائد الاسطورية التى تم توظيفها لخدمة الاغراض السياسية مثل النبى والنبـوة والتاريخ سواء المقدس أو تاريخ الاقليات اليهودية والأرض كأحد جوانب ثالوث : الله ، الشعب ، الارض ، واستمرار اسرائيل فى التـاريخ ونقائها وهويتها المتميزة .

ويبين الفصل الثامن الصلة بين اليهودى الخالص والعربى الغائب، ابتداء من مفهومى الانا والآخر ، فاليهودى الخالص هو الانا بل والانا وحدى أو الانا المطلق محور العالم ومركز الكون واختيار الله ، والآخر هو الغير ، بل كل الاغيار بما فى ذلك العربى ، اللاشىء الذى لا وجود له • الانا تجمع نفسها من الشتات ويكون ولاؤها لذاتها أولا ، ترفض الاندماج • ويهمها معاداة السامية حتى تعود الذات الى نفسها وتكون باستمرار فى موقف الدفاع عن النفس والهجوم على الآخرين • وينتهى الفصل بتعريف اليهودى كما تقدمه الصهيونية وهو تعريف عرقى أثنى Ethinc دينى • وفى مقابل ذلك يظهر العربى على أنه الغائب ، ممثل الاغيار ، به كل صفات النقص التى تتميز بها الاقليات السوداء فى مجتمع البيض •

وبهذه الفصول الثمانية ينتهى الجزء الاول • وهو على هذا النحو أكبر حجما من الجزء الثانى •

ويضم الجزء الثانى الفصول الاربعة الاخيرة مع الملحق المنهجى والهوامش والمراجع • وهى تتعلق بالوضع الحالى للصهيونية ونشأة الدولة • فيتناول الفصل التاسع الفرق بين الصهيونية واليهودية • ويتناول الوضع القانونى للصهيونية وكيفية تصورها للخلاص الجبرى وما نتج عن ذلك من نقل اليهود وازاحة السكان • ويقارن بين الصهيونية والنازية راصدا الخصائص المشتركة بينهما كالعنصرية والهيمنة والنقاء والعنف •

ويكشف الفصل العاشر عن مدى الاستجابة اليهودية للصهيونية ورفض بعض التيارات لها مثل الاندماجية حفاظا على مثل التنوير ،

والارثوذكسية تمسكا باليهودية كتراث روحى ، والاشتراكية دفاعا عن المضطهدين فى كل مكان ، وقومية الشتات التى ترى فى كل جماعـة يهودية قومية مستقلة داخل القوميات • كما يعرض الفصل لتعـريف الصهيونى بأنه من الشتات الى أرض المعاد ليكمل تعريف اليهودى بأنه من كانت أمة يهودية •

ويتعرض الفصل الحادى عشر الى تحويل الصهيونية الى دولة وبداية نقل السـكان العرب والممارسة العنصرية تجاه شعب فلسطين وسن قوانين العودة والجنسية والاستيطان فى الارض والعمل الجماعى وتكوين النقابات •

ويكشف الفصل الثانى عشر عن بعض أصوات المعارضة للدولة الصهيونية للتخفيف من الحدة الاولى دون المساس بالطابع الصهيونى للدولة •

والحقيقة أن الكتاب على هـذا النحو يعد مصدرا وافيا للحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى قيام الدولة العبرية • ومع ذلك فيمكن ابداء بعض الملاحظات النقدية على النحو الآتى :

١ ــ معظم مادة الكتاب مترجمة عن مراجع أجنبية حتى حججها واستدلالاتها ومناقشاتها حتى أن المؤلف لم يعد له شىء خاص به ، واقتصرت مهمته على التجميع • ويدل على ذلك كثرة الهوامش • فكل فقرة لها مصدرها • ويزداد الامر صعوبة لوجود الهوامش فى آخر الجزء الثانى فى مكان واحد وليس فى أسفل الصفحة مما يصعب عملية المراجعة والمتابعة •

٢ — تبدو المعلومات أحيانا وكأنها غير موجهة نحو الغرض الرئيسى للكتاب وهو دراسة حالة من منظور علم اجتماع المعرفة ، وكأنها مجرد معلومات من أجل المعلومات حتى انه ليصعب استذكارها أو تذكرها أو تكرارها • ينقصها أحيانا الخيط القائد والموجه لها نحو الغرض المطلوب اثباته •

٣ — المنهج المتبع والمعان عنه صراحة هو المنهج الذى يعتمد على تحليل الابنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية • والمنهج المادى وان كان مفيدا فى كثير من الاحيان الا أنه يبدو محدودا ان لم تقترن به مناهج أخرى مساعدة مثل التحليل الفكرى الخالص للمفاهيم والتصورات ووصف أثر المعتقدات الشعبية على سلوك الناس وتكوين التجارب التاريخية • ويتضح ذلك تماما فى تفسير حركة التنوير ، وهى حركة فكرية ، بتغير الابنية الاقتصادية فى القرن الثامن عشر •

٤ — العنوان الفرعى وهو « دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة » يوحى بالمنهج الاجتماعى لدراسة الصهيونية باعتبارها مجموعة من الافكار والعقائد التى ظهرت فى بيئة اجتماعية معينة • ولكن هذا المنهج المعلن عنه لم يتم استعماله من خلال فصول الدراسة • انما أعطت الدراسة معلومات تاريخية بطريقة السرد الخبرى دون تحليل الوقائع الاجتماعية وجدليتها مع الافكار والعقائد • لذلك أتى الملحق عن المنهج فى النهاية ليعطى مادة عن علم اجتماع المعرفة لاكمال هذا النقص الصهيونية فى جانب وعلم اجتماع المعرفة فى جانب آخر •

فى تطبيق المنهج ولكنه ظل جزءا منفصلا عن البحث وكأن الايديولوجية

٥ — تمتد جذور المسألة اليهودية الى ما هو أبعد من التاريخ القديم فى أوربا من العصر الوسيط الى العصر التوراتى . فالصهيونية أى النزعة الخصوصية بارزة فى التوراة منذ البداية . وبالتالى غابت نكرة مراحل الفكر اليهودى فى التاريخ من عصر التوراة حتى تكوين التلمود ثم ظهور الكتب الاخرى كالمشناه والمدراش ، وكل ذلك قبل العصور الوسطى الاوربية .

٦ — لم يظهر جدل الخصوصية Particularism والشمول Universalism فى ثنايا الكتاب . وهما عنصرا التوتر والجذب على مدى التاريخ اليهودى كله سواء فى العصر التوراتى أو فى العصور الوسطى أو فى العصور الحديثة . فاذا كانت الاسفار الخمسة تمثل النزعة الخاصة فان كتب الانبياء تمثل النزعة الشمولية . واذا كانت الكتب الشفاهية الاخرى تمثل النزعة الخاصة فان الفكر اليهودى فى الاندلس كان يمثل النزعة الشمولية . واذا كان عصر التنوير يمثل النزعة الشمولية فان الصهيونية تبلور النزعة الخاصة .

٧ — الجيتو نتيجة النزعة العرقية وليس سببا لنشأ الصهيونية . فنظرا لان اليهود لا يعيشون الا فى عزلة عن الآخرين فانهم آثرو العيش فى جيتو (الفصل الاول) .

٨ — بنيـة الايديولوجية الصهيونية غلب علها رصد المدارس والاتجاهات الفكرية فى اليهودية دون التعرض لوصف البنية ومكناتها الرئيسية (الفصل السادس) .

٩ — ليست الغيبيات العلمانية فقط النبى والنبوة ولكن كل عقائد الاختيار والاصطفاء والوعد والميعاد والارض (الفصل السابع) .

١٠ — نظرا لان المادة كلها مستقاة من الكتب والمراجع الغربية فظل الكتاب بجزئيه أسيرا لها بالرغم من وجود مادة أكثر تنوعا مثل تلك التى تحتويها كتب الفرق والعقائد الاسلامية فى تحليل الفكر اليهودى (مثلا الفصل فى الملل والنحل لابن حزم) كان يمكنها جعل البحث أكثر اثراء وأقل ايغالا فى التراث الغربى •

ومع ذلك يظل الكتاب مصدرا رئيسيا للايديولوجية الصهيونية • وهو رسالة موجهة للقارىء العربى حتى يكون أكثر وعيا بعدوه وأكثر استعدادا له فى الجولات القادمة •

هل تراجع الصهيونية نفسها ؟

من أهم الظواهر التى نشأت فى السنوات الاخيرة فى الغــرب ، خاصة بعد حرب أكتوبر ، هى مجموعة من الكتابات بأقلام الصهيونيين . تعيد السؤال الابدى ؟ هل خلق دولة اسرائيل يحل المشكلة اليهودية فى العالم ؟ وبعد أن كانت الاجابة بالايجاب أصبحت الاجابة الآن أقل اقتناعا بهذا الحل • فقد نشأت اسرائيل منذ أكثر من ربع قرن ومازالت حروبها مستمرة ، ورفضها يشـــتد ويقوى ، وخســـائرها البشرية والمادية تتزايد • ومن ثم ظهر السؤال من جديد : ما الحل اذن ؟

ظهرت هذه الكتابات داخل اسرائيل وخارجها ، وتتجاوز حـــالة لتمزق واليأس الى العرض النظرى للموضوعات لايجـــاد البدائل • وظهرت فى أمريكا بوجه خاص التى ترتع فيها الصهيونية بلا حساب مراجعات كثيرة من هذا النوع ، تحاول دور النشر القضاء عليها بعد توزيعها ، وكذلك تحاول أجهزة الاعلام أن تحيك مؤامرة للصمت حولها بعدم الحديث عنها •

ولكن من مصلحتنا نحن أن نذيعها على العالم ، ونعرض هــذه التساؤلات حول الصهيونية ، فكرا ، وممارسة ، شعبا وجيشا ، مجتمعا

(*) كتب هذا المشروع للبرنامج العبرى باذاعة القاهرة لبيان انقلاب الصهيونية على نفسها وذلك خلال أعوام ١٩٧٦/٧٧ولكنه لم ير النور .

ودولة ، خاصة وأنها تقترب من وجهة النظر العربية ولكن باقــلام صهيونية ، فقد شهد شاهد من أهلهم • وهذا التيار فى ازدياد مستمر ، ولا يكفى التركيز فيه على أشــهر الشخصيات مثل « شــاهاق » و » أفنرى « بل هناك كتابات أكثر علمية وتخصصا تثير مثل هــذه التساؤلات ؟

١ ــ هل تعريف اليهودى العنصرى تعريف مقبول للمواطن الصالح؟

٢ ــ هل تكوين دولة دينية ممكن ؟

٣ ــ هل التوسع فى الاراضى سياسة تحافظ على كيان الدولة ؟

٤ ــ هل المؤسسة العسكرية تتفق مع المجتمع الديمقراطى ؟

٥ ــ هل التركيب الطبقى للمجتمع الاسرائيلى يمكن قبوله ؟

٦ ــ هل تجاهل حقوق شعب فلسطين يمكن الاستمرار فيه الى ما لا نهاية ؟

٧ ــ هل يعيش اليهود المهاجرون سعداء فى أرض الميعاد ؟

٨ ــ هل يمكن لاقتصاد الدولة أن يعيش دائما على المعونــات الخارجية ؟

٩ ــ هل يمكن للدفاع عن الدولة الاعتماد دائما على قوة كبرى ؟

١٠ ــ هل سيستمر اليهود فى العالم فى مساندة اسرائيل الى ما لا نهاية ؟

١١ ــ هل يتقبل الشباب فى اسرائيل الآن نموذج الآباء المؤسسين ؟

١٢ ــ هل رسالة اسرائيل هى بالضرورة غربية مثل الدول الاوربية ؟

١٣ — هل لابد وأن تساعد اسرائيل حركات الثورة المضادة والانظمة العنصرية فى روديسيا وجنوب أفريقيا ؟

١٤ — أليست الصهيونية تعبيرا عن عبقرية القرن التاسع عشر وأنها لا تعبر عن روح كل عصر ؟

١٥ — هل المعاداة للسامية حقيقة أم أسطورة تخلقها الصهيونية حتى تجد ما يبررها ؟

١٦ — هل يمكن الاعتماد على الدعاية باستمرار مع اغفال الحقائق ؟

١٧ — ألا توجد مخاطر فى داخل الدولة الصهيونية تهدد كيانها أكثر من المخاطر الخارجية ؟

١٨ — هل الدعوة الى « اليهودية الروحية » يستحيل تحقيقها ؟

١٩ — هل عنصر الزمن فى صالح اسرائيل باستمرار ؟

٢٠ — هل حققت أسرائيل الحلم الصهيونى(١) ؟

---

(١) 1 — Chertoff : The New Left and the Jews.

2 — A. Leon : The Jewish Question .

3 — J. N. Porter & Dreier : Jewish Radicalism .

4 — U. Avenry : Israel without Zionism.

5 — M. Rodinson : Israel : A Colonial Settler — State .

6 — M. Rodinson : The Myth of Progressive State.

7 — L. Lockwood : Imperialasm and the Israeli Economy.

8 — A. C. Forrest : The Unholy Land.

9 — P. Buch : Burning Issues of the Middle East Crisis.

10 — D. Wainer : The Unholy war.

11 — N. Weinstock, J. Rothschild : The Truth about Zionism and Israel.

12 — Bober : The other Israel.

13 — G. Novack : How can the Jews survive ?

14 — A. Kenen & Elmer Berger, A. Pollack, Ch. Mayhew : A Just Peace in the Middle East, How can it be achieved ?

15 — N. Weinstock : Zionism contre Israel.

16 — A. Ardent : Zionism Reconsidered.

17 — Challiand : The Palastinain Resistance.

لم أشأ وضع اسم الناشر ، وسنة النشر بغية التسهيل . ومعظم هذه النماذج قديمة بعد حرب اكتوبر مباشرة . والنماذج الآن اكثر من ذلك .

فهرس الموضوعات

الدين والنضال الوطنى

لنفس المؤلف

أولا ــ تحقيق وتقديم وتعليق :

١ ــ ابو الحسين البصرى : المعتمد فى أصول الفقه ، جزءان ، المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥ .

٢ــ الحكومة الاسلامية للامام الخمينى ، القاهرة ١٩٧٩ .

٣ ــ جهاد النفس أو الجهاد الاكبر للامام الخمينى ، القاهرة ١٩٨٠ .

ثانيا ــ اعداد واشراف ونشر :

١ ــ اليسار الاسلامى ، كتابات فى النهضة الاسلامية ، العدد الاول ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨١ .

ثالثا ــ ترجمة وتقديم وتعليق :

١ ــ نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغسطين ، الايمان باحثا عن العقل لانسليم ، الوجود والماهية لتوما الاكوينى) ، الطبعة الاولى ، دار الكتب الجامعية ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، الطبعة الثالثة ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .

٢ ــ **اسبينوزا** : رسالة فى اللاهوت والسياسة ، الطبعة الاولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، الطبعة الثالثة ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ .

٣ ــ لسنج : تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .

٤ ــ جان بول سارتر : تعالى الأنا موجود ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢ .

رابعا ــ مؤلفات بالعربية :

١ ــ قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، الطبعة الاولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٧ .

٢ — قضايا معاصرة ، الجزء الثانى ، فى الفكر الغربى المعاصر ، الطبعة الاولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٨ .

٣ — التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، الطبعة الاولى ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ ، الطبعة الثالثة ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٧ .

٤ — دراسات اسلامية ، الطبعة الاولى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢ .

٥ — من العقيدة الى الثورة ، محاولة لاعادة بناء علم أصول الدين ، (خمسة مجلدات) الطبعة الاولى ، مدبولى ، القاهرة ١٩٨٨ . الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٨ .

٦ — دراسات فلسفية ، الطبعة الاولى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٨ .

خامسا — مؤلفات بالفرنسية والانجليزية :

1. Les Méthodes d'Exégèse, essai sur la science des fondements de la Comppéhension, ilm usul al-Fiqh, Le Caire, 1965.
2. L'exégèse de la phénoménologie, l'eat actuel de la méthode phénoménologique et son application au phénomène religieux (Paris, 1965) . Le Caire, 1980.
3. La Phénoménologie de l'Exégèse. essai d'une herméneutique existenielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966), Le Caire, 1988 (sous-press).
4. Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianity and Islam, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1977.
5. Dialogue religieux et Révolution, Vol. II, Anglo-Egyptian Book shop, Le Cairo, (sous-presse) .
6. Islam, Religion, Ideology and Development, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989 (In parint) .

رقم الايداع بدار الكتب

٧٦٤٢ / ٨٨

٩٧٧ — ١٣٣ — ١٠٦ — ×

دار النمر للطباعة

الدين والثورة
في مصر
١٩٥٢ - ١٩٨١

١- الدين والثقافة الوطنية

٢- الدين والتحرر الثقافي

٣- الدين والنضال الوطني

٤- الدين والتنمية القومية

٥- الحركات الدينية المعاصرة

٦- الأصولية الإسلامية

٧- اليمين واليسار في الفكر الديني

٨- اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية

مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة ت : ٧٥٦٤٢١

طبع الغلاف بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢